روضات الجنان

في بيان عظمة ما اقترن من أسماء الملك الديان

الطبعة الأولى

رَوضَاتُ الجِنَان

فِي بَيَانِ عَظَمَةِ مَا اقْتَرَنَ مِنْ أَسْمَاءِ المَلِكِ الدَّيَّان

تأليف

عَبْدِ اللهِ بْنِ صَالِحٍ العُبَيْلَان

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إِنَّ الحَمْدَ لله، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَمَّا بَعْدُ:

فإن العِلمَ بالله أصلُ كل عِلم، وَهُوَ أصل علم العَبْد بسعادته وكماله ومصالح دُنْيَاهُ وآخرته، والجهلُ بِهِ مُسْتَلْزم للجَهْل بِنَفسِهِ ومصالحها وكمالها وَمَا تزكو بِهِ وتفلح بِهِ، فالعلم بِهِ سَعَادَة العَبْد والجهلُ بِهِ أصل شقاوته، فلَا شَيْء أطيبُ للْعَبد وَلَا ألذُّ وَلَا أهنأ وَلَا أنْعم لِقَلْبِهِ وعيشه من محبَّة فاطره وباريه، ودوام ذِكره، والسَّعْي فِي مرضاته، وَهَذَا هُوَ الكَمَال الَّذِي لا كمال للْعَبد بِدُونِهِ، وَله خُلِق الخَلْق، ولأجله نَزل الوَحْي وأُرسلت الرُّسُل وَقَامَت السَّمَوَات والأرض وَوُجدت الجنَّة والنَّار، ولأجله شُرعت الشَّرَائِع، وذلك لا يكون إلا بالعلم؛ العلم بِالله وأسمائه وَصِفَاته وأفعاله وَدينه، حتىٰ قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «جَمِيعُ مَا تَقُولُهُ الأُمَّةُ شَرْحٌ لِلسُّنَّةِ، وَجَمِيعُ السُّنَّةِ شَرْحٌ لِلْقُرْآنِ، وَجَمِيعُ القُرْآنِ شَرْحُ أَسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَىٰ وَصِفَاتِهِ العُلْيَا»(١).

«فالقُرْآن كَلَام الله، وَقد تجلىٰ الله فِيهِ لِعِبَادِهِ بِصِفَاته، فَتَارَة يتجلىٰ فِي الهيبة والعَظَمَة والجلال، فتخضع الأَعْنَاق وتنكسر النُّفُوس وتخشع الأَصْوَات ويذوب الكِبْر كَمَا يذوب المِلح فِي المَاء، وَتارَة يتجلىٰ فِي صِفَات الجمال

(١) «البرهان في علوم القرآن» (١/ ٦).

والكمال، وَهُوَ كَمَال الأَسْمَاء وجمال الصِّفَات وجمال الأَفْعَال الدَّال علىٰ كَمَال الذَّات، فيستنفد حبه من قلب العَبْد قُوَّة الحبِّ كلها بحب مَا عرفه من صِفَات جماله ونعوت كَمَاله، فَيُصْبِح فؤاد عَبده فَارغًا إِلَّا من محبته، فَإِذا أَرَادَ مِنْهُ الغير أن يعلق تِلْكَ المحبَّة بِهِ أَبىٰ قلبه وأحشاؤه ذَلِك كلَّ الإباء، كَمَا قيل:

يُــرَاد مــن القلــب نســيانكم ... وتــأبىٰ الطبــاع علــىٰ النَّاقِــل[1]

فَتبقىٰ المحبَّة لَهُ طبعًا لَا تكلُّفًا، وَإِذا تجلىٰ بِصِفَات الرَّحْمَة والبر واللطف والإِحْسَان انبعثت قُوَّة الرَّجَاء من العَبْد وانبسط أمله وَقوي طمعه وَسَار إِلَىٰ ربه وحادي الرَّجَاء يَحْدُو ركاب سيره، وكلما قوي الرَّجَاء جدَّ فِي العَمَل كَمَا أَن الباذر كلما قوي طمعه فِي المغلِّ غلَّق أرضَه بالبذر، وَإِذا ضعف رجاؤه قصَّر فِي البَذر.

وَإِذا تجلىٰ بِصِفَات العدْل والانتقام وَالغَضَب والسخط والعقوبة انقمعت النَّفس الأمارة وَبَطلَت أَو ضعفت قواها من الشَّهْوَة والغَضَب واللَّهْو واللعب والحرص علىٰ المُحرمَات، وانقبضت أَعِنَّة رعوناتها، فأحضرت المطيَّة حظَّها من الخَوْف والخشية والحذر.

وَإِذا تجلىٰ بِصِفَات الأَمر والنَّهْي والعهد والوَصِيَّة وإرسال الرُّسُل وإنزال الكتب وشرع الشَّرَائِع انبعثت مِنْهَا قُوَّة الِامْتِثَال والتنفيذ لأوامره والتبليغ لَهَا والتواصي بهَا وَذكرهَا وتذكرها والتصديق بالخبر والامتثال للطلب والاجتناب للنَّهْي.

---

(١) البيت للمتنبي في «ديوانه»، وانظر: «شرح ديوان المتنبي» للواحدي (ص١٩٩).

وَإِذا تجلىٰ بِصفة السَّمع والبَصَر والعلم انْبَعَثَ من العَبْد قُوَّة الحيَاء فيستحي ربَّه أَن يرَاهُ علىٰ مَا يكره، أَو يسمع مِنْهُ مَا يكره، أَو يُخفي فِي سَرِيرَته مَا يمقته عَلَيْهِ، فَتبقىٰ حركاته وأقواله وخواطره موزونة بميزان الشَّرْع غير مُهْملَة وَلَا مُرْسلَة تَحت حكم الطبيعة والهوىٰ.

وَإِذا تجلىٰ بِصِفَات الكِفَايَة والحسب والقِيَام بمصالح العباد وسَوْق أَرْزَاقهم إِلَيْهِم وَدفعِ المصائب عَنْهُم وَنَصره لأوليائه وحمايته لَهُم ومعيَّته الخَاصَّة لَهُم انبعثت من العَبْد قُوَّة التَّوَكُّل عَلَيْهِ والتفويض إِلَيْهِ والرِّضَا بِهِ، وَمَا فِي كل مَا يجريه علىٰ عَبده ويقيمه فيه مِمَّا يرضىٰ بِهِ هُوَ سُبْحَانَهُ، والتوكل معنًىٰ يلتئم مِن عِلم العَبْد بكفاية الله وَحُسن اخْتِيَاره لعَبْدِهِ وثقته بِهِ وَرضَاهُ بِمَا يَفْعَله بِهِ ويختاره لَهُ.

وَإِذا تجلىٰ بِصِفَات العِزِّ والكبرياء أَعْطَتْ نَفسه المطمئنة مَا وصلت إِلَيْهِ من الذل لعظمته والانكسار لعزته والخضوع لكبريائه وخشوع القلب والجوارح لَهُ، فتعلوه السكينَة والوَقار فِي قلبه وَلسَانه وجوارحه وسَمْته، وَيذْهب طيشه وقوته وحدَّته.

وجماع ذَلِك: أَنه سُبْحَانَهُ يتعرف إِلَىٰ العَبْد بِصِفَات إلهيته تارَّة وبصفات ربوبيته تَارَة، فَيُوجب لَهُ شُهُود صِفَات الإلهية المحبَّة الخَاصَّة والشوق إِلَىٰ لِقَائِه والأنس والفرح بِهِ والسُّرُور بخدمته والمنافسة فِي قربه والتودد إِلَيْهِ بطَاعَتِهِ واللهج بِذكرِهِ والفرار من الخلق إِلَيْهِ، وَيصير هُوَ وَحده همَّه دون مَا سواهُ، وَيُوجب لَهُ شُهُود صِفَات الربوبية التَّوَكُّل عَلَيْهِ والافتقار إِلَيْهِ والاستعانة بِهِ والذلّ والخضوع والانكسار لَهُ، وَكَمَالُ ذَلِك أَن يشْهد ربوبيته فِي إلهيته وإلهيته

فِي ربوبيته، وحمده فِي ملكه وعزه فِي عَفوه، وحكمته فِي قَضَائِهِ وَقدره، وَنعمته فِي بلائه، وعطاءه فِي مَنعه، وبره ولطفه وإحسانه وَرَحمته فِي قيوميته، وعدله فِي انتقامه، وجوده وَكَرمه فِي مغفرته وستره وتجاوزه، وَيشْهد حكمته وَنعمته فِي أمره وَنَهْيه، وعزه فِي رِضَاهُ، وغضبه وحلمه فِي إمهاله، وَكَرمه فِي إقباله، وغناه فِي إعراضه.

وأنت إِذا تدبرت القُرْآن وأجَرْتَه من التحريف، وَأَن تقضي عليه بآراء المُتَكَلِّمين وأفكار المتكلفين أشهدك مَلِكًا قيومًا فَوق سماواته علىٰ عَرْشه يدبر أَمر عباده يَأْمر وَيَنْهىٰ، وَيُرْسل الرُّسُل وَينزل الكتب، ويرضىٰ ويغضب، ويثيب ويعاقب، وَيُعْطِي وَيمْنَع، ويعز ويذل، ويخفض وَيرْفَع، يرىٰ من فَوق سبع، ويسمع ويعلم السِّرَّ والعَلَانِيَة، فعَّال لما يُرِيد، مَوْصُوف بِكُل كَمَال، منزَّه عَن كلِّ عيب، لَا تتحرك ذرَّةٌ فَمَا فَوْقهَا إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا تسْقط ورقة إِلَّا بِعِلْمِهِ، وَلَا يشفع أحد عِنْده إِلَّا بِإِذْنِهِ، لَيْسَ لِعِبَادِهِ من دونه ولي وَلَا شَفِيع»(١).

«فَلَهُ فِي كُلِّ مَا قَضَاهُ وَقَدَّرَهُ الحِكْمَةُ البَالِغَةُ، والآيَاتُ البَاهِرَةُ، والتَّعَرُّفَاتُ إِلَىٰ عِبَادِهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَاسْتِدْعَاءُ مَحَبَّتِهِمْ لَهُ، وَذِكْرِهِمْ لَهُ، وَشُكْرِهِمْ لَهُ، وَتَعَبُّدِهِمْ لَهُ بِأَسْمَائِهِ الحُسْنَىٰ، إِذْ كُلُّ اسْمٍ فَلَهُ تَعَبُّدٌ مُخْتَصٌّ بِهِ، عِلْمًا وَمَعْرِفَةً وَحَالًا، وَأَكْمَلُ النَّاسِ عُبُودِيَّةً المُتَعَبِّدُ بِجَمِيعِ الأَسْمَاءِ والصِّفَاتِ الَّتِي يَطَّلِعُ عَلَيْهَا البَشَرُ، فَلَا تَحْجُبُهُ عُبُودِيَّةُ اسْمٍ عَنْ عُبُودِيَّةِ اسْمٍ آخَرَ، كَمَنْ يَحْجُبُهُ التَّعَبُّدُ بِاسْمِهِ القَدِيرِ عَنِ التَّعَبُّدِ بِاسْمِهِ الحَلِيمِ الرَّحِيمِ، أَوْ يَحْجُبُهُ عُبُودِيَّةُ اسْمِهِ المُعْطِي

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص: ٧١).

عَنْ عُبُودِيَّةِ اسْمِهِ المَانِعِ، أَوْ عُبُودِيَّةُ اسْمِهِ الرَّحِيمِ والعَفُوِّ والغَفُورِ عَنِ اسْمِهِ المُنْتَقِمِ، أَوِ التَّعَبُّدُ بِأَسْمَاءِ التَّوَدُّدِ، والبِرِّ، واللُّطْفِ، والإِحْسَانِ عَنْ أَسْمَاءِ العَدْلِ، والجَبَرُوتِ، والعَظَمَةِ، والكِبْرِيَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الكُمَّلِ مِنَ السَّائِرِينَ إِلَىٰ اللهِ، وَهِيَ طَرِيقَةٌ مُشْتَقَّةٌ مِنْ قَلْبِ القُرْآنِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، والدُّعَاءُ بِهَا يَتَنَاوَلُ دُعَاءَ المَسْأَلَةِ، وَدُعَاءَ الثَّنَاءِ، وَدُعَاءَ التَّعَبُّدِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَدْعُو عِبَادَهُ إِلَىٰ أَنْ يَعْرِفُوهُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَيُثْنُوا عَلَيْهِ بِهَا، وَيَأْخُذُوا بِحَظِّهِمْ مِنْ عُبُودِيَّتِهَا. وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ مُوجَبَ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ»(١).

وجُلُّ مَن تكلموا في الأسماء والصفات حصروا جهدَهم في دائرة الأسماء المفردة ووقفوا عندها، ولم يُعنوا بأسرار الأسماء المركَّبة.

وقد أمر الله بمعرفتها والعلم بها في آيات كثيرة، منها قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾ [البقرة:٢٠٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة: ٣٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنفال: ٤٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ [البقرة: ٢٤٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ [البقرة: ٢٦٧].

---

(١) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (١/ ٤٢٠).

لذا استعنتُ بالله وتتبَّعتُها من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجمعتُ كلام أهل العلم في بيانها وتفسيرها.

وليس مقصودي تحديد الأسماء، وإنما بيان كمال عظمة الله في ملكه وملكوته وجلاله وجبروته فيما تمدَّح به نفسَه، «فهو أكبر في علمه من كل عالِم، وفي قدرته من كل قادر، وفي وجوده من كل جواد، وفي غناه من كل غني، وفي علوه من كل عالٍ، وفي رحمته من كل رحيم، استوىٰ علىٰ عرشه واستولىٰ علىٰ خلقه، متفرد بتدبير مملكته، فلا قبض ولا بسط ولا منع ولا ضلال ولا سعادة ولا شقاوة ولا موت ولا حياة ولا نفع ولا ضر إلا بيده، لا مالك غيره ولا مدبر سواه، لا يستقل أحد معه بمِلك مثقال ذرة في السماوات والأرض، ولا له شَرِكة في ملكها، ولا يحتاج إلىٰ وزير ولا ظهير ولا معين، ولا يغيب فيخلفه غيره، ولا يعي فيعينه سواه، ولا يتقدم أحد بالشفاعة بين يديه إلا من بعد إذنه لمن شاء وفيمن شاء»[(١)].

وسميته: «**روضات الجنان في بيان عظمة ما اقترن من أسماء الملك الديان**»، وفرغت منه يوم الخميس الموافق للعشرين من رمضان لعام ثلاثة وأربعين وأربعمائة وألف لهجرة نبينا ورسولنا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والله أسال أن ينفعني به ومن قرأه أو سمعه أو بلغه إنه قريب مجيب، والحمد لله رب العالمين.

❁ ❁ ❁

---

(١) «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» (ص: ١٠٩).

هو الأول والآخر والظاهر والباطن

قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٣﴾ [الحديد: ٣].

وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ المَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ**»، رواه البخاري[(١)]، وَفِي رِوَايَةٍ لَهُ: «**كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ المَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ**»[(٢)]، وَفِي رِوَايَةٍ لِغَيْرِهِ صَحِيحَةٍ: «**كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مَعَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ المَاءِ، ثُمَّ كَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ**»[(٣)]، وَثَبَتَ فِي «صحيح مسلم»، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ المَاءِ**»[(٤)].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا أوىٰ إلىٰ فراشه قال: «**اللهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الأَرْضِ وَرَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الحَبِّ وَالنَّوَىٰ، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ،**

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٩١) من حديث عمران بن حصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤١٨) من حديث عمران بن حصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٦/ ٢٨٩).

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الفَقْرِ»(١).

«قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ رَبِّهِ، حَدَّثَنَا بَقِيَّةُ بْنُ الوَلِيدِ، حَدَّثَنِي بَحِيرُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَان، عن ابن أَبِي بِلَالٍ، عَنْ عِرْبَاض بْنِ سَارِيَةَ، أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقْرَأُ المُسَبِّحَاتِ قَبْلَ أَنْ يَرْقُدَ، وَقَالَ: «إِنَّ فِيهِنَّ آيَةً أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ آيَةٍ».

وهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، والتِّرْمِذِيُّ، والنَّسَائِيُّ، مِنْ طُرُقٍ عَنْ بَقِيَّةَ، بِهِ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ(٢). والآيَةُ المُشَارُ إِلَيْهَا فِي الحَدِيثِ هِيَ -وَاللهُ أَعْلَمُ- قَوْلُهُ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٣]»(٣).

«فعبوديته باسمه الأول تقتضي التجرد من مطالعة الأسباب والوقوف أو الالتفات إليها، وتجريد النظر إلىٰ مجرد سبق فضله ورحمته، وأنه هو المبتدئ بالإحسان من غير وسيلة من العبد؛ إذ لا وسيلة له في العدم قبل وجوده، وأيُّ وسيلة كانت هناك، وإنما هو عدم محض، وقد أتىٰ عليه حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا، فمنه سبحانه الإعداد ومنه الإمداد، وفضله سابق علىٰ الوسائل، والوسائل من مجرد فضله وجوده لم تكن بوسائل أخرىٰ، فمن نزل اسمه الأول علىٰ هذا المعنىٰ أوجب له فقرًا خاصًّا وعبودية خاصة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٢٠٠)، وأبو داود (٥٠٥٧)، والترمذي (٢٩٢١)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٧٩٧٢).

(٣) «تفسير ابن كثير» ت: سلامة (٧/ ٥).

وعبوديته باسمه الآخر تقتضي -أيضًا- عدم ركونه ووثوقه بالأسباب والوقوف معها، فإنها تنعدم لا محالة وتنقضي بالآخرية، ويبقىٰ الدائم الباقي بعدها، فالتعلق بها تعلق بعدم وينقضي، والتعلق بالآخر سبحانه تعلق بالحي الذي لا يموت ولا يزول، فالمتعلق به حقيق أن لا يزول ولا ينقطع، بخلاف التعلق بغيره مما له آخر يفنىٰ به، كذا نظر العارف إليه بسبق الأولية حيث كان قبل الأسباب كلها، وكذلك نظره إليه ببقاء الآخرية حيث يبقىٰ بعد الأسباب كلها، فكان الله ولم يكن شيء غيره، وكل شيء هالك إلا وجهه.

فتأمل عبودية هذين الاسمين وما يوجبانه من صحة الاضطرار إلىٰ الله وحده، ودوام الفقر إليه دون كل شيء سواه، وأن الأمر ابتدأ منه وإليه يرجع، فهو المبتدئ بالفضل حيث لا سبب ولا وسيلة، وإليه تنتهي الأسباب والوسائل، فهو أول كل شيء وآخره، وكما أنه رب كل شيء وفاعله وخالقه وبارئه فهو إلهه وغايته التي لا صلاح له ولا فلاح ولا كمال إلا بأن يكون وحده غايته ونهايته ومقصوده، فهو الأول الذي ابتدأت منه المخلوقات، والآخر الذي انتهت إليه عبوديتها وإرادتها ومحبتها، فليس وراء الله شيء يقصد ويعبد ويتأله، كما أنه ليس قبله شيء يخلق ويبرأ، فكما كان واحدًا في إيجادك فاجعله واحدًا في تألهك إليه لتصح عبوديتك، وكما ابتدأ وجودك وخلقك منه فاجعله نهاية حبك وإرادتك وتألهك إليه لتصح لك عبوديته باسمه الأول والآخر، وأكثر الخلق تعبدوا له باسمه الأول، وإنما الشأن في التعبد له باسمه الآخِر، فهذه عبودية الرسل وأتباعهم، فهو رب العالمين وإله المرسلين سبحانه وبحمده.

وأما عبوديته باسمه الظاهر فكما فسره النبي بقوله: «**وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**»(١)، فإذا تحقق العبد علوه المطلق علىٰ كل شيء بذاته وأنه ليس فوقه شيء البتة وأنه قاهر فوق عباده يدبر الأمر من السماء إلىٰ الأرض ثم يعرج إليه ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، صار لقلبه أَملًا يقصده، وربًّا يعبده، وإلهًا يتوجه إليه، بخلاف من لا يدري أين ربه.

والمقصود أن التعبد باسمه الظاهر يجمع القلب علىٰ المعبود ويجعل له ربًّا يقصده، وصمدًا يصمد إليه في حوائجه، وملجأ يلجأ إليه، فإذا استقر ذلك في قلبه وعرف ربه باسمه الظاهر استقامت له عبوديته، وصار له معقل وموئل يلجأ إليه ويهرب إليه ويفر كل وقت إليه.

وأما تعبده باسمه الباطن فأمر يضيق نطاق التعبير عن حقيقته، ويكِلُّ اللسان عن وصفه، وتصطلم الإشارة إليه، وتجفو العبارة عنه، فإنه يستلزم معرفة بريئة من شوائب التعطيل، مخلَّصة من فرث التشبيه، منزَّهة عن رجس الحلول والاتحاد، وعبارة مؤدية للمعنىٰ كاشفة عنه، وذوقًا صحيحًا سليمًا من أذواق أهل الانحراف، فمن رُزق هذا فهِم معنىٰ اسمه الباطن وصح له التعبد به.

وباب هذه المعرفة والتعبد هو معرفة إحاطة الرب سبحانه بالعالَم وعظمته، وأن العوالم كلها في قبضته، وأن السموات السبع والأرضين السبع في يده كخردلة في يد العبد، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ [الإسراء:٦٠]،

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣)، وقد سبق.

وقال: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾﴾ [البروج: ٢٠]، ولهذا يقرن سبحانه بين هذين الاسمين الدالين علىٰ هذين المعنيين؛ اسم العلو الدال علىٰ أنه الظاهر وأنه لا شيء فوقه، واسم العظمة الدال علىٰ الإحاطة وأنه لا شيء دونه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٣]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [البقرة: ١١٥].

وهو تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كما أنه العالي علىٰ خلقه بذاته فليس فوقه شيء، فهو الباطن بذاته فليس دونه شيء، بل ظهر علىٰ كل شيء فكان فوقه، وبطن فكان أقرب إلىٰ كل شيء من نفسه، وهو محيط به حيث لا يحيط الشيء بنفسه»(١).

وقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]: قَدَّمَ مَحَبَّتَهُ لَهُمْ عَلَىٰ مَحَبَّتِهِمْ لَهُ، فلَوْلَا أَنَّ الله أَحَبَّهُمْ وَإِلَّا لَمَا وَفَّقَهُمْ حَتَّىٰ صَارُوا مُحِبِّينَ لَهُ.

«**المَشْهَدُ الحَادِيَ عَشَرَ**: مَشْهَدُ التَّوْحِيدِ وَهُوَ أَجَلُّ المَشَاهِدِ وَأَرْفَعُهَا. فَإِذَا امْتَلَأَ قَلْبُهُ بِمَحَبَّةِ اللهِ، والإِخْلَاصِ لَهُ وَمُعَامَلَتِهِ، وَإِيثَارِ مَرْضَاتِهِ، والتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ، وَقُرَّةِ العَيْنِ بِهِ، والأُنْسِ بِهِ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ. وَسَكَنَ إِلَيْهِ. وَاشْتَاقَ إِلَىٰ لِقَائِهِ، وَاتَّخَذَهُ وَلِيًّا دُونَ مَنْ سِوَاهُ، بِحَيْثُ فَوَّضَ إِلَيْهِ أُمُورَهُ كُلَّهَا. وَرَضِيَ بِهِ وَبِأَقْضِيَتِهِ. وَفَنِيَ بِحُبِّهِ وَخَوْفِهِ وَرَجَائِهِ وَذِكْرِهِ والتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ: فَإِنَّهُ لَا يَبْقَىٰ فِي قَلْبِهِ مُتَّسَعٌ لِشُهُودِ أَذَىٰ النَّاسِ لَهُ أَلْبَتَّةَ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَشْتَغِلَ قَلْبُهُ وَفِكْرُهُ وَسِرُّهُ بِتَطَلُّبِ الِانْتِقَامِ والمُقَابَلَةِ. فَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ قَلْبٍ لَيْسَ فِيهِ مَا يُغْنِيهِ عَنْ ذَلِكَ وَيُعَوِّضُهُ

(١) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» لابن القيم (ص١٩ – ٢٢) ط: دار السلفية، القاهرة.

مِنْهُ. فَهُوَ قَلْبٌ جَائِعٌ غَيْرُ شَبْعَانَ. فَإِذَا رَأَىٰ أَيَّ طَعَامٍ رَآهُ هَفَتْ إِلَيْهِ نَوَازِعُهُ. وَانْبَعَثَتْ إِلَيْهِ دَوَاعِيهِ. وَأَمَّا مَنِ امْتَلَأَ قَلْبُهُ بِأَعْلَىٰ الأَغْذِيَةِ وَأَشْرَفِهَا: فَإِنَّهُ لَا يَلْتَفِتُ إِلَىٰ مَا دُونَهَا. وَذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ. واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ»(١).

ويتوسل به في الاستعاذة من شر ما يحيط به زمانًا أو مكانًا، فيقول: أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء.

❁ ❁ ❁

الحي القيوم

قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢﴾ [آل عمران: ٢].

أخرج أَحْمد واللَّفْظ لَهُ وَمُسلم وَأَبُو دَاوُد عَن أُبَي بن كَعْب، أن النَّبِي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَهُ: «**أَيُّ آيَة فِي كتاب الله أعظم؟**» قَالَ: آيَة الكُرْسِيِّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، قَالَ: «**لِيَهْنِكَ العِلْمُ أَبَا المُنْذِرِ**»(٢).

(١) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (٢/ ٣٠٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٣١٥)، ومسلم (٨١٠)، وأبو داود (١٤٦٠).

وَأخرج الطَّبَرَانِيُّ فِي «السُّنة» عَن ابْن عَبَّاس: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة:٢٥٥]: يُرِيد الَّذِي لَيْسَ مَعَه شريك، فَكل معبود من دونه فَهُوَ خلْق من خلقه، لَا يضرون وَلَا ينفعون، وَلَا يملكُونَ رزقًا وَلَا حَيَاة وَلَا نشورًا: ﴿ٱلْحَىُّ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، يُرِيد الَّذِي لَا يَمُوت[(١)].

وَأخرج آدم ابْن أبي إياس وَابْن جرير والبَيْهَقِيُّ فِي «الأَسْمَاء والصِّفَات» عَن مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، قَالَ: القَائِم علىٰ كل شَيْء[(٢)]، وَأخرج ابْن أبي حَاتِم عن الحسن قَالَ: ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، الَّذِي لَا زَوَال لَهُ[(٣)]. وَأخرج ابْن جرير وَابْن أبي حَاتِم عَن الرَّبيع فِي قَوْله: ﴿ٱلْحَىُّ﴾ [البقرة:٢٥٥]، قَالَ: حَيٌّ لَا يَمُوت[(٤)].

وعليهما مدار الأسماء الحسنىٰ كلها، وإليهما مرجع معانيها جميعها، فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال، ولا يتخلف عنها صفة منها إلا لضعف الحياة، فإذا كانت حياته تعالىٰ أكمل حياة وأتمها استلزم إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفي كمال الحياة.

والقيوم، فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته، فإنه القائم بنفسه لا يحتاج إلىٰ مَن يقيمه بوجه من الوجوه، وهذا من كمال غناه بنفسه عما سواه، وهو

(١) «الدر المنثور» للسيوطي (٢/ ١٩).
(٢) أخرجه الطبري (٥/ ٣٨٨) (٥٧٦٥)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٧٦).
(٣) «تفسير ابن أبي حاتم» (٢/ ٥٨٦) (٣١٣٠).
(٤) «تفسير الطبري» (٥/ ٣٨٧) (٥٧٦٣)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٢/ ٤٨٦) (٢٥٧١).

المقيم لغيره، فلا قيام لغيره إلا بإقامته، وهذا من كمال قدرته وعزته، وكان رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول إذا أصبح وإذا أمسىٰ: «**اللَّهُمَّ بِكَ أَصْبَحْنَا وَبِكَ أَمْسَيْنَا وَبِكَ نَحْيَا وَبِكَ نَمُوتُ وَإِلَيْكَ المَصِيرُ**»، رواه أحمد وأهل السنن بإسناد صحيح(١).

وكَوْنُهُ قَيُّومًا بِمَعْنَىٰ كَوْنِهِ مُقَوِّمًا لِغَيْرِهِ، يَقْتَضِي حُدُوثَ كُلِّ مَا سِوَاهُ جِسْمًا كَانَ أَوْ رُوحًا، عَقْلًا كَانَ أَوْ نَفْسًا، وَيَقْتَضِي اسْتِنَادَ الكُلِّ إِلَيْهِ وَانْتِهَاءَ جُمْلَةِ الأَسْبَابِ والمُسَبَّبَاتِ إِلَيْهِ، فَإِنَّ الحَيَّ هُوَ الدَّرَّاكُ الفَعَّالُ، فَبِقَوْلِهِ: (الحَيُّ) دَلَّ عَلَىٰ كَوْنِهِ عَالِمًا قَادِرًا، وَبِقَوْلِهِ: (القَيُّومُ) دَلَّ عَلَىٰ كَوْنِهِ قَائِمًا بِذَاتِهِ وَمُقَوِّمًا لِكُلِّ مَا عَدَاهُ، فانتظم هذان الاسمان صفات الكمال والغنىٰ التام والقدرة التامة، فكأن المستغيث بهما مستغيث بكل اسم من أسماء الرب تعالىٰ وبكل صفة من صفاته، فما أولىٰ الاستغاثة بهذين الاسمين أن يكونا في مَظِنَّة تفريج الكُربات وإغاثة اللهفات وإنالة الطلبات.

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَىٰ لَمَّا بَيَّنَ أَنَّهُ حَيٌّ قَيُّومٌ أَكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، والمَعْنَىٰ: أَنَّهُ لَا يَغْفُلُ عَنْ تَدْبِيرِ الخَلْقِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ قَيِّمُ جَمِيعِ المُحْدَثَاتِ، وَقَيُّومُهَا، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَغْفُلَ عَنْ تَدْبِيرِهِمْ، فَنَفْيُ أَخْذِ السِّنَةِ والنَّوْمِ يَتَضَمَّنُ كَمَالَ حَيَاتِهِ وَقَيُّومِيَّتِهِ، إِذِ النَّوْمُ أَخُو المَوْتِ، فَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، كَالتَّأْكِيدِ لِبَيَانِ كَوْنِهِ تَعَالَىٰ قَائِمًا، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَىٰ لَمَّا بَيَّنَ كَوْنَهُ

---

(١) أخرجه أحمد (٨٦٣٤)، وأبو داود (٥٠٦٨)، والترمذي (٣٣٩١)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٩٧٥٢)، وابن ماجه (٣٨٦٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وصححه الألباني.

قَيُّومًا بِمَعْنَىٰ كَوْنِهِ قَائِمًا بِذَاتِهِ، مُقَوِّمًا لِغَيْرِهِ، رَتَّبَ عَلَيْهِ حُكْمًا وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٥٥]، لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ كُلُّ مَا سِوَاهُ إِنَّمَا تَقَوَّمَتْ مَاهِيَّتُهُ، وَإِنَّمَا يَحْصُلُ وُجُودُهُ بِتَقْوِيمِهِ وَتَكْوِينِهِ وَتَخْلِيقِهِ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ مَا سِوَاهُ مُلْكًا لَهُ وَمِلْكًا لَهُ، وَهُوَ المُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٥٥].

ثُمَّ لَمَّا ثَبَتَ أَنَّهُ هُوَ المَلِكُ والمَالِكُ لِكُلِّ مَا سِوَاهُ، ثَبَتَ أَنَّ حُكْمَهُ فِي الكُلِّ جَارٍ، لَيْسَ لِغَيْرِهِ فِي شَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ حُكْمٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَأَمْرِهِ، وَهُوَ المُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وهذا يتضمن كمال قدرته وخلقه وربوبيته وأن غيره لا يؤثر فيه بوجه من الوجوه كما يؤثر في المخلوقين مَن يشفع عندهم فيحملهم علىٰ الفعل بعد أن لم يكونوا فاعلين، ثُمَّ لَمَّا بَيَّنَ أَنَّهُ يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِ مَالِكًا لِلْكُلِّ، أَنْ لَا يَكُونَ لِغَيْرِهِ فِي مُلْكِهِ تَصَرُّفٌ بِوَجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ، بَيَّنَ -أَيْضًا- أَنَّهُ يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِ عَالِمًا بِالكُلِّ وَكَوْنِ غَيْرِهِ غَيْرَ عَالِمٍ بالكُلِّ، أَنْ لَا يَكُونَ لِغَيْرِهِ فِي مُلْكِهِ تَصَرُّفٌ بِوَجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَىٰ كَوْنِهِ سُبْحَانَهُ عَالِمًا بِالكُلِّ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَىٰ كَوْنِ غَيْرِهِ غَيْرَ عَالِمٍ بِجَمِيعِ المَعْلُومَاتِ، فَهُوَ العَالِمُ بِالمَعْلُومَاتِ، وَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ شَيْئًا إِلَّا بِتَعْلِيمِهِ كَمَا قَالَتِ المَلَائِكَةُ: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣٢]، ثُمَّ إِنَّهُ لما بيَّن كمال ملكه وحكمه في السموات وَفِي الأَرْضِ، بَيَّنَ أَنَّ مُلْكَهُ فِيمَا وَرَاءَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ أَعْظَمُ وَأَجَلُّ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا لَا تَصِلُ إِلَيْهِ أَوْهَامُ المُتَوَهِّمِينَ وَيَنْقَطِعُ دُونَ الارتقاء إلىٰ أدنىٰ درجة من درجاتها المُتَخَيِّلِينَ،

فَقَالَ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ نَفَاذَ حُكْمِهِ وَمُلْكِهِ فِي الكُلِّ عَلَىٰ نَعْتٍ وَاحِدٍ، وَصُورَةٍ وَاحِدَةٍ، فَقَالَ: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة:٢٥٥]، أَيْ: لَا يَكْرُثُهُ وَلَا يَثْقُلُ عَلَيْهِ، فَبَيَّنَ بِذَلِك كَمَالَ قُدْرَتِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَلْحَقُهُ أَدْنَىٰ مَشَقَّةٍ، وَلَا أَيْسَرُ كُلْفَةٍ فِي حِفْظِ المَخْلُوقَاتِ، كَمَا قَالَ -تَعَالَىٰ- فِي الآيَةِ الأُخْرَىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق:٣٨]. بَيَّنَ بِذَلِك كَمَالَ قُدْرَتِهِ وَأَنَّهُ لَا يَلْحَقُهُ اللُّغُوبُ فِي الأَعْمَالِ العَظِيمَةِ مِثْلِ خَلْقِهِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ، كَمَا يَلْحَقُ المَخْلُوقَ اللُّغُوبُ إِذَا عَمِلَ عَمَلًا عَظِيمًا، واللُّغُوبُ: الِانْقِطَاعُ والإِعْيَاءُ.

ثُمَّ لَمَّا بَيَّنَ كَوْنَهُ قَيُّومًا بِمَعْنَىٰ كَوْنِهِ مُقَوِّمًا لِلْمُحْدَثَاتِ والمُمْكِنَاتِ والمَخْلُوقَاتِ، بَيَّنَ كَوْنَهُ قَيُّومًا بِمَعْنَىٰ قَائِمًا بِنَفْسِهِ وَذَاتِهِ، مُنَزَّهًا عَنِ الِاحْتِيَاجِ إِلَىٰ غَيْرِهِ فِي أَمْرٍ مِنَ الأُمُورِ، فَقَالَ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة:٢٥٥]، فَالمُرَادُ مِنْهُ عُلُوَّ الذَّاتِ وَعُلُوَّ الصِّفَاتِ وَعُلُوَّ القَهْرِ والغَلَبَةِ، وإِشَارَةً إِلَىٰ مَا بَدَأَ بِهِ فِي الآيَةِ مِنْ كَوْنِهِ قَيُّومًا بِمَعْنَىٰ كَوْنِهِ قَائِمًا بِذَاتِهِ مُقَوِّمًا لِغَيْرِهِ.

وَفِي «جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا أَهَمَّهُ الأَمْرُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فِي الدُّعَاءِ، قَالَ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ»(١).

وَفِيهِ -أَيْضًا- مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ قَالَ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ»(٢).

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٣٦).
(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٢٤).

وَفِي «صَحِيحِ الحَاكِمِ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**اسْمُ اللهِ الأَعْظَمُ فِي ثَلَاثِ سُوَرٍ مِنَ القُرْآنِ: البَقَرَةِ، وَآلِ عِمْرَانَ، وَطَهَ**»، قَالَ القَاسِمُ: فَالتَمَسْتُهَا فَإِذَا هِيَ آيَةُ: (الحَيُّ القَيُّومُ)»(١).

«وَمِنْ تَجْرِيبَاتِ السَّالِكِينَ الَّتِي جَرَّبُوهَا فَأَلْفَوْهَا صَحِيحَةً: أَنَّ مَنْ أَدْمَنَ (يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ) أَوْرَثَهُ ذَلِكَ حَيَاةَ القَلْبِ والعَقْلِ.

وَكَانَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ- شَدِيدَ اللَّهْجِ بِهَا جِدًّا، وَقَالَ لِي يَوْمًا: لِهَذَيْنِ الِاسْمَيْنِ -وَهُمَا الحَيُّ القَيُّومُ- تَأْثِيرٌ عَظِيمٌ فِي حَيَاةِ القَلْبِ، وَكَانَ يُشِيرُ إِلَىٰ أَنَّهُمَا الِاسْمُ الأَعْظَمُ»(٢).

«وكذلك إذا شهد مشهد القيومية الجامع لصفات الأفعال وأنه قائم علىٰ كل شيء، وقائم علىٰ كل نفس بما كسبت، وأنه تعالىٰ هو القائم بنفسه المقيم لغيره القائم عليه بتدبيره وربوبيته وقهره وإيصال جزاء المحسن إليه وجزاء المسيء إليه، وأنه بكمال قيوميته لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل، لا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يضل ولا ينسىٰ. وهذا المشهد من أرفع مشاهد العارفين، وهو مشهد الربوبية.

وأعلىٰ منه مشهد الإلهية الذي هو مشهد الرسل وأتباعهم الحنفاء، وهو شهادة أن لا إله إلا هو، وأن إلهية ما سواه باطل ومحال، كما أن ربوبية ما سواه

(١) أخرجه الحاكم (١٨٦١).

(٢) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (١/ ٤٤٦).

كذلك فلا أحد سواه يستحق أن يؤلَّه ويعبد، ويُصلَّىٰ له ويُسجد، ويستحق نهاية الحب مع نهاية الذل لكمال أسمائه وصفاته وأفعاله، فهو المطاع وحده علىٰ الحقيقة، والمألوه وحده، وله الحكم وحده، فكل عبودية لغيره باطلة وعناء وضلال، وكل محبة لغيره عذاب لصاحبها، وكل غنىٰ لغيره فقر وفاقة، وكل عز بغيره ذل وصغار، وكل تكثر بغيره قلة وذلة، فكما استحال أن يكون للخلق رب غيره فكذلك استحال أن يكون لهم إله غيره، فهو الذي انتهت إليه الرغبات وتوجهت نحوه الطلبات، ويستحيل أن يكون معه إله آخر، فإن الإله علىٰ الحقيقة هو الغنىٰ الصمد الكامل في أسمائه وصفاته الذي حاجة كل أحدٍ إليه ولا حاجة به إلىٰ أحد، وقيام كل شيء به وليس قيامه بغيره»(١).

❁ ❁ ❁

رب العرش العظيم

قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [هود:٧].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۖ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧﴾ [غافر:٧].

(١) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ٤٤).

«وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُتَمَدِّحٌ بِأَنَّهُ ذُو العَرْشِ، كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء:٤٢]، وقوله تعالَىٰ: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر:١٥-١٦]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج:١٤-١٦]، وَقَدْ قُرِئَ: ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ بِالرَّفْعِ صِفَةً لِلَّهِ، وَقُرِئَ بالخفض صفة للعرش. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [المؤمنون:٨٦-٨٧]، فَوَصَفَ العَرْشَ بِأَنَّهُ مَجِيدٌ وَأَنَّهُ عَظِيمٌ، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون:١١٦]، فَوَصَفَهُ بِأَنَّهُ كَرِيمٌ أَيْضًا.

وَكَذَلِكَ فِي «الصحيحين» عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الكَرْبِ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ**»(١)، فَوَصَفَهُ فِي الحَدِيثِ بِأَنَّهُ عَظِيمٌ، وَكَرِيمٌ أَيْضًا»(٢).

«فَالأَخْبَارُ تَدُلُّ عَلَىٰ مُبَايَنَتِهِ لِغَيْرِهِ مِنَ المَخْلُوقَاتِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ نِسْبَتُهُ إِلَىٰ بَعْضِهَا كَنِسْبَةِ بَعْضِهَا إِلَىٰ بَعْضٍ»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٤٥)، ومسلم (٢٧٣٠).

(٢) «الرسالة العرشية» (ص: ٨).

(٣) «الرسالة العرشية» (ص: ٧).

«وَفِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ المَشْهُورِ قَالَ: قُلْت: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّمَا أُنْزِلَ عَلَيْك أَعْظَمُ؟ قَالَ: «**آيَةُ الكُرْسِيِّ**» ثُمَّ قَالَ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الكُرْسِيِّ إلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، وَفَضْلُ العَرْشِ عَلَىٰ الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الفَلَاةِ عَلَىٰ الحَلْقَةِ**»، والحَدِيثُ لَهُ طُرُقٌ، وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو حَاتِمِ بْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ»، وَأَحْمَد فِي «المُسْنَدِ» وَغَيْرُهُمَا[(١)]»[(٢)].

وَفِي «صحيح البخاري» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَآتَىٰ الزَّكَاةَ وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقًّا عَلَىٰ اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا**». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نُبَشِّرُ النَّاسَ بِذَلِكَ؟ قَالَ: «**إنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ، وَأَعْلَىٰ الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ**»[(٣)].

وقوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء:٤٢].

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣٦١) في حديث طويل، وأحمد (٢١٥٨٦) مقتصرًا علىٰ فضل آية الكرسي، وهذا القدر المذكور من الحديث صححه الألباني كما في «الصحيحة» (١٠٩).

(٢) «الرسالة العرشية» (ص: ١٣).

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٩٠).

أخرج عبد الرَّزَّاق وَابْن جرير وَابْن المُنْذر وَابْن أبي حَاتِم عَن قَتَادَة رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي قَوْله: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ﴾ [الإسراء:٤٢]، الآيَة. يَقُول: ﴿لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ﴾ إِذًا لعرفوا فَضله ومزيته عَلَيْهِم فابتغوا مَا يقربهُمْ إِلَيْهِ إِنَّهُم لَيْسَ كَمَا يَقُولُونَ»[(١)].

والمعنىٰ: لابتغوا إليه سبيلًا بالتقرب إليه وطاعته.

«ولهذا قال في الآية الأخرىٰ: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ۝٤٢﴾ [الإسراء:٤٢]، فهم كانوا يقولون: إنهم وسائل ووسائط وشفعاء لم يكونوا يقولون: إنهم يخلقون كخلقه، فقال تعالىٰ: ﴿لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ۝٤٢﴾ [الإسراء:٤٢]، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ۝٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ۝٥٧﴾ [الإسراء:٥٦-٥٧]، فتبين أن ما يدعىٰ من دونه من الملائكة والأنبياء وغيرهم يبتغىٰ به الوسيلة إلىٰ الله والتقرب إليه، وذلك لأنه هو الإله المعبود الحق الذي كل ما سواه مفتقر إليه من جهة أنه ربه ليس له شيء إلا منه، ومن جهة أنه إلهه لا منتهىٰ لإرادته دونه، فلو لم يكن هو المعبودَ لفسد العالَم؛ إذ لو كانت الإرادات ليس لها مراد لذاته، والمراد إما لنفسه وإما لغيره، والمراد لغيره لا بد أن يكون ذلك الغير مرادًا حتىٰ ينتهي الأمر إلىٰ مراد لنفسه»[(٢)].

---

(١) «تفسير الطبري» (١٧/ ٤٥٤)، و«ابن أبي حاتم» (١٣٢٩٤).

(٢) «منهاج السنة النبوية» ط: مؤسسة قرطبة (٣/ ٣٣١).

وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [النمل:٢٦].

فقَوْلُهُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [النمل:٢٦]، فَالمُرَادُ مِنْهُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لما بيَّن افتقارَ السموات والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَىٰ المُدَبِّرِ ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ مَا هُوَ أَعْظَمُ الأَجْسَام فَهِيَ مَخْلُوقَةٌ وَمَرْبُوبَةٌ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ إليهَ المُنْتَهَىٰ فِي القُدْرَةِ والرُّبُوبِيَّةِ، وفي الآية دلالة علىٰ أن السجود للخالق لا للمخلوق وإنْ عَظُم قدرُه.

«فإن الله سبحانه وصَف عرشه بالكرم وهو نظير المجد، ووصفه بالعظمة، فوصفه سبحانه بالمجد مطابق لوصفه بالعظمة والكرم، بل هو أحق المخلوقات أن يوصف بذلك لسعته وحسنه وبهاء منظره، فإنه أوسع كل شيء في المخلوقات وأجمله وأجمعه لصفات الحسن وبهاء المنظر وعلو القدر والرتبة والذات، ولا يقدر قدر عظمته وحسنه وبهاء منظره إلا الله، ومجده مستفاد من مجد خالقه ومبدعه، والسموات السبع والأرضون السبع في الكرسي -الذي بين يديه- كحلقة ملقاة في أرض فلاة، والكرسي فيه كتلك الحلقة في الفلاة. قال ابن عباس: السموات السبع في العرش كسبعة دراهم جعلن في ترس. فكيف لا يكون مجيدًا وهذا شأنه؟! فهو عظيم كريم مجيد»(١).

«يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ العَالَمَ العُلْوِيَّ والسُّفْلِيَّ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الخَالِقِ تَعَالَىٰ فِي غَايَةِ الصِّغرِ، كَمَا قَالَ تَعالَىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٧﴾ [الزمر:٦٧].

(١) «التبيان في أقسام القرآن» - الفكر (ص: ٥٧).

وَفِي «الصحيحين» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**يَقْبِضُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الأَرْضَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ؟**»(١).

وَفِي «الصحيحين» -واللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ- عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَطْوِي اللهُ السَّمَوَاتِ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اليُمْنَىٰ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الأَرْضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ، أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟**»(٢).

وَفِي لَفْظٍ فِي «الصَّحِيح» عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مِقْسَم: أَنَّهُ نَظَرَ إِلَىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ كَيْفَ يَحْكِي أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**يَأْخُذُ اللهُ سَمَوَاتِهِ وَأَرْضَهُ بِيَدِهِ، وَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، وَيَقْبِضُ أَصَابِعَهُ وَيَبْسُطُهَا: أَنَا المَلِكُ**»، حَتَّىٰ نَظَرْت إِلَىٰ المِنْبَرِ يَتَحَرَّك مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّىٰ إِنِّي أَقُولُ: أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!(٣).

وَفِي لَفْظٍ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ المِنْبَرِ وَهُوَ يَقُولُ: «**يَأْخُذُ الجَبَّارُ سَمَوَاتِهِ وَأَرْضَهُ، وَقَبَضَ بِيَدِهِ وَجَعَلَ يَقْبِضُهَا وَيَبْسُطُهَا، وَيَقُولُ: أَنَا الرَّحْمَنُ، أَنَا المَلِكُ، أَنَا القُدُّوسُ، أَنَا السَّلَامُ، أَنَا المُؤْمِنُ، أَنَا المُهَيْمِنُ، أَنَا العَزِيزُ، أَنَا الجَبَّارُ، أَنَا المُتَكَبِّرُ، أَنَا الَّذِي بَدَأْت الدُّنْيَا وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا، أَنَا الَّذِي أَعَدْتُهَا، أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟ أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟**» وَفِي لَفْظٍ: «**أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟**»

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٢)، ومسلم (٢٧٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤١٢)، ومسلم (٢٧٨٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٨٨).

وَيَمِيلُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ يَمِينِهِ، وَعَلَىٰ شَمَالِهِ، حَتَّىٰ نَظَرْت إِلَىٰ المِنْبَرِ يَتَحَرَّك مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّىٰ إِنِّي لَأَقُولُ: أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟(١).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «يَقْبِضُ اللهُ عَلَيْهِمَا فَمَا ترَىٰ طَرَفَاهُمَا بِيَدِهِ»، وَفِي لَفْظٍ عَنْهُ: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ والأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ فِي يَدِ الرَّحْمَنِ، إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ»(٢)، وَهَذِهِ الآثَارُ مَعْرُوفَةٌ فِي كُتُبِ الحَدِيثِ.

فَفِي هَذِهِ الآيَةِ والأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ المُفَسِّرَةِ لَهَا المُسْتَفِيضَةِ الَّتِي اتَّفَقَ أَهْلُ العِلْمِ عَلَىٰ صِحَّتِهَا وَتَلَقِّيهَا بِالقَبُولِ مَا يُبَيِّنُ أَنَّ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ عَظَمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، أَصْغَرُ مِنْ أَنْ تَكُونَ مَعَ قَبْضِهِ لَهَا إِلَّا كَالشَّيْءِ الصَّغِيرِ فِي يَدِ أَحَدِنَا، حَتَّىٰ يَدْحُوهَا كَمَا تُدْحَىٰ الكُرَةُ»(٣).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَهَذَا كِتَابُ اللهِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَىٰ آخِرِهِ، وَسُنَّةُ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَامَّةُ كَلَامِ الصَّحَابَةِ والتَّابِعِينَ وَكَلَامُ سَائِرِ الأَئِمَّةِ - مَمْلُوءٌ بِمَا هُوَ نَصٌّ أَوْ ظَاهِرٌ فِي أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّهُ فَوْقَ العَرْشِ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ مُسْتَوٍ عَلَىٰ عَرْشِهِ. مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، الآيَةَ، وقوله تعَالَىٰ: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران:٥٥]، الآيَةَ، وقوله تعَالَىٰ: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء:١٥٨]، الآيَةَ، وقوله تعَالَىٰ: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٨٨).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٢٤)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (١٠٩٠) موقوفًا.

(٣) «الرسالة العرشية» (ص: ١٦).

إِلَيۡهِ﴾ [المعارج:٣-٤]، الآيَةَ، وقوله تَعَالَىٰ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾ [السجدة:٥]، الآيَةَ.

وقوله تَعَالَىٰ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل:٥٠]، الآيَةَ، وقوله تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ﴾ [البقرة:٢٩]، الآيَةَ، وقوله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ [الأعراف:٥٤]، وقوله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [يونس:٣]، فَذَكَرَ التَّوْحِيدَيْنِ فِي هَذِهِ الآيَةِ. وقوله تَعَالَىٰ: ﴿تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه:٤-٥].

وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ٥٨ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ٥٩﴾ [الفرقان:٥٨-٥٩]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحديد:٤]، فَذَكَرَ عُمُومَ عِلْمِهِ وَعُمُومَ قُدْرَتِهِ وَعُمُومَ إِحَاطَتِهِ وَعُمُومَ رُؤْيَتِهِ»(١).

(١) «اجتماع الجيوش الإسلامية» (٢/ ٩٦).

«وَفِي «الصحيحين» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَمَّا خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي**»(١). وَفِي لَفْظٍ آخَرَ: «**كَتَبَ فِي كِتَابِهِ عَلَىٰ نَفْسِهِ فَهُوَ مَوْضُوعٌ عِنْدَهُ إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي**»(٢)، وَفِي لَفْظٍ: «**وُضِعَ عِنْدَهُ عَلَىٰ العَرْشِ**»(٣)، وَفِي لَفْظٍ: «**فَهُوَ مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ**»(٤). وَهَذِهِ الأَلْفَاظُ كُلُّهَا صِحَاحٌ فِي «صحيح البخاري» وَ«مُسْلِم».

وَفِي «صحيح مسلم» عَنْ أَبِي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ القِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»(٥)»(٦).

«ثم قال: (ذو العرش) فأضاف العرش إلىٰ نفسه كما تضاف إليه الأشياء العظيمة الشريفة، وهذا يدل علىٰ عظمة العرش وقربه منه سبحانه واختصاصه به، بل يدل علىٰ غاية القرب والاختصاص، كما يضيف إلىٰ نفسه بـ«ذو» صفاته

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٤)، ومسلم (٢٧٥١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٥١).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٠٤).

(٤) أخرجه البخاري (٧٥٥٤).

(٥) أخرجه مسلم (١٧٩).

(٦) «اجتماع الجيوش الإسلامية» (٢/ ٩٩).

القائمة به، كقوله: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ [الذاريات:٥٨]: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن:٢٧]، ويقال: ذو العزة وذو المُلك وذو الرحمة ونظائر ذلك، فلو كان حظ العرش منه حظ الأرض السابعة لكان لا فرق أن يقال: ذو العرش وذو الأرض»(١).

❖ ❖ ❖

وسع كل شيء علمًا

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۝٩٨﴾ [طه:٩٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ۝١٢﴾ [الطلاق:١٢]، وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٢٩﴾ [البقرة:٢٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ۝١٠٩﴾ [الكهف:١٠٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٧﴾ [لقمان:٢٧].

---

(١) «التبيان في أقسام القرآن» - الفكر (ص: ٥٧).

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة:٢٩]، يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لَا يُمْكِنُ أَنْ يكون خالقًا للأرض وما فيها وللسموات وَمَا فِيهَا مِنَ العَجَائِبِ والغَرَائِبِ إِلَّا إِذَا كَانَ عَالِمًا بِهَا مُحِيطًا بِجُزْئِيَّاتِهَا وَكُلِّيَّاتِهَا، فَهُوَ عَالِمُ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ، وَأَحْكَمُ الحَاكِمِينَ، وَأَعْلَمُ العَالِمِينَ، وَمَنْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَعَلِمَ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ، وَأَحَاطَ عِلْمُهُ بِوُجُوهِ المَصَالِحِ دَقِيقِهَا وَجَلِيلِهَا وَخَفِيِّهَا وَظَاهِرِهَا، مَا يُمْكِنُ اطِّلَاعُ البَشَرِ عَلَيْهِ وَمَا لَا يُمْكِنُهُمْ.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ﴾ [الذاريات:٣٠]، متضمن لإثبات صفة القول له. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ [الذاريات:٣٠]، متضمن لإثبات صفة الحكمة والعلم اللذين هما مصدر الخلق والأمر، فجميع ما خلقه سبحانه صادر عن علمه وحكمته، وكذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته، والعلم والحكمة متضمنان لجميع صفات الكمال، فالعلم يتضمن الحياة ولوازم كمالها من القيومية والقدرة والبقاء والسمع والبصر وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التام، والحكمة تتضمن كمال الإرادة والعدل والرحمة والإحسان والجود والبر، ووضع الأشياء في مواضعها علىٰ أحسن وجوهها، ويتضمن إرسال وإثبات الثواب والعقاب»(١).

فهو «العالِم بكل شيء، الذي لكمال علمه يعلم ما بين أَيدي الخلائق وما خلفهم، فلا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا تتحرك ذرة إلا بإذنه، يعلم دبيب

(١) «الرسالة التبوكية» = «زاد المهاجر إلىٰ ربه» (ص: ٦٩).

الخواطر في القلوب حيث لا يطَّلع عليها المَلَكُ، ويعلم ما سيكون منها حيث لا يطلع عليه القلب، البصير الذي لكمال بصره يرىٰ تفاصيل خلق الذرة الصغيرة وأعضائها ولحمها ودمها ومُخها وعروقها، ويرىٰ دبيبها علىٰ الصخرة الصماءِ في الليلة الظلماءِ، ويرىٰ ما تحت الأرضين السبع كما يرىٰ ما فوق السموات السبع. السميع الذي قد استوىٰ في سمعه سرُّ القول وجهره، وسع سمعه الأَصوات فلا تختلف عليه أَصوات الخلق ولا تشتبه عليه ولا يشغله منها سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل ولا يبرمه كثرة السائلين، قالت عائشة: الحمد لله الذي وسع سمعه الأَصوات، لقد جاءَت المجادِلة تشكو إِلىٰ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنه ليخفىٰ عليَّ بعض كلامها، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة:١](١)»(٢).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٦﴾ [فصلت:٣٦]، الغَرَضَ مِنَ الِاسْتِعَاذَةِ الِاحْتِرَازُ مِنْ شَرِّ الوَسْوَسَةِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الوَسْوَسَةَ كَأَنَّهَا حُرُوفٌ خَفِيَّةٌ فِي قَلْبِ الإِنْسَانِ، وَلَا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا أَحَدٌ، فَكَأَنَّ العَبْدَ يَقُولُ: يَا مَنْ هُوَ عَلَىٰ هَذِهِ الصِّفَةِ الَّتِي يَسْمَعُ بِهَا كُلَّ مَسْمُوعٍ، وَيَعْلَمُ كُلَّ سِرٍّ خَفِيٍّ، أَنْتَ تَسْمَعُ وَسْوَسَةَ الشَّيْطَانِ وَتَعْلَمُ غَرَضَهُ فِيهَا، وَأَنْتَ القَادِرُ عَلَىٰ دَفْعِهَا عَنِّي، فَادْفَعْهَا عَنِّي بِفَضْلِكَ، فَلِهَذَا السَّبَبِ كَانَ ذِكْرُ السَّمِيعِ العَلِيمِ أَوْلَىٰ بِهَذَا المَوْضِعِ مِنْ سَائِرِ الأَذْكَارِ.

---

(١) أخرجه النسائي (٣٤٦٠)، وابن ماجه (١٨٨)، وصححه الألباني.

(٢) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ١٢٧).

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة:٣٢].

استدل أَهْلُ العلم بِهَذِهِ الآيَةِ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ المُغَيَّبَاتِ إِلَّا بِتَعْلِيمِ اللهِ تَعَالَىٰ وَأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ التَّوَصُّلُ إِلَيْهَا بِعِلْمِ النُّجُوم والكِهَانَةِ والعِرَافَةِ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام:٥٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الجن:٢٦].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه:٧].

أي: «ويعلم ما تسره القلوب وأخفىٰ منه وهو مالم يخطر لها أنه سبحانه سيخطر لها، ولو كان البحر المحيط بالعالم مدادًا ويحيط به من بعده سبعة أبحر كلها مداد وجميع أشجار الأرض -وهو كل نبت قام علىٰ ساق مما يحصد ومما لا يحصد- أقلام يكتب بها نفدت البحار والأقلام ولم ينفد كلامه، وهذا وغيره بعض ما تعرَّف به إلىٰ عباده من كلامه، وإلا فلا يمكن أحدًا قط أن يحصي ثناء عليه، بل هو كما أثنىٰ علىٰ نفسه، فكل الثناء وكل الحمد وكل المجد وكل الكمال له سبحانه»(١).

«وَتَأَمَّلْ أَحْوَالَ الرُّسُلِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ- مَعَ اللهِ، وَخِطَابَهُمْ وَسُؤَالَهُمْ. كَيْفَ تَجِدُهَا كُلَّهَا مَشْحُونَةً بِالأَدَبِ قَائِمَةً بِهِ؟

(١) «الصواعق المرسلة في الرد علىٰ الجهمية والمعطلة» (٣/ ١٠٨٣).

قَالَ المَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ [المائدة:١١٦]، وَلَمْ يَقُلْ: لَمْ أَقُلْهُ. وَفَرْقٌ بَيْنَ الجَوَابَيْنِ فِي حَقِيقَةِ الأَدَبِ. ثُمَّ أَحَالَ الأَمْرَ عَلَىٰ عِلْمِهِ سُبْحَانَهُ بِالحَالِ وَسِرِّهِ. فَقَالَ: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾ [المائدة:١١٦]، ثُمَّ بَرَّأَ نَفْسَهُ عَنْ عِلْمِهِ بِغَيْبِ رَبِّهِ وَمَا يَخْتَصُّ بِهِ سُبْحَانَهُ، فَقَالَ: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة:١١٦]، ثُمَّ أَثْنَىٰ عَلَىٰ رَبِّهِ، وَوَصَفَهُ بِتَفَرُّدِهِ بِعِلْمِ الغُيُوبِ كُلِّهَا، فَقَالَ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة:١١٦]، ثُمَّ نَفَىٰ أَنْ يَكُونَ قَالَ لَهُمْ غَيْرَ مَا أَمَرَهُ رَبُّهُ بِهِ -وَهُوَ مَحْضُ التَّوْحِيدِ- فَقَالَ: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة:١١٧]، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ شَهَادَتِهِ عَلَيْهِمْ مُدَّةَ مُقَامِهِ فِيهِمْ، وَأَنَّهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ لَا اطِّلَاعَ لَهُ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ وَحْدَهُ هُوَ المُنْفَرِدُ بَعْدَ الوَفَاةِ بِالِاطِّلَاعِ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة:١١٧]، ثُمَّ وَصَفَهُ بِأَنَّ شَهَادَتَهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ كُلِّ شَهَادَةٍ وَأَعَمُّ، فَقَالَ: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة:١١٧]»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النمل:٢٥].

أخرج ابْن الْمُنْذر وَابْن أبي حَاتِم عَن ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ [النمل:٢٥]، قَالَ: يعلم كل خُفْيَة فِي السَّمَاء والأَرْض(٢).

---

(١) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (٢/ ٣٥٨).

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» (١٦٢٦٨).

وَأخرج الفرْيَابِيُّ وَابْن أبي شيبَة وَعبد بن حُميد وَابْن جرير وَابْن المُنْذر وَابْن أبي حَاتِم عَن مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ﴾ [النمل:٢٥]، قَالَ: الغَيْب(١).

وَأخرج عبد بن حُميد وَابْن أبي حَاتِم عَن عِكْرِمَة فِي قَوْله: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ﴾ [النمل:٢٥]، قَالَ: السِّرَّ(٢).

الآيَةُ دَلَّتْ عَلَىٰ وَصْفِ الله تَعَالَىٰ بِالقُدْرَةِ والعِلْمِ، أَمَّا القُدْرَةُ فَقَوْلُهُ: يُخْرِجُ الخَبْءَ فِي السَّماواتِ والأَرْضِ، وَسَمَّىٰ المَخْبُوءَ بِالمَصْدَرِ، وَهُوَ يَتَنَاوَلُ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الأَرْزَاقِ والأَمْوَالِ وَإِخْرَاجُهُ مِنَ السَّمَاءِ بِالغَيْثِ، وَمِنَ الأَرْضِ بِالنَّبَاتِ. وَأَمَّا العِلْمُ فَقَوْلُهُ: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النمل:٢٥].

«وكذلك من شهد مشهد العلم المحيط الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأَرض ولا في السموات، ولا في قرار البحار، ولا تحت أَطباق الجبال، بل أَحاط بذلك علمه علمًا تفصيليًّا ثم تعبُّد بمقتضىٰ هذا الشهود من حراسة خواطره وإِرادته وجميع أَحواله وعزماته وجوارحه - علم أَن حركاته الظاهرة والباطنة وخواطره وإِرادته وجميع أَحواله ظاهرة مكشوفة لديه علانية له بادية لا يخفىٰ عليه منها شيء»(٣).

❁ ❁ ❁

(١) «تفسير الطبري» (١٩/ ٤٤٩) بلفظ: «الغيث»، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١٦٢٧٠).
(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» (١٦٢٦٩).
(٣) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ٤٤).

مدبر الأمر رب العالمين

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس:٣]، قوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس:٣١].

قَوْلُهُ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَقْضِي وَيُقَدِّرُ عَلَىٰ حَسَبِ مُقْتَضَىٰ الحِكْمَةِ وَيَفْعَلُ مَا يَفْعَلُهُ المُصِيبُ فِي أَفْعَالِهِ، النَّاظِرُ فِي أَدْبَارِ الأُمُورِ وَعَوَاقِبِهَا، كَيْ لَا يَدْخُلَ فِي الوُجُودِ مَا لَا يَنْبَغِي. والمُرَادُ مِنَ الأَمْرِ الشَّأْنُ، يَعْنِي يُدَبِّرُ أحوال الخلق وأحوال ملكوت السموات والأَرْضِ.

وعن ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ: «**اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ الحَقُّ وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، والجَنَّةُ حَقٌّ، والنَّارُ حَقٌّ، والنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حَقٌّ، والسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ المُقَدِّمُ، وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ -أَوْ: لَا إِلَهَ غَيْرُكَ-**» قَالَ سُفْيَانُ: وَزَادَ عَبْدُ الكَرِيمِ أَبُو أُمَيَّةَ: «**وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**» متفق عليه، وهذا لفظ البخاري(١).

(١) أخرجه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩).

عَنْ سُهَيْلٍ، قَالَ: كَانَ أَبُو صَالِحٍ يَأْمُرُنَا، إِذَا أَرَادَ أَحَدُنَا أَنْ يَنَامَ، أَنْ يَضْطَجِعَ عَلَىٰ شِقِّهِ الأَيْمَنِ، ثُمَّ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الأَرْضِ وَرَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الحَبِّ والنَّوَىٰ، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ والإِنْجِيلِ والفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الفَقْرِ**»، وَكَانَ يَرْوِي ذَلِكَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. رواه مسلم(١).

«وهذا هو القدرة التي تبهر العقول، وهو أن يقلب حقائق الموجودات فيحيل الأول ويُفنيه ويُلاشيه، ويُحدث شيئًا آخر؛ كما قال: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ [الأنعام:٩٥]، ويُخرج الشجرة الحية، والسنبلة الحية، من النواة والحبة الميتة، ويخرج النواة الميتة، والحبة الميتة، من الشجرة والسنبلة الحية؛ كما يخرج الإنسان الحي من النطفة الميتة، والنطفة الميتة من الإنسان الحي»(٢).

فهو «متفرد بتدبير مملكته، فلا قبض ولا بسط، ولا منع ولا ضلال، ولا سعادة ولا شقاوة، ولا موت ولا حياة، ولا نفع ولا ضر إلا بيده، لا مالك غيره ولا مدبر سواه، لا يستقل أحد معه بملك مثقال ذرة في السماوات والأرض، ولا له شَرِكة في ملكها، ولا يحتاج إلىٰ وزير ولا ظهير ولا مُعين، ولا يغيب فيخلفه غيره،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣).

(٢) «النبوات» لابن تيمية (١/ ٣٢٢).

ولا يَعْيا فيُعينه سواه، ولا يتقدم أحد بالشفاعة بين يديه إلا من بعد إذنه لمن شاء وفيمن شاء»(١).

«يدبر أمر الممالك ويأمر وينهي، ويخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويقضي وينفذ، ويعز ويذل، ويقلب الليل والنهار، ويداول الأيام بين الناس، ويقلب الدول فيذهب بدولة ويأتي بأخرىٰ، والرسل من الملائكة -عليهم الصلاة والسلام- بين صاعد إليه بالأمر ونازل من عنده به، وأوامره ومراسيمه متعاقبة علىٰ تعاقب الآيات، نافذة بحسب إرادته، فما شاء كان كما شاء في الوقت الذي يشاء علىٰ الوجه الذي يشاء، من غير زيادة ولا نقصان ولا تقدم ولا تأخر، وأمره وسلطانه نافذ في السماوات وأقطارها، وفي الأرض وما عليها وما تحتها، وفي البحار والجو، وفي سائر أجزاء العالم وذراته، يقلبها ويصرفها ويحدث فيها ما يشاء، وقد أحاط بكل شيء علمًا، وأحصىٰ كل شيء عددًا، ووسع كل شيء رحمة وحكمة.

ووسع سمعه الأصوات فلا تختلف عليه ولا تشتبه عليه، بل يسمع ضجيجها باختلاف لغاتها علىٰ كثرة حاجاتها، لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه كثرة المسائل، ولا يتبرم بإلحاح ذوي الحاجات، وأحاط بصره بجميع المرئيات فيرىٰ دبيب النملة السوداء علىٰ الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، فالغيب عنده شهادة والسر عنده علانية، يعلم السر وأخفىٰ من السر، فالسر ما انطوىٰ عليه ضمير العبد وخطر بقلبه ولم تتحرك به شفتاه، وأخفىٰ منه ما لم يخطر بعد فيعلم أنه سيخطر بقلبه كذا وكذا في وقت كذا وكذا.

---

(١) «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» (ص: ١٠٩).

له الخلق والأمر، وله الملك والحمد، وله الدنيا والآخرة، وله النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، له الملك كله وله الحمد كله وبيده الخير كله وإليه يرجع الأمر كله، شملت قدرته كل شيء ووسعت رحمته كل شيء وسعت نعمته إلىٰ كل حي، ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن:٢٩]، يغفر ذنبًا، ويفرِّج همًّا، ويكشف كَربًا، ويجبر كسيرًا، ويغني فقيرًا، ويعلِّم جاهلًا، ويهدي ضالًّا، ويرشد حيران، ويغيث لهفان، ويفك عانيًا، ويشبع جائعًا، ويكسو عاريًا، ويشفي مريضًا، ويعافي مبتلًىٰ، ويقبل تائبًا، ويجزي محسنًا، وينصر مظلومًا ويقصم جبارًا، ويقيل عثرة، ويستر عورة، ويؤمِّن روعة، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين.

لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور: لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلفه، ويمينه ملأىٰ لا تغيضها نفقة، سحَّاء الليلَ والنهارَ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق، فإنه لم يَغِضْ ما في يمينه، قلوب العباد ونواصيهم بيده، وأزِمَّة الأمور معقودة بقضائه وقدره، الأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه، يقبض سمواته كلها بيده الكريمة والأرض باليد الأخرىٰ، ثم يهزهن، ثم يقول: أنا الملك أنا الملك، أنا الذي بدأت الدنيا ولم تكن شيئًا، وأنا الذي أعيدها كما بدأتها.

لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ولا حاجة يُسألها أن يعطيها، لو أن أهل سمواته وأهل أرضه وأول خلقه وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا علىٰ أتقىٰ قلب رجل منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئًا، ولو أن أول خلقه وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا

علىٰ أفجر قلب رجل منهم ما نقص ذلك من ملكه شيئًا، ولو أن أهل سمواته وأهل أرضه وإنسهم وجنهم وحيهم وميتهم ورطبهم ويابسهم قاموا في صعيد واحد فسألوه فأعطىٰ كلًّا منهم ما سأله ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة، ولو أن أشجار الأرض كلها -من حين وجدت إلىٰ أن تنقضي الدنيا- أقلام، والبحر -وراءه سبعة أبحر تمده من بعده- مداد، فكتب بتلك الأقلام وذلك المداد لفنيت الأقلام ونفد المداد ولم تنقد كلمات الخالق تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وكيف تفنىٰ كلماته -عز وجل جلاله- وهي لا بداية لها ولا نهاية، والمخلوق له بداية ونهاية، فهو أحق بالفناء والنفاد؟ وكيف يفنىٰ المخلوق غير المخلوق؟

هو الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أحق من ذُكر، وأحقُّ من عُبد، وأحق من حُمد، وأولىٰ من شكر، وأنصر من ابتُغي، وأرأف من مَلك، وأجود من سئل، وأعفىٰ من قَدر، وأكرم من قُصد، وأعدل من انتقم، حلمه بعد علمه، وعفوه بعد قدرته، ومغفرته عن عزته، ومنعه عن حكمته، وموالاته عن إحسانه ورحمته.

ما للعباد عليه حقٌّ واجب ... كلَّا ولا سعي لديه ضائعُ
إن عُذِّبوا فبعدله، أو نُعِّموا ... فبفضله، وهو الكريم الواسعُ

وهو الملك لا شريك له، والفرد فلا ند له، والغني فلا ظهير له، والصمد فلا ولد له، ولا صاحبة، والعلي فلا شبيه له ولا سمي له، كل شيء هالك إلا وجهه، وكل مُلك زائل إلا ملكه، وكل ظل قالص إلا ظله، وكل فضله منقطع إلا فضله،

لن يطاع إلا بإذنه ورحمته، ولن يعصىٰ إلا بعلمه وحكمته، يطاع فيشكر، ويُعصىٰ فيتجاوز ويغفر.

كل نقمةٍ منه عدل، وكل نعمة منه فضل، أقرب شهيد، وأدنىٰ حفيظ، حال دون النفوس، وأخذ بالنواصي، وسجل الآثار، وكتب الآجال، فالقلوب له مُفضية، والسر عنده علانية، والغيب عنده شهادة. عطاؤه كلام، وعذابه كلام: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس:٨٢]»(١).

«والمقصود: أن الله سبحانه وكَّل بالعالم العلوي والسفلي ملائكة فهي تدبر أمر العالَم بإذنه ومشيئته وأمره، فلهذا يضيف التدبير إلىٰ الملائكة تارة لكونهم هم المباشرين للتدبير، كقوله: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ [النازعات:٥]، ويضيف التدبير إليه؛ كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ﴾ [يونس:٣]، وقوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ﴾ [يونس:٣١]، فهو المدبر أمرًا وإذنًا ومشيئةً، والملائكة المدبرات مباشرة وامتثالًا»(٢).

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢].

«فَاسْمُ الرَّبِّ لَهُ الجَمْعُ الجَامِعُ لِجَمِيعِ المَخْلُوقَاتِ، فَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقُهُ، والقَادِرُ عَلَيْهِ، لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْ رُبُوبِيَّتِهِ، وَكُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ

---

(١) «الوابل الصيب من الكلم الطيب» (ص: ٦٢).

(٢) «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» - المعرفة (٢/ ١٣٠).

والأَرْضِ عَبْدٌ لَهُ فِي قَبْضَتِهِ، وَتَحْتَ قَهْرِهِ، فَاجْتَمَعُوا بِصِفَةِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَافْتَرَقُوا بِصِفَةِ الإلَهِيَّةِ، فَأَلَّهَهُ وَحْدَهُ السُّعَدَاءُ، وَأَقَرُّوا لَهُ طَوْعًا بِأَنَّهُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، الَّذِي لَا تَنْبَغِي العِبَادَةُ والتَّوَكُّلُ، والرَّجَاءُ والخَوْفُ، والحُبُّ والإِنَابَةُ والإِخْبَاتُ والخَشْيَةُ، والتَّذَلُّلُ والخُضُوعُ إِلَّا لَهُ.

وَهُنَا افْتَرَقَ النَّاسُ، وَصَارُوا فَرِيقَيْنِ: فَرِيقًا مُشْرِكِينَ فِي السَّعِيرِ، وَفَرِيقًا مُوَحِّدِينَ فِي الجَنَّةِ.

فَالإِلَهِيَّةُ هِيَ الَّتِي فَرَّقَتْهُمْ، كَمَا أَنَّ الرُّبُوبِيَّةَ هِيَ الَّتِي جَمَعَتْهُمْ.

فَالدِّينُ والشَّرْعُ، والأَمْرُ والنَّهْيُ مَظْهَرُهُ، وَقِيَامُهُ مِنْ صِفَةِ الإِلَهِيَّةِ، والخَلْقُ والإِيجَادُ والتَّدْبِيرُ والفِعْلُ مِنْ صِفَةِ الرُّبُوبِيَّةِ، والجَزَاءُ بِالثَّوَابِ والعِقَابِ والجَنَّةِ والنَّارِ مِنْ صِفَةِ المُلْكِ، وَهُوَ مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ، فَأَمَرَهُمْ بِإِلَهِيَّتِهِ، وَأَعَانَهُمْ وَوَفَّقَهُمْ وَهَدَاهُمْ وَأَضَلَّهُمْ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَأَثَابَهُمْ وَعَاقَبَهُمْ بِمُلْكِهِ وَعَدْلِهِ، وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الأُمُورِ لَا تَنْفَكُّ عَنِ الأُخْرَىٰ»(١).

«وَاقْتِرَانُ رُبُوبِيَّتِهِ بِرَحْمَتِهِ كَاقْتِرَانِ اسْتِوَائِهِ عَلَىٰ عَرْشِهِ بِرَحْمَتِهِ، فَـ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥]، مُطَابِقٌ لِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة:٢-٣]، فَإِنَّ شُمُولَ الرُّبُوبِيَّةِ وَسِعَتْهَا بِحَيْثُ لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْهَا أَقْصَىٰ شُمُولِ الرَّحْمَةِ وَسِعَتِهَا، فَوَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ بِرَحْمَتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ، مَعَ أَنَّ فِي كَوْنِهِ رَبًّا لِلْعَالَمِينَ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ عُلُوِّهِ عَلَىٰ خَلْقِهِ، وَكَوْنِهِ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ»(٢).

(١) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (١/ ٥٨).

(٢) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (١/ ٥٨).

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢].

«**الإضافة الأولىٰ**: إضافة الربوبية المتضمنة لخلقهم وتدبيرهم وتربيتهم وإصلاحهم وجلب مصالحهم وما يحتاجون إليه، ودفع الشر عنهم وحفظهم مما يفسدهم هذا معنىٰ ربوبيته لهم، وذلك يتضمن قدرته التامة ورحمته الواسعة وإحسانه وعلمه بتفاصيل أحوالهم وإجابة دعواتهم وكشف كرباتهم.

الإضافة الثانية: إضافة المِلك، فهو مَلِكُهم المتصرف فيهم وهم عبيده ومماليكه، وهو المتصرف لهم المدبر لهم كما يشاء، النافذ القدرة فيهم، الذي له السلطان التام عليهم، فهو ملكهم الحق الذي إليه مفزعهم عند الشدائد والنوائب، وهو مستغاثهم ومعاذهم وملجؤهم فلا صلاح لهم ولا قيام إلا به وبتدبيره، فليس لهم ملك غيره يهربون إليه إذا دهمهم العدو ويستصرخون به إذا نزل العدو بساحتهم.

الإضافة الثالثة: إضافة الإلهية، فهو إلههم الحق ومعبودهم الذي لا إله لهم سواه ولا معبود لهم غيره، فكما أنه وحده هو ربهم ومليكهم لم يشركه في ربوبيته ولا في ملكه أحد، فكذلك هو وحده إلههم ومعبودهم فلا ينبغي أن يجعلوا معه شريكًا في إلهيته كما لا شريك معه في ربوبيته وملكه»(١).

«**وَتَضَمَّنَتْ إِثْبَاتَ النُّبُوَّاتِ مِنْ جِهَاتٍ عَدِيدَةٍ:**

أَحَدُهَا: كَوْنُهُ رَبَّ العَالَمِينَ، فَلَا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يَتْرُكَ عِبَادَهُ سُدًىٰ هَمَلًا لَا يُعَرِّفُهُمْ مَا يَنْفَعُهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ فِيهِمَا، فَهَذَا هَضْمٌ لِلرُّبُوبِيَّةِ، وَنِسْبَةُ الرَّبِّ تَعَالَىٰ إِلَىٰ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ، وَمَا قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ نَسَبَهُ إِلَيْهِ.

---

(١) «بدائع الفوائد» - نزار الباز (٢/ ١٢٣).

الثَّانِي: أَخْذُهَا مِنَ اسْمِ اللهِ، وَهُوَ المَأْلُوهُ المَعْبُودُ، وَلَا سَبِيلَ لِلْعِبَادِ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ عِبَادَتِهِ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ رُسُلِهِ.

المَوْضِعُ الثَّالِثُ: مِنِ اسْمِهِ الرَّحْمَنِ فَإِنَّ رَحْمَتَهُ تَمْنَعُ إِهْمَالَ عِبَادِهِ، وَعَدَمَ تَعْرِيفِهِمْ مَا يَنَالُونَ بِهِ غَايَةَ كَمَالِهِمْ، فَمَنْ أَعْطَىٰ اسْمَ الرَّحْمَنِ حَقَّهُ عَرَفَ أَنَّهُ مُتَضَمِّنٌ لِإِرْسَالِ الرُّسُلِ، وَإِنْزَالِ الكُتُبِ، أَعْظَمَ مِنْ تَضَمُّنِهِ إِنْزَالَ الغَيْثِ، وَإِنْبَاتَ الكَلَأِ، وَإِخْرَاجَ الحَبِّ، فَاقْتِضَاءُ الرَّحْمَةِ لِمَا تَحْصُلُ بِهِ حَيَاةُ القُلُوبِ والأَرْوَاحِ أَعْظَمُ مِنِ اقْتِضَائِهَا لِمَا تَحْصُلُ بِهِ حَيَاةُ الأَبْدَانِ والأَشْبَاحِ، لَكِنِ المَحْجُوبُونَ إِنَّمَا أَدْرَكُوا مِنْ هَذَا الِاسْمِ حَظَّ البَهَائِمِ والدَّوَابِّ، وَأَدْرَكَ مِنْهُ أُولُو الأَلْبَابِ أَمْرًا وَرَاءَ ذَلِكَ.

المَوْضِعُ الرَّابِعُ: مِنْ ذِكْرِ يَوْمِ الدِّينِ فَإِنَّهُ اليَوْمُ الَّذِي يُدِينُ اللهُ العِبَادَ فِيهِ بِأَعْمَالِهِمْ، فَيُثِيبُهُمْ عَلَىٰ الخَيْرَاتِ، وَيُعَاقِبُهُمْ عَلَىٰ المَعَاصِي والسَّيِّئَاتِ، وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَ أَحَدًا قَبْلَ إِقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَيْهِ، والحُجَّةُ إِنَّمَا قَامَتْ بِرُسُلِهِ وَكُتُبِهِ، وَبِهِمُ اسْتُحِقَّ الثَّوَابُ والعِقَابُ، وَبِهِمْ قَامَ سُوقُ يَوْمِ الدِّينِ، وَسِيقَ الأَبْرَارُ إِلَىٰ النَّعِيمِ، والفُجَّارُ إِلَىٰ الجَحِيمِ.

المَوْضِعُ الخَامِسُ: مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥]، فَإِنَّ مَا يُعْبَدُ بِهِ الرَّبُّ تَعَالَىٰ لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَىٰ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَعِبَادَتُهُ وَهِيَ شُكْرُهُ وَحُبُّهُ وَخَشْيَتُهُ فِطْرِيٌّ وَمَعْقُولٌ لِلْعُقُولِ السَّلِيمَةِ، لَكِنَّ طَرِيقَ التَّعَبُّدِ وَمَا يُعْبَدُ بِهِ لَا سَبِيلَ إِلَىٰ مَعْرِفَتِهِ إِلَّا بِرُسُلِهِ وَبَيَانِهِمْ، وَفِي هَذَا بَيَانُ أَنَّ إِرْسَالَ الرُّسُلِ أَمْرٌ مُسْتَقِرٌّ فِي العُقُولِ، يَسْتَحِيلُ تَعْطِيلُ العَالَمِ عَنْهُ، كَمَا يَسْتَحِيلُ تَعْطِيلُهُ عَنِ الصَّانِعِ، فَمَنْ أَنْكَرَ

الرَّسُولَ فَقَدْ أَنْكَرَ المُرْسِلَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ، وَلِهَذَا جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ الكُفْرَ بِرُسُلِهِ كُفْرًا بِهِ.

المَوْضِعُ السَّادِسُ: مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة:٦]، فَالهِدَايَةُ: هِيَ البَيَانُ والدَّلَالَةُ، ثُمَّ التَّوْفِيقُ والإِلْهَامُ، وَهُوَ بَعْدَ البَيَانِ والدَّلَالَةِ، وَلَا سَبِيلَ إِلَىٰ البَيَانِ والدَّلَالَةِ إِلَّا مِنْ جِهَةِ الرُّسُلِ، فَإِذَا حَصَلَ البَيَانُ والدَّلَالَةُ والتَّعْرِيفُ تَرَتَّبَ عَلَيْهِ هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ، وَجَعْلُ الإِيمَانِ فِي القَلْبِ، وَتَحْبِيبُهُ إِلَيْهِ، وَتَزْيِينُهُ فِي القَلْبِ، وَجَعْلُهُ مُؤْثِرًا لَهُ، رَاضِيًا بِهِ، رَاغِبًا فِيهِ.

وَهُمَا هِدَايَتَانِ مُسْتَقِلَّتَانِ، لَا يَحْصُلُ الفَلَاحُ إِلَّا بِهِمَا، وَهُمَا مُتَضَمِّنَتَانِ تَعْرِيفَ مَا لَمْ نَعْلَمْهُ مِنَ الحَقِّ تَفْصِيلًا وَإِجْمَالًا، وَإِلْهَامَنَا لَهُ، وَجَعْلَنَا مُرِيدِينَ لِاتِّبَاعِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، ثُمَّ خَلْقُ القُدْرَةِ لَنَا عَلَىٰ القِيَامِ بِمُوجَبِ الهُدَىٰ بِالقَوْلِ والعَمَلِ والعَزْمِ، ثُمَّ إِدَامَةُ ذَلِكَ لَنَا وَتَثْبِيتُنَا عَلَيْهِ إِلَىٰ الوَفَاةِ»(١).

«فالتدبير كله بيديه ومصير الأمور كلها إليه، فمراسيم التدبيرات نازلة من عنده علىٰ أيدي ملائكته بالعطاء والمنع والخفض والرفع والإحياء والإماتة والتوبة والعزل والقبض والبسط وكشف الكروب وإغاثة الملهوفين وإجابة المضطرين: ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ۝٢٩﴾ [الرحمن:٢٩]، لا مانع لما أعطىٰ، ولا معطي لما منع، ولا معقب لحكمه، ولا راد لأمره، ولا مبدل لكلماته، تعرج الملائكة والروح إليه، وتعرض الأعمال أول النهار وآخره

(١) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (١/ ٣١).

عليه، فيقدر المقادير ويوقِّت المواقيت، ثم يسوق المقادير إلىٰ مواقيتها قائمًا بتدبير ذلك كله وحفظه ومصالحه»[١].

«فالعبد لا ينفع، ولا يضر، ولا يعطىٰ، ولا يمنع إلا بإذن الله، فالأَمر كله لله أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، هو مقلب القلوب ومصرفها كيف يشاءُ، المتفرد بالضر والنفع والمنع والعطاءِ والخفض والرفع، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف:٥٤]»[٢].

واعلم -رحمك الله- أن قَوْلُهُ تَعَالَىٰ فِي الحديث القدسي: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ**»[٣]، يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ مَدَارَ الشَّرَائِعِ عَلَىٰ رِعَايَةِ مَصَالِحِ الخَلْقِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾ [الإسراء:٧]، وَذَلِكَ لِأَنَّ أَهَمَّ المُهِمَّاتِ لِلْعَبْدِ أَنْ يَسْتَنِيرَ قَلْبُهُ بِمَعْرِفَةِ الرُّبُوبِيَّةِ، ثُمَّ بِمَعْرِفَةِ العُبُودِيَّةِ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا خُلِقَ لِرِعَايَةِ هَذَا العَهْدِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦]، وَقَالَ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان:٢]، وقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِيٓ﴾ [البقرة:٤٠].

❁ ❁ ❁

---

(١) «الصلاة وأحكام تاركها» (ص: ١٤٢).

(٢) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ٦٠).

(٣) أخرجه مسلم (٣٩٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ذو الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة

قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر:٢٣].

«وقال ابن الأنباري: «الجبار في صفة الرب سبحانه الذي لا يُنال» ومنه قولهم: نخلة جبَّارة، إذا فاتت يدَ المتناول، فالجبار في صفة الرب سبحانه ترجع إلىٰ ثلاثة معانٍ: المُلك والقهر والعلو، فإن النخلة إذا طالت وارتفعت وفاتت الأيدي سميت جبارة، ولهذا جعل سبحانه اسمه الجبار مقرونًا بالعزيز والمتكبر، وكل واحد من هذه الأسماء الثلاثة تضمن الاسمين الآخرين، وهذه الأسماء الثلاثة نظير الأسماء الثلاثة، وهي الخالق البارئ المصور، فالجبار المتكبر يجريان مجرىٰ التفصيل لمعنىٰ اسم العزيز، كما أن البارئ المصور تفصيل لمعنىٰ اسم الخالق، فالجبار من أوصافه يرجع إلىٰ كمال القدرة والعزة والملك، ولهذا كان من أسمائه الحسنىٰ، وأما المخلوق فاتصافه بالجبار ذم له ونقص، كما قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر:٣٥]، وقال تعالىٰ لرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق:٤٥]، أي: مسلط تقهرهم وتكرههم علىٰ الإيمان. وفي «الترمذي» وغيره عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة أمثال الذر يطؤهم الناس**»(١)»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٩٢) وحسنه، ووافقه الألباني.

(٢) «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» (ص: ١٢١).

وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام:٧٥].

لَيْسَ المَقْصُودُ مِنْ إِرَاءَةِ الله إبراهيمَ ملكوتَ السموات والأَرْضِ هُوَ مُجَرَّدَ أَنْ يَرَىٰ إِبْرَاهِيمُ هَذَا المَلَكُوتَ، بَلِ المَقْصُودُ أَنْ يَرَاهَا فَيَتَوَسَّلَ بِهَا إِلَىٰ مَعْرِفَةِ جَلَالِ الله تَعَالَىٰ وَقُدْسِهِ وَعُلُوِّهِ وَعَظَمَتِهِ.

وقال تعالىٰ: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس:٨٣].

«المَلَكُوتُ» هُوَ المُلْكُ، وَ«التَّاءُ» لِلْمُبَالَغَةِ كَالرَّغَبُوتِ مِنَ الرَّغْبَةِ، والرَّهَبُوتِ من الرهبة، نزه نفسه تعالىٰ عن العجز والشرك. وقال سعيد عن قتادة: ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [المؤمنون:٨٨]: مفاتح كل شيء، ومعناه الملك العظيم والسلطان القاهر والأظهر مختص بملك الله عز سلطانه.

«قد ثبت في «الصحيح» أن الله يقول: «**العَظَمَةُ إزاري والكِبْرِياءُ رِدَائي فمنْ نازعني واحدةً مِنْها عَذَّبْتُه**»(١)، وصفات الله نوعان: نوعٌ يختص به كالإلهية فليس لأحدٍ أن يتصف بذلك، فإنه لا إله إلا الله. ونوعٌ يتصف عباده منه بما وهبه لهم كالعلم والرحمة والحكمة، فهذا وإن اتصف به العبد فالله تعالىٰ لا كفوًا له سبحانه، فهو منزَّهٌ عن النقائص مطلقًا ومنزَّه عن أن يكون له مِثْلٌ في شيء من صفات كماله، بل هو موصوف بصفات الكمال علىٰ وجه التفصيل وهو منزَّه فيها عن التمثيل»(٢).

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) «الرد علىٰ الشاذلي في حزبيه وما صنفه في آداب الطريق» (ص: ٩٦).

«فالكبرياء والعظمة له بمنزلة كونه حيًّا قيومًا قديمًا واجبًا بنفسه، وأنه بكل شيء عليم وعلىٰ كل شيء قدير، وأنه العزيز الذي لا يُنال، وأنه قهار لكل ما سواه، فهذه كلها صفات كمال لا يستحقها إلا هو، فما لا يستحقه إلا هو كيف يكون كمالًا من غيره وهو معدوم لغيره؟ فمن ادعاه كان مفتريًا منازعًا للربوبية في خواصها، كما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يقول الله تعالىٰ: العَظَمَةُ إزاري، والكبرياءُ رِدَائي، فمَن نازعني واحدًا منهما عَذَّبْتُهُ**»(١).

وجملة ذلك: أن الكمال المختص بالربوبية ليس لغيره فيه نصيب، فهذا تحقيق اتصافه بالكمال الذي لا نصيب لغيره فيه، ومثل هذا الكمال لا يكون لغيره، فادعاؤه منازعة للربوبية، وفِرْيَةٌ علىٰ الله»(٢).

«فالعظمة والكبرياء من خَصَائِص الربوبية، والكبرياء أَعلَىٰ من العظمة، وَلِهَذَا جعلهَا بِمَنْزِلَة الرِّدَاء كَمَا جعل العظمة بِمَنْزِلَة الإِزَار»(٣).

«وَفِي «الصحيحين» -أَيْضًا- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ؟ ثُمَّ يَقُولُ: أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟**»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ولفظه: «**الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ**».

(٢) «الرسالة الأكملية في ما يجب لله من صفات الكمال» (ص: ٧١).

(٣) «العبودية» (ص: ٩٩).

(٤) سبق تخريجه.

وَكَذَلِكَ فِي «الصحيحين» مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ: «**يَطْوِي اللهُ السَّمَوَاتِ يَوْمَ القِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اليُمْنَىٰ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ. أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟**» وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ قَالَ: «**يَأْخُذُ الجَبَّارُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **سَمَوَاتِهِ وَأَرْضَهُ بِيَدَيْهِ جَمِيعًا فَجَعَلَ يَقْبِضُهُمَا وَيَبْسُطُهُمَا ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ أَنَا الجَبَّارُ، وَأَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ وَأَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ**»، وَيَمِيلُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ حَتَّىٰ نَظَرْت إِلَىٰ المِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ حَتَّىٰ أَنِّي لَأَقُولُ: أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١).

وَفِي «السُّنَنِ» عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الأشجعي قَالَ: «قُمْت مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةً فَقَامَ فَقَرَأَ سُورَةَ البَقَرَةِ لَا يَمُرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلَّا وَقَفَ فَسَأَلَ وَلَا يَمُرُّ بِآيَةِ عَذَابٍ إِلَّا وَقَفَ وَتَعَوَّذَ؛ قَالَ: ثُمَّ رَكَعَ بِقَدْرِ قِيَامِهِ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «**سُبْحَانَ ذِي الجَبَرُوتِ والمَلَكُوتِ والكِبْرِيَاءِ والعَظَمَةِ**»؛ ثُمَّ يَسْجُدُ بِقَدْرِ قِيَامِهِ ثُمَّ قَالَ فِي سُجُودِهِ: مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ قَامَ فَقَرَأَ: بِآلِ عِمْرَانَ؛ ثُمَّ قَرَأَ سُورَةً»، رَوَاهُ أَبُو دَاوُد والنَّسَائِي والتِّرْمِذِي فِي «الشَّمَائِلِ»(٢)، فَقَالَ فِي هَذَا الحَدِيثِ: «**سُبْحَانَ ذِي الجَبَرُوتِ والمَلَكُوتِ والكِبْرِيَاءِ والعَظَمَةِ**»، وَهَذِهِ الأَرْبَعَةُ نُوزِعَ الرَّبُّ فِيهَا؛ كَمَا قَالَ: «**أَيْنَ المُلُوكُ؟ أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟**»، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: «**العَظَمَةُ إِزَارِي؛ والكِبْرِيَاءُ رِدَائِي؛ فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا عَذَّبْته**»(٣)»(٤).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود (٨٧٣)، والنسائي (١٠٠٩)، والترمذي في «الشمائل» (٣١٤)، وصححه الألباني.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) «مجموع الفتاوىٰ» (٨/ ٢٥).

ومَن عرف كبرياء الله نسي كبرياء نفسه.

«فَهُوَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ وَهُوَ المَوْصُوفُ بِصِفَاتِ الكَمَالِ الَّتِي لَا تَبْلُغُهَا عُقُولُ الخَلَائِقِ فَالعَظَمَةُ إِزَارُهُ والكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ. وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَرَأَ عَلَىٰ المِنْبَرِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ﴾ [الزمر:٦٧]. قَالَ: «يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ أَنَا القُدُّوسُ أَنَا السَّلَامُ أَنَا المُؤْمِنُ أَنَا المُهَيْمِنُ أَنَا الَّذِي بَدَأْت الدُّنْيَا وَلَمْ تَكُ شَيْئًا أَنَا الَّذِي أُعِيدُهَا»(١)، وَفِي رِوَايَةٍ: «يُمَجِّدُ الرَّبُّ نَفْسَهُ سُبْحَانَهُ»(٢).

فَهُوَ يَحْمَدُ نَفْسَهُ وَيُثْنِي عَلَيْهَا وَيُمَجِّدُ نَفْسَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَهُوَ الغَنِيُّ بِنَفْسِهِ لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ أَحَدٍ غَيْرِهِ، بَلْ كُلُّ مَا سِوَاهُ فَقِيرٌ إِلَيْهِ: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن:٢٩]، وَهُوَ الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ»(٣).

«وإذا كان وحده هو ربنا ومالكنا وإلهنا فلا مفزع لنا في الشدائد سواه، ولا ملجأ لنا منه إلا إليه، ولا معبود لنا غيره فلا ينبغي أن يُدعىٰ، ولا يُخاف، ولا يُرجىٰ، ولا يُحبُّ سواه، ولا يُذل لغيره، ولا يخضع لسواه، ولا يتوكل إلا عليه،

---

(١) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ٨٣) (٤٤)، وابن بطة في «الإبانة» (٧/ ٢٨٥) (٢١٦) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأصله في «الصحيحين» مختصرًا.

(٢) أخرجه أحمد (٥٤١٤)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٧٦٤٨)، وابن بطة في «الإبانة» (٧/ ٢٨٦) (٢١٧).

(٣) «مجموع الفتاوىٰ» (٨/ ١٤٥).

لأن من ترجوه وتخافه وتدعوه وتتوكل عليه إما أن يكون مربيك والقيم بأمورك ومولي شأنك وهو ربك فلا رب سواه، أو تكون مملوكه وعبده الحق، فهو مَلِك الناس حقًّا وكلهم عبيده ومماليكه، أو يكون معبودك وإلهك الذي لا تستغني عنه طرفة عين، بل حاجتك إليه أعظم من حاجتك إلىٰ حياتك وروحك وهو الإله الحق إله الناس الذي لا إله لهم سواه فمن كان ربهم وملكهم وإلههم فهم جديرون أن لا يستعيذوا بغيره، ولا يستنصروا بسواه، ولا يلجئوا إلىٰ غير حماة، فهو كافيهم وحسبهم وناصرهم ووليهم ومتولي أمورهم جميعًا بربوبيته وملكه وإلهيته لهم، فكيف لا يلتجئ العبد عند النوازل ونزول عدوه به إلىٰ ربه ومالكه وإلهه، فظهرت مناسبة هذه الإضافات الثلاث للاستعاذة مِن أعدىٰ الأعداء وأعظمهم عداوة وأشدهم ضررًا وأبلغهم كيدًا.

ثم إنه سبحانه كرر الاسم الظاهر ولم يوقع المضمر موقعه فيقول: رب الناس وملكهم وإلههم؛ تحقيقًا لهذا المعنىٰ وتقوية له فأعاد ذكرهم عند كل اسم من أسمائه ولم يعطف بالواو لِما فيهم من الإيذان بالمغايرة، والمقصود الاستعاذة بمجموع هذه الصفات حتىٰ كأنها صفة واحدة، وقدم الربوبية لعمومها وشمولها لكل مربوب، وأخَّر الإلهية لخصوصها؛ لأنه سبحانه إنما هو إله مَن عبده ووحَّده واتخذه دون غيره إلهًا فمن لم يعبده ويوحده فليس بإلهه وإن كان في الحقيقة لا إله له سواه، ولكن ترك إلهه الحق واتخذ إلهًا غيره ووسط صفة الملك بين الربوبية والإلهية؛ لأن الملك هو المتصرف بقوله وأمره، فهو المطاع إذا أمر وملكه لهم تابع لخلقه إياهم، فملكه من كمال ربوبيته وكونه إلههم الحق من كمال ملكه، فربوبيته تستلزم ملكه وتقتضيه، وملكه

يستلزم إلهيته ويقتضيها، فهو الرب الحق الملك الحق الإله الحق خلقهم بربوبيته وقهرهم بملكه واستعبدهم بإلهيته.

فتأمل هذه الجلالة وهذه العظمة التي تضمنته هذه الألفاظ الثلاثة علىٰ أبدع نظام وأحسن سياق: (رب الناس ملك الناس إله الناس) وقد اشتملت هذه الإضافات الثلاث علىٰ جميع قواعد الإيمان، وتضمنت معاني أسمائه الحسنىٰ، أما تضمنها لمعاني أسمائه الحسنىٰ فإن الرب هو القادر الخالق البارئ المصور الحي القيوم العليم السميع البصير المحسن المنعم الجواد المعطي المانع الضار النافع المقدم المؤخر، الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء، ويسعد من يشاء ويشقي، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، إلىٰ غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنىٰ.

وأما المَلِك، فهو الآمر الناهي المعز المذل الذي يصرف أمور عباده كما يحب ويقلبهم كما يشاء، وله من معنىٰ الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنىٰ كالعزيز الجبار الحكم العدل الخافض الرافع المعز المذل العظيم الجليل الكبير الحسيب المجيد الوالي المتعالي مالك الملك المقسط الجامع، إلىٰ غير ذلك من الأسماء العائدة إلىٰ الملك.

وأما الإله، فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال فيدخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنىٰ، ولهذا كان القول الصحيح أن «الله» أصله الإله، كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شذ منهم، وأن اسم الله تعالىٰ هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ، فقد تضمنت هذه الأسماء الثلاثة جميع معاني أسمائه الحسنىٰ، فكان المستعيذ بها جديرًا بأن

يُعاذ ويُحفظ ويُمنع من الوسواس الخناس، ولا يسلط عليه، وأسرار كلام الله أجل وأعظم من أن تدركها عقول البشر، وإنما غاية أولي العلم الاستدلال بما ظهر منها علىٰ ما وراء وإن باديه إلىٰ الخافي يسير»(١).

«من أعظم الظُّلم والجهل أن تطلب التَّعْظِيم والتوقير من النَّاس وقلبك خَالٍ من تَعْظِيم الله وتوقيره، فإنك توقِّر المَخْلُوق وتُجلُّه أَن يراك فِي حَال لَا توقِّر الله أَن يراك عَلَيْهَا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ١٣﴾ [نوح:١٣]، أَي: لَا تعاملونه مُعَاملَة من توقِّرونه، والتوقير والعَظَمَة، وَمِنْه قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَتُوَقِّرُوهُۚ﴾ [الفتح:٩]، قَالَ الحسن: مَا لكم لَا تعرفُون لله حَقًّا وَلَا تشكرونه. وَقَالَ مُجَاهِد: لَا تبالون عَظمَة ربكُم. وَقَالَ ابْن زيد: لَا ترَوْنَ لله طَاعَة. وَقَالَ ابْن عَبَّاس: لَا تعرفُون حق عَظمته. وَهَذِه الأَقْوَال ترجع إِلَىٰ معنىٰ وَاحِد، وَهُوَ أَنهم لَو عظَّموا الله وَعرفُوا حقَّ عَظمته وحَّدوه وأطاعوه وشكروه، فطاعته سُبْحَانَهُ اجْتِنَاب مَعَاصيه، والحيَاء مِنْهُ بِحَسب وقاره فِي القلب»(٢).

❁ ❁ ❁

سبوح قدوس

عن عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «**سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ المَلَائِكَةِ والرُّوحِ**»، رواه مسلم(٣).

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٤٨).

(٢) «الفوائد» لابن القيم (ص: ١٨٧).

(٣) (٤٨٧).

«وَهُوَ سُبْحَانَهُ سبُّوح قدوس يسبح لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات والأَرْض، وَ(سُبْحَان الله) كلمة، كَمَا قَالَ مَيْمُون بن مِهْرَان: هِيَ كلمة يعظم بهَا الرب ويحاشىٰ بهَا من السوء»(١).

«وَقَدْ نُقِلَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ العَظِيمِ، وسُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَىٰ**»(٢)؛ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «**سُبْحَانَك اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِك اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي؛ وسُبْحَانَك وَبِحَمْدِك لَا إلَهَ إلَّا أَنْتَ**»(٣). وَفِي بَعْضِ رِوَايَاتِ أَبِي دَاوُد: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ العَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ**»(٤)، وَفِي اسْتِحْبَابِ هَذِهِ الزِّيَادَةِ عَنْ أَحْمَد رِوَايَتَانِ. وَفِي «صحيح مسلم» عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «**سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ المَلَائِكَةِ والرُّوحِ**»(٥)، وَفِي «السُّنَنِ» أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «**سُبْحَانَ ذِي الجَبَرُوتِ والمَلَكُوت والكِبْرِيَاءِ والعَظَمَةِ**»(٦). فَهَذِهِ كُلُّهَا تَسْبِيحَاتٌ»(٧).

وفي «صحيح مسلم» عَنْ أَبِي مُوسَىٰ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ**

(١) «جامع الرسائل» لابن تيمية - رشاد سالم (١/ ١٢٩).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٧٧٢) من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٧٩٤)، ومسلم (٤٨٤) و(٤٨٥) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) أخرجه أبو داود (٨٧٠) من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) سبق تخريجه.

(٧) «مجموع الفتاوىٰ» (١٦/ ١١٥).

القِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ: النَّارُ، لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»(١).

التَّسْبِيحُ جَاءَ تَارَةً فِي القُرْآنِ بِمَعْنَىٰ التَّنْزِيهِ، وَأُخْرَىٰ بِمَعْنَىٰ التعظيم.

أَمَّا الأَوَّلُ: فَجَاءَ عَلَىٰ وُجُوهٍ:

(أ) أَنَا المُنَزَّهُ عَنِ النَّظِيرِ والشَّرِيكِ، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء:٢٢]: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر:٢٣].

(ب) أنا المدبر للسموات والأرض: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الزخرف:٨٢].

(ج) أَنَا المُدَبِّرُ لِكُلِّ العَالَمِينَ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾﴾ [النمل:٨].

(د) أَنَا المُنَزَّهُ عَنْ قَوْلِ الظَّالِمِينَ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الإسراء:٤٣].

(هـ) أَنَا المُسْتَغْنِي عَنِ الكُلِّ: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يونس:٦٨].

---

(١) سبق تخريجه.

(و) أَنَا السُّلْطَانُ الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ سِوَائِي فَهُوَ تَحْتَ قَهْرِي وَتَسْخِيرِي: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾ [يس:٨٣].

(ز) أَنَا العَالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١﴾ [المؤمنون:٩١]: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٩٢﴾ [المؤمنون:٩٢].

(ح) أَنَا المُنَزَّهُ عَنِ الصَّاحِبَةِ والوَلَدِ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝١٧١﴾ [النساء:١٧١].

(ط) أَنَا المُنَزَّهُ عن الظلم: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [الجمعة:١]، ثُمَّ يَقُولُ سبحانه: إِنْ أَرَدْتَ رِضْوَانَ اللهِ فَسَبِّحْ: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢﴾ [الأحزاب:٤٢]. وَإِنْ أَرَدْتَ الفَرَجَ مِنَ البَلَاءِ فَسَبِّحْ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأنبياء:٨٧]، وَإِنْ أَرَدْتَ رِضَا الحَقِّ فَسَبِّحْ: ﴿وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ۝١٣٠﴾ [طه:١٣٠]، وَإِنْ أَرَدْتَ الخَلَاصَ مِنَ النَّارِ فَسَبِّحْ: ﴿سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١﴾ [آل عمران:١٩١].

أَيُّهَا العَبْدُ، وَاظِبْ عَلَىٰ تَسْبِيحِي، فَسُبْحَانَ اللهِ، فَسَبِّحْ، وَسَبِّحُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ تَسْبِيحِي فَالضَّرَرُ عَائِدٌ إِلَيْكَ، لِأَنَّ لِي مَنْ يُسَبِّحُنِي، وَمِنْهُمْ حَمَلَةُ العَرْشِ:

﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ﴾ [فصلت:٣٨]، وَمِنْهُمُ الْمُقَرَّبُونَ: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ [سبأ:٤١]، وَمِنْهُمْ سَائِرُ المَلَائِكَةِ: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ﴾ [الفرقان:١٨]، وَمِنْهُمُ الأَنْبِيَاءُ كَمَا قَالَ ذُو النُّونِ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ [الأنبياء:٨٧]، وَقَالَ مُوسَىٰ: ﴿سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف:١٤٣]، والصَّحَابَةُ يُسَبِّحُونَ فِي قَوْلِهِ: ﴿سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [آل عمران:١٩١]، والكُلُّ يُسَبِّحُونَ، وَمِنْهُمُ الحَشَرَاتُ والدَّوَابُّ والذَّرَّاتُ: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤]، وَكَذَا الحَجَرُ والمَدَرُ والرِّمَالُ والجِبَالُ واللَّيْلُ والنَّهَارُ والظُّلُمَاتُ والأَنْوَارُ والجَنَّةُ والنَّارُ والزَّمَانُ والمَكَانُ والعَنَاصِرُ والأَرْكَانُ والأَرْوَاحُ والأَجْسَامُ كمَا قَالَ تعالىٰ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الحديد:١].

«وَأَمَّا تِرْحَالُنَا أَيُّهَا المُسْلِمُونَ المُصَدِّقُونَ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ فَإِلَىٰ نَعِيمٍ دَائِمٍ، وَخُلُودٍ مُتَّصِلٍ، وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ والأَرْضُ فِي جِوَارِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ، وَأَقْدَرِ القَادِرِينَ، وَأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ، الَّذِي لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ، وَبِيَدِهِ النَّفْعُ والضُّرُّ، الأَوَّلُ بِالحَقِّ، المَوْجُودُ بِالضَّرُورَةِ، المَعْرُوفُ بِالفِطْرَةِ، الَّذِي أَقَرَّتْ بِهِ العُقُولُ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ المَوْجُودَاتُ، وَشَهِدَتْ بِوَحْدَانِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ جَمِيعُ المَخْلُوقَاتِ، وَأَقَرَّتْ بِهَا الفِطَرُ، المَشْهُودُ وَجُودُهُ وَقَيُّومِيَّتُهُ بِكُلِّ حَرَكَةٍ وَسُكُونٍ، بِكُلِّ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ وَمَا سَيَكُونُ، الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مِنْ أَنْوَاعِ النَّبَاتَاتِ، وَبَثَّ بِهِ فِي الأَرْضِ جَمِيعَ الحَيَوَانَاتِ: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ﴾

[النمل:٦١].

الَّذِي يُجِيبُ المُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ، وَيُغِيثُ المَلْهُوفَ إِذَا نَادَاهُ، وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيُفَرِّجُ الكُرُبَاتِ، وَيُقِيلُ العَثَرَاتِ، الَّذِي يَهْدِي خَلْقَهُ فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ والبَحْرِ، وَيُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ، فَيُحْيِي الأَرْضَ بِوَابِلِ القَطْرِ، الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، وَيَرْزُقُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ مِنْ خَلْقِهِ وَعَبِيدِهِ، الَّذِي يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ، وَيُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ، وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ، وَيُدَبِّرُ الأَمْرَ: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون:٨٨]، ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان:٢].

المُسْتَعَانُ بِهِ عَلَىٰ كُلِّ نَائِبَةٍ وَفَادِحَةٍ، والمَعْهُودُ مِنْهُ كُلُّ بِرٍّ وَكَرَامَةٍ، الَّذِي عَنَتْ لَهُ الوُجُوهُ، وَخَشَعَتْ لَهُ الأَصْوَاتُ، وَسَبَّحَتْ بِحَمْدِهِ الأَرْضُ والسَّمَاوَاتُ وَجَمِيعُ المَوْجُودَاتِ، الَّذِي لَا تَسْكُنُ الأَرْوَاحُ إِلَّا بِحُبِّهِ، وَلَا تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ إِلَّا بِذِكْرِهِ، وَلَا تَزْكُو العُقُولُ إِلَّا بِمَعْرِفَتِهِ، وَلَا يُدْرَكُ النَّجَاحُ إِلَّا بِتَوْفِيقِهِ، وَلَا تَحْيَا القُلُوبُ إِلَّا بِنَسِيمِ لُطْفِهِ وَقُرْبِهِ، وَلَا يَقَعُ أَمْرٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا يَهْتَدِي ضَالٌّ إِلَّا بِهِدَايَتِهِ، وَلَا يَسْتَقِيمُ ذُو أَوَدٍ إِلَّا بِتَقْوِيمِهِ، وَلَا يَفْهَمُ أَحَدٌ إِلَّا بِتَفْهِيمِهِ، وَلَا يُتَخَلَّصُ مِنْ مَكْرُوهٍ إِلَّا بِرَحْمَتِهِ، وَلَا يُحْفَظُ شَيْءٌ إِلَّا بِكِلَاءَتِهِ، وَلَا يُفْتَتَحُ أَمْرٌ إِلَّا بِاسْمِهِ، وَلَا يَتِمُّ إِلَّا بِحَمْدِهِ، وَلَا يُدْرَكُ مَأْمُولٌ إِلَّا بِتَيْسِيرِهِ، وَلَا تُنَالُ سَعَادَةٌ إِلَّا بِطَاعَتِهِ، وَلَا حَيَاةٌ إِلَّا بِذِكْرِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَلَا طَابَتِ الجَنَّةُ إِلَّا بِسَمَاعِ خِطَابِهِ وَرُؤْيَتِهِ، الَّذِي وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا، وَأَوْسَعَ كُلَّ مَخْلُوقٍ فَضْلًا وَبِرًّا.

فَهُوَ الإِلَهُ الحَقُّ، والرَّبُّ الحَقُّ، والمَلِكُ الحَقُّ، والمُنْفَرِدُ بِالكَمَالِ المُطْلَقِ مِنْ كُلِّ الوُجُوهِ، المُبَرَّأُ عَنِ النَّقَائِصِ والعُيُوبِ مِنْ كُلِّ الوُجُوهِ، لَا يَبْلُغُ المُثْنُونَ

وَإِنِ اسْتَوْعَبُوا جَمِيعَ الأَوْقَاتِ بِكُلِّ أَنْوَاعِ الثَّنَاءِ ثَنَاءً عَلَيْهِ، بَلْ ثَنَاؤُهُ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، فَهُوَ كَمَا أَثْنَىٰ عَلَىٰ نَفْسِهِ»(١).

❁ ❁ ❁

الرحمن الرحيم

قال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة:٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٣﴾ [البقرة:١٦٣].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠﴾ [النمل:٣٠].

وقال تعالىٰ: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ [فصلت:٢].

وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢﴾ [الحشر:٢٢].

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سَمِعت رَسُول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقُول: «**قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: قسمت الصَّلَاة بيني وَبَين عَبدِي نِصْفَيْنِ، فنصفها لي وَنِصْفهَا لعبدي ولعبدي مَا سَأَلَ**»، قَالَ رَسُول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: اقرءوا:

يَقُول العَبْد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢]، فَيَقُول الله: حمدني عَبدِي.

(١) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (٣/ ٢٦٢).

وَيقُول العَبْد: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾ [الفاتحة:٣]، فَيَقُول الله: أثنىٰ عَليَّ عَبدِي.

وَيقُول العَبْد: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ [الفاتحة:٤]، فَيَقُول الله: مجدني عَبدِي.

وَيقُول العَبْد: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ [الفاتحة:٥]، فَيَقُول الله: هَذَا بيني وَبَين عَبدِي، أَولهَا لي وَآخِرهَا لعبدي وَله ما سأل»، رواه مسلم(١).

وأخرج عبد بن حميد من طَرِيق مطر الوراق عَن قَتَادَة فِي قَول الله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ [الفاتحة:٢]، قَالَ: ما وصف من خلقه(٢).

وَفِي قَوْله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾ [الفاتحة:٣]، قَالَ: مدح نَفسه: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ [الفاتحة:٤]، قَالَ: يَوْم يُدان بَين الخَلَائق(٣).

«(الرَّحْمَن الرَّحِيم) اسْمَانِ مُشْتَقَّانِ مِنَ الرَّحْمَة عَلَىٰ وَجْه المُبَالَغَة، وَرَحْمَن أَشَدُّ مُبَالَغَة مِنْ رَحِيم، وَفِي كَلَام ابْن جَرِير مَا يُفْهَم مِنْهُ حِكَايَة الِاتِّفَاق عَلَىٰ هَذَا، وَفِي تَفْسِير بَعْض السَّلَف مَا يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ»(٤).

«أسماء الرب تعالىٰ هي أسماء ونعوت، فإنها دالة علىٰ صفات كماله، فلا تَنافي فيها بين العلمية والوصفية، فالرحمن اسمه تعالىٰ ووصفه، لا تنافي اسميته وصفيته، فمن حيث هو صفة جرىٰ تابعًا علىٰ اسم الله، ومن حيث هو اسم ورد

(١) سبق تخريجه.

(٢) «الدر المنثور» (١/ ٣٥).

(٣) المصدر السابق.

(٤) «تفسير ابن كثير» ت: مجموعة (١/ ١٩٦).

في القرآن غير تابع، بل ورود الاسم العلَم، ولما كان هذا الاسم مختصًّا به تعالىٰ حسُن مجيئه مفردًا غير تابع كمجيء اسم الله كذلك، وهذا لا ينافي دلالته علىٰ صفة الرحمن كاسم الله تعالىٰ، فإنه دال علىٰ صفة الألوهية، ولم يجيء قط تابعًا لغيره، بل متبوعًا، وهذا بخلاف العليم والقدير والسميع والبصير ونحوها، ولهذا لا تجيء هذه مفردة، بل تابعة، فتأمل هذه النكتة البديعة يظهر لك بها أن الرحمن اسمٌ وصفة لا ينافي أحدهما الآخر، وجاء استعمال القرآن بالأمرين جميعًا.

وأما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنىٰ هو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما، وهو أن الرحمن دال علىٰ الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال علىٰ تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف والثاني للفعل، فالأول دال أن الرحمة صفته، والثاني دال علىٰ أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردت فَهْم هذا فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب:٤٣]، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة:١١٧]، ولم يجئ قط: رحمن بهم، فعلم أن الرحمن هو الموصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم برحمته، وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب وإن تنفَّست عندها مرآة قلبك لم تنجل لك صورتها»(١).

«وَصِفَاتُ الجَلَالِ والجَمَالِ: أَخَصُّ بِاسْمِ اللهِ.

وَصِفَاتُ الفِعْلِ والقُدْرَةِ، والتَّفَرُّدِ بِالضُّرِّ والنَّفْعِ، والعَطَاءِ والمَنْعِ، وَنُفُوذِ المَشِيئَةِ وَكَمَالِ القُوَّةِ، وَتَدْبِيرِ أَمْرِ الخَلِيقَةِ أَخَصُّ بِاسْمِ الرَّبِّ.

---

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ٢٤).

وَصِفَاتُ الإِحْسَانِ، والجُودِ والبِرِّ، والحَنَانِ والمِنَّةِ، والرَّأْفَةِ واللُّطْفِ أَخَصُّ بِاسْمِ الرَّحْمَنِ»(١).

«أَنَّهُ تَعَالَىٰ ذَكَرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ أَسْمَاءِ نَفْسِهِ خَمْسَةً: اللهُ، والرَّبُّ، والرَّحْمَنُ، والرَّحِيمُ، والمَالِكُ. والسَّبَبُ فِيهِ كَأَنَّهُ يَقُولُ: خَلَقْتُكَ أَوَّلًا فَأَنَا إِلَهٌ. ثُمَّ رَبَّيْتُكَ بِوُجُوهِ النِّعَمِ فَأَنَا رَبٌّ، ثُمَّ عَصَيْتَ فَسَتَرْتُ عَلَيْكَ فَأَنَا رَحْمَنٌ، ثُمَّ تُبْتَ فَغَفَرْتُ لَكَ فَأَنَا رَحِيمٌ، ثُمَّ لَا بُدَّ مِنْ إِيصَالِ الجَزَاءِ إِلَيْكَ فَأَنَا مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ»(٢).

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣﴾ [الأنبياء:٨٣].

«جمع فِي هَذَا الدُّعَاء بَين حَقِيقَة التَّوْحِيد وَإِظْهَار الفقر والفاقة إِلَىٰ ربه، وَوُجُود طعم المحبَّة فِي المتملق لَهُ والإِقْرَار لَهُ بِصفة الرَّحْمَة، وَأَنه أرْحم الرَّاحِمِينَ والتوسل إِلَيْهِ بصفاته سُبْحَانَهُ وَشدَّة حَاجته، وَهُوَ فقره، وَمَتىٰ وجد المُبْتَلىٰ هَذَا كشف عَنهُ بلواه، وَقد جرِّب أَنه من قَالَهَا سبع مَرَّات وَلَا سِيمَا مَعَ هَذِه المعرفَة كشف الله ضره»(٣).

«وَفِي الدُّعَاء الَّذِي دَعَا بِهِ النَّبِي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما فعل بِهِ أهل الطَّائِف مَا فعلوا: «اللَّهُمَّ إِلَيْك أَشْكُو ضعف قوتي وَقلة حيلتي وهواني علىٰ النَّاس، يَا أرْحم

(١) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (١/ ٥٦).
(٢) «التفسير الكبير» (١/ ٢٠٨).
(٣) «الفوائد» لابن القيم (ص: ٢٠١).

الرَّاحِمِينَ، أَنْت رب المُسْتَضْعَفِينَ وَأَنت رَبِّي، اللَّهُمَّ إِلَىٰ من تَكِلنِي؟ إِلَىٰ بعيد يتجهمني أم إِلَىٰ عَدو ملكته أَمْرِي؟ إِن لم يكن بك غضب عَليَّ فَلَا أُبَالِي، غير أَن عافيتك أوسع لي، أعوذ بِنور وَجهك الَّذِي أشرقت بِهِ الظُّلُمَات، وَصلح عَلَيْهِ أَمر الدُّنْيَا والآخِرَة أَن ينزل بِي سخطك أَو يحل عَليَّ غضبك، لَك العُتبىٰ حَتَّىٰ ترْضىٰ فَلَا حول وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللهِ»(١)، وَفِي بعض الرِّوَايَات: «وَلَا حول وَلَا قُوَّة إِلَّا بك»(٢)»(٣).

«وَهُوَ سُبْحَانَهُ الرَّحْمَن الرَّحِيم الغفور الوَدُود الجواد المَاجِد، وَهُوَ سُبْحَانَهُ الأكرم الَّذِي علم بالقلم علم الإِنْسَان مَا لم يعلم، وَهُوَ أرْحم الرَّاحِمِينَ وَخير الرَّاحِمِينَ كَمَا قَالَ أَيُّوب: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣﴾ [الأنبياء:٨٣]، وَقَالَ لنَبيه: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١١٨﴾ [المؤمنون:١١٨]، فَهُوَ أَحَق بِالرَّحْمَةِ والجود وَالإِحْسَان من كل أحد، فَهُوَ أرْحم الرَّاحِمِينَ، وَهُوَ أرْحم من الوالدة بِوَلَدِهَا كَمَا أخبر بذلك النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الحَدِيث الصَّحِيح»(٤).

«فَالدَّلِيلُ عَلَىٰ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ أُمُورٌ:

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٣/ ٧٣) (١٨١)، وفي «الدعاء» (١٠٣٦) من حديث عبد الله بن جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) لفظ الطبراني في «الدعاء» (١٠٣٦).

(٣) «العبودية» (ص: ٨٦).

(٤) «جامع الرسائل» لابن تيمية - رشاد سالم (١/ ١٣٧).

أَحَدُهَا: أَنَّ كُلَّ مَنْ رَحِمَ غَيْرَهُ فَإِمَّا أَنْ يَرْحَمَهُ طَلَبًا لِلثَّنَاءِ فِي الدُّنْيَا أَوِ الثَّوَابِ فِي الآخِرَةِ، أَوْ دَفْعًا لِلرِّقَّةِ الجِنْسِيَّةِ عَنِ الطَّبْعِ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ مَطْلُوبُ ذَلِكَ الرَّاحِمِ مَنْفَعَةَ نَفْسِهِ، أَمَّا الحَقُّ سُبْحَانَهُ فَإِنَّهُ يَرْحَمُ عِبَادَهُ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ مِنْ هَذِهِ الوُجُوهِ، وَمِنْ غَيْرِ أَنْ يَعُودَ إِلَيْهِ مِنْ تِلْكَ الرَّحْمَةِ زِيَادَةٌ وَلَا نُقْصَانٌ مِنَ الثَّنَاءِ وَمِنْ صِفَاتِ الكَمَالِ، فَكَانَ سُبْحَانَهُ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

وَثَانِيهَا: أَنَّ كُلَّ مَنْ يَرْحَمُ غَيْرَهُ فَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا بِمَعُونَةِ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ؛ لِأَنَّ مَنْ أَعْطَىٰ غَيْرَهُ طَعَامًا أَوْ ثَوْبًا أَوْ دَفَعَ عَنْهُ بَلَاءً، فَلَوْلَا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ المَطْعُومَ وَالمَلْبُوسَ وَالأَدْوِيَةَ وَالأَغْذِيَةَ وَإِلَّا لَمَا قَدَرَ أَحَدٌ عَلَىٰ إِعْطَاءِ ذَلِكَ الشَّيْءِ، ثُمَّ بَعْدَ وُصُولِ تِلْكَ العَطِيَّةِ إِلَيْهِ، فَلَوْلَا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَهُ سَبَبًا لِلرَّاحَةِ لَمَا حَصَلَ النَّفْعُ بِذَلِكَ، فَإِذًا رَحْمَةُ العِبَادِ مَسْبُوقَةٌ بِرَحْمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ وَمَلْحُوقَةٌ بِرَحْمَتِهِ، بَلْ رَحْمَتُهُمْ فِيمَا بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ كَالقَطْرَةِ فِي البَحْرِ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ تَعَالَىٰ هُوَ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

وَثَالِثُهَا: أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَوْ لَمْ يَخْلُقْ فِي قَلْبِ العَبْدِ تِلْكَ الدَّوَاعِيَ وَالإِرَادَاتِ لَاسْتَحَالَ صُدُورُ ذَلِكَ الفِعْلِ عَنْهُ، فَكَانَ الرَّاحِمُ هُوَ الحَقَّ سُبْحَانَهُ، مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ تِلْكَ الدَّاعِيَةَ، فَثَبَتَ أَنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»(١).

«ومما ينبغي أن يُعلم: أن الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلىٰ العبد، وإن كرهتها نفسُه، وشقت عليها. فهذه هي الرحمة الحقيقية، فأرحم الناس بك مَن شق عليك في إيصال مصالحك، ودفع المضار عنك، فمِن رحمة

(١) «التفسير الكبير» (٢٢/ ١٧٥).

الأب بولده: أن يكرهه علىٰ التأدب بالعلم والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره، ومتىٰ أهمل مِن ولده كان لقلة رحمته به، وإن ظن أنه يرحمه ويرفِّهُهُ ويريحه، فهذه رحمة مقرونة بجهل، كرحمة الأم.

ولهذا كان من إتمام رحمة أرحم الراحمين: تسليط أنواع البلاء علىٰ العبد، فإنه أعلم بمصلحته، فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثير من أعراضه وشهواته: من رحمته به، ولكن العبد لجهله وظلمه يتهم ربه بابتلائه، ولا يعلم إحسانه إليه بابتلائه وامتحانه، وقد جاء في الأثر: «إن المبتلىٰ إذا دعي له: اللهم ارحمه، يقول الله سبحانه: كيف أرحمه من شيء به أرحمه؟»[(١)]، وفي أثر آخر: «إن الله إذا أحب عبدًا حماه الدنيا وطيِّباتها وشهواتها، كما يحمىٰ أحدكم مريضه»[(٢)].

فهذا من تمام رحمته به، لا من بُخله عليه.

كيف؟ وهو الجواد الماجد، الذي له الجود كله، وَجُود جميع الخلائق في جنب جوده أقل من ذرة في جبال الدنيا ورمالها.

فمِن رحمته سبحانه بعباده: ابتلاؤهم بالأوامر والنواهي رحمة وحمية، لا حاجةً منه إليهم بما أمرهم به، فهو الغني الحميد، ولا بُخلًا منه عليهم بما نهاهم عنه، فهو الجواد الكريم.

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٣٦) من حديث قتادة بن النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مرفوعًا بنحوه، وصححه الألباني.

ومن رحمته: أن نغَّص عليهم الدنيا وكدَّرها لئلا يسكنوا إليها، ولا يطمئنوا إليها، ويرغبوا في النعيم المقيم في داره وجواره، فَسَاقَهم إلىٰ ذلك بسياط الابتلاء والامتحان، فمنعهم ليعطيهم، وابتلاهم ليعافيهم، وأماتهم ليحييهم.

ومن رحمته بهم: أن حذَّرهم نفسَه، لئلا يغتروا به، فيعاملوه بما لا تحسن معاملته به، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٣٠﴾ [آل عمران:٣٠]. قال غير واحد من السلف: من رأفته بالعباد: حذَّرهم من نفسه، لئلا يغتروا به»[(١)].

«فَانْظُرْ إِلَىٰ مَا فِي الوُجُودِ مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ الخَاصَّةِ والعَامَّةِ، فَبِرَحْمَتِهِ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولَهُ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابَهُ، وَعَصَمَنَا مِنَ الجَهَالَةِ، وَهَدَانَا مِنَ الضَّلَالَةِ، وَبَصَّرَنَا مِنَ العَمَىٰ، وَأَرْشَدَنَا مِنَ الغَيِّ، وَبِرَحْمَتِهِ عَرَّفَنَا مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَتِهِ وَأَفْعَالِهِ مَا عَرَفْنَا بِهِ أَنَّهُ رَبُّنَا وَمَوْلَانَا، وَبِرَحْمَتِهِ عَلَّمَنَا مَا لَمْ نَكُنْ نَعْلَمُ، وَأَرْشَدَنَا لِمَصَالِحِ دِينِنَا وَدُنْيَانَا، وَبِرَحْمَتِهِ أَطْلَعَ الشَّمْسَ والقَمَرَ، وَجَعَلَ اللَّيْلَ والنَّهَارَ، وَبَسَطَ الأَرْضَ، وَجَعَلَهَا مِهَادًا وَفِرَاشًا وَقَرَارًا وَكِفَاتًا لِلْأَحْيَاءِ والأَمْوَاتِ، وَبِرَحْمَتِهِ أَنْشَأَ السَّحَابَ وَأَمْطَرَ المَطَرَ، وَأَطْلَعَ الفَوَاكِهَ والأَقْوَاتَ والمَرْعَىٰ، وَمِنْ رَحْمَتِهِ سَخَّرَ لَنَا الخَيْلَ والإِبِلَ والأَنْعَامَ وَذَلَّلَهَا مُنْقَادَةً لِلرُّكُوبِ والحَمْلِ والأَكْلِ والدَّرِّ، وَبِرَحْمَتِهِ وَضَعَ الرَّحْمَةَ بَيْنَ عِبَادِهِ لِيَتَرَاحَمُوا بِهَا، وَكَذَلِكَ بَيْنَ سَائِرِ أَنْوَاعِ الحَيَوَانِ.

(١) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (٢/ ١٧٤).

فَهَذَا التَّرَاحُمُ الَّذِي بَيْنَهُمْ بَعْضُ آثَارِ الرَّحْمَةِ الَّتِي هِيَ صِفَتُهُ وَنِعْمَتُهُ، وَاشْتَقَّ لِنَفْسِهِ مِنْهَا اسْمَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَأَوْصَلَ إِلَىٰ خَلْقِهِ مَعَانِيَ خِطَابِهِ بِرَحْمَتِهِ، وَبَصَّرَهُمْ وَمَكَّنَ لَهُمْ أَسْبَابَ مَصَالِحِهِمْ بِرَحْمَتِهِ، وَأَوْسَعَ المَخْلُوقَاتِ عَرْشَهُ، وَأَوْسَعَ الصِّفَاتِ رَحْمَتَهُ، فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ عَرْشِهِ الَّذِي وَسِعَ المَخْلُوقَاتِ بِصِفَةِ رَحْمَتِهِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وَلَمَّا اسْتَوَىٰ عَلَىٰ عَرْشِهِ بِهَذَا الِاسْمِ الَّذِي اشْتَقَّهُ مِنْ صِفَتِهِ وَتَسَمَّىٰ بِهِ دُونَ خَلْقِهِ، كَتَبَ بِمُقْتَضَاهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ يَوْمَ اسْتِوَائِهِ عَلَىٰ عَرْشِهِ حِينَ قَضَىٰ الخَلْقَ كِتَابًا، فَهُوَ عِنْدَهُ وَضَعَهُ عَلَىٰ عَرْشِهِ: أَنَّ رَحْمَتَهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ، وَكَانَ هَذَا الكِتَابُ العَظِيمُ الشَّأْنِ كَالعَهْدِ مِنْهُ سُبْحَانَهُ لِلْخَلِيقَةِ كُلِّهَا بِالرَّحْمَةِ لَهُمْ والعَفْوِ عَنْهُمْ، والمَغْفِرَةِ والتَّجَاوُزِ والسِّتْرِ والإِمْهَالِ والحِلْمِ والأَنَاةِ، فَكَانَ قِيَامُ العَالَمِ العُلْوِيِّ والسُّفْلِيِّ بِمَضْمُونِ هَذَا الكِتَابِ الَّذِي لَوْلَاهُ لَكَانَ لِلْخَلْقِ شَأْنٌ آخَرُ، وَكَانَ عَنْ صِفَةِ الرَّحْمَةِ الجَنَّةُ وَسُكَّانُهَا وَأَعْمَالُهَا، فَبِرَحْمَتِهِ خُلِقَتْ، وَبِرَحْمَتِهِ عُمِرَتْ بِأَهْلِهَا، وَبِرَحْمَتِهِ وَصَلُوا إِلَيْهَا، وَبِرَحْمَتِهِ طَابَ عَيْشُهُمْ فِيهَا، وَبِرَحْمَتِهِ احْتَجَبَ عَنْ خَلْقِهِ بِالنُّورِ، وَلَوْ كَشَفَ ذَلِكَ الحِجَابَ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ.

وَمِنْ رَحْمَتِهِ: أَنَّهُ يُعِيذُ مِنْ سَخَطِهِ بِرِضَاهُ، وَمِنْ عُقُوبَتِهِ بِعَفْوِهِ، وَمِنْ نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ، وَمِنْ رَحْمَتِهِ أَنْ خَلَقَ لِلذَّكَرِ مِنَ الحَيَوَانِ أُنْثَىٰ مِنْ جِنْسِهِ، وَأَلْقَىٰ بَيْنَهُمَا المَحَبَّةَ والرَّحْمَةَ، لِيَقَعَ بَيْنَهُمَا التَّوَاصُلُ الَّذِي بِهِ دَوَامُ التَّنَاسُلِ، وَانْتِفَاعُ الزَّوْجَيْنِ، وَيُمَتَّعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِصَاحِبِهِ.

وَمِنْ رَحْمَتِهِ: أَحْوَجَ الخَلْقَ بَعْضَهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ لِتَتِمَّ مَصَالِحُهُمْ، وَلَوْ أَغْنَىٰ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ لَتَعَطَّلَتْ مَصَالِحُهُمْ وَانْحَلَّ نِظَامُهَا، وَكَانَ مِنْ تَمَامِ رَحْمَتِهِ بِهِمْ

أَنْ جَعَلَ فِيهِمُ الغَنِيَّ والفَقِيرَ، والعَزِيزَ والذَّلِيلَ، والعَاجِزَ والقَادِرَ، والرَّاعِيَ والمَرْعِيَّ، ثُمَّ أَفْقَرَ الجَمِيعَ إِلَيْهِ، ثُمَّ عَمَّ الجَمِيعَ بِرَحْمَتِهِ.

وَمِنْ رَحْمَتِهِ: أَنَّهُ خَلَقَ مِائَةَ رَحْمَةٍ، كُلُّ رَحْمَةٍ مِنْهَا طِبَاقُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، فَأَنْزَلَ مِنْهَا إِلَىٰ الأَرْضِ رَحْمَةً وَاحِدَةً، نَشَرَهَا بَيْنَ الخَلِيقَةِ لِيَتَرَاحَمُوا بِهَا، فَبِهَا تَعْطِفُ الوَالِدَةُ عَلَىٰ وَلَدِهَا، والطَّيْرُ والوَحْشُ والبَهَائِمُ، وَبِهَذِهِ الرَّحْمَةِ قِوَامُ العَالَمِ وَنِظَامُهُ.

وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن:١-٤]، كَيْفَ جَعَلَ الخَلْقَ والتَّعْلِيمَ نَاشِئًا عَنْ صِفَةِ الرَّحْمَةِ مُتَعَلِّقًا بِاسْمِ الرَّحْمَنِ، وَجَعَلَ مَعَانِيَ السُّورَةِ مُرْتَبِطَةً بِهَذَا الاِسْمِ وَخَتَمَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾ [الرحمن:٧٨]، فَالاِسْمُ الَّذِي تَبَارَكَ هُوَ الاِسْمُ الَّذِي افْتَتَحَ بِهِ السُّورَةَ، إِذْ مَجِيءُ البَرَكَةِ كُلِّهَا مِنْهُ، وَبِهِ وُضِعَتِ البَرَكَةُ فِي كُلِّ مُبَارَكٍ، فَكُلُّ مَا ذُكِرَ عَلَيْهِ بُورِكَ فِيهِ، وَكُلُّ مَا خَلِيَ مِنْهُ نُزِعَتْ مِنْهُ البَرَكَةُ، فَإِنْ كَانَ مُذَكًّىٰ وَخَلِيَ مِنْهُ اسْمُهُ كَانَ مَيْتَةً، وَإِنْ كَانَ طَعَامًا شَارَكَ صَاحِبَهُ فِيهِ الشَّيْطَانُ، وَإِنْ كَانَ مَدْخَلًا دَخَلَ مَعَهُ فِيهِ، وَإِنْ كَانَ حَدَثًا لَمْ يُرْفَعْ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ العُلَمَاءِ، وَإِنْ كَانَ صَلَاةً لَمْ تَصِحَّ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْهُمْ، وَلَمَّا خَلَقَ سُبْحَانَهُ الرَّحِمَ وَاشْتَقَّ لَهَا اسْمًا مِنِ اسْمِهِ، فَأَرَادَ إِنْزَالَهَا إِلَىٰ الأَرْضِ تَعَلَّقَتْ بِهِ سُبْحَانَهُ «**فَقَالَ: مَهْ، فَقَالَتْ: هَذَا مَقَامُ العَائِذِ بِكَ مِنَ القَطِيعَةِ، فَقَالَ: أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ وَأَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ؟**»(١)، وَهِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِالعَرْشِ لَهَا حَنْحَنَةٌ كَحَنْحَنَةِ المِغْزَلِ، وَكَانَ تَعَلُّقُهَا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٣٠)، ومسلم (٢٥٥٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بِالعَرْشِ رَحْمَةً مِنْهُ بِهَا، وَإِنْزَالُهَا إِلَىٰ الأَرْضِ رَحْمَةً مِنْهُ بِخَلْقِهِ، وَلَمَّا عَلِمَ سُبْحَانَهُ مَا تَلْقَاهُ مِنْ نُزُولِهَا إِلَىٰ الأَرْضِ وَمُفَارَقَتِهَا لِمَا اشْتُقَّتْ مِنْهُ رَحِمَهَا بِتَعَلُّقِهَا بِالعَرْشِ وَاتِّصَالِهَا بِهِ، وقوله: «**أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ**».

وَلِذَلِكَ كَانَ مَنْ وَصَلَ رَحِمَهُ لِقُرْبِهِ مِنَ الرَّحْمَنِ، وَرِعَايَةَ حُرْمَةِ الرَّحِمِ، قَدْ عَمَّرَ دُنْيَاهُ، وَاتَّسَعَتْ لَهُ مَعِيشَتُهُ، وَبُورِكَ لَهُ فِي عُمْرِهِ، وَنُسِئَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَإِنْ وَصَلَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرَّحْمَنِ جَلَّجَلَالُهُ مَعَ ذَلِكَ وَمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الخَلْقِ بِالرَّحْمَةِ والإِحْسَانِ تَمَّ لَهُ أَمْرُ دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ، وَإِنْ قَطَعَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرَّحِمِ وَمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرَّحْمَنِ أَفْسَدَ عَلَيْهِ أَمْرَ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ، وَمَحَقَ بَرَكَةَ رَحْمَتِهِ وَرِزْقِهِ وَأَثَرِهِ، كَمَا قَالَ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرَ أَنْ يُعَجَّلَ لِصَاحِبِهِ العُقُوبَةُ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يُدَّخَرُ لَهُ مِنَ العُقُوبَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ البَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ**»(١)، فَالبَغْيُ مُعَامَلَةُ الخَلْقِ بِضِدِّ الرَّحْمَةِ، وَكَذَلِكَ قَطِيعَةُ الرَّحِمِ، وَإِنَّ القَوْمَ لَيَتَوَاصَلُونَ وَهُمْ فَجَرَةٌ فَتَكْثُرُ أَمْوَالُهُمْ وَيَكْثُرُ عَدَدُهُمْ، وَإِنَّ القَوْمَ لَيَتَقَاطَعُونَ فَتَقِلُّ أَمْوَالُهُمْ وَيَقِلُّ عَدَدُهُمْ، وَذَلِكَ لِكَثْرَةِ نَصِيبِ هَؤُلَاءِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقِلَّةِ نَصِيبِ هَؤُلَاءِ مِنْهَا.

وَفِي الحَدِيثِ: «**إِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي العُمْرِ**»(٢)، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِأَهْلِ الأَرْضِ خَيْرًا نَشَرَ عَلَيْهِمْ أَثَرًا مِنْ آثَارِ اسْمِهِ الرَّحْمَنِ فَعَمَّرَ بِهِ البِلَادَ، وَأَحْيَا بِهِ العِبَادَ، فَإِذَا أَرَادَ بِهِمْ ضُرًّا أَمْسَكَ عَنْهُمْ ذَلِكَ الأَثَرَ، فَحَلَّ بِهِمْ مِنَ البَلَاءِ بِحَسَبِ مَا

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠٢)، والترمذي (٢٥١١) من حديث أبي بكرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣١٦٨) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٧٦٠).

أَمْسَكَ عَنْهُمْ مِنْ آثَارِ اسْمِهِ الرَّحْمَنِ، ولهذا إِذَا أَرَادَ اللهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُخَرِّبَ هَذِهِ الدَّارَ وَيُقِيمَ القِيَامَةَ أَمْسَكَ عَنْ أَهْلِهَا أَثَرَ هَذَا الِاسْمِ وَقَبَضَهُ شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ وَعْدُهُ قَبَضَ الرَّحْمَةَ الَّتِي أَنْزَلَهَا إِلَىٰ الأَرْضِ، فَتَضَعُ لِذَلِكَ الحَوَامِلُ مَا فِي بُطُونِهَا، وَتَذْهَلُ المَرَاضِعُ عَنْ أَوْلَادِهَا، فَيُضِيفُ سُبْحَانَهُ تِلْكَ الرَّحْمَةَ الَّتِي رَفَعَهَا وَقَبَضَهَا مِنَ الأَرْضِ إِلَىٰ مَا عِنْدَهُ مِنَ الرَّحْمَةِ فَيُكْمِلُ بِهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ فَيَرْحَمُ بِهَا أَهْلَ طَاعَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ وَتَصْدِيقِ رُسُلِهِ وَتَابِعِهِمْ»(١).

«وقال: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر:١-٣]، وهذا كثير في القرآن، فإنه سبحانه يتمدح بالعفو والمغفرة والرحمة والكرم والحلم ويتسمىٰ ولم يتمدح بأنه المعاقب، ولا الغضبان، ولا المعذِّب، ولا المُسقِم إلا في الحديث الذي فيه تعديد الأسماء الحسنىٰ ولم يثبت، وقد كتب علىٰ نفسه كتابًا أن رحمته سبقت غضبه، وكذلك هو في أهل النار، فإن رحمته فيهم سبقت غضبه، فإنه رحمهم أنواعًا من الرحمة قبل أن أغضبوه بشِركهم، ورحمهم في حال شركهم، ورحمهم بإقامة الحجة عليهم، ورحمهم بدعوتهم إليه بعد أن أغضبوه وآذوا رسله وكذبوهم وأمهلهم ولم يعاجلهم، بل وسعتهم رحمته، فرحمته غلبت غضبه، ولولا ذلك لخرب العالَم وسقطت السماوات علىٰ الأرض وخرت الجبال»(٢).

---

(١) «مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة» (ص: ٣٦٨).

(٢) «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» (ص: ٢٥٦).

«أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢﴾ [الأنبياء:١١٢]، فَفِيهِ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَيْ مِنَ الشِّرْكِ والكُفْرِ وَمَا تُعَارِضُونَ بِهِ دَعْوَتِي مِنَ الأَبَاطِيلِ والتَّكْذِيبِ، كَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَالَ: قُلْ دَاعِيًا لِي: ﴿رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ [الأنبياء:١١٢]، وَقُلْ مُتَوَعِّدًا لِلْكُفَّارِ: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢﴾ [الأنبياء:١١٢]، قَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ بِاليَاءِ المَنْقُوطَةِ مِنْ تَحْتٍ، أَيْ: قُلْ لِأَصْحَابِكَ المُؤْمِنِينَ: وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ المُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا يَصِفُ الكُفَّارُ مِنَ الأَبَاطِيلِ، أَيْ مِنَ العَوْنِ عَلَىٰ دَفْعِ أَبَاطِيلِهِمْ.

وَثَانِيهَا: كَانُوا يَطْمَعُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الشَّوْكَةُ والغَلَبَةُ، فَكَذَّبَ الله ظُنُونَهُمْ وَخَيَّبَ آمَالَهُمْ وَنَصَرَ رَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمُؤْمِنِينَ وَخَذَلَهُمْ، قَالَ القَاضِي: إنما ختم الله هذه السورة بقوله: قل رَبِّ احْكُمْ بِالحَقِّ؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ قَدْ بَلَغَ فِي البَيَانِ الغَايَةَ لَهُمْ وَبَلَغُوا النِّهَايَةَ فِي أَذِيَّتِهِ وَتَكْذِيبِهِ، فَكَانَ قُصَارَىٰ أَمْرِهِ تعالىٰ بِذَلِكَ تَسْلِيَةً لَهُ وَتَعْرِيفًا أَنَّ المَقْصُودَ مَصْلَحَتُهُمْ، فَإِذَا أَبَوْا إِلَّا التَّمَادِيَ فِي كُفْرِهِمْ، فَعَلَيْكَ بِالِانْقِطَاعِ إِلَىٰ رَبِّكَ لِيَحْكُمَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ بِالحَقِّ، إِمَّا بِتَعْجِيلِ العِقَابِ بِالجِهَادِ أَوْ بِغَيْرِهِ، وَإِمَّا بِتَأْخِيرِ ذَلِكَ فَإِنَّ أَمْرَهُمْ وَإِنْ تَأَخَّرَ فَمَا هُوَ كَائِنٌ قَرِيبٌ، وَمَا رُوِيَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَقُولُ ذَلِكَ فِي حُرُوبِهِ كَالدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّهُ تعالَىٰ أَمَرَهُ أَنْ يَقُولَ هَذَا القَوْلَ كَالِاسْتِعْجَالِ لِلْأَمْرِ بِمُجَاهَدَتِهِمْ»(١).

(١) «التفسير الكبير» (٢٢/ ١٩٦).

فاستجاب الله تعالىٰ دعاء رسوله فخيب آمالهم وغيَّر أحوالهم ونصر أولياءه عليهم فأصابهم يوم بدر ما أصابهم.

❁ ❁ ❁

الخالق البارئ المصور

قال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام:١].

وقال تعالىٰ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة:١١٧].

وَأخرج ابْن جرير وَابْن أبي حَاتِم عَن أبي العَالِيَة: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١١٧]، يَقُول: ابتدع خلقهما وَلم يشركهُ فِي خلقهما أحد[١].

وَأخرج ابْن جرير عَن السُّديِّ فِي الآيَة قَالَ: ابتدعهما فخلقهما وَلم يخلق قبلهمَا شَيْء فتمثل بِهِ[٢].

الخلق في اللغة يدور حول معنيين:

المعنىٰ الأول: هو إيجاد الشيء من الشيء، أو إيجاد الشيء من العدم.

---

(١) «تفسير الطبري» (٢/ ٥٤١) (١٨٥٨)، و«ابن أبي حاتم» (٧٧٣٠).

(٢) «تفسير الطبري» (١٨٥٩)، و«ابن أبي حاتم» (٧٧٣١).

أي: يأتي الخلق بمعنىٰ الإنشاء والإبداع، ويأتي بمعنىٰ تقدير الشىء. فمن ذلك قولُ الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة:٧]، وقول الله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:١١]، أي هذه مخلوقات الله: ﴿فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾ [لقمان:١١]، فالمعنىٰ هنا أصله التقدير وإبداع الشيء من غير أصل.

والمعنىٰ الثاني: هو تقدير الشيء أو تركيبه وترتيبه.

يدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةً﴾ [المؤمنون:١٤]، أي قدرناها كذلك ﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةً فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمًا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون:١٤].

واعلم -رحمك الله- أَنَّ المَوْجُودَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ وَاجِبًا لِذَاتِهِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُمْكِنًا لِذَاتِهِ، أَمَّا الوَاجِبُ لِذَاتِهِ فَهُوَ اللهُ تَعَالَىٰ فَقَطْ، وَأَمَّا المُمْكِنُ لِذَاتِهِ فَهُوَ كُلُّ مَا سِوَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَهُوَ العَالَمُ، فالعَالَمُ كُلُّ مَوْجُودٍ سِوَىٰ اللهِ، وَسَبَبُ تَسْمِيَةِ هَذَا القِسْمِ بالعَالَمِ أَنَّ وُجُودَ كُلِّ شَيْءٍ سِوَىٰ اللهِ يَدُلُّ عَلَىٰ وُجُودِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَلِهَذَا السَّبَبِ سُمِّيَ كُلُّ مَوْجُودٍ سِوَىٰ اللهِ بِأَنَّهُ عَالَمٌ.

«والبارئ: وهو الذي خلق الخلق لا عن مثال، ولهذه اللفظة من الاختصاص بخلق الحيوان، ما ليس لها بغيره من المخلوقات، وقلَّما تستعمل في غير الحيوان، فيقال: برأ الله النسمة، وخلق السماوات والأرض»(١).

(١) «النهاية» لابن الأثير.

«فَاللهُ عَزَّوَجَلَّ بديع السموات والأَرْضِ، أَيْ: مُنْشِئُهَا وَمُوجِدُهَا وَمُبْدِعُهَا وَمُخْتَرِعُهَا عَلَىٰ غَيْرِ حَدٍّ وَلَا مِثَالٍ. وَكُلُّ مَنْ أَنْشَأَ مَا لَمْ يُسْبَقْ إِلَيْهِ قِيلَ لَهُ: مُبْدِعٌ، وَمِنْهُ أَصْحَابُ البِدَعِ. وَسُمِّيَتِ البِدْعَةُ بِدْعَةً؛ لِأَنَّ قَائِلَهَا ابْتَدَعَهَا مِنْ غَيْرِ فِعْلٍ أَوْ مَقَالِ إِمَامٍ»(١).

وفيها التنبيه علىٰ نَفَاذُ قُدْرَتِهِ فِي خلقه، وَسَرَيَانُ مَشِيئَتِهِ فِي الكَائِنَاتِ، بِحَيْثُ يَمْتَنِعُ أَنْ يَعْرِضَ لَهُ عَائِقٌ وَمَانِعٌ، وقضىٰ هنا بمعنىٰ أراد، أي: إذا أراد -سبحانه- شيئًا، فإنما يقول لهذا الشيء: كن فيكون من غير تأخر ومن غير وجود أسباب، فهو كقوله -تعالىٰ-: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحِۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر:٥٠]، أي: إنما نأمره مرة واحدة لا تثنية فيها فيكون ذلك الشيء سريعًا كلمح البصر، فالجملة الكريمة تصور نفاذ قدرة الله، تصويرًا بديعًا يدل علىٰ أنه -سبحانه- لا يعجزه شيء في هذا الكون.

«وَمِنْ هَذَا احْتِجَاجُهُ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ المُشْرِكِينَ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦﴾ [الطور:٣٥-٣٦]، فَتَأَمَّلْ هَذَا التَّرْدِيدَ والحَصْرَ المُتَضَمِّنَ لِإِقَامَةِ الحُجَّةِ بِأَقْرَبِ طَرِيقٍ وَأَوْضَحِ عِبَارَةٍ.

يَقُولُ تَعَالَىٰ: هَؤُلَاءِ مَخْلُوقُونَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُونُوا، فَهَلْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ خَلَقَهُمْ؟ فَهَذَا مِنَ المُحَالِ المُمْتَنِعِ عِنْدَ كُلِّ عَاقِلٍ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥﴾ [الطور:٣٥]، وهذا -أَيْضًا- مِنَ المُسْتَحِيلِ أَنْ يَكُونَ العَبْدُ خَالِقًا

(١) «تفسير القرطبي» (٢/ ٨٦).

لِنَفْسِهِ، فَإِنَّ مَنْ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَزِيدَ فِي حَيَاتِهِ بَعْدَ وُجُودِهِ وَتَعَاطِيهِ أَسْبَابَ الحَيَاةِ سَاعَةً وَاحِدَةً، كَيْفَ يَكُونُ خَالِقًا لِنَفْسِهِ؟ وَإِذَا بَطَلَ القِسْمَانِ تَبَيَّنَ أَنَّ لَهُمْ خَالِقًا خَلَقَهُمْ، فَهُوَ الإِلَهُ الحَقُّ الَّذِي يَسْتَحِقُّ عَلَيْهِمِ العِبَادَةَ والشُّكْرَ، فَكَيْفَ يُشْرِكُونَ إِلَهًا غَيْرَهُ، وَهُوَ وَحْدَهُ الخَالِقُ لَهُمْ؟

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا مَوْقِعُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الطور:٣٦]، مِنْ هَذِهِ الحُجَّةِ؟ قِيلَ: أَحْسَنُ مَوْقِعٍ، فَإِنَّهُ بَيَّنَ بِالقِسْمَيْنِ الأَوَّلَيْنِ أَنَّ لَهُمْ خَالِقًا فَاطِرًا، وَبَيَّنَ بِالقِسْمِ الثَّالِثِ أَنَّهُمْ بَعْدَ أَنْ وُجِدُوا وَخُلِقُوا فَهُمْ عَاجِزُونَ غَيْرُ خَالِقِينَ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَخْلُقُوا نُفُوسَهُمْ وَلَمْ يَخْلُقُوا السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ، وَإِنَّ الوَاحِدَ القَهَّارَ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ، فَهُوَ المُتَفَرِّدُ بِخَلْقِ المَسْكَنِ والسَّاكِنِ»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة:٢١]، ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢].

«فَذكر سُبْحَانَهُ أَمْرهم بِعِبَادَتِهِ وَذكر اسْم الربِّ مُضَافًا إِلَيْهِم لمقْتَضىٰ عبوديتهم لرَبهم ومالكهم، ثمَّ ذكر ضروبَ إنعامه عَلَيْهِم بإيجادهم، وإيجاد مَن قبلَهم، وَجعل الأَرْض فراشًا لَهُم يُمكنهُم الِاسْتِقْرَار عَلَيْهَا والبناء والسُّكْنَىٰ، وَجعل السَّمَاء بِنَاء وسقفًا، فَذكر أَرض العَالم وسقفه، ثمَّ ذكر إِنْزَال مَادَّة أقواتهم

---

(١) «مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة» (ص: ٩٤).

ولباسهم وثمارهم منبِّهًا بِهَذَا علىٰ اسْتِقْرَار حسن عبَادَة مَن هَذَا شَأْنه، وتشكره الفِطر والعقول وقبح الإِشْرَاك بِهِ وَعبادَة غَيره.

وإِذا تَأَمَّلت العَالَمَ وجدته كالبيت المَبْنِيِّ المُعَدِّ فِيهِ جَمِيع آلاته ومصالحه، وكل مَا يحْتَاج إليه، فالسماء سقفه المَرْفُوع عَلَيْهِ، والأرض مهاد وبساط وفراش ومستقر للساكن، والشَّمْس والقَمَر سرجان يزهران فِيهِ، والنجوم مصابيح لَهُ وزينة وأدلة للمنتقل فِي طرق هَذِه الدَّار، والجواهر والمعادن مخزونة فِيهِ كالذخائر والحواصل المعدة المهيأة كل شَيْء مِنْهَا لشأنه الَّذِي يصلح لَهُ، وضروب النَّبَات مُهَيَّأ لمآربه، وصنوف الحَيَوَان مصروفة لمصالحه، فَمِنْهَا الرَّكُوب وَمِنْهَا الحَلوب وَمِنْهَا الغذَاء وَمِنْهَا اللبَاس والأمتعة والآلات، وَمِنْهَا الحرس الَّذِي وكِّل بحرس الإنسان يَحْرُسهُ، وَهُوَ نَائِم وقاعد، مِمَّا هُوَ مستعد لإهلاكه وأذاه، فلولا مَا سلط عَلَيْهِ من ضِدِّه لم يقر للإنسان قَرَار بَينهم.

وَجَعل الإنسان كالمَلك المُخوَّل فِي ذَلِك، المُحكَّم فِيهِ، المُتَصَرف بِفِعْلِهِ وَأمره، فَفِي هَذَا أعظم دلَالَة وأوضحها علىٰ أن العَالم مَخْلُوق لخالق حَكِيم قدير عليم قدَّره أحسنَ تَقْدِير، ونظَّمه أحسن نظام، وأن الخَالِق لَهُ يَسْتَحِيل أن يكون اثْنَيْنِ، بل الإله وَاحِد، لَا إِلَه إِلَّا هُوَ تَعَالَىٰ عَمَّا يَقُول الظَّالِمُونَ والجاحدون علوًّا كَبِيرًا.

وتَأمل خلقَ السَّمَاء وارْجِع البَصَر فِيهَا كَرَّةً بعد كرَّة، كَيفَ ترَاهَا من أعظم الآيات فِي علوها وارتفاعها وسَعتها وقرارها، بِحَيْثُ لَا تصعد علوًا كالنار وَلَا تهبط نازلة كالأجسام الثَّقِيلَة، وَلَا عَمَد تحتهَا وعلاقة فَوْقهَا، بل هِيَ ممسوكة بقدرة الله الَّذِي يمسك السَّمَوَات والأرض أن تَزُولَا، ثمَّ تَأمل استواءها

واعتدالها فَلَا صدع فِيهَا وَلَا فطر وَلَا شقّ وَلَا أمْتَ وَلَا عِوَج، ثمَّ تَأمل مَا وضعت عَلَيْهِ من هَذَا اللَّوْن الَّذِي هُوَ أحسن الألوان وأشدها مُوَافقَة لِلْبَصَرِ وتقوية لَهُ.

ثمَّ تَأمل حَال الشَّمْس والقَمَر فِي طلوعهما وغروبهما لإقامة دَوْلَتِي اللَّيْل والنَّهَار، وَلَوْلَا طلوعهما لبطل أمْر العَالم، وَكَيف كَانَ النَّاس يسعون فِي معائشهم ويتصرفون فِي أمورهم والدُّنْيَا مظْلمَة عَلَيْهِم؟ وَكَيف كَانُوا يتهنون بالعيش مَعَ فقد النُّور؟ ثمَّ تَأمل الحِكْمَة فِي غروبهما؛ فَإِنَّهُ لَوْلَا غروبهما لم يكن للنَّاس هدوء وَلَا قَرَار مَعَ فرط الحَاجة إِلَىٰ السُّبات وجموم الحَواس وانبعاث القُوىٰ البَاطِنَة وَظُهُور سلطانها فِي النَّوم المُعِين علىٰ هضم الطَّعَام وتنفيذ الغذَاء إِلَىٰ الأعضاء، ثمَّ لَوْلَا الغُرُوب لكَانَتِ الأرض تَحْمِي بدوام شروق الشَّمْس واتصال طُلُوعهَا حَتَّىٰ يَحْتَرِق كلُّ مَا عَلَيْهَا من حَيَوان ونبات، فَصَارَت تطلع وقتًا بِمَنْزِلَة السراج يرفع لأهل البَيْت ليقضوا حوائجهم، ثمَّ تغيب عَنْهُم مثل ذَلِك ليقروا ويهدءوا، وَصَارَ ضِيَاء النَّهَار مَعَ ظلام اللَّيْل وحرُّ هَذَا مَعَ برد هَذَا مَعَ تضادهما متعاونين متظاهرين بهما تَمام مصَالح العَالَم، وَقد أشار تَعَالَىٰ إِلَىٰ هَذَا المَعْنىٰ وَنبهَ عباده عَلَيْهِ بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص:٧١-٧٢].

خص سُبْحَانَهُ النَّهَار بِذكر البَصَر لأنه مَحَله وَفِيه سُلْطَان البَصَر وتصرفه، وَخص اللَّيْل بِذكر السَّمع لأن سُلْطَان السَّمع يكون بِاللَّيْلِ وَتسمع فِيهِ الحَيَوَانَات

مَا لا تسمع فِي النَّهار، لأنه وَقت هدوء الأصوات وخمود الحركات وَقُوَّة سُلْطَان السَّمع وَضعف سُلْطَان البَصَر، والنَّهار بِالعَكْسِ فِيهِ قُوَّة سُلْطَان البَصَر وَضعف سُلْطَان السَّمع.

ثمَّ تَأمل بعد ذَلِك أحوال هَذِه الشَّمْس فِي انخفاضها وارتفاعها لإقامة هَذِه الأزمنة والفصول وَمَا فِيهَا من المصَالح والحِكَم؛ إِذْ لَو كَانَ الزَّمَان كُله فصلًا وَاحِدًا لفاتت مصَالح الفُصُول البَاقِيَة فِيهِ، فَلَو كَانَ صيفًا كُله لفاتت مَنَافِع مصَالح الشتَاء، وَلَو كَانَ شتاء لفاتت مصَالح الصَّيف، وَكَذَلِكَ لَو كَانَ ربيعًا كُله أَوْ خَرِيفًا كُله، فَفِي الشتَاء تغور الحَرَارَة فِي الأجواف وبطون الأرض والجِبَال فتتولد مواد الثِّمَار وَغَيرهَا وتبرد الظَّوَاهِر ويستكثف فِيهِ الهَوَاء فَيحصل السَّحَاب والمطر والثلج والبرد الَّذِي بِهِ حَيَاة الأرض وَأَهْلهَا واشتداد أبدان الحَيَوَان وقوتها، وتزايد القوىٰ الطبيعية، واستخلاف مَا حللته حرارة الصَّيف من الأبدان.

وَفِي الرَّبيع تتحرك الطبائع وَتظهر الموَاد المتولدة فِي الشتَاء فَيظْهر النَّبَات ويتنور الشَّجر بالزهر ويتحرك الحَيَوَان للتناسل، وَفِي الصَّيف يحتد الهَوَاء ويسخن جدًّا فتنضج الثِّمَار وتنحل فضلات الأبدان والأخلاط الَّتِي انْعَقَدت فِي الشتَاء، وتغور البُرُودَة وتهرب إلىٰ الأجواف، ولهذا تبرد العُيُون والآبار، وَلَا تهضم المعدة الطَّعَام الَّتِي كَانَت تهضمه فِي الشتَاء من الأطعمة الغليظة؛ لأنها كَانَت تهضمها بالحرارة الَّتِي سكنت فِي البُطُون، فَلَمَّا جَاءَ الصَّيف خرجت الحَرَارَة إلىٰ ظَاهر الجَسَد وَغَارَتِ البُرُودَة فِيهِ، فَإِذا جَاءَ الخريف اعتدل الزَّمَان وَصَفَا الهَوَاء وَبرد، فانكسر ذَلِك السمُوم وَجعله الله بِحِكْمَتِهِ برزخًا بَين سموم

الصَّيف وَبرد الشتَاء لِئَلَّا يتنقل الحَيَوَان وهلة وَاحِدَة من الحر الشَّديد إِلىٰ البرد الشَّديد فيجد أذاه ويعظم ضَرَره، فَإِذا انْتقل إِلَيه بتدريج وترتب لم يصعب عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ عِنْد كل جُزْء يستعد لقبُول مَا هُوَ أَشد مِنْهُ حَتَّىٰ تَأتي جَمْرَة البرد بعد استعداد وَقبُول، حِكْمَة بَالِغَة وَآيَة باهرة، وَكَذَلِكَ الرَّبيع برزخ بَين الشتَاء والصيف ينْتَقل فِيهِ الحَيَوَان من برد هَذَا إِلىٰ حرِّ هَذَا بتدريج وترتيب، فَتَبَارَكَ الله رب العَالمين وأحسن الخَالِقِينَ.

ثمَّ تَأمل حكمته تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ فِي هَذِه النُّجُوم وَكَثْرَتهَا وَعَجِيب خلقهَا، وَأَنَّهَا زِينَة للسماء وأدلة يهتدىٰ بهَا فِي طرق البر والبَحْر وَمَا جعل فِيهَا من الضَّوْء والنور بِحَيْثُ يمكننا رؤيتها مَعَ البُعد المُفرط، وَلَوْلَا ذَلِك لم يحصل لنا الاهتداء والدَّلَالَة وَمَعْرِفَة المَوَاقِيت، ثمَّ تَأمل تسخيرها منقادة بِأَمر رَبهَا تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، جَارِيَة علىٰ سَنَن وَاحِد اقتضت حكمته وَعلمه أن لَا تخرج عَنهُ، فَجعل مِنْهَا البروج والمنازل والثوابت والسيارة والكبار والصغَار والمتوسط والأبيض الأزهر والأبيض الأحمر، وَمِنْهَا مَا يخفىٰ علىٰ النَّاظر فَلَا يُدْرِكهُ، وَجعل منْطقَة البروج قسمَيْنِ: مُرْتَفعَة ومنخفضة، وَقدَّر سَيرهَا تَقْدِيرًا وَاحِدًا، وَنزَّل الشَّمْس والقَمَر والسيارات مِنْهَا منازلَها، فَمِنْهَا مَا يقطعهَا فِي شهر وَاحِد، وَهُوَ القَمَر، وَمِنْهَا مَا يقطعهَا فِي عَام، وَمِنْهَا مَا يقطعهَا فِي عدَّة أَعْوام، كل ذَلِك مُوجب الحِكْمَة والعناية، وَجعل ذَلِك أَسبَاب لما يحدثه سُبْحَانَهُ فِي هَذَا العَالَم فيستدل بهَا النَّاس علىٰ تِلْكَ الحَوَادِث الَّتِي تقارنها كمعرفتهم بِمَا يكون مَعَ طُلُوع الثُّرَيَّا إِذا طلعت، وغروبها إِذا سَقَطت من الحَوَادِث الَّتِي تقارنها، وَكَذَلِكَ غَيرهَا من المنَازل والسيارات.

ثمَّ تَأمل جعله سُبْحَانَهُ بَنَات نَعْش(١)، وَمَا قرب مِنْهَا ظَاهِرَة لَا تغيب لقربها من المركز، وَلما فِي ذَلِك من الحِكْمَة الإلهية وأنها بِمَنْزِلَة الأعلام الَّتِي يَهْتَدِي بهَا النَّاس فِي الطُّرق المجهولة فِي البر والبَحْر، فهم ينظرُونَ إليها وَإِلَىٰ الجَدي والفرقدين كل وَقت أرادوا فيهتدون بهَا حَيْثُ شاءوا.

«وَإِذا تَأَمَّلت مَا دعا الله سُبْحَانَهُ فِي كِتَابه عبادَه إلىٰ الفِكر فِيهِ أوقعك علىٰ العلم بِهِ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وبوحدانيته وصفات كَمَاله ونعوت جَلَاله من عُمُوم قدرته وَعلمه وَكَمَال حكمته وَرَحمته وإحسانه وبره ولطفه وعدله وَرضَاهُ وغضبه وثوابه وعقابه، فَبِهَذَا تعرَّف إلىٰ عباده وندبهم إلىٰ التفكر فِي آيَاته، وَنَذْكُر لذَلِك أمثلة مِمَّا ذكرهَا الله سُبْحَانَهُ فِي كِتَابه يسْتَدلُّ بهَا علىٰ غيرهَا:

فَمِن ذَلِك: خلق الإنسان، وقد ندب سُبْحَانَهُ إلىٰ التفكر فِيهِ والنَّظَر فِي غير مَوضِع من كِتَابه؛ كَقَوْلِه تَعَالَىٰ: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾ [الطارق:٥]، وقوله تَعَالَىٰ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات:٢١]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [الحج:٥].

---

(١) بنات نعش: سبعةُ كَواكبَ: أَربعة مِنْهَا نَعْش؛ لأَنها مُربَّعة، وثلاثةٌ بَناتُ نَعْش. انظر: «لسان العرب» (٦/ ٣٥٥).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةً مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣٩ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ۝٤٠﴾ [القيامة:٣٦-٤٠]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٢٠ فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ۝٢٢ فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ۝٢٣﴾ [المرسلات:٢٠-٢٣]، وَقَالَ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٧٧﴾ [يس:٧٧]، وَقَالَ: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون:١٢-١٤].

وهذا كثير فِي القُرْآن يَدْعُو العَبْدَ إِلىٰ النَّظر والفكر فِي مبدأ خلقه ووسطه وَآخره؛ إِذْ نَفسه وخلقه من أعظم الدَّلَائِل علىٰ خالقه وفاطره وأقرب شَيْء إِلىٰ الإنسان نَفسه، وَفِيه من العَجَائِب الدَّالَّة علىٰ عَظمَة الله مَا تَنْقَضِي الأعمار فِي الوُقُوف علىٰ بعضه، وَهُوَ غافل عَنهُ مُعرِض عَن التفكر فِيهِ، وَلَو فكر فِي نَفسه لزجره مَا يعلم من عجائب خلقهَا عَن كفره، قَالَ الله تَعَالَىٰ: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ۝١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢﴾ [عبس:١٧-٢٢].

فَلم يُكرر سُبْحَانَهُ علىٰ أسماعنا وعقولنا ذكر هَذَا لنسمع لفظ النُّطْفَة والعلقة والمضغة والتُّرَاب، وَلَا لنتكلم بهَا فَقَط، وَلَا لمُجَرَّد تعريفنا بذلك، بل لأمر وَرَاء ذَلِك كُله هُوَ المَقْصُود بِالخِطَابِ وإليه جرىٰ ذَلِك الحَدِيث، فَانْظُر الآن إِلىٰ النُّطْفَة بِعَين البصيرة وَهِي قَطْرَة من مَاء مَهين ضَعِيف مستقذر لَو مرت

بهَا سَاعَة من الزَّمَان فَسدتْ وأنتنت؛ كَيفَ استخرجها رب الأرباب العَلِيم القَدِير من بَين الصُّلب والترائب منقادةً لقدرته مطيعة لمشيئته مذلَّلة الانقياد علىٰ ضِيق طرقها وَاخْتِلَاف مجاريها إلىٰ أن سَاقهَا إلىٰ مستقرها ومجمعها؟

وَكَيف جمع سُبْحَانَهُ بَين الذَّكر والأنثىٰ وألقىٰ المحبَّة بَينهمَا؟

وَكَيف قادهما بسلسلة الشَّهْوَة والمحبة إلىٰ الِاجْتِمَاع الَّذِي هُوَ سَبَب تخليق الوَلَد وتكوينه؟

وَكَيف قدَّر اجْتِمَاع ذَيْنك الماءين مَعَ بعد كل مِنْهُمَا عَن صَاحبه وساقهما من أعماق العُرُوق والأعضاء وجمعهما فِي مَوضِع وَاحِد جعل لَهما قرارًا مَكينًا لَا يَنَالهُ هَوَاء يُفْسِدهُ، وَلَا برد يُجمده، وَلَا عَارض يصل إليه، وَلَا آفَة تتسلط عَلَيْهِ، ثمَّ قلب تِلْكَ النُّطْفَة البَيْضَاء المشْربَة علقَة حَمْرَاء تضرب إلىٰ سَواد، ثمَّ جعلهَا مُضْغَة لحم مُخَالفَة للعلقة فِي لَوْنهَا وحقيقتها وشكلها، ثمَّ جعله عظامًا مُجَرَّدَة لَا كسْوَة عَلَيْهَا مباينة للمضغة فِي شكلها وهيأتها وقدرها وملمسها ولونها.

وَانْظُر كَيفَ قسم تِلْكَ الأجزاء المتشابهة المتساوية إلىٰ الأعصاب والعِظَام والعُرُوق والأوتار واليابس واللَّيِّن وَبَين ذَلِك؟ ثمَّ كَيفَ ربط بَعْضهَا بِبَعْض أقوىٰ رِبَاط وأشده وأبعده عَن الانحلال؟ وَكَيف كساها لَحْمًا رَكَّبه عَلَيْهَا وَجعله وِعَاء لَهَا وغشاءً وحافظًا وَجعلهَا حاملة لَهُ مُقِيمَة لَهُ، فاللحم قَائِم بهَا وَهِي مَحْفُوظَة بِهِ؟ وَكَيف صوَّرها فأحسن صورها وشقَّ لَهَا السَّمع والبَصَر والفَمَ والأنف وَسَائِر المنافذ وَمدَّ اليَدَيْنِ والرِّجلَيْنِ وبسطهما وَقسَّم رءوسهما بالأصابع، ثمَّ قسَّم الأصابع بالأنامل، وَركب الأعضاء البَاطِنَة من القلب

والمعدة والكبد والطحَال والرئة والرحِم والمثانة والأمعاء كل وَاحِد مِنْهَا لَهُ قدر يَخُصُّهُ وَمَنْفَعَة تخصه؟

ثمَّ انْظُر الحِكْمَة البَالِغَة فِي تركيب العِظَام قِوامًا للبدن وعمادًا لَهُ، وَكَيف قدَّرهَا ربه وخالقها بتقادير مُخْتَلفَة وأشكال مُخْتَلفَة، فَمِنْهَا الصَّغِير والكَبِير والطويل والقصير والمنحنىٰ والمستدير والدقيق والعريض والمصمت والمجوف؟ وَكَيف ركَّب بَعْضهَا فِي بعض، فَمِنْهَا مَا تركيبه تركيب الذَّكر فِي الأنثىٰ، وَمِنْهَا مَا تركيبه تركيب اتِّصَال فَقَط؟ وَكَيف اخْتلفت أشكالها باخْتلَاف مَنَافِعهَا كالأضراس، فَإِنَّهَا لما كَانَت آلَة للطحن جعلت عريضة، وَلما كَانَت الأسنان آلَة للْقطع جعلت مستدقَّة محددة، وَلما كَانَ الإنسان مُحْتَاجًا إِلىٰ الحَرَكَة بجملة بدنه وببعض أعضائه للتردد فِي حَاجته لم يَجْعَل عِظَامه عظمًا وَاحِدًا، بل عظامًا مُتعَدِّدَة، وَجعل بَينهَا مفاصل حَتَّىٰ تتيسر بهَا الحَرَكَة، وَكَانَ قدر كل وَاحِد مِنْهَا وشكله علىٰ حسب الحَرَكَة المَطْلُوبَة مِنْهُ؟

وَكَيف شدَّ أسرَ تِلْكَ المفاصل والأعضاء وربط بَعْضهَا بِبَعْض بأوتار ورباطات أنبتها من أحد طرفي العظم وألصق أحد طرفي العَظم بالطرف الآخر كالرباط لَهُ، ثمَّ جعل فِي أحد طرفي العظم زَوَائِد خَارِجَة عَنهُ، وَفِي الآخر نقرًا غائصة فِيهِ مُوَافقَة لشكل تِلْكَ الزَّوَائِد ليدْخل فِيهَا وينطبق عَلَيْهَا، فَإِذا أَرَادَ العَبْد أن يُحَرك جُزْءًا من بدنه لم يمْتَنع عَلَيْهِ، وَلَوْلَا المفاصل لتعذر ذَلِك عَلَيْهِ، وَتَأمل كَيْفيَّة خلق الرأس وَكَثْرَة مَا فِيهِ من العِظَام، حَتَّىٰ قيل: إِنَّهَا خَمْسَة وَخَمْسُونَ عظمًا مُخْتَلفَة الأشكال والمقادير والمَنَافِع؟

وَكَيف رَكَّبه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ علىٰ البدن وَجعله عَالِيًا علوَّ الرَّاكِب علىٰ مركوبه، وَلما كَانَ عَالِيًا علىٰ البدن جعل فِيهِ الحَواس الخمس وآلات الإدراك كلهَا من السَّمع والبَصَر والشم والذوق واللمس، وَجعل حاسة البَصَر فِي مقدمه ليَكُون كالطليعة والحرس والكاشف للبدن، وَركَّب كل عين من سبع طَبَقَات لكل طبقَة وصف مَخْصُوص وَمِقْدَار مَخْصُوص وَمَنْفَعَة مَخْصُوصَة لَو فقدت طبقَة من تِلْكَ الطَّبَقَات السَّبع أو زَالَت عَن هيئتها وموضعها لتعطلت العين عَن الإبصار، ثمَّ أركز سُبْحَانَهُ دَاخل تِلْكَ الطَّبَقَات السَّبع خلقًا عجيبًا، وَهُوَ إِنْسَان العين بِقدر العدسة يبصر بِهِ مَا بَين المشرق والمغْرب والأرض والسَّمَاء، وجعله من العين بِمَنْزِلَة القلب من الأعضاء فهو ملكها، وَتلك الطَّبَقَات والأجفان والأهداب خدَم لَهُ وحُجَّاب وحرَّاس، فَتَبَارَكَ الله أحسن الخَالِقِينَ.

فَانْظُر كَيفَ حسَّن شكل العَينَيْنِ وهيئتها ومقدارهما، ثمَّ جمَّلهما بالأجفان غِطاءً لَهما وسِتْرًا وحِفظًا وزينة، فهما يتلقيان عَن العين الأذىٰ والقَذا والغُبَار ويُكِنَّانهما من البَارِد المؤذي والحار المؤذي، ثمَّ غرس فِي أطراف تِلْكَ الأجفان الأهدابَ جمالًا وزينة ولمنافع أخر وَرَاء الجمال والزينة، ثمَّ أودعهما ذَلِك النُّور الباصر والضوء الباهر الَّذِي يخرق مَا بَين السَّمَاء والأرض، ثمَّ يخرق السَّمَاء مجاوزًا لرؤية مَا فَوْقهَا من الكَوَاكِب، وَقد أودع سُبْحَانَهُ هَذَا السِّرَّ العجيب فِي هَذَا المِقْدَار الصَّغِير بِحَيْثُ تنطبع فِيهِ صُورَة السَّمَوَات مَعَ اتساع أكنافها وتباعد أقطارها، وشَقَّ لَهُ السَّمع وَخلَق الأذن أحسن خِلقة وأبلغها فِي حُصُول المَقْصُود مِنْهَا، فَجَعلهَا مجوَّفة كالصدفة لِتجمع الصَّوْت فتؤديه إلىٰ الصماخ، وليحس بدبيب الحَيَوَان فِيهَا فيبادر إلىٰ إخراجه، وَجعل فِيهَا غضونًا

وتجاويف واعوجاجات تمسك الهَوَاء والصَّوْت الدَّاخِل فتكسر حِدَّته، ثمَّ تُؤَدِّيه إلىٰ الصماخ، وَمن حِكْمَة ذَلِك أن يطول بِهِ الطَّرِيق علىٰ الحَيَوَان فَلَا يصل إلىٰ الصماخ حَتَّىٰ يَسْتَيْقِظ أو ينتبه لإمساكه، وَفِيه -أيضًا- حِكَم غير ذَلِك.

ثمَّ اقْتَضَت حِكْمَة الرب الخَالِق سُبْحَانَهُ أن جعل مَاء الأذن مُرًّا فِي غَايَة المَرارة فَلَا يُجَاوِزهُ الحَيَوَان، وَلَا يقطعهُ دَاخِلًا إلىٰ بَاطِن الأذن، بل إِذا وصل إليه أعْمَلَ الحِيلَة فِي رُجُوعه، وَجعل مَاء العَينَيْنِ مِلحًا ليحفظها، فَإِنَّهَا شحمة قَابِلَة للْفَسَاد، فَكَانَت ملوحة مَائِهَا صِيَانة لَهَا وحفظًا، وَجعل مَاء الفَم عَذبًا حُلوًا ليدرك بِهِ طعوم الأشياء علىٰ مَا هِيَ عَلَيْهِ؛ إِذْ لَو كَانَ علىٰ غير هَذِه الصِّفة لأحالها إلىٰ طَبِيعَته، كَمَا أَنَّ مَن عرَض لفمه المرارة اسْتمرَّ طعمَ الأشياء الَّتِي لَيست بِمُرَّة، كَمَا قيل:

وَمَــن يَــكُ ذَا فَــم مُــرٍّ مَــرِيض ... يجــد مُــرًّا بِــهِ المَــاءَ الــزُّلالَا

وَنصب سُبْحَانَهُ قَصَبَة الأنف فِي الوَجْه فَأحْسن شكله وهيأته وَوَضعه وَفتح فِيهِ المنخرين، وحجز بَينهمَا بحاجز وأودع فيهمَا حاسة الشم الَّتِي تدْرك بهَا أنواع الروائح الطَّيبَة والخبيثة والنافعة والضارة، وليستنشق بِهِ الهَوَاء فيوصله إلىٰ القلب فيتروح بِهِ ويتغذىٰ بِهِ، ثمَّ لم يَجْعَل فِي دَاخله من الاعوجاجات والغضون مَا جعل فِي الأذن لِئَلَّا يمسك الرَّائِحَة فيضعفها وَيقطع مجْراهَا، وَجعله سُبْحَانَهُ مصبًّا تنحدر إليه فضلات الدِّمَاغ فتجتمع فِيهِ، ثمَّ تخرج مِنْهُ، واقتضت حكمته أن جعل أعلاه أدقَّ من أسفله، لأن أسفله إِذا كَانَ وَاسِعًا اجْتمعت فِيهِ تِلْكَ الفضلات فَخرجت بسهولة، ولأنه يَأْخذ من الهَوَاء ملأَهُ، ثمَّ يتصاعد فِي مجْرَاه قَلِيلًا حَتَّىٰ يصل إلىٰ القلب وصُولًا لَا يضرُّهُ، وَلَا يزعجه، ثمَّ

فصل بَين المنخرين بحاجز بَينهمَا حِكْمَة مِنْهُ وَرَحْمَة، فَإِنَّهُ لما كَانَ قَصَبَة ومجرىٰ ساترًا لما يتحدر فِيهِ من فضلات الرأس ومجرىٰ النَّفس الصاعد مِنْهُ جعل فِي وَسطه حاجزًا لِئَلَّا يفْسد بِمَا يجرىٰ فِيهِ فَيمْنَع نشقه للنَّفس، بل إِمَّا أن تعتمد الفضلات نازلة من أحد المنفذين فِي الغَالِب فَيبقىٰ الآخر للتنفس، وَإِمَّا أن يجري فيهمَا فينقسم فَلَا ينسد الأنف جملَة، بل يبْقىٰ فِيهِ مدْخل للتنفس.

وأيضًا، فَإِنَّهُ لما كَانَ عضوًا وَاحِدًا وحاسة وَاحِدَة وَلم يكن عضوَيْن وحاستين كالأذنين والعينين اللَّتَيْنِ اقْتَضَت الحِكْمَة تعددهما، فَإِنَّهُ رُبمَا أصيبت إحداهما أو عَرَضت لَهَا آفَة تمنعها من كمالها، فَتكون الأخرىٰ سَالِمَة فَلَا تتعطل مَنْفَعَة هَذَا الحس جملَة، وَكَانَ وجود أنفين فِي الوَجْه شَيْئًا ظَاهرًا فنصب فِيهِ أنفًا وَاحِدًا، وَجعل فِيهِ منفذين حجز بَينهمَا بحاجز يجري مجْرىٰ تعدد العَينَيْنِ والأذنين فِي المَنْفَعَة، وَهُوَ وَاحِد، فَتبَارَكَ الله رب العَالمين وأحسن الخَالِقِينَ.

وشق سُبْحَانَهُ للْعَبد الفَمَ فِي أحسن مَوضِع وأَلْيَقه بِهِ، وأودع فِيهِ من المَنَافِع وآلات الذَّوْق والكَلَام وآلات الطَّحْن والقطع مَا يبهر العُقُول عجائبُه، فأودعه اللِّسَان الَّذِي هُوَ أحد آيَاته الدَّالَّة عَلَيْهِ وَجعله ترجمانًا لمَلِك الأعضاء مُبينًا مُؤديًا عَنهُ، كَمَا جعل الأذن رَسُولًا مُؤديًا مبلِّغًا إليه، فَهِيَ رَسُوله وبريده الَّذِي يُؤَدِّي إليه الأخبار، واللِّسَان بريده وَرَسُوله الَّذِي يُؤَدِّي عَنهُ مَا يُرِيد، واقتضت حكمته سُبْحَانَهُ أن جعل هَذَا الرَّسُول مصونًا مَحْفُوظًا مَسْتُورًا غير بارز مَكْشُوف كالأذن والعين والأنف، لأن تِلْكَ الأعضاء لما كَانَت تُؤَدِّي من الخَارِج إليه جُعلت بارزة ظَاهِرَة، وَلما كَانَ اللِّسَان مُؤديًا مِنْهُ إِلىٰ الخَارِج جعل لَهُ سترًا مصونًا لعدم الفَائِدَة فِي إبرازه، لأنه لَا يَأْخُذ من الخَارِج إِلىٰ القلب، وَأَيْضًا فَلِأَنَّهُ لما كَانَ

أشرف الأعضاء بعد القلب ومنزلته مِنْهُ منزلَة ترجمانه ووزيره، ضرب عَلَيْهِ سرادق تستره وتصونه، وَجعل فِي ذَلِك السرادق كالقلب فِي الصَّدْر.

وأيضًا، فَإِنَّهُ مِن ألطف الأعضاء وألينها وأشدها رُطُوبَة، وَهُوَ لَا يتَصَرَّف إِلَّا بِوَاسِطَة الرُّطُوبَة المحيطة بِهِ، فَلَو كَانَ بارزًا صار عُرضة للحرارة واليبوسة والنشاف المَانِع لَهُ من التَّصَرُّف ولغير ذَلِك من الحِكم والفوائد، ثمَّ زيَّن سُبْحَانَهُ الفَم بِمَا فِيهِ من الأسنان الَّتِي هن جمال لَهُ وزينة، وَبهَا قوام العَبْد وغذاؤه، وَجعل بَعْضهَا أرحاء للطحن وَبَعضهَا آلَة للْقطع، فأحكم أصولها وحدَّد رءوسها، وبيَّض لَوْنهَا ورتَّب صفوفها مُتَسَاوِيَة الرءوس متناسقة التَّرْتِيب كَأَنَّهَا الدُّرُّ المنظوم بَيَاضًا وصفاءً وحُسنًا، وأحاط سُبْحَانَهُ علىٰ ذَلِك حائطين وأودعهما من المَنَافِع والحِكم مَا أودعهما، وهما الشفتان، فَحسَّن لونهما وشكلهما وَوَضعهمَا وهيأهما وجعلهما غطاء للفم وطبقًا لَهُ، وجعلهما إتمامًا لمخارج حُرُوف الكَلَام وَنِهَايَة لَهُ، كَمَا جعل أقصىٰ الحلق بداية لَهُ واللِّسَانَ وَمَا جاوره وسطًا، ولهذا كَانَ أكثر العَمَل فِيهَا لَهُ؛ إِذْ هُوَ الوَاسِطَة.

واقتضت حكمته أن جعل الشفتين لَحْمًا صِرفًا لَا عظم فِيهِ وَلَا عصب، ليتَمَكَّن بهما من مصِّ الشَّرَاب ويسهل عَلَيْهِ فتحهما وطبقهما، وَخص الفك الأسفل بِالتَّحْرِيكِ لأن تَحْرِيك الأخف أحسن، ولأنه يشْتَمل علىٰ الأعضاء الشَّرِيفَة، فَلم يخاطر بهَا فِي الحَرَكَة، وَخلق سُبْحَانَهُ الحَنَاجِر مُخْتَلفَة الأشكال فِي الضِّيق والسعَة والخشونة والملاسة والصلابة واللين والطول والقصر، فاختلفت بذلك الأصوات أعظم اخْتِلَاف، وَلَا يكَاد يشْتَبه صوتان إِلَّا نَادرًا، ولهذا كَانَ الصَّحِيح قبُول شَهَادَة الأعمىٰ لتمييزه بَين الأشخاص بأصواتهم، كَمَا

يُمَيِّزُ البَصِير بَينهم بصورهم، والاشتباه العَارِض بَين الأصوات كالاشتباه العَارِض بَين الصُّور.

وزيَّن سُبْحَانَهُ الرَّأْس بالشعر وَجعله لباسًا لَهُ لاحتياجه إليه، وزيَّن الوَجْه بِمَا أنبت فِيهِ من الشُّعُور المُخْتَلفَة الأشكال والمقادير، فزينه بالحاجبين وجعلهما وقاية لما يتحدر من بشرة الرأس إلىٰ العَينَيْنِ، وقوسهما وَأحسن خطهما، وزيَّن أجفاف العَينَيْنِ بالأهداب، وزيَّن الوَجْه -أيضًا- باللحية وَجعلهَا كمالًا ووقارًا ومهابة للرجل، وزيَّن الشفتين بِمَا أنبت فَوْقهمَا من الشَّارِب وتحتهما من العنفقة»[١].

«والمقصود أن تنويع المخلوقات واختلافها من لوازم الحكمة والربوبية والملك، وهو أيضًا من موجبات الحمد، فله الحمد علىٰ ذلك كله أكمل حمد وأتمه أيضًا، فإن مخلوقاته هي موجبَات أَسمائه وصفاته، فلكل اسم وصفة أَثر لا بد من ظهوره فيه واقتضائه له، فيمتنع تعطيل آثار أَسمائه وصفاته كما يمتنع تعطيل ذاته عنها، وهذه الآثار لها متعلقات ولوازم يمتنع أَن لا توجد»[٢].

❁ ❁ ❁

---

(١) «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (١/ ١٨٧).

(٢) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ١٢٢).

المليك المقتدر

وَالأَسْمَاءُ الدَّالَّةُ عَلَىٰ صِفَةِ القُدْرَةِ كَثِيرَةٌ:

الأَوَّلُ: القَادِرُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام:٦٥]، وَقَالَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ القِيَامَةِ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾ [القيامة:٣-٤]، وَقَالَ فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ [القيامة:٤٠].

الثَّانِي: القَدِيرُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ [الملك:١]، وهذا اللَّفْظُ يُفِيدُ المُبَالَغَةَ فِي وَصْفِهِ بِكَوْنِهِ قَادِرًا.

الثَّالِثُ: المُقْتَدِرُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝٤٥﴾ [الكهف:٤٥]، وَقَالَ: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥﴾ [القمر:٥٥].

الرَّابِعُ: عَبَّرَ عَنْ ذَاتِهِ بِصِيغَةِ الجَمْعِ فِي هَذِهِ الصِّفَةِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣﴾ [المرسلات:٢٣].

وَاعْلَمْ أَنَّ لَفْظَ «المَلِكِ» يُفِيدُ القُدْرَةَ -أَيْضًا- بِشَرْطٍ خَاصٍّ، ثُمَّ إِنَّ هَذَا اللَّفْظَ جَاءَ فِي القُرْآنِ عَلَىٰ وُجُوهٍ مُخْتَلِفَةٍ:

فَالأَوَّلُ: المَالِكُ، قَالَ الله تعالىٰ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة:٤].

الثَّانِي: المَلِكُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [طه:١١٤]، وَقَالَ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ [الحشر:٢٣]، وَقَالَ: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾ [الناس:٢].

وَاعْلَمْ أَنَّ وُرُودَ لَفْظِ المَلِكِ فِي القُرْآنِ أَكْثَرُ مِنْ وُرُودِ لَفْظِ المَالِكِ، والسَّبَبُ فِيهِ أَنَّ المَلِكَ أَعْلَىٰ شَأْنًا مِنَ المَالِكِ.

الثَّالِثُ: مَالِكُ المُلْكِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران:٢٦].

الرَّابِعُ: «المَلِيكُ»، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝٥٥﴾ [القمر:٥٥].

الخَامِسُ: لَفْظُ المُلْكِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان:٢٦]، وقال تعالىٰ: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٠٧].

وَاعْلَمْ أَنَّ لَفْظَ القُوَّةِ يَقْرُبُ مِنْ لَفْظِ القُدْرَةِ، وَقَدْ جَاءَ هَذَا اللَّفْظُ فِي القُرْآنِ عَلَىٰ وُجُوهٍ مُخْتَلِفَةٍ:

الأَوَّلُ: القَوِيُّ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ [الحج:٤٠].

الثَّانِي: ذُو القُوَّةِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات:٥٨].

فهو «القدير الذي لكمال قدرته يهدي من يشاءُ ويضل من يشاءُ ويجعل المؤمن مؤمنًا والكافر كافرًا والبر برًّا والفاجر فاجرًا، وهو الذي جعل إبراهيم وآله أَئمة يدعون إِليه ويهدون بأَمره، وجعل فرعون وقومه أئمة يدعون إِلىٰ النار. ولكمال قدرته لا يحيط أَحد بشيء من علمه إِلا بما شاءَ سبحانه أَن يعلمه إِياه. ولكمال قدرته خلق السموات والأَرض وما بينهما في ستة أَيام وما مسه من لغوب، ولا يعجزه أحد من خلقه، ولا يفوته، بل هو في قبضته أَين كان، فإن فرَّ منه فإنما يَطوي المراحلَ في يديه، كما قيل:

وكيـف يفـر المـرءُ عنـك بذنبـه إذا كان يطوي في يـديك المـراحلا»(١)

«فَجَاءَت براهين المعَاد فِي القُرْآن مبيَّنَة علىٰ ثَلَاثَة أصُول:

أحدهَا: تَقْرِير كَمَال علم الرب سُبْحَانَهُ، كَمَا قَالَ فِي جَوَاب من قَالَ: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يس:٧٨-٧٩]، وَقَالَ: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ۝٨٥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨٦﴾ [الحجر:٨٥-٨٦]، وَقَالَ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ﴾ [ق:٤].

والثَّانِي: تَقْرِير كَمَال قدرته؛ كَقَوْلِه: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ﴾ [يس:٨١]، وقوله: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾ [القيامة:٤]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾ [الحج:٦]، وَيجمع سُبْحَانَهُ بَين الأمريْنِ كَمَا فِي قَوْله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١﴾ [يس:٨١].

الثَّالِث: كَمَال حكمته؛ كَقَوْلِه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨﴾ [الدخان:٣٨]، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ﴾ [ص:٢٧]، وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾ [القيامة:٣٦]، وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

(١) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ١٢٨).

وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية:٢١]، ولهذا كَانَ الصَّوَاب أَن المعَاد مَعْلُوم بِالعقلِ مَعَ الشَّرْع، وَأَن كَمَال الرب تَعَالَىٰ وَكَمَال أَسْمَائِهِ وَصِفَاته تَقْتَضِيه وتوجبه، وَأَنه منزَّه عمَّا يَقُوله منكروه، كَمَا ينزه كَمَاله عَن سَائِر العُيُوب والنقائص. ثمَّ أخبر سُبْحَانَهُ أَن المنكرين لذَلِك لمَّا كذَّبوا بِالحَقِّ اخْتَلَط عَلَيْهِم أمرهم: ﴿فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [ق:٥]، مختلط لَا يحصلون مِنْهُ علىٰ شَيْء»(١).

«**فَإِنْ قُلْتَ**: كَيْفَ يُرِيدُ اللهُ سُبْحَانَهُ أَمْرًا لَا يَرْضَاهُ، وَلَا يُحِبُّهُ؟ وَكَيْفَ يَشَاؤُهُ وَيُكَوِّنُهُ؟ وَكَيْفَ تَجْتَمِعُ إِرَادَةُ اللهِ لَهُ وَبُغْضُهُ وَكَرَاهِيَتُهُ؟

قِيلَ: هَذَا السُّؤَالُ هُوَ الَّذِي افْتَرَقَ النَّاسُ لِأَجْلِهِ فِرَقًا، وَتَبَايَنَتْ عِنْدَهُ طُرُقُهُمْ وَأَقْوَالُهُمْ.

فَاعْلَمْ أَنَّ الْمُرَادَ نَوْعَانِ: مُرَادٌ لِنَفْسِهِ، وَمُرَادٌ لِغَيْرِهِ.

فَالْمُرَادُ لِنَفْسِهِ: مَطْلُوبٌ مَحْبُوبٌ لِذَاتِهِ وَلِمَا فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ، فَهُوَ مُرَادُ إِرَادَةِ الغَايَاتِ والمَقَاصِدِ.

وَالْمُرَادُ لِغَيْرِهِ: قَدْ لَا يَكُونُ فِي نَفْسِهِ مَقْصُودًا لِلْمُرِيدِ، وَلَا فِيهِ مَصْلَحَةٌ لَهُ بِالنَّظَرِ إِلَىٰ ذَاتِهِ، وَإِنْ كَانَ وَسِيلَةً مَقْصُودَةً وَمُرَادَةً. فَهُوَ مَكْرُوهٌ لَهُ مِنْ حَيْثُ نَفْسُهُ وَذَاتُهُ، مُرَادٌ لَهُ مِنْ حَيْثُ إِفْضَاؤُهُ وَإِيصَالُهُ إِلَىٰ مُرَادِهِ. فَيَجْتَمِعُ فِيهِ الأَمْرَانِ: بُغْضُهُ، وَإِرَادَتُهُ، وَلَا يَتَنَافَيَانِ. لِاخْتِلَافِ مُتَعَلِّقِهِمَا. وهذا كَالدَّوَاءِ الْمُتَنَاهِي فِي الكَرَاهَةِ، إِذَا عَلِمَ مُتَنَاوِلُهُ أَنَّ فِيهِ شِفَاءَهُ، وَكَقَطْعِ العُضْوِ المُتَآكِلِ إِذَا عُلِمَ أَنَّ فِي قَطْعِهِ بَقَاءَ

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص: ٦).

جَسَدِهِ، وَكَقَطْعِ المَسَافَةِ الشَّاقَّةِ جِدًّا إِذَا عُلِمَ أَنَّهَا تُوصِلُهُ إِلَىٰ مُرَادِهِ وَمَحْبُوبِهِ. بَلِ العَاقِلُ يَكْتَفِي فِي إِيثَارِ هَذَا المَكْرُوهِ وَإِرَادَتِهِ بِالظَّنِّ الغَالِبِ، وَإِنْ خَفِيَتْ عَنْهُ عَاقِبَتُهُ، وَطُوِيَتْ عَنْهُ مَغَبَّتُهُ، فَكَيْفَ بِمَنْ لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ العَوَاقِبُ؟! فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَكْرَهُ الشَّيْءَ وَيُبْغِضُهُ فِي ذَاتِهِ. وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ إِرَادَتَهُ لِغَيْرِهِ، وَكَوْنَهُ سَبَبًا إِلَىٰ مَا هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ فَوْتِهِ.

مِثَالُ ذَلِكَ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ إِبْلِيسَ، الَّذِي هُوَ مَادَّةٌ لِفَسَادِ الأَدْيَانِ والأَعْمَالِ، والِاعْتِقَادَاتِ والإِرَادَاتِ، وَهُوَ سَبَبُ شَقَاوَةِ العَبِيدِ، وَعَمَلِهِمْ بِمَا يُغْضِبُ الرَّبَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ. وَهُوَ السَّاعِي فِي وُقُوعِ خِلَافِ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ بِكُلِّ طَرِيقٍ وَكُلِّ حِيلَةٍ. فَهُوَ مَبْغُوضٌ لِلرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مَسْخُوطٌ لَهُ، لَعَنَهُ اللهُ وَمَقَتَهُ، وَغَضِبَ عَلَيْهِ. وَمَعَ هَذَا فَهُوَ وَسِيلَةٌ إِلَىٰ مَحَابَّ كَثِيرَةٍ لِلرَّبِّ تَعَالَىٰ تَرَتَّبَتْ عَلَىٰ خَلْقِهِ، وَجُودُهَا أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ عَدَمِهَا.

مِنْهَا: أَنْ تَظْهَرَ لِلْعِبَادِ قُدْرَةُ الرَّبِّ تَعَالَىٰ عَلَىٰ خَلْقِ المُتَضَادَّاتِ المُتَقَابِلَاتِ فَخَلَقَ هَذِهِ الذَّاتَ -الَّتِي هِيَ أَخْبَثُ الذَّوَاتِ وَشَرُّهَا، وَهِيَ سَبَبُ كُلِّ شَرٍّ- فِي مُقَابَلَةِ ذَاتِ جِبْرِيلَ، الَّتِي هِيَ أَشْرَفُ الذَّوَاتِ، وَأَطْهَرُهَا وَأَزْكَاهَا، وَهِيَ مَادَّةُ كُلِّ خَيْرٍ. فَتَبَارَكَ اللهُ خَالِقُ هَذَا وهذا. كَمَا ظَهَرَتْ لَهُمْ قُدْرَتُهُ التَّامَّةُ فِي خَلْقِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ، والضِّيَاءِ والظَّلَامِ، والدَّاءِ والدَّوَاءِ، والحَيَاةِ والمَوْتِ، والحَرِّ والبَرْدِ، والحَسَنِ والقَبِيحِ، والأَرْضِ والسَّمَاءِ، والذَّكَرِ والأُنْثَىٰ، والمَاءِ والنَّارِ، والخَيْرِ والشَّرِّ، وَذَلِكَ مِنْ أَدَلِّ الدَّلَائِلِ عَلَىٰ كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعِزَّتِهِ، وَسُلْطَانِهِ وَمُلْكِهِ. فَإِنَّهُ خَلَقَ هَذِهِ المُتَضَادَّاتِ، وَقَابَلَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، وَسَلَّطَ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ، وَجَعَلَهَا

مَحَالَّ تَصَرُّفِهِ وَتَدْبِيرِهِ وَحِكْمَتِهِ. فَخُلُوُّ الوُجُودِ عَنْ بَعْضِهَا بِالكُلِّيَّةِ تَعْطِيلٌ لِحِكْمَتِهِ، وَكَمَالِ تَصَرُّفِهِ وَتَدْبِيرِ مَمْلَكَتِهِ.

وَمِنْهَا: ظُهُورُ آثَارِ أَسْمَائِهِ القَهْرِيَّةِ، مِثْلَ القَهَّارِ، والمُنْتَقِمِ، والعَدْلِ، والضَّارِّ، وَشَدِيدِ العِقَابِ، وَسَرِيعِ الحِسَابِ، وَذِي البَطْشِ الشَّدِيدِ، والخَافِضِ، والمُذِلِّ. فَإِنَّ هَذِهِ الأَسْمَاءَ والأَفْعَالَ كَمَالٌ، فَلَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ مُتَعَلِّقِهَا. وَلَوْ كَانَ الخَلْقُ كُلُّهُمْ عَلَىٰ طَبِيعَةِ المَلَكِ لَمْ يَظْهَرْ أَثَرُ هَذِهِ الأَسْمَاءِ والأَفْعَالِ.

وَمِنْهَا: ظُهُورُ آثَارِ أَسْمَائِهِ المُتَضَمِّنَةِ لِحِلْمِهِ وَعَفْوِهِ، وَمَغْفِرَتِهِ وَسِتْرِهِ، وَتَجَاوُزِهِ عَنْ حَقِّهِ، وَعِتْقِهِ لِمَنْ شَاءَ مِنْ عَبِيدِهِ. فَلَوْلَا خَلْقُ مَا يَكْرَهُ مِنَ الأَسْبَابِ المُفْضِيَةِ إِلَىٰ ظُهُورِ آثَارِ هَذِهِ الأَسْمَاءِ لَتَعَطَّلَتْ هَذِهِ الحِكَمُ والفَوَائِدُ. وَقَدْ أَشَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ هَذَا بِقَوْلِهِ: «**لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ**»(١).

وَمِنْهَا: ظُهُورُ آثَارِ أَسْمَاءِ الحِكْمَةِ والخِبْرَةِ. فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ الحَكِيمُ الخَبِيرُ الَّذِي يَضَعُ الأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، وَيُنْزِلُهَا مَنَازِلَهَا اللَّائِقَةَ بِهَا، فَلَا يَضَعُ الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وَلَا يُنْزِلُهُ غَيْرَ مَنْزِلِهِ، الَّتِي يَقْتَضِيهَا كَمَالُ عِلْمِهِ وَحِكْمَتُهُ وَخِبْرَتُهُ. فَلَا يَضَعُ الحِرْمَانَ والمَنْعَ مَوْضِعَ العَطَاءِ والفَضْلِ، وَلَا الفَضْلَ والعَطَاءَ مَوْضِعَ الحِرْمَانِ والمَنْعِ، وَلَا الثَّوَابَ مَوْضِعَ العِقَابِ، وَلَا العِقَابَ مَوْضِعَ الثَّوَابِ، وَلَا الخَفْضَ مَوْضِعَ الرَّفْعِ، وَلَا الرَّفْعَ مَوْضِعَ الخَفْضِ، وَلَا العِزَّ مَكَانَ الذُّلِّ، وَلَا الذُّلَّ مَكَانَ العِزِّ، وَلَا يَأْمُرُ بِمَا يَنْبَغِي النَّهْيُ عَنْهُ، وَلَا يَنْهَىٰ عَمَّا يَنْبَغِي الأَمْرُ بِهِ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَهُوَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ، وَأَعْلَمُ بِمَنْ يَصْلُحُ لِقَبُولِهَا، وَيَشْكُرُهُ عَلَىٰ انْتِهَائِهَا إِلَيْهِ وَوُصُولِهَا، وَأَعْلَمُ بِمَنْ لَا يَصْلُحُ لِذَلِكَ، وَلَا يَسْتَأْهِلُهُ، وَأَحْكَمُ مِنْ أَنْ يَمْنَعَهَا أَهْلَهَا، وَأَنْ يَضَعَهَا عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهَا.

فَلَوْ قُدِّرَ عَدَمُ الأَسْبَابِ المَكْرُوهَةِ البَغِيضَةِ لَهُ لَتَعَطَّلَتْ هَذِهِ الآثَارُ، وَلَمْ تَظْهَرْ لِخَلْقِهِ، وَلَفَاتَتِ الحِكَمُ والمَصَالِحُ المُتَرَتِّبَةُ عَلَيْهَا، وَفَوَاتُهَا شَرٌّ مِنْ حُصُولِ تِلْكَ الأَسْبَابِ.

فَلَوْ عُطِّلَتْ تِلْكَ الأَسْبَابُ -لِمَا فِيهَا مِنَ الشَّرّ - لَتَعَطَّلَ الخَيْرُ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الشَّرِّ الَّذِي فِي تِلْكَ الأَسْبَابِ. وهذا كَالشَّمْسِ والمَطَرِ والرِّيَاحِ الَّتِي فِيهَا مِنَ المَصَالِحِ مَا هُوَ أَضْعَافُ أَضْعَافِ مَا يَحْصُلُ بِهَا مِنَ الشَّرِّ والضَّرَرِ. فَلَوْ قُدِّرَ تَعْطِيلُهَا -لِئَلَّا يَحْصُلَ مِنْهَا ذَلِكَ الشَّرُّ الجُزْئِيُّ- لَتَعَطَّلَ مِنَ الخَيْرِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ الشَّرِّ بِمَا لَا نِسْبَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران:٢٦-٢٧].

«فإن حقيقة المُلك إنما تتم بالعطاءِ والمنع والإكرام والإهانة والإثابة والعقوبة والغضب والرضا والتولية والعزل وإعزاز من يليق به العز وإذلال من يليق به الذل، قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ

(١) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (٢/ ١٩٠).

﴿ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران:٢٦-٢٧].

وقال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن:٢٩]، يغفر ذنبًا ويفرِّج كَرْبًا ويكشف غمًّا وينصر مظلومًا ويأْخذ ظالمًا ويفك عانيًا ويغنىٰ فقيرًا ويجبر كسيرًا ويشفىٰ مريضًا ويقيل عثرة ويستر عورة ويعز ذليلًا ويذل عزيزًا ويعطي سائلًا ويذهب بدولة ويأْتي بأُخرىٰ ويداول الأَيام بين الناس ويرفع أَقوامًا ويضع آخرين، يسوق المقادير التي قدرها قبل خلق السموات والأَرض بخمسين أَلف عام إلىٰ مواقيتها فلا يتقدم شيء منها عن وقته ولا يتأَخر، بل كل منها قد أَحصاه كما أَحصاه كتابه وجرىٰ به قلمه ونفذ فيه حكمه وسبق به علمه، فهو المتصرف في الممالك كلها وحده تصرف ملك قادر قاهر عادل رحيم تام المُلك لا ينازعه في ملكه منازع، ولا يعارضه فيه معارض، فتصرفه في المملكة دائر بين العدل والإِحسان والحكمة والمصلحة والرحمة فلا يخرج تصرفه عن ذلك»(١).

«وَصِفَاتُ العَدْلِ، والقَبْضِ والبَسْطِ، والخَفْضِ والرَّفْعِ، والعَطَاءِ والمَنْعِ، والإِعْزَازِ والإِذْلَالِ، والقَهْرِ والحُكْمِ، وَنَحْوُهَا أَخصُّ بِاسْمِ المَلِكِ»(٢).

«مِنْ أَحْكَامِ كَوْنِهِ مَلِكًا كَمَالُ الرَّحْمَةِ، والدَّلِيلُ عَلَيْهِ آيَاتٌ:

(١) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ١٢٣).

(٢) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (١/ ٥٧).

إِحْدَاهَا: مَا ذُكِرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ كَوْنِهِ رَبًّا رَحْمَانًا رَحِيمًا.

وَثَانِيهَا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ [الحشر:٢٢]، ثمَّ قَالَ بَعْدَهُ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ﴾ [الحشر:٢٣]، ثمَّ ذَكَرَ بَعْدَهُ كَوْنَهُ قُدُّوسًا عَنِ الظُّلْمِ والجَوْرِ، ثمَّ ذَكَرَ بَعْدَهُ كَوْنَهُ سَلَامًا، وَهُوَ الَّذِي سَلَّمَ عِبَادَهُ مِنْ ظُلْمِهِ وَجَوْرِهِ، ثمَّ ذَكَرَ بَعْدَهُ كَوْنَهُ مُؤْمِنًا، وَهُوَ الَّذِي يُؤَمِّنُ عَبِيدَهُ عَنْ جَوْرِهِ وَظُلْمِهِ، فَثَبَتَ أَنَّ كَوْنَهُ مَلِكًا لَا يَتِمُّ إِلَّا مَعَ كَمَالِ الرَّحْمَةِ.

وَثَالِثُهَا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾ [الفرقان:٢٦]، لَمَّا أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ المُلْكَ أَرْدَفَهُ بِأَنْ وَصَفَ نَفْسَهُ بِكَوْنِهِ رَحْمَانًا، يَعْنِي إِنْ كَانَ ثُبُوتُ المُلْكِ لَهُ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ يَدُلُّ عَلَىٰ كَمَالِ القَهْرِ، فَكَوْنُهُ رَحْمَانًا يَدُلُّ عَلَىٰ زَوَالِ الخَوْفِ وَحُصُولِ الرَّحْمَةِ.

وَرَابِعُهَا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾﴾ [الناس:١-٢]، فَذَكَرَ أَوَّلًا كَوْنَهُ رَبًّا لِلنَّاسِ، ثمَّ أَرْدَفَهُ بِكَوْنِهِ مَلِكًا لِلنَّاسِ، وَهَذِهِ الآيَاتُ دَالَّةٌ عَلَىٰ أَنَّ المُلْكَ لَا يَحْسُنُ، وَلَا يَكْمُلُ إِلَّا مَعَ الإِحْسَانِ والرَّحْمَةِ.

فَيَا أَيُّهَا المُلُوكُ اسْمَعُوا هَذِهِ الآيَاتِ وَارْحَمُوا هَؤُلَاءِ المَسَاكِينَ، وَلَا تَطْلُبُوا مَرْتَبَةً زَائِدَةً فِي المُلْكِ عَلَىٰ مُلْكِ اللهِ تَعَالَىٰ.

الحُكْمُ الرَّابِعُ لِلْمَلِكِ: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَىٰ الرَّعِيَّةِ طَاعَتُهُ فَإِنْ خَالَفُوهُ وَلَمْ يُطِيعُوهُ وَقَعَ الهَرْجُ والمَرَجُ فِي العَالَمِ وَحَصَلَ الاضْطِرَابُ والتَّشْوِيشُ وَدَعَا ذَلِكَ إِلَىٰ تَخْرِيبِ العَالَمِ وَفَنَاءِ الخَلْقِ، فَلَمَّا شَاهَدْتُمْ أَنَّ مُخَالَفَةَ المَلِكِ المُجَازِي تُفْضِي

آخِرَ الأَمْرِ إِلَىٰ تَخْرِيبِ العَالَمِ وَفَنَاءِ الخَلْقِ، فَانْظُرُوا إِلَىٰ مُخَالَفَةِ مَلِكِ المُلُوكِ كَيْفَ يَكُونُ تَأْثِيرُهَا فِي زَوَالِ المَصَالِحِ وَحُصُولِ المَفَاسِدِ؟ وَتَمَامُ تَقْرِيرِهِ أَنَّهُ تَعَالَىٰ بَيَّنَ أَنَّ الكُفْرَ سَبَبٌ لِخَرَابِ العَالَمِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١﴾ [مريم:٩٠-٩١]، وَبَيَّنَ أَنَّ طَاعَتَهُ سَبَبٌ لِلْمَصَالِحِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ۝١٣٢﴾ [طه:١٣٢]. فَيَا أَيُّهَا الرَّعِيَّةُ كُونُوا مُطِيعِينَ لِمُلُوكِكُمْ، وَيَا أَيُّهَا المُلُوكُ كُونُوا مُطِيعِينَ لِمَلِكِ المُلُوكِ حَتَّىٰ تَنْتَظِمَ مَصَالِحُ العَالَمِ»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [الناس:١-٣].

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ هُمَا عَطْفُ بَيَانٍ؛ كَقَوْلِهِ: سِيرَةُ أَبِي حَفْصٍ عُمَرَ الفَارُوقِ، فَوُصِفَ أَوَّلًا بِأَنَّهُ رَبُّ النَّاسِ، ثمَّ الرَّبُّ قَدْ يَكُونُ مَلِكًا وَقَدْ لَا يَكُونُ، كَمَا يُقَالُ: رَبُّ الدَّارِ وَرَبُّ المَتَاعِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣١]، فَلَا جَرَمَ بَيَّنَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾، ثمَّ المَلِكُ قَدْ يَكُونُ إِلَهًا وَقَدْ لَا يَكُونُ، فَلَا جَرَمَ بَيَّنَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾؛ لِأَنَّ الإِلَهَ خَاصٌّ بِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يُشْرِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ، وَأَيْضًا بَدَأَ بِذِكْرِ الرَّبِّ، وَهُوَ اسْمٌ لِمَنْ قَامَ بِتَدْبِيرِهِ وَإِصْلَاحِهِ، وَهُوَ مِنْ أَوَائِلِ نِعَمِهِ إِلَىٰ أَنْ رَبَّاهُ وَأَعْطَاهُ العَقْلَ فَحِينَئِذٍ عَرَفَ بِالدَّلِيلِ أَنَّهُ عَبْدٌ مَمْلُوكٌ، وَهُوَ

---

(١) «التفسير الكبير» (١/ ٢٠٦).

مِلْكُهُ، فَثَنَّىٰ بِذِكْرِ المُلْكِ، ثمَّ لَمَّا عَلِمَ أَنَّ العِبَادَةَ لَازِمَةٌ لَهُ وَاجِبَةٌ عَلَيْهِ، وَعَرَفَ أَنَّ مَعْبُودَهُ مُسْتَحِقٌّ لِتِلْكَ العِبَادَةِ عَرَفَ أَنَّهُ إِلَهٌ، فَلِهَذَا خَتَمَ بِهِ.

وَأَيْضًا أَوَّلُ مَا يَعْرِفُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ كَوْنُهُ مُطِيعًا لِمَا عِنْدَهُ مِنَ النِّعَمِ الظَّاهِرَةِ والبَاطِنَةِ، وهذا هُوَ الرَّبُّ، ثمَّ لَا يَزَالُ يَتَنَقَّلُ مِنْ مَعْرِفَةِ هَذِهِ الصِّفَاتِ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ جَلَالَتِهِ وَاسْتِغْنَائِهِ عَنِ الخَلْقِ، فَحِينَئِذٍ يَحْصُلُ العِلْمُ بِكَوْنِهِ مَلِكًا؛ لِأَنَّ المَلِكَ هُوَ الَّذِي يَفْتَقِرُ إِلَيْهِ غَيْرُهُ وَيَكُونُ هُوَ غنيًّا عن غَيْرِهِ، ثمَّ إِذَا عَرَفَهُ العَبْدُ كَذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ فِي الجَلَالَةِ والكِبْرِيَاءِ فَوْقَ وَصْفِ الوَاصِفِينَ، وَأَنَّهُ هُوَ إلهه ومعبوده الذي لا إله له سواه، ولا معبود له غيره، فلا ينبغي أن يجعل معه شريكًا في إلهيته كما لا شريك معه في ربوبيته وملكه.

❁ ❁ ❁

الواحد القهار

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد:١٦].

وَالقَهْرُ: الغَلَبَةُ، أَي: هُوَ الشَّدِيد الغَلَبَةِ لِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَغْلِبُهُ شَيْءٌ، وَلَا يَصْرِفُهُ عَنْ إِرَادَتِهِ.

فاحتج علىٰ تفرده بالإلهية بتفرده بالخلق، وعلىٰ بطلان إلهية ما سواه بعجزهم عن الخلق، وعلىٰ أنه واحد بأنه قهار، والقهر التام يستلزم الوحدة فإن الشركة تنافي تمام القهر، وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إِذَا تَضَوَّرَ مِنَ اللَّيْلِ، قَالَ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ، رَبُّ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا العَزِيزُ الغَفَّارُ**»(١).

«المُلك والقدرة والقوة والعزة كلها لله الواحد القهار، ومن سواه مربوب مقهور، له ضد ومنافٍ ومشارك: فخلق الرياح وسلط بعضها علىٰ بعض تصادمها وتكسر سَوْرتها وتذهب بها، وخلق الماءَ وسلط عليه الرياح تصرفه وتكسره، وخلق النار وسلط عليها الماءَ يكسرها ويطفئها، وخلق الحديد وسلط عليه النار تذيبه وتكسر قوته، وخلق الحجارة وسلط عليها الحديد يكسرها ويفتتها، وخلق آدم وذريته وسلط عليهم إبليس وذريته، وخلق إبليس وذريته وسلط عليهم الملائكة يشردونهم كل مشرد ويطردونهم كل مطرد، وخلق الحر والبرد والشتاء والصيف وسلط كلًّا منها علىٰ الآخر يذهبه ويقهره، وخلق الليل والنهار وقهر كلًّا منهما بالآخر، وكذلك الحيوان علىٰ اختلاف ضروبه من حيوان البر والبحر لكل منه مضاد ومغالب.

فاستبان للعقول والفِطر أن القاهر الغالب لذلك كله واحد، وأن من تمام ملكه إيجاد العالم علىٰ هذا الوجه، وربط بعضه علىٰ بعض، وإحواج بعضه إلىٰ بعض، وقهر بعضه ببعض، وابتلاءِ بعضه ببعض، وامتزاج خيره بشره، وجعل

---

(١) أخرجه النسائي في «الكبرىٰ» (١٠٦٣٤)، وابن حبان (٥٥٣٠)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٠٦٦).

شره لخيره الفداءِ، ولهذا يدفع إلىٰ كل مؤمن يوم القيامة كافر فيقال له: هذا فداؤك من النار، وهكذا المؤمن في الدنيا يسلط عليه من الابتلاء والامتحان والمصائب ما يكون فداءه من عذاب الله، وقد تكون تلك الأسباب فداءً له من شرور أكثر منها في هذا العالم أيضًا، فليُعط اللبيب هذا الموضع حقَّه من التدبر يتبين له حكمة اللطيف الخبير»(١).

فالواحد الذي بطل به الأعداد والقهار الذي قهر الكل علىٰ العجز بالإقرار له بالعبودية طوعًا وكرهًا، وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر:١٦].

فهو الذي لا موجود إلا وهو مقهور تحت قدرته مسخر لقضائه عاجز في قبضته، وهو الذي أذل الجبابرة وقصم ظهورهم بالإهلاك، «إذا عرفت هذا فاعلم أن حاجة العبد إلىٰ أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا في محبته، ولا في خوفه، ولا في رجائه، ولا في التوكل عليه، ولا في العمل له، ولا في الحلف به، ولا في النذر له، ولا في الخضوع له، ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب أعظم من حاجة الجسد إلىٰ روحه والعين إلىٰ نورها، بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به، فإن حقيقة العبد روحه وقلبه، ولا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إله إلا هو فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره وهي كادحة إليه كدحًا فملاقيته، ولا بد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بمحبتها وعبوديتها له ورضاه وإكرامه لها»(٢).

❁ ❁ ❁

(١) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ١٤٣).

(٢) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ١٠٠).

العزيز الحكيم

قال تعالىٰ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾ [النمل:٩].

وقال تعالىٰ: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦٠﴾ [النحل:٦٠].

وقال تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨﴾ [آل عمران:١٨].

فاسمه العزيز الذي له العزة التامة، ومن تمام عزته براءته عن كل سوء وشر وعيب، فإن ذلك ينافي العزة التامة(١).

فإن العزة تتضمن القوة، ولله القوة جميعًا، يقال: عز يَعَزُّ بفتح العين، إذا اشتد وقوي، ومنه الأرض العزاز الصلبة الشديدة، وعز يَعِزُّ بكسر العين إذا امتنع ممن يرومه، وعز يَعُزُّ بضم العين إذا غلب وقهر. «إخباره عن صدور الخلق والأمر عن حكمته وعلمه فيذكر هذين الاسمين عند ذكر مصدر خلقه وشرعه تنبيهًا علىٰ أنهما إنما صدرا عن حكمةٍ مقصودة مقارنة للعلم المحيط التام، لقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النمل:٦]، وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [الزمر:١]، فذكره العزة المتضمنة لكمال القدرة والتصرف والحكمة المتضمنة لكمال الحمد والعلم، وقوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٣٨﴾ [المائدة:٣٨]، وسمع بعض الأعراب قارئًا يقرؤها: (والله غفور رحيم)،

(١) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ١٨٦).

فقال: ليس هذا كلام الله، فقال: أتُكذِّب بالقرآن؟! فقال: لا، ولكن لا يحسُن هذا، فرجع القارئ إلىٰ خطئه فقال: ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٣٨﴾ [المائدة:٣٨]، فقال: صدقت»[(١)].

فقوله في الحديث: «**إِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ**»[(٢)]، فإنه منصور عزيز غالب بسبب توليك له، وفي هذا تنبيه علىٰ أن من حصل له ذل في الناس، فهو بنقصان ما فاته من تولي الله، وإلا فمع الولاية الكاملة ينتفي الذل كله ولو سلط عليه بالأذىٰ من في أقطارها، فهو العزيز غير الذليل.

«قال أحمد: وحدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا أبو سعيد المؤدب، حدثنا من سمع عطاء الخراساني قال: لقيت وهب بن منبه، وهو يطوف بالبيت، فقلت له: حدثني حديثًا أحفظه عنك في مقامي هذا وأوجز، قال: نعم: أَوْحَىٰ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِلىٰ دَاوُدَ: يَا دَاوُدُ، أَمَا وَعِزَّتِي وَعَظَمَتِي لا يَعْتَصِمُ بِي عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِي دُونَ خَلْقِي -أَعْرِفُ ذلِكَ مِنْ نِيتِهِ- فَتَكِيدُهُ السَّمواتُ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، والأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ إِلا جَعَلْتُ لَهُ مِنْ بَيْنِهِنَّ مَخْرَجًا؛ أَمَا وَعِزَّتِي وَعَظَمَتِي لا يَعْتَصِمُ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِي بِمَخْلُوقٍ دُونِي -أَعْرِفُ ذلِكَ مِن نِيَّتِهَ- إِلا قَطَعْتُ أسبابَ السَّماءِ مِنْ يدِه، وَأَسَخْتُ الأَرْضَ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ، ثُم لا أُبَالِي بِأَيِّ وَادٍ هَلَكَ»[(٣)].

والحَكِيم: الَّذِي لَا يَفْعَلُ إِلَّا الصَّوَابَ.

---

(١) «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» (ص: ٢٠٠).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٢٥)، والترمذي (٤٦٤) من حديث الحسن بن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وصححه الألباني.

(٣) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ٣٤).

فهو العزيز الذي لا شيء أعز منه، ومَن عز من عباده فبإعزازه له.

وهو الحكيم الملك العدل فلا تناقض حكمته رحمته، بل يضع رحمته وبره وإحسانه موضعه، ويضع عقوبته وعدله وانتقامه وبأسه موضعه، وكلاهما مقتضىٰ عزته وحكمته وهو العزيز الحكيم، فلا يليق بحكمته أن يضع رضاه ورحمته موضع العقوبة والغضب، ولا يضع غضبه وعقوبته موضع رضاه ورحمته.

فمن أسمائه: الحكيم والعدل، فمن حكمة الله وعدله أنه يحق الحق ويبطل الباطل، ويميز الخبيث من الطيب، ويعطي كل ذي حق حقه: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩]، وقد قال سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة:٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون:١١٥]، والخلق في الحياة الدنيا يظلم بعضهم بعضًا، فمنهم من يموت ظالمًا ومنهم من يموت مظلومًا، فلابد إذن من يوم يحضر الجميع فيه بين يدي الله ليقتص من الظالم للمظلوم، ولينال كل من المحسن والمسيء جزاءً، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٤٧]، وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية:٢١].

«وفي تسليط أعدائه علىٰ أوليائه يسومونهم سوء العذاب فكم لله في ذلك من حِكم باهرة! منها حصول محبوبة من عبودية الصبر والجهاد، وتحمل الأذىٰ فيه

والرضىٰ عنه في السراء والضراء، والثبات علىٰ عبوديته وطاعته مع قوة المعارض وغلبته وشوكته، وتمحيص أوليائه من أحكام البشرية ودواعي الطباع ببذل نفوسهم له وأذىٰ أعدائه لهم، وتميز الصادق من الكاذب، ومن يريده ويعبده علىٰ جميع الحالات ممن يعبده علىٰ حرف، وليحصل له مرتبة الشهادة التي هي من أعلىٰ المراتب، ولا شيء أبر عند الحبيب من بذل محبة نفسه في مرضاته ومجاهدة عدوه، فكم لله في هذا التسليط من نعمة ورحمة وحكمة! وإذا شئت أن تعلم ذلك فتأمل الآيات من أواخر آل عمران من قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ [آل عمران:١٣٧]، إلىٰ قوله: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران:١٧٥]، إلىٰ قوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:١٧٩].

فكان هذا التمييز من بعض حكم ذلك التسليط، ولولا ذلك التسليط لم تظهر فضيلة الصبر والعفو والحكم وكظم الغيظ، ولا حلاوة النصر والظفر والقهر، فإن الأشياء يظهر حسنها بأضدادها، ولولا ذلك التسليط لم تستوجب الأعداء المَحْق والإهانة والكبت، فاستخرج ذلك التسليط من القوة إلىٰ الفعل ما عند أوليائه فاستحقوا كرامتهم عليه، وما عند أعدائه فاستحقوا عقوبتهم عليه، فكان هذا التسليط مما أظهر حكمته وعزته ورحمته ونعمته في الفريقين وهو العزيز الحكيم»(١).

(١) «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» (ص: ٢٦٦).

قلت: فالغاية من خلق العباد هو توحيد الله وعبوديته، والعبودية تكون في السراء والضراء، وقد ذم الله عَزَّوَجَلَّ من يعبده في حال دون حال فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾ [الحج:١١]، والفوز العظيم أن يكون ابتغاء العبد مرضاته عَزَّوَجَلَّ، وما سوىٰ ذلك فليس غاية، بل وسيلة.

«والسر الذي يطلعك علىٰ مسألة القدر ويفتح لك الطريق إلىٰ الله ومعرفة حكمته ورحمته وإحسانه إلىٰ خلقه، وأنه سبحانه كما أنه البر الرحيم الودود المحسن، فهو الحكيم الملك العدل فلا تناقض حكمته رحمته، بل يضع رحمته وبره وإحسانه موضعه ويضع عقوبته وعدله وانتقامه وبأسه موضعه، وكلاهما مقتضىٰ عزته وحكمته وهو العزيز الحكيم، فلا يليق بحكمته أن يضع رضاه ورحمته موضع العقوبة والغضب، ولا يضع غضبه وعقوبته موضع رضاه ورحمته، ولا يلتفت إلىٰ قول من غلظ حجابه عن الله تعالىٰ أن الأمرين بالنسبة إليه علىٰ حد سواء، ولا فرق أصلًا، وإنما هو محض المشيئة بلا سبب، ولا حكمة.

وتأمل القرآن من أوله إلىٰ آخره كيف تجده كفيلًا بالرد علىٰ هذه المقالة وإنكارها أشد الإنكار وتنزيه نفسه عنها، كقوله تعالىٰ: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٥ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ٣٦﴾ [القلم:٣٥-٣٦]، وقوله: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٢١﴾ [الجاثية:٢١]، وقوله: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ [ص:٢٨]، فأنكر سبحانه علىٰ من ظن هذا الظن ونزه نفسه عنه، فدل علىٰ أنه مستقر في الفطر والعقول السليمة أن هذا لا يكون، ولا يليق بحكمته وعزته وإلهيته لا إله هو تعالىٰ عما يقول الجاهلون علوًّا كبيرًا»(١).

«وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الجمعة:٢-٤]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وقال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس:٥٨]، وقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة:٣]، وقال: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم﴾ [البقرة:٢٣١]، وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ [الحجرات:٧-٨].

وقال لرسوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء:١١٣]، وهل النعمة والفضل في الحقيقة إلا ذلك وتوابعه وثمرته في القلوب والأبدان في الدنيا والآخرة؟! وهل

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٤٣٧).

في العقول السليمة والفطرة المستقيمة أحسن من ذلك وأليق بكمال الرب وأسمائه وصفاته؟!»(١).

«وقال تعالىٰ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [فاطر:٢]، فاستعذ به منه، وفر منه إليه، واجعل لُجاك منه إليه، فالأمر كله له لا يملك أحد معه منه شيئًا، فلا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، ولا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بإذنه، ولا يضر سم، ولا سحر، ولا شيطان، ولا حيوان، ولا غيره إلا بإذنه ومشيئته يصيب بذلك من يشاء ويصرفه عمن يشاء، فأعرف الخلق به وأقواهم بتوحيده من قال في دعائه: «**وأعوذ بك منك**» فليس للخلق معاذ سواه، ولا مستعاذ منه إلا وهو ربه وخالقه ومليكه وتحت قهره وسلطانه، ثم ختم الدعاء بقوله: «**لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت علىٰ نفسك**»(٢)؛ اعترافًا بأن شأنه وعظمته ونعوت كماله وصفاته أعظم وأجل من أن يحصيها أحد من الخلق أو بلغ أحد حقيقة الثناء عليه غيره سبحانه، فهو توحيد في الأسماء والصفات والنعوت، وذاك توحيد في العبودية والتأله وإفراده تعالىٰ بالخوف والرجاء والاستعاذة، وهذا مضاد الشرك وذاك مضاد التعطيل، وبالله التوفيق»(٣).

واقتران العزيز بالوهاب في قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩﴾ [ص:٩].

---

(١) «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» (ص: ٢٦٧).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» (ص: ٢٧٣).

«أم» منقطعة بمعنىٰ «بل» والهمزة، وهي للإنكار. والخزائن جمع خِزانة بالكسر، بمعنىٰ المخزن، أي: بل أعندهم خزائن رحمته تعالىٰ يتصرفون فيها حسبما يشاءون حتىٰ يصيبوا بها من شاءوا ويصرفوها عمن شاءوا، ويتحكموا فيها بمقتضىٰ آرائهم فيتخيروا للنبوة بعض صناديدهم، والمعنىٰ أن النبوة عطية من الله تعالىٰ يتفضل بها علىٰ من يشاء من عباده، لا مانع له، فإنه العزيز أي: الغالب الذي لا يغالب، الوهاب الذي له أن يهب كل ما يشاء، ونظيرها قوله تعالىٰ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف:٣٢].

ومَنْصِبَ النُّبُوَّةِ مَنْصِبٌ عَظِيمٌ وَدَرَجَةٌ عَالِيَةٌ، والقَادِرُ عَلَىٰ هِبَتِهَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَزِيزًا أَيْ: كَامِلَ القُدْرَةِ، وَوَهَّابًا أَيْ: عَظِيمَ الجُودِ، وَذَلِكَ هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفي قول سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [ص:٣٥].

يَقُولُ: إِلَهِي هَذَا الَّذِي طَلَبْتُهُ مِنْكَ فِي هَذَا الدُّعَاءِ عَظِيمٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيَّ، لَكِنَّهُ حَقِيرٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ كَمَالِ كَرَمِكَ، وَغَايَةِ جُودِكَ وَرَحْمَتِكَ، فَأَنْتَ الوَهَّابُ الَّذِي مِنْ هِبَتِكَ حَصَلَتْ حَقَائِقُ الأَشْيَاءِ وَذَوَاتُهَا وَمَاهِيَّاتُهَا وَوُجُودَاتُهَا، فَكُلُّ مَا سِوَاكَ فَمِنْ جُودِكَ وَإِحْسَانِكَ وَكَرَمِكَ.

واقتران العزيز بالحميد في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ٨﴾ [البروج:٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ٨﴾ يُفِيدُ رَغْبَةً وَرَهْبَةً، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ عَزِيزًا يَكُونُ ذَا انْتِقَامٍ يَنْتَقِمُ مِنَ الَّذِي يَسْعَىٰ فِي التَّكْذِيبِ، وَإِذَا كَانَ حَمِيدًا يَشْكُرُ سَعْيَ مَنْ يُصَدِّقُ وَيَعْمَلُ صَالِحًا، فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ قَدَّمَ الصِّفَةَ الَّتِي لِلْهَيْبَةِ عَلَىٰ الصِّفَةِ الَّتِي لِلرَّحْمَةِ مَعَ أَنَّكَ أَبَدًا تَسْعَىٰ فِي بَيَانِ تَقْدِيمِ جَانِبِ الرَّحْمَةِ؟ نَقُولُ: كَوْنُهُ عَزِيزًا تَامَّ الهَيْبَةِ شَدِيدَ الِانْتِقَامِ يُقَوِّي جَانِبَ الرَّغْبَةِ؛ لِأَنَّ رِضَا الجَبَّارِ العَزِيزِ أَعَزُّ وَأَكْرَمُ مِنْ رِضَا مَنْ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ، فَالعِزَّةُ كَمَا تُخَوِّفُ تُرْجَىٰ أَيْضًا.

«ومن كان له نصيب من معرفة أَسمائه الحسنىٰ واستقر آثارها في الخلق والأَمر، رأَىٰ الخلق والأَمر منتظمين بها أَكمل انتظام، ورأَىٰ سريان آثارها فيهما وعلم -بحسب معرفته بها- ما يليق بكماله وجلاله أَن يفعله وما لا يليق، فاستدل بأَسمائه علىٰ ما يفعله وما لا يفعله، فإِنه لا يفعل خلاف موجب حمده وحكمته، وكذلك يعلم ما يلبق به أَن يأْمر به ويشرعه مما لا يليق به، فيعلم أَنه لا يأْمر بخلاف موجب حمده وحكمته. فإِذا رأَىٰ بعض الأَحكام جورًا وظلمًا أَو سفهًا وعبثًا ومفسدة أَو ما لا يوجب حمدًا وثناءً فليعلم أَنه ليس من أَحكامه، ولا دينه، وأَنه بريء منه ورسوله، فإِنه إِنما أَمر بالعدل لا بالظلم وبالمصلحة لا بالمفسدة وبالحكمة لا بالعبث والسفه، وإِنما بعث رسوله بالحنيفية السمحة لا بالغلظة والشدة، وبعثه بالرحمة لا بالقسوة، فإِنه أَرحم الراحمين، ورسوله رحمة مهداة إِلىٰ العالمين، ودينه كله رحمة، وهو نبي الرحمة وأُمته الأُمة المرحومة، وذلك كله موجب أَسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا وأفعاله الحميدة،

فلا يخبر عنه إِلا بحمده، ولا يثنىٰ عليه إِلا بأَحسن الثناءِ كما لا يسمىٰ إِلا بأحسن الأسماءِ»(١).

❁ ❁ ❁

الرزاق ذو القوة المتين

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات:٥٨].

فهو الرزاق لجميع الخلائق ذو القوة المتين في خلق الأرزاق والمرزوقين، والرزاق هو الذي خلق الأرزاق والمرتزقة وأوصلها إليهم، وخلق لهم أسباب التمتع بها، والرزق رزقان: ظاهر، وهي الأقوات والأطعمة وذلك للظاهر، وهي الأبدان. وباطن، وهي العلوم والمعارف، وذلك للقلوب والإسرار، وهذا أشرف الرزقين، فإن ثمرتها حياة الأبد، وثمرة الرزق الظاهر قوة الجسد إلىٰ مدة قريبة الأمد، والله تعالىٰ هو المتولي لخلق الرزقين، والمتفضل بالإيصال إلىٰ كِلَا الفريقين، ولكنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وغاية حظ العبد من هذا الوصف أمران:

أحدهما: أن يعرف حقيقة هذا الوصف، وأنه لا يستحقه إلا الله تعالىٰ، فلا ينتظر الرزق إلا منه، ولا يتوكل فيه إلا عليه.

(١) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ١٣٠).

والثاني: أن يرزقه علمًا هاديًا ولسانًا مرشدًا ويدًا منفقة متصدقة، ويكون سببًا لوصول الأرزاق الشريفة إلىٰ القلوب بأقواله وأعماله.

وفِي «الصحيحين» من حَدِيث ابْن مَسْعُود قَالَ: حَدثنَا رَسُول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وَهُوَ الصَّادِق المصدوق: «**إِن أحدكُم يُجمع خلقُه فِي بطن أمه أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثمَّ يكون فِي ذَلِك علقَة مثل ذَلِك، ثمَّ يكون فِي ذَلِك مُضْغَة مثل ذَلِك، ثمَّ يُرْسل الله المَلكَ فينفخ فِيهِ الرُّوح وَيُؤمر بِأَرْبَع كَلِمَات: بكتب رزقه وأجله وَعَمله وشقي أَو سعيد، فوالَّذِي لَا إِلَه غَيره، إِن أحدكُم ليعْمَل بِعَمَل أهل الجنَّة حَتَّىٰ مَا يكون بَينه وَبينهَا إِلَّا ذِرَاع فَيَسْبق عَلَيْهِ الْكتاب فَيعْمل بِعَمَل أهل النَّار فيدخلها، وَإِن أحدكُم ليعْمَل بِعَمَل أهل النَّار حَتَّىٰ مَا يكون بَينهَا وَبَينه إِلَّا ذِرَاع فَيَسْبق عَلَيْهِ الْكتاب فَيعْمل بِعَمَل أهل الجنَّة فيدخلها**»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت:١٧].

وَلم يقل: فابتغوا الرزق عِنْد الله، لِأَن تَقْدِيم الظَّرْف يشْعر بالاختصاص والحصر، كَأَنَّهُ قَالَ: لَا تَبْتَغُوا الرزق إِلَّا عِنْد الله»(٢).

«وقد دعا الخليل عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ بالرزق لأهل الإيمان فقال: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [البقرة:١٢٦]. قال الله تعالىٰ:

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

(٢) «العبودية» (ص: ٨٤).

﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ١٢٦﴾ [البقرة:١٢٦]، فليس كل من متَّعه الله برزق ونصر -إما إجابة لدعائه، وإما بدون ذلك- يكون ممن يحبه الله ويواليه، بل هو سبحانه يرزق المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وقد يجيب دعاءهم ويعطيهم سؤلهم في الدنيا، وما لهم في الآخرة من خلاق، وقد ذكروا أن بعض الكفار من النصارىٰ حاصروا مدينة للمسلمين فنفد ماؤهم العذب، فطلبوا من المسلمين أن يزودوهم بماء عذب ليرجعوا عنهم، فاشْتَوَرَ ولاةُ أمر المسلمين، وقالوا: بل ندعهم حتىٰ يضعفهم العطش فنأخذهم، فقام أولئك فاستسقوا ودعوا الله فسقاهم، فاضطرب بعض العامة، فقال الملك لبعض العارفين: أدرك الناس فأمر بنصب منبر له وقال: اللهم إنا نعلم أن هؤلاء من الذين تكفلت بأرزاقهم كما قلت في كتابك: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]، وقد دعوك مضطرين، وأنت تجيب المضطر إذا دعاك، فأسقيتهم؛ لِما تكفلت به من رزقهم، ولما دعوك مضطرين، لا لأنك تحبهم، ولا تحب دينهم، والآن فنريد أن ترينا آية يثبت بها الإيمان في قلوب عبادك المؤمنين. فأرسل الله عليهم ريحًا فأهلكتهم، أو نحو هذا»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ٦﴾ [هود:٦].

وَأخرج ابْن جرير وَابْن الْمُنْذر وَابْن أبي حَاتِم وَأَبُو الشَّيْخ عَن مُجَاهِد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فِي قَوْله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]،

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم» (٢/ ٣١٥).

يَعْنِي مَا جاءها من رزق فَمن الله، وَرُبمَا لم يرزقها حَتَّىٰ تَمُوت جوعًا، وَلَكِن مَا كَانَ لَهَا من رزق فَمن الله(١).

فقوله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: كل ما يدب عليها عاقلًا أو غيره، إِلَّا عَلَىٰ اللهِ رِزْقُها غذاؤها ومعاشها لتكفله إياه بذلك تفضلًا وإحسانًا. وإنما أتىٰ بـ«علىٰ» التي تقتضي الوجوب تحقيقًا لوصوله، وتهييجًا علىٰ التوكل وقطع الوساوس فيه.

وَأَخْرَجَ البَيْهَقِيُّ فِي «الشُّعَبِ» عَنْ عَامِرِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ: ثَلَاثُ آيَاتٍ فِي كِتَابِ اللهِ اكْتَفَيْتُ بِهِنَّ عَنْ جَمِيعِ الخَلَائِقِ: أَوَّلُهُنَّ: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾ [يونس:١٠٧]، والثَّانِيَةُ: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ﴾ [فاطر:٢]، والثَّالِثَةُ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود:٦](٢).

وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾ [الملك:١٥]، أخبر سُبْحَانَهُ أَنه جعل الأَرْض ذلولًا منقادة للْوَطْء عَلَيْهَا وحفرها وشقِّها والبناء عَلَيْهَا وَلم يَجْعَلهَا مستصعبة ممتنعة علىٰ من أَرَادَ ذَلِك مِنْهَا، وَأخْبر سُبْحَانَهُ أَنه جعلهَا مهادًا وفراشًا وبساطًا وقرارًا وكِفاتًا، وَأخْبر أَنه دحاها وطحاها وَأخرج مِنْهَا ماءها ومرعاها وثبَّتها بالجبال ونهج فِيهَا الفجاج والطرق، وأجرىٰ فِيهَا الأَنْهَار والعيون وَبَارك فِيهَا وقدَّر فِيهَا

---

(١) «تفسير الطبري» (١٧٩٥٩)، و«ابن أبي حاتم» (١٠٦٧٦).

(٢) «شعب الإيمان» (١٢٦٥).

أقواتها، وَمن بركتها أَن الحَيَوَانَات كلهَا وأرزاقها وأقواتها تخرج مِنْهَا، وَمن بركاتها أَنَّك تودع فِيهَا الحبَّ فتخرجه لَك أَضْعَاف أَضْعَاف مَا كَانَ، وَمن بركاتها أَنَّهَا تحمل الأَذَىٰ علىٰ ظهرهَا وَتخرج لَك من بَطنهَا أحسن الأَشْيَاء وأنفعها، فتوارىٰ مِنْهُ كل قَبِيح وَتخرج لَهُ كل مليح، وَمن بركتها أَنَّهَا تستر قبائح العَبْد وفضلات بدنه وتواريها وتضمُّه وتؤويه وَتخرج لَهُ طَعَامه وَشَرَابه، فَهِيَ أحمل شَيْء للأذىٰ وأعوده بالنفع، فَلَا كَانَ من التُّرَاب خير مِنْهُ وَأبْعد من الأَذَىٰ وَأقرب إِلَىٰ الخَيْر»(١).

قال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن:٢٩].

«فالملائكة تسأله ما لا حياة لها إلا به، وإعانته علىٰ ذكره وشكره وحسن عبادته وتنفيذ أوامره والقيام بما جعل إليهم من مصالح العالم العلوي والسفلي، وتسأله أن يغفر لبني آدم، والرسل تسأله أن يعينهم علىٰ أداء رسالاته وتبليغها وأن ينصرهم علىٰ أعدائهم، وغير ذلك من مصالحهم في معاشهم ومعادهم، وبنو آدم كلهم يسألونه مصالحهم علىٰ تنوعها واختلافها، والحيوان كله يسأله رزقه وغذاءه وقوته وما يقيمه ويسأله الدفع عنه، والشجر والنبات يسأله غذاءه وما يكمل به، والكون كله يسأله إمداده بقاله وحاله: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن:٢٩]، فأكف جميع العالم ممتدة إليه بالطلب والسؤال، ويده مبسوطة لهم بالعطاء والنوال، يمينه ملأىٰ لا يغيضها

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص: ١٧).

نفقة، سحَّاء الليل والنهار، وعطاؤه وخيره مبذول للأبرار والفجار، له كل كمال ومنه كل خير، له الحمد كله وله الثناء كله وبيده الخير كله وإليه يرجع الأمر كله، تبارك اسمه وتباركت أوصافه وتباركت أفعاله وتباركت ذاته، فالبركة كلها له ومنه، لا يتعاظمه خير سُئله، ولا تنقص خزائنه علىٰ كثرة عطائه وبذله، فلو صور كل كمال في العالم صورة واحدة، ثم كان العالم كله علىٰ تلك الصورة لكان نسبة ذلك إلىٰ كماله وجلاله وجماله دون نسبة سراج ضعيف إلىٰ عين الشمس»(١).

«فَاحْذَرْ كُلَّ الحَذَرِ أَنْ تَسْأَلَهُ شَيْئًا مُعَيَّنًا خِيرَتُهُ وَعَاقِبَتُهُ مُغَيَّبَةٌ عَنْكَ، وَإِذَا لَمْ تَجِدْ مِنْ سُؤَالِهِ بُدًّا، فَعَلِّقْهُ عَلَىٰ شَرْطِ عِلْمِهِ تَعَالَىٰ فِيهِ الخِيَرَةَ، وَقَدِّمْ بَيْنَ يَدَيْ سُؤَالِكَ الِاسْتِخَارَةَ، وَلَا تَكُنِ اسْتِخَارَةٌ بِاللِّسَانِ بِلَا مَعْرِفَةٍ، بَلِ اسْتِخَارَةُ مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِمَصَالِحِهِ، وَلَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَيْهَا، وَلَا اهْتِدَاءَ لَهُ إِلَىٰ تَفَاصِيلِهَا، وَلَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضُرًّا، وَلَا نَفْعًا، بَلْ إِنْ وُكِّلَ إِلَىٰ نَفْسِهِ هَلَكَ كُلَّ الهَلَاكِ، وَانْفَرَطَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ.

وَإِذَا أَعْطَاكَ مَا أَعْطَاكَ بِلَا سُؤَالٍ تَسْأَلُهُ أَنْ يَجْعَلَهُ عَوْنًا لَكَ عَلَىٰ طَاعَتِهِ وَبَلَاغًا إِلَىٰ مَرْضَاتِهِ، وَلَا يَجْعَلَهُ قَاطِعًا لَكَ عَنْهُ، وَلَا مُبْعِدًا عَنْ مَرْضَاتِهِ، وَلَا تَظُنُّ أَنَّ عَطَاءَهُ كُلَّ مَا أَعْطَىٰ لِكَرَامَةِ عَبْدِهِ عَلَيْهِ، وَلَا مَنْعَهُ كُلَّ مَا يَمْنَعُهُ لِهَوَانِ عَبْدِهِ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّ عَطَاءَهُ وَمَنْعَهُ ابْتِلَاءٌ وَامْتِحَانٌ، يَمْتَحِنُ بِهِمَا عِبَادَهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر:١٥-١٧]، أَيْ: لَيْسَ كُلُّ

(١) «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» (ص: ١٨٣).

مَنْ أَعْطَيْتُهُ وَنَعَّمْتُهُ وَخَوَّلْتُهُ فَقَدْ أَكْرَمْتُهُ، وَمَا ذَاكَ لِكَرَامَتِهِ عَلَيَّ، وَلَكِنَّهُ ابْتِلَاءٌ مِنِّي، وَامْتِحَانٌ لَهُ أَيَشْكُرُنِي فَأُعْطِيَهُ فَوْقَ ذَلِكَ، أَمْ يَكْفُرُنِي فَأَسْلُبَهُ إِيَّاهُ، وَأُخَوِّلَ فِيهِ غَيْرَهُ؟ وَلَيْسَ كُلُّ مَنِ ابْتَلَيْتُهُ فَضَيَّقْتُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، وَجَعَلْتُهُ بِقَدَرٍ لَا يُفَضَّلُ عَنْهُ، فَذَلِكَ مِنْ هَوَانِهِ عَلَيَّ، وَلَكِنَّهُ ابْتِلَاءٌ وَامْتِحَانٌ مِنِّي لَهُ أَيَصْبِرُ فَأُعْطِيَهُ أَضْعَافَ أَضْعَافِ مَا فَاتَهُ مِنْ سَعَةِ الرِّزْقِ، أَمْ يَتَسَخَّطُ فَيَكُونَ حَظُّهُ السُّخْطَ؟.

فَرَدَّ اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ مَنْ ظَنَّ أَنَّ سَعَةَ الرِّزْقِ إِكْرَامٌ، وَأَنَّ الفَقْرَ إِهَانَةٌ، فَقَالَ: لَمْ أَبْتَلِ عَبْدِي بِالغِنَىٰ لِكَرَامَتِهِ عَلَيَّ، وَلَمْ أَبْتَلِهِ بِالفَقْرِ لِهَوَانِهِ عَلَيَّ، فَأَخْبَرَ أَنَّ الإِكْرَامَ والإِهَانَةَ لَا يَدُورَانِ عَلَىٰ المَالِ وَسَعَةِ الرِّزْقِ وَتَقْدِيرِهِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يُوَسِّعُ عَلَىٰ الكَافِرِ لَا لِكَرَامَتِهِ، وَيُقَتِّرُ عَلَىٰ المُؤْمِنِ لَا لِإِهَانَتِهِ، إِنَّمَا يُكْرِمُ مَنْ يُكْرِمُهُ بِمَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَطَاعَتِهِ، وَيُهِينُ مَنْ يُهِينُهُ بِالإِعْرَاضِ عَنْهُ وَمَعْصِيَتِهِ، فَلَهُ الحَمْدُ عَلَىٰ هَذَا وَعَلَىٰ هَذَا، وَهُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ»(١).

«ومَن أراد مطالعة أصول النعم فليدم سرح الذِّكر في رياض القرآن، وليتأمل ما عدد الله فيه من نعمه وتعرَّف بها إلىٰ عباده من أول القرآن إلىٰ آخره حين خلق أهل النار وابتلاهم بإبليس وحزبه وتسليط أعدائهم عليهم وامتحانهم بالشهوات والإرادات والهوىٰ لتعظم النعمة عليهم بمخالفتها ومحاربتها، فلله علىٰ أوليائه وعباده أتم نعمة وأكملها في كل ما خلقه من محبوب ومكروه ونعمه ومحنه، وفي كل ما أحدثه في الأرض من وقائعه بأعدائه وإكرامه لأوليائه.

---

(١) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (١/ ١٠١).

وفي كل ما قضاه وقدره وتفصيل ذلك لا تفي به أقلام الدنيا وأوراقها، ولا قوىٰ العباد، وإنما هو التنبيه والإشارة ومن استقرىٰ الأسماء الحسنىٰ وجدها مدائح وثناء تقصر بلاغات الواصفين عن بلوغ كنهها وتعجز الأوهام عن الإحاطة بالواحد منها، ومع ذلك فلله سبحانه محامد ومدائح وأنواع من الثناء لم تتحرك بها الخواطر، ولا هجست في الضمائر، ولا لاحت لمتوسم، ولا سنحت في فكر، ففي دعاء أعرف الخلق بربه وأعلمهم بأسمائه وصفاته ومحامده: «**أسألك بكل اسم هو لك، سميتَ به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجِلاء حزني، وذهاب همي وغمي**»(١).

وفي «الصحيح» عنه في حديث الشفاعة لما يسجد بين يدي ربه قال: «**فيفتح قلبي من محامده بشيء لا أحسنه الآن**»(٢)، وكان يقول في سجوده: «**أعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت علىٰ نفسك**»(٣)، فلا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه البتة، وله أسماء وأوصاف وحمد وثناء لا يعلمه ملك مقرب،

---

(١) أخرجه أحمد (٣٧١٢)، وابن حبان (٩٧٢) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، بلفظ: «**ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا، لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَىٰ أَحَدٍ قَبْلِي**» هذا لفظ البخاري، ولفظ مسلم: «**وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ...**».

(٣) سبق تخريجه.

ولا نبي مرسل، ونسبة ما يعلم العباد من ذلك إلىٰ ما لا يعلمونه كنقرة عصفور في بحر»(١).

❁ ❁ ❁

نِعم المولى ونعم النصير

قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٤٠﴾ [الأنفال:٤٠].

«المولىٰ»: جاء مقرونًا في قوله: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٤٠﴾ [الأنفال:٤٠]، ومضافًا في قوله: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ﴾ [الأنفال:٤٠]، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ [التحريم:٤]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١﴾ [محمد:١١].

«الناصر»: جاء مفضلًا في قوله: ﴿خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ۝١٥٠﴾ [آل عمران:١٥٠].

وقال تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ۝٢٠ أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ۝٢١﴾ [الملك:٢٠-٢١].

فجمع سبحانه بين النصر والرزق، فإن العبد مضطر إلىٰ من يدفع عنه عدوه بنصره، ويجلب له منافعه برزقه، فلا بد له من ناصر ورازق. والله وحده هو

---

(١) «طريق الهجرتين» - دار ابن القيم (ص: ٢٢٣).

الذي ينصر ويرزق، فهو الرزاق ذو القوة المتين. ومن كمال فطنة العبد ومعرفته: أن يعلم أنه إذا مسه الله بسوء لم يرفعه عنه غيره وإذا ناله بنعمة لم يرزقه إياها سواه. ويُذكر أن الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ بعض أنبيائه: «أَدْرِكْ لِي لَطِيفَ الفِطْنَةِ، وَخَفِيَّ اللُّطْفِ، فَإِنِّي أُحِبُّ ذلِكَ. قَالَ: يَا رب وَمَا لَطِيفُ الفِطْنَةِ؟ قَالَ: إنْ وَقَعَتْ عَلَيْكَ ذُبَابَةٌ فَاعْلَمْ أَنِّي أَنَا أَوْقَعْتُهَا فَاسْأَلْنِي أَرْفَعْهَا. قَالَ: وَمَا خَفِيُّ اللُّطْفِ؟ قَالَ: إذَا أَتَتْكَ حَبَّةٌ فَاعْلَمْ أَنِّي أَنَا ذَكَرْتُكَ بِهَا» وقد قال تعالىٰ عن السحرة: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة:١٠٢]، فهو سبحانه وحده الذي يكفي عبده وينصره ويرزقه ويكلؤه»(١).

«وقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ [الحج:٧٨]، أَيْ مَتَىٰ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ تَوَلَّاكُمْ، وَنَصَرَكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ وَعَلَىٰ الشَّيْطَانِ، وَهُمَا العَدُوَّانِ اللَّذَانِ لَا يُفَارِقَانِ العَبْدَ، وَعَدَاوَتُهُمَا أَضَرُّ مِنْ عَدَاوَةِ العَدُوِّ الخَارِجِ، فَالنَّصْرُ عَلَىٰ هَذَا العَدُوِّ أَهَمُّ، والعَبْدُ إِلَيْهِ أَحْوَجُ، وَكَمَالُ النُّصْرَةِ عَلَىٰ العَدُوِّ بِحَسَبِ كَمَالِ الِاعْتِصَامِ بِاللهِ»(٢).

«**السبب العاشر**: وهو الجامع لذلك كله وعليه مدار هذه الأسباب، وهو تجريد التوحيد والترحل بالفكر في الأسباب إلىٰ المسبب العزيز الحكيم، والعلم بأن هذه آلات بمنزلة حركات الرياح وهي بيد محركها وفاطرها وبارئها، ولا تضر ولا تنفع إلا بإذنه، فهو الذي يحسن إلىٰ عبده بها، وهو الذي يصرفها عنه وحده لا

(١) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ٣٤).

(٢) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (١/ ١٩٨).

أحد سواه، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾ [يونس:١٠٧]، وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا علىٰ أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك**»(١)؛ صحيح.

فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله تعالىٰ، بل يفرد الله بالمخافة وقد أمنه منه وخرج من قلبه اهتمامه به واشتغاله به وفكره فيه وتجرد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلًا واشتغالًا به عن غيره، فيرىٰ أن إعماله فكره في أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده، وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل، والله يتولىٰ حفظه والدفع عنه، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، فإن كان مؤمنًا فالله يدافع عنه، ولا بد وبحسب إيمانه يكون دفاع الله عنه، فإن كمل إيمانه كان دفع الله عنه أتم دفع، وإن مزج مزج له، وإن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة، كما قال بعض السلف: من أقبل علىٰ الله بكلِّيته أقبل الله عليه جملة، ومن أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة، ومن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة.

فالتوحيد حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين، قال بعض السلف: «من خاف الله خافه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني.

(٢) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٤٥).

«وَفِي قَوْلِهِ: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، فَائِدَةٌ أُخْرَىٰ، وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الكَلِمَةَ تَدُلُّ عَلَىٰ نِهَايَةِ الخُضُوعِ والتَّذَلُّلِ والِاعْتِرَافِ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ المُتَوَلِّي لِكُلِّ نِعْمَةٍ يَصِلُونَ إِلَيْهَا، وَهُوَ المُعْطِي لِكُلِّ مَكْرُمَةٍ يَفُوزُونَ بِهَا، فَلَا جَرَمَ أَظْهَرُوا عِنْدَ الدُّعَاءِ أَنَّهُمْ فِي كَوْنِهِمْ مُتَكَلِّمِينَ عَلَىٰ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ بِمَنْزِلَةِ الطِّفْلِ الَّذِي لَا تَتِمُّ مَصْلَحَتُهُ إِلَّا بِتَدْبِيرِ قَيِّمِهِ، والعَبْدِ الَّذِي لَا يَنْتَظِمُ شَمْلُ مُهِمَّاتِهِ إِلَّا بِإِصْلَاحِ مَوْلَاهُ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ قَيُّومُ السموات والأَرْضِ، والقَائِمُ بِإِصْلَاحِ مُهِمَّاتِ الكُلِّ، وَهُوَ المُتَوَلِّي فِي الحَقِيقَةِ لِلْكُلِّ، عَلَىٰ مَا قَالَ: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٤٠﴾ [الأنفال:٤٠]، وَنَظِيرُ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة:٢٥٧]، أَيْ نَاصِرُهُمْ، وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ [التحريم:٤]، أَيْ نَاصِرُهُ، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١﴾ [محمد:١١].

وقال تعالىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ۝٨٠﴾ [الإسراء:٨٠].

«أَيْ: حُجَّةً بَيِّنَةً ظَاهِرَةً تَنْصُرُنِي بِهَا عَلَىٰ جَمِيعِ مَنْ خَالَفَنِي. وَبِالجُمْلَةِ؛ فَقَدْ سَأَلَ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَرْزُقَهُ التَّقْوِيَةَ عَلَىٰ مَنْ خَالَفَهُ بِالحُجَّةِ وَبِالقَهْرِ والقُدْرَةِ، وَقَدْ أَجَابَ اللهُ تَعَالَىٰ دُعَاءَهُ وَأَعْلَمَهُ بِأَنَّهُ يَعْصِمُهُ مِنَ النَّاسِ فَقَالَ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧]، وَقَالَ: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٢٢﴾ [المجادلة:٢٢]، وَقَالَ: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة:٣٣]، وَلَمَّا سَأَلَ اللهَ النُّصْرَةَ بَيَّنَ اللهُ لَهُ أَنَّهُ أَجَابَ دُعَاءَهُ فَقَالَ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ [الإسراء:٨١]، وَهُوَ دِينُهُ وَشَرْعُهُ، ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الإسراء:٨١]، وَهُوَ كُلُّ مَا سِوَاهُ مِنَ الأَدْيَانِ والشَّرَائِعِ، وَزَهَقَ بَطَلَ وَاضْمَحَلَّ، وَأَصْلُهُ مِنْ زَهَقَتْ نَفْسُهُ تَزْهَقُ أَيْ: هَلَكَتْ، وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: «أَنَّهُ

دَخَلَ مَكَّةَ يَوْمَ الفَتْحِ وَحَوْلَ البَيْتِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ صَنَمًا فَجَعَلَ يَطْعَنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ وَيَقُولُ: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾ [الإسراء:٨١]، فَجَعَلَ الصَّنَمُ يَنْكَبُّ عَلَىٰ وَجْهِهِ»(١).

«قَالَ قتادة: أَخْرَجَهُ اللهُ مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ المَدِينَةِ مَخْرَجَ صِدْقٍ، وَنَبِيُّ اللهِ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا طَاقَةَ لَهُ بِهَذَا الأَمْرِ إِلَّا بِسُلْطَانٍ، فَسَأَلَ اللهَ سُلْطَانًا نَصِيرًا، وَأَرَاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ دَارَ الهِجْرَةِ، وَهُوَ بِمَكَّةَ، فَقَالَ: «**أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ بِسَبْخَةٍ ذَاتِ نَخْلٍ بَيْنَ لَابَتَيْنِ**» ما رَأَيْتُ النَّاسَ فَرِحُوا بِشَيْءٍ كَفَرَحِهِمْ بِهِ، حَتَّىٰ رَأَيْتُ النِّسَاءَ والصِّبْيَانَ والإِمَاءَ يَقُولُونَ: هَذَا رَسُولُ اللهِ قَدْ جَاءَ» وَقَالَ أنس: «شَهِدْتُهُ يَوْمَ دَخَلَ المَدِينَةَ فَمَا رَأَيْتُ يَوْمًا قَطُّ كَانَ أَحْسَنَ، وَلَا أَضْوَأَ مِنْ يَوْمٍ دَخَلَ المَدِينَةَ عَلَيْنَا، وَشَهِدْتُهُ يَوْمَ مَاتَ فَمَا رَأَيْتُ يَوْمًا قَطُّ كَانَ أَقْبَحَ، وَلَا أَظْلَمَ مِنْ يَوْمٍ مَاتَ»(٢)»(٣).

«وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «وَإِنِّي لَأَثْأَرُ لِأَوْلِيَائِي كَمَا يَثْأَرُ اللَّيْثُ الحَرِبُ»(٤)، أَيْ: آخُذُ ثَأْرَهُمْ مِمَّنْ عَادَاهُمْ كَمَا يَأْخُذُ اللَّيْثُ الحَرِبُ ثَأْرَهُ، وهذا لِأَنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَوَالَوْهُ فَأَحَبُّوا مَا يُحِبُّ وَأَبْغَضُوا مَا يُبْغِضُ وَرَضُوا بِمَا يَرْضَىٰ وَسَخِطُوا بِمَا يَسْخَطُ وَأَمَرُوا بِمَا يَأْمُرُ وَنَهَوْا عَمَّا نَهَىٰ وَأَعْطَوْا لِمَنْ يُحِبُّ أَنْ يُعْطَىٰ وَمَنَعُوا مَنْ يُحِبُّ أَنْ يُمْنَعَ، كَمَا فِي «التِّرْمِذِيِّ» وَغَيْرِهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ

---

(١) «التفسير الكبير» (٢١/ ٣٨٩).

(٢) أخرجه أحمد (١٤٠٩٥)، وصححه الألباني في «المشكاة» (٥٩٦٢).

(٣) «زاد المعاد في هدي خير العباد» (٣/ ٥٤).

(٤) أخرجه البغوي في «شرح السنة» (٥/ ٢٢)، وفي «تفسيره» (٧/ ١٩٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «وَإِنِّي لأَغْضَبُ لأَوْلِيَائِي كَمَا يَغْضَبُ اللَّيْثُ الْحَرِدُ».

قَالَ: «**أَوْثَقُ عُرَىٰ الإِيمَانِ: الحُبُّ فِي اللهِ والبُغْضُ فِي اللهِ**»(١)، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ رَوَاهُ أَبُو دَاوُد قَالَ: «**وَمَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ وَأَعْطَىٰ لِلَّهِ وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ**»(٢).

وَ«الوِلَايَةُ» ضِدُّ العَدَاوَةِ، وَأَصْلُ الوِلَايَةِ المَحَبَّةُ والقُرْبُ، وَأَصْلُ العَدَاوَةِ البُغْضُ والبُعْدُ، وَقَدْ قِيلَ: إنَّ الوَلِيَّ سُمِّيَ وَلِيًّا مِنْ مُوَالَاتِهِ لِلطَّاعَاتِ، أَيْ مُتَابَعَتِهِ لَهَا، والأَوَّلُ أَصَحُّ. والوَلِيُّ: القَرِيبُ، فَيُقَالُ: هَذَا يَلِي هَذَا أَيْ يَقْرُبُ مِنْهُ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلْحِقُوا الفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا فَمَا أَبْقَتِ الفَرَائِضُ فَلِأَوْلَىٰ رَجُلٍ ذَكَرٍ**»(٣)؛ أَيْ: لِأَقْرَبِ رَجُلٍ إِلَىٰ المَيِّتِ»(٤).

«وفي «الترمذي» وغيره من حديث الحسن بن علي قال: علمني رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلمات أقولهن في الوتر: «**اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، إنك تقضي ولا يقضىٰ عليك، إنه لا يذل من واليت، تباركت وتعاليت**»(٥)، فقوله: «**اهدني**» سؤال للهداية المطلقة التي لا يتخلف عنها الاهتداء، وقوله: «**فيمن هديت**» فيه فوائد:

---

(١) لم أقف عليه عند الترمذي، وأخرجه الطبراني (١٠٣٥٧)، وابن أبي شيبة في «مسنده» (٣٢١) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني بمجموع طرقه في «الصحيحة» (٩٩٨، ١٧٢٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٨١) من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري (٦٧٣٢)، ومسلم (١٦١٥) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٤) «مجموع الفتاوىٰ» (١١/ ١٦٠).

(٥) أخرجه أبو داود (١٤٢٥)، والترمذي (٤٦٤)، وصححه الألباني.

أحدها: أنه سؤال له أن يدخله في جملة المهديين وزمرتهم ورفقتهم.

الثانية: توسل إليه بإحسانه وإنعامه، أي: يا ربي قد هديت من عبادك بشَرًا كثيرًا فضلًا منك وإحسانًا فأحسن إليَّ كما أحسنت إليهم، كما يقول الرجل للملك: اجعلني مِن جملة مَن أغنيتَه وأعطيته وأحسنت إليه.

الثالثة: إن ما حصل لأولئك من الهدىٰ لم يكن منهم، ولا بأنفسهم، وإنما كان منك فأنت الذي هديتهم.

وقوله: «**وعافني فيمن عافيت**» إنما يسأل ربه العافية المطلقة وهي العافية من الكفر والفسوق والعصيان والغفلة والإعراض وفعل ما لا يحبه وترك ما يحبه، فهذا حقيقة العافية، ولهذا ما سئل الرب شيئًا أحب إليه من العافية؛ لأنها كلمة جامعة للتخلص من الشر كله وأسبابه.

وقوله: «**وتولني فيمن توليت**» سؤال للتولي الكامل ليس المراد به ما فعله بالكافرين من خلق القدرة وسلامة الآلة وبيان للطريق، فإن كان هذا هو ولايته للمؤمنين، فهو ولي الكفار كما هو ولي المؤمنين، وهو سبحانه يتولىٰ أولياءه بأمور لا توجد في حق الكفار من توفيقهم وإلهامهم وجعلهم مهديين مطيعين، ويدل عليه قوله: «**إنه لا يذل من واليت**»، فإنه منصور عزيز غالب بسبب توليك له، وفي هذا تنبيه علىٰ أن من حصل له ذل في الناس، فهو بنقصان ما فاته من تولي الله، وإلا فمع الولاية الكاملة ينتفي الذل كله ولو سلط عليه بالأذىٰ من في أقطارها، فهو العزيز غير الذليل.

وقوله: «**وقني شر ما قضيت**» يتضمن أن الشر بقضائه، فإنه هو الذي يقي منه، وفي «المسند» وغيره أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال لمعاذ بن جبل: «**يا معاذ، واللهِ إني لأحبك، فلا تنسَ أن تقول دبرَ كل صلاة: اللهم أعني علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»(١)، وهذه أفعال اختيارية وقد سأل الله أن يعينه علىٰ فعلها.

وفي حديث ابن عباس عنه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في دعائه المشهور: «**رب أعني، ولا تُعن علي، وانصرني، ولا تنصر علي، وامكر لي، ولا تمكر علي، واهدني ويسر الهدىٰ لي، وانصرني علي من بغىٰ علي، رب اجعلني لك شكَّارًا، لك ذكَّارًا، لك رهَّابًا، لك مِطوَاعًا، لك مخبتًا، إليك أوَّاهًا منيبًا، رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، واهد قلبي، وسدد لساني، واسلل سخيمة صدري**»، رواه الإمام أحمد في «المسند»(٢)، وفيه أحد وعشرون دليلًا، فتأملها.

وفي «الصحيحين» أنه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يقول بعد انقضاء صلاته: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو علىٰ كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**» وكان يقول ذلك الدعاء عند اعتداله من الركوع، ففي هذا نفي الشريك عنه بكل اعتبار، وإثبات عموم الملك له بكل اعتبار، وإثبات عموم الحمد وإثبات عموم القدرة، وأن الله سبحانه إذا أعطىٰ عبدًا فلا مانع له، وإذا منعه فلا معطي له»(٣).

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢١٧٢)، وأبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أحمد (١٩٩٧)، وأبو داود (١٥١٠)، والترمذي (٣٥٥١)، وصححه الألباني.

(٣) «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» (ص: ١١١) بتصرف يسير.

نعم الوكيل

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران:١٧٣].

«قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران:١٧٣]، والمُرَادُ أَنَّهُمْ كُلَّمَا ازْدَادُوا إِيمَانًا فِي قُلُوبِهِمْ أَظْهَرُوا مَا يُطَابِقُهُ فَقَالُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ. قَالَ ابْنُ الأَنْبَارِيِّ: حَسْبُنَا اللهُ أَيْ: كَافِينَا اللهُ»(١).

«الوكيل، فَعِيلٌ بِمَعْنَىٰ مَفْعُولٍ، وَهُوَ المَوْكُولُ إِلَيْهِ، والكَافِي والكَفِيلُ يَجُوزُ أَنْ يُسَمَّىٰ وَكِيلًا؛ لِأَنَّ الكَافِيَ يَكُونُ الأَمْرُ مَوْكُولًا إِلَيْهِ، وَكَذَا الكَفِيلُ يَكُونُ الأَمْرُ مَوْكُولًا إِلَيْهِ»(٢).

«فَالوَكِيلُ هُوَ القَائِمُ بِشَأْنِ مَنْ وَكَّلَهُ، وهذا القِيَامُ بِشَأْنِ المُوَكِّلِ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الأَحْوَالِ المُوَكَّلِ فِيهَا، وَبِذَلِكَ الِاخْتِلَافِ يَخْتَلِفُ مَعْنَىٰ الوَكِيلُ، فَإِنْ كَانَ القِيَامُ فِي دَفْعِ العَدَاءِ والجَوْرِ فَالوَكِيلُ النَّاصِرُ والمُدَافِعُ: ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنعام:٦٦]، وَمِنْهُ: ﴿فَمَن يُجَـٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [النساء:١٠٩]. وَمِنْهُ الوَكِيلُ فِي الخُصُومَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي شئون الحَيَاةِ فَالوَكِيلُ الكَافِلُ والكَافِي ومِنْهُ: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾ [الإسراء:٢]، كَمَا قَالَ: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل:٩١]، وَلِذَلِكَ كَانَ مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَىٰ: الوَكِيلُ.

---

(١) «التفسير الكبير» (٩/ ٤٣٤).

(٢) «التفسير الكبير» (٩/ ٤٣٤).

وقوله: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران:١٧٣]، وَمِنْهُ الوَكِيلُ عَلَىٰ المَالِ، وَلِذَلِكَ أُطْلِقَ عَلَىٰ هَذَا المَعْنَىٰ -أَيْضًا- اسْمُ الكَفِيلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ﴾ [النحل:٩١]. وَقَدْ حَمَلَ الزَّمَخْشَرِيُّ الوَكِيلَ عَلَىٰ مَا يَشْمَلُ هَذَا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٌ ١٠٢﴾ فِي سُورَةِ الأَنْعَامِ (١٠٢)، فَقَالَ: وَهُوَ مَالِكٌ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الأَرْزَاقِ والآجَالِ رَقِيبٌ عَلَىٰ الأَعْمَالِ. وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الوَكِيلَ اسْمٌ جَامِعٌ لِلرَّقِيبِ والحَافِظِ فِي الأُمُورِ الَّتِي يُعْنَىٰ النَّاسُ بِحِفْظِهَا وَرِقَابَتِهَا وَادِّخَارِهَا، وَلِذَلِكَ يَتَقَيَّدُ وَيَتَعَمَّمُ بِحَسَبِ المَقَامَاتِ»(١).

والتوكل عبارة عن الاعتصام بالله تعالىٰ في جميع الأمور، ومحله القلب، والحركة بالظاهر لا تنافي توكل القلب بعدما تحقق للعبد أن التقدير من قبل الله، فإن تعسر شيء فبتقديره، وأعلىٰ مراتب التوكل أن يكون بين يدىٰ الله تعالىٰ كالميت بين يدي الغاسل تُحركه القدرة الأزلية، وهو الذي قوىٰ يقينه، ألا ترىٰ إلىٰ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما همَّ نمرود وقومه أن يبسطوا إليه أيديهم فرموه في النار جاءه جبريل وهو في الهواء فقال: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا؟ وفاه بقوله: «حسبي الله ونعم الوكيل»(٢).

---

(١) «التحرير والتنوير» (٤/ ١٧٠).

(٢) رواه بمعناه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٠) من قول مقاتل وسعيد، دون قوله: «حسبي الله ونعم الوكيل».

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «كَانَ آخِرَ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ: حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ»، رواه البخاري(١).

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: «**حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ**» قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ حِينَ: ﴿قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران:١٧٣]»(٢). وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ جِبْرِيلَ قَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ؟ قَالَ: أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا»(٣).

وقال تعالىٰ: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران:١٦٠].

لا علىٰ غيره؛ لأن الأمر كله لله، ولا راد لقضائه، ولا مانع لما أعطىٰ، ولا معطي لما منع، ولا معقب لحكمه، ولا مبدل لكلماته، فيجب أن يتوكل العبد في كل الأمور علىٰ الله تعالىٰ لا علىٰ غيره.

«**التَّوَكُّل علىٰ الله نَوْعَانِ:**

أَحدهمَا: توكل عَلَيْهِ فِي جلب حوائج العَبْد وحظوظه الدُّنْيَوِيَّة أَو دفع مكروهاته ومصائبه الدُّنْيَوِيَّة.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٦٣).

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (١٨/ ٤٦٧) عن معتمر بن سليمان التيمي، عن بعض أصحابه، مرسلًا.

والثَّانِي: التَّوَكُّل عَلَيْهِ فِي حُصُول مَا يُحِبهُ هُوَ ويرضاه من الإِيمَان واليَقِين والجهَاد والدعوة إِلَيْهِ.

وَبَين النَّوْعَيْنِ من الفضل مَا لَا يُحْصِيه إِلَّا الله، فَمَتَىٰ توكل عَلَيْهِ العَبْد فِي النَّوْع الثَّانِي حقَّ توكله كَفاهُ النَّوْع الأول تَمامَ الكِفَايَة، وَمَتىٰ توكل عَلَيْهِ فِي النَّوْع الأول دون الثَّانِي كَفاهُ أَيْضًا لَكِن لَا يكون لَهُ عَاقِبَة المتوكل عَلَيْهِ فِيمَا يُحِبهُ ويرضاه، فأعظم التَّوَكُّل عَلَيْهِ التَّوَكُّل فِي الهِدَايَة وَتَجْرِيد التَّوْحِيد ومتابعة الرَّسُول وَجِهَاد أهل البَاطِل، فَهَذَا توكل الرُّسُل وخاصة أتباعهم.

التَّوَكُّل تَارَة يكون توكل اضطرار وإلجاء بِحَيْثُ لَا يجد العَبْد ملْجأ، وَلَا وَزَرًا إِلَّا التَّوَكُّل، كَمَا إِذا ضَاقَتْ عَلَيْهِ الأَسْبَاب وَضَاقَتْ عَلَيْهِ نَفسه وَظن أَن لَا ملْجأ من الله إِلَّا إِلَيْهِ، وهذا لَا يتَخَلَّف عَنهُ الفرج والتيسير البَتَّةَ، وَتارَة يكون توكل اخْتِيَار، وَذَلِكَ التَّوَكُّل مَعَ وجود السَّبَب المُفضي إِلَىٰ المُرَاد، فَإِن كَانَ السَّبَب مَأْمُورًا بِهِ ذمَّ علىٰ تَركه، وَإِن قَامَ السَّبَب وَترك التَّوَكُّل ذمَّ علىٰ تَركه -أَيْضًا- فَإِنَّهُ وَاجِب بِاتِّفَاق الأمة وَنَصِّ القُرْآن، والوَاجِب القيام بهما والجمع بَينهمَا، وَإِن كَانَ السَّبَب محرمًا حرم عَلَيْهِ مُبَاشَرَته، وتوحد السَّبَب فِي حَقه فِي التَّوَكُّل فَلم يبْق سَبَب سواهُ، فَإِن التَّوَكُّل من أقوىٰ الأَسْبَاب فِي حُصُول المُرَاد وَدفع المَكْرُوه، بل هُوَ أقوىٰ الأَسْبَاب علىٰ الإِطْلَاق.

وَإِن كَانَ السَّبَب مُبَاحًا نظرت هَل يضعف التَّوَكُّل أَو لَا يُضعفهُ؟ فَإِن أضعفه وَفرَّق عَلَيْك قَلْبك وشتَّت همَّك فَتَركه أولىٰ، وَإِن لم يُضعفهُ فمباشرته أولىٰ؛ لِأَن حِكْمَة أحكم الحَاكِمين اقْتَضَت ربط المُسَبَّب بِهِ، فَلَا تعطل حكمته مهما أمكنك القيام بهَا، وَلَا سِيمَا إِذا فعلته عبودية فَتكون قد أتيت بعبودية القلب

بالتوكل وعبودية الجَوَارِح بِالسَّبَبِ المَنوِي بِهِ القرْبَة، والَّذِي يُحَقّق لتوكل القيام بالأسباب المَأْمُور بهَا، فَمن عطلها لم يَصح توكله، كَمَا أَن القيام بالأسباب المُفضية إِلَىٰ حُصُول الخَيْر يُحَقِّق رَجَاءَهُ، فَمن لم يقم بهَا كَانَ رجاؤه تمنِّيًا، كَمَا أَن من عطَّلها يكون توكله عَجزًا، وعجزه توكلًا.

وسر التَّوَكُّل وَحَقِيقَته هُوَ اعْتِمَاد القلب علىٰ الله وَحده، فَلَا يضرّهُ مُبَاشرَة الأَسْبَاب مَعَ خلو القلب من الِاعْتِمَاد عَلَيْهَا والركون إِلَيْهَا، كَمَا لَا يَنْفَعهُ قَوْله: توكلت علىٰ الله، مَعَ اعْتِمَاده علىٰ غَيره وركونه إِلَيْهِ وثقته بِهِ، فتوكل اللِّسَان شَيْء وتوكل القلب شَيْء، كَمَا أَن تَوْبَة اللِّسَان مَعَ إِصْرَار القلب شَيْء وتوبة القلب وَإِن لم ينْطق اللِّسَان شَيْء، فَقَوْل العَبْد: توكلت علىٰ الله، مَعَ اعْتِمَاد قلبه علىٰ غَيره مثل قَوْله: تُبت إِلَىٰ الله، وَهُوَ مُصِرٌّ علىٰ مَعْصِيَته مُرتكب لَهَا»(١).

«لَا رَيْبَ أَنَّ اللهَ رَبُّ العَالَمِينَ رَبُّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِينَ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، رَبُّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا، رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ، رَبُّ النَّاسِ مَلِكُ النَّاسِ إِلَهُ النَّاسِ. وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ، خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنْثَىٰ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ. وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ، وَهُوَ مَالِكُ المُلْكِ؛ يُؤْتِي المُلْكَ مَنْ يَشَاءُ وَيَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ يَشَاءُ وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ بِيَدِهِ الخَيْرُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ الرَّحْمَنُ عَلَىٰ العَرْشِ اسْتَوَىٰ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾ [هود:٥٦].

---

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص: ٨٦).

قُلُوبُ العِبَادِ وَنَوَاصِيهِمْ بِيَدِهِ، وَمَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ إِنْ شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ وَإِنْ شَاءَ أَنْ يُزِيغَهُ أَزَاغَهُ. وَهُوَ الَّذِي أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ وَأَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ، وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَيَبُثُّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ. وَهُوَ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام:١]، ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٢٥﴾ [الأنعام:١٢٥]، ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٧٠﴾ [القصص:٧٠].

وَهُوَ الحَيُّ القَيُّومُ الَّذِي لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ، وَهُوَ القَائِمُ بِالقِسْطِ القَائِمِ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]. وَمَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، فَمَا شَاءَ اللهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، وَلَا مَلْجَأَ مِنْهُ إِلَّا إِلَيْهِ، وأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَعَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ لَا يَشْغَلُهُ سَمْعٌ عَنْ سَمْعٍ، وَلَا تُغَلِّطُهُ المَسَائِلُ، وَلَا يَتَبَرَّمُ بِإِلْحَاحِ المُلِحِّينَ، يُبْصِرُ دَبِيبَ النَّمْلَةِ السَّوْدَاءِ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ عَلَىٰ الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ. فَهَذَا كُلُّهُ حَقٌّ. وَهُوَ مَحْضُ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ؛ وَهُوَ مَعَ هَذَا قَدْ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَىٰ، وَأَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ».

«قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾ [فاطر:٢]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ

وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس:١٠٧]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام:١٧]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الزمر:٣٨]. وَقَالَ صَاحِبُ يس: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [يس:٢٣]: ﴿إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [يس:٢٤].

ولهذا يَأْمُرُ اللهُ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَحْدَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ. وَفِي الأَثَرِ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَىٰ النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَغْنَىٰ النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا فِي يَدِ اللهِ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدِهِ»(١). قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان:٥٨]، وَاللهُ تَعَالَىٰ أَمَرَ بِعِبَادَتِهِ والتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [الرعد:٣٠]، وَقَالَ مُوسَىٰ: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس:٨٤]، وَقَالَ شُعَيْبٌ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود:٨٨]، وَقَالَ المُؤْمِنُونَ: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة:٤].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» رقم (٥)، والبيهقي في «الزهد» (٢/ ٣٦٤) (٩٨٦) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بالشطر الأول، والشطر الثاني أورده الغزالي في «إحياء علوم الدين» (٤/ ٢٤٤) دون إسناد، وانظر: «تخريج الإحياء» رقم (٣٦٦٤).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨﴾ [المزمل:٨]: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾ [المزمل:٩]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢﴾ [الطلاق:٢]: ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾ [الطلاق:٣].

فَافْتَرَقَ النَّاسُ هُنَا أَرْبَعَةَ أَصْنَافٍ:

صِنْفٌ لَا يَعْبُدُونَهُ وَلَا يَتَوَكَّلُونَ عَلَيْهِ، وَهُمْ شِرَارُ الخَلْقِ.

وَصِنْفٌ يَقْصِدُونَ عِبَادَتَهُ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ وَتَرْكِ مَا حَظَرَ لَكِنْ لَمْ يُحَقِّقُوا التَّوَكُّلَ والِاسْتِعَانَةَ فَيَعْجِزُونَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا يَطْلُبُونَهُ وَيَجْزَعُونَ فِي كَثِيرٍ مِنَ المَصَائِبِ، ثُمَّ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُكَذِّبُ بِالقَدَرِ وَيَجْعَلُ نَفْسَهُ هُوَ المُبْدِعَ لِأَفْعَالِهِ؛ فَهَؤُلَاءِ فِي الحَقِيقَةِ لَا يَسْتَعِينُونَهُ، وَلَا يَطْلُبُونَ مِنْهُ صَلَاحَ قُلُوبِهِمْ، وَلَا تَقْوِيمَهَا، وَلَا هِدَايَتَهَا. وَهَؤُلَاءِ مَخْذُولُونَ كَمَا هُمْ عِنْدَ الأُمَّةِ كَذَلِكَ.

وَقَوْمٌ يُؤْمِنُونَ بِالقَدَرِ قَوْلًا وَاعْتِقَادًا؛ لَكِنْ لَمْ تَتَّصِفْ بِهِ قُلُوبُهُمْ عِلْمًا وَعَمَلًا كَمَا اتَّصَفَتْ بِقَصْدِ الطَّهَارَةِ والصَّلَاةِ؛ فَهُمْ -أَيْضًا- ضُعَفَاءُ عَاجِزُونَ.

وَصِنْفٌ نَظَرَ إِلَىٰ جَانِبِ القُدْرَةِ والمَشِيئَةِ وَأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ هُوَ المُعْطِي والمَانِعُ والخَافِضُ والرَّافِعُ؛ فَغَلَبَ عَلَيْهِمُ التَّوَجُّهُ إِلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الجِهَةِ والِاسْتِعَانَةُ بِهِ والِافْتِقَارُ إِلَيْهِ لِطَلَبِ مَا يُرِيدُونَهُ، فَهَؤُلَاءِ يَحْصُلُ لِأَحَدِهِمْ نَوْعُ سُلْطَانٍ وَقُدْرَةٍ ظَاهِرَةٍ أَوْ بَاطِنَةٍ وَقَهْرٍ لِعَدُوِّهِ؛ بَلْ قَتْلٍ لَهُ وَنَيْلٍ لِأَغْرَاضِهِ؛ لَكِنْ لَا عَاقِبَةَ لَهُمْ؛ فَإِنَّ العَاقِبَةَ لِلتَّقْوَىٰ؛ بَلْ آخِرَتُهُمْ آخِرَةٌ رَدِيَّةٌ، وَلَيْسَ الكَلَامُ فِي الكُفَّارِ والظَّلَمَةِ المُعْرِضِينَ عَنِ اللهِ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ دَخَلُوا فِي القِسْمِ الأَوَّلِ الَّذِينَ لَا عِبَادَةَ لَهُمْ، وَلَا

اسْتِعَانَةَ؛ وَلَكِنَّ الكَلَامَ فِي قَوْمٍ عِنْدَهُمْ تَوَجُّهٌ إِلَىٰ اللهِ وَتَأَلُّهٌ وَنَوْعٌ مِنَ الخَشْيَةِ والذِّكْرِ والزُّهْدِ، لَكِنْ يَغْلِبُ عَلَيْهِمُ التَّوَجُّهُ بِإِرَادَةِ أَحَدِهِمْ وَذَوْقِهِ وَوَجْدِهِ وَمَا يَسْتَحْلِيهِ وَيَسْتَحِبُّهُ لَا بِالأَمْرِ الشَّرْعِيِّ، وَهُمْ أَصْنَافٌ: مِنْهُمُ المُعْرِضُ عَنِ التِزَامِ العِبَادَاتِ الشَّرْعِيَّةِ مَعَ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الشَّيَاطِينِ مِنْ كَشْفٍ لَهُ أَوْ تَأْثِيرٍ. وَهَؤُلَاءِ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَمُوتُ عَلَىٰ غَيْرِ الإِسْلَامِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُومُ بِالعِبَادَاتِ الشَّرْعِيَّةِ الظَّاهِرَةِ كَالصَّلَاةِ والصِّيَامِ والحَجِّ وَتَرْكِ المُحَرَّمَاتِ؛ لَكِنْ فِي أَعْمَالِ القُلُوبِ لَا يَلْتَزِمُ الأَمْرَ الشَّرْعِيَّ؛ بَلْ يَسْعَىٰ لِمَا يُحِبُّهُ وَيُرِيدُهُ وَاللهُ تَعَالَىٰ قَالَ: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ﴾ [الإسراء:٢٠].

وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُعْطِي السُّلْطَانَ والمَالَ لِلْبَرِّ والفَاجِرِ فَقَدْ يُعْطَىٰ أَحَدُ هَؤُلَاءِ تَصَرُّفًا: إِمَّا بِقَهْرِ عَدُوِّهِ وَإِمَّا بِنَصْرِ وَلِيِّهِ كَمَا تُعْطَىٰ المُلُوكُ. وَقَدْ يُعْطَىٰ نَوْعًا مِنَ المُكَاشَفَةِ إِمَّا بِإِخْبَارِ بَعْضِ الجِنِّ لَهُ وَقَدْ يَعْرِفُ أَنَّهُ مِنَ الجِنِّ وَقَدْ لَا يَعْرِفُ، وَإِمَّا بِغَيْرِ ذَلِكَ. وَقَدْ يَقُولُ الوَاحِدُ مِنْ هَؤُلَاءِ: أَنَا آخُذُ مِنَ اللهِ وَغَيْرِي يَأْخُذُ مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَرَىٰ بِحَالِهِ فِي ذَاكَ وَتَفَرُّدِهِ أَنَّ مَا أُوتِيَهُ مِنَ التَّصَرُّفِ والمُكَاشَفَةِ يَحْصُلُ لَهُ بِغَيْرِ طَرِيقِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ صَادِقٌ فِي ذَلِكَ؛ لَكِنَّ هَذِهِ فِي الحَقِيقَةِ وَبَالٌ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ مَنْ تَصَرَّفَ بِغَيْرِ أَمْرِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَخَذَ مَا لَمْ يُبِحْهُ لَهُ الرَّسُولُ فَوَلَّىٰ وَعَزَلَ وَأَعْطَىٰ وَمَنَعَ بِغَيْرِ أَمْرِ الرَّسُولِ، وَقَتَلَ وَضَرَبَ بِغَيْرِ أَمْرِهِ، وَأَكْرَمَ وَأَهَانَ بِغَيْرِ أَمْرِهِ، وَجَاءَهُ خِطَابٌ فِي بَاطِنِهِ بِالأَمْرِ والنَّهْيِ؛ فَاعْتَقَدَ أَنَّ اللهَ أَمَرَهُ وَنَهَاهُ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةِ الرَّسُولِ كَانَتْ حَالَتُهُ هَذِهِ كُلُّهَا مِنَ الشَّيْطَانِ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ هُوَ الَّذِي يَأْمُرُهُ وَيَنْهَاهُ؛ فَيَأْمُرُهُ فَيَتَصَرَّفُ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ يَتَصَرَّفُ بِأَمْرِ اللهِ؛ وَلَعَمْرِي هُوَ يَتَصَرَّفُ بِأَمْرِ اللهِ الكَوْنِيِّ القَدَرِيِّ بِوَاسِطَةِ أَمْرِ الشَّيْطَانِ كَمَا قَالَ

تَعَالَىٰ فِي السَّحَرَةِ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢]، كَمَا أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَتَصَرَّفُ بِأَمْرِ اللهِ الكَوْنِيِّ القَدَرِيِّ؛ لَكِنْ بِوَاسِطَةِ أَمْرِ الرَّسُولِ الْمُبَلِّغِ لَهُ عَنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ»(١).

«من تمام نعمة الله علىٰ عباده المؤمنين أن ينزل بهم من الشدة والضر ما يُلجِئهم إلىٰ توحيده، فيدعونه مخلصين له الدين، ويرجونه لا يرجون أحدًا سواه، فتتعلق قلوبهم به لا بغيره، فيحصل لهم: من التوكل عليه، والإنابة إليه، وحلاوة الإيمان، وذوق طعمه، والبراءة من الشرك، ما هو أعظم نعمة عليهم من زوال المرض والخوف، أو الجدب والضر؛ وما يحصل لأهل التوحيد المخلصين لله الدين، فأعظم من أن يعبر عنه مقال؛ ولكل مؤمن من ذلك نصيب بقدر إيمانه، ولهذا قيل: يا ابن آدم، لقد بورك لك في حاجة أكثرت فيها من قرع باب سيدك، وقال بعض الشيوخ: إنه ليكون لي إلىٰ الله حاجة فأدعوه فيفتح لي من لذيذ معرفته وحلاوة مناجاته ما لا أحب معه أن يعجل قضاء حاجتي أن ينصرف عني ذلك؛ لأن النفس لا تريد إلا حظها، وقد قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًّا**»(٢).

«إذا عرف هذا فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو المطلوب المعبود المحبوب وحده لا شريك له، وهو وحده المعين للعبد علىٰ حصول مطلوبه، فلا معبود سواه، ولا معين علىٰ المطلوب غيره، وما سواه هو المكروه المطلوب بعده، وهو المعين

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٢/ ٣٩٨).

(٢) «المستدرك علىٰ مجموع الفتاوىٰ» (١/ ١٥).

علىٰ دفعه، فهو سبحانه الجامع للأُمور الأَربعة دون ما سواه، وهذا معنىٰ قول العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]، فإن هذه العبادة تتضمن المقصود المطلوب علىٰ أكمل الوجوه، والمستعان هو الذي يستعان به علىٰ حصول المطلوب ودفع المكروه. فالأَول من مقتضىٰ أُلوهيته، والثاني من مقتضىٰ ربوبيته، لأَن الإله هو الذي يؤله فيعبد محبة وإِنابة وإِجلالًا وإِكرامًا، والرب هو الذي يُربِّي عبده فيعطيه خلقه، ثم يهديه إِلىٰ جميع أَحواله ومصالحه التي بها كماله، ويهديه إِلىٰ اجتناب المفاسد التي بها فساده وهلاكه. وفي القرآن سبعة مواضع تنتظم هذين الأَصلين:

أحدها: قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥].

الثاني: قوله تعالىٰ: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ [هود:٨٨].

الثالث: قوله تعالىٰ: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود:١٢٣].

الرابع: قوله تعالىٰ: ﴿عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا﴾ [الممتحنة:٤].

الخامس: قوله تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الفرقان:٥٨].

السادس: قوله: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ۝٣٠﴾ [الرعد:٣٠].

السابع: قوله: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ۝٩﴾ [المزمل:٨-٩].

ومما يقرر هذا أن الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه ومحبته والإخلاص له، فبذكره تطمئن قلوبهم، وبرؤيته في الآخرة تقر عيونهم، ولا شيء يعطيهم في الآخرة أحب إليهم من النظر إِليه، ولا شيء يعطيهم في الدنيا أَحب إِليهم من الإيمان به ومحبتهم له ومعرفتهم به، وحاجتهم إِليه في عبادتهم له وتأَلههم له كحاجتهم إِليه، بل أَعظم في خلقه وربوبيته لهم ورزقه لهم، فإِن ذلك هو الغاية المقصودة التي بها سعادتهم وفوزهم، وبها ولأَجلها يصيرون عاملين متحركين، ولا صلاح لهم، ولا فلاح، ولا نعيم، ولا لذة، ولا سرور بدون ذلك بحال، فمن أَعرض عن ذكر ربه فإِن له معيشة ضنكًا، ويحشره يوم القيامة أَعمىٰ، ولهذا لا يغفر الله لمن يشرك به شيئًا ويغفر ما دون ذلك لمن يشاءُ، ولهذا كانت: «لا إِله إِلا الله» أفضل الحسنات، وكان توحيد الإِلهية الذي كلمته «لا إله إلا الله» رأْس الأَمر، فأَما توحيد الربوبية الذي أَقر به كل المخلوقات، فلا يكفىٰ وحده، وإِن كان لا بد منه، وهو حجة علىٰ من أَنكر توحيد الأُلوهية»(١).

❁❁❁

لا حول ولا قوة إلا بالله

قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ٣٩﴾ [الكهف:٣٩].

---

(١) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ٥٦).

«فلفظ الحول يتناول كل تحول من حال إلىٰ حال، والقوة هي القدرة علىٰ ذلك التحول؛ فدلت هذه الكلمة العظيمة علىٰ أنه ليس للعالم العلوي والسفلي حركة وتحول من حال إلىٰ حال، ولا قدرة علىٰ ذلك إلا بالله. ومن الناس من يفسر ذلك بمعنىٰ خاص فيقول: لا حول من معصيته إلا بعصمته، ولا قوة علىٰ طاعته إلا بمعونته»(١).

«والصواب الذي عليه الجمهور هو التفسير الأول، وهو الذي يدل عليه اللفظ، فإن الحوْل لا يختص بالحول عن المعصية، وكذلك القوة لا تختص بالقوة علىٰ الطاعة، بل لفظ الحول يعم كل تحول.

ومنه لفظ: «الحيلة» ووزنها (فِعلة) بالكسر، وهي النوع المختص من الحول كما يقال: الجِلسة، والقِعدة، واللبسة، والأكلة، والضجعة، ونحو ذلك بالكسر هي النوع الخاص، وهو بالفتح المرة الواحدة. فالحيلة أصلها حولة، لكن لما جاءت الواو الساكنة بعد كسرة قلبت ياء، كما في لفظ ميزان وميقات، وميعاد وزنه مفعال؛ وقياسه موزان وموقات، لكن لما جاءت الواو الساكنة بعد كسرة قلبت ياء، قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلًا ۝٩٨﴾ [النساء:٩٨]، من الحيل؛ فإنها نكرة في سياق النفي فتعم جميع أنواع الحيل.

وكذلك لفظ (القوة)، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ ضَعۡفًا وَشَيۡبَةً﴾ [الروم:٥٤]، ولفظ القوة

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (١٣/ ٣٢١).

قد يراد به ما كان في القدرة أكمل من غيره، فهو قدرة أرجح من غيرها، أو القدرة التامة. ولفظ (القوة) قد يعم القوة التي في الجمادات بخلاف لفظ القدرة؛ فلهذا كان المنفي بلفظ (القوة) أشمل وأكمل. فإذا لم تكن قوة إلا به لم تكن قدرة إلا به بطريق الأولىٰ»(١).

«وَقَوْلُ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، يُوجِبُ الإِعَانَةَ؛ ولهذا سَنَّهَا النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا قَالَ المُؤَذِّنُ: حَيَّ عَلَىٰ الصَّلَاةِ. فَيَقُولُ: المُجِيبُ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، فَإِذَا قَالَ: حَيَّ عَلَىٰ الفَلَاحِ قَالَ المُجِيبُ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

وَقَالَ المُؤْمِنُ لِصَاحِبِهِ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف:٣٩]، ولهذا يُؤْمَرُ بِهَذَا مَنْ يَخَافُ العَيْنَ عَلَىٰ شَيْءٍ، فَقَوْلُهُ: مَا شَاءَ اللهُ تَقْدِيرُهُ: مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، فَلَا يَأْمَنُ؛ بَلْ يُؤْمِنُ بِالقَدَرِ. وَيَقُولُ: لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ المُتَّفَقِ عَلَيْهِ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**هِيَ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ**»(٢).

و«الكَنْزُ» مَالٌ مُجْتَمِعٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ جَمْعٍ؛ وَذَلِكَ أَنَّهَا تَتَضَمَّنُ التَّوَكُّلَ والِافْتِقَارَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ. وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يَكُونُ شَيْءٌ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ وَأَنَّ الخَلْقَ لَيْسَ مِنْهُمْ شَيْءٌ إِلَّا مَا أَحْدَثَهُ اللهُ فِيهِمْ، فَإِذَا انْقَطَعَ طَلَبُ القَلْبِ لِلْمَعُونَةِ مِنْهُمْ وَطَلَبَهَا مِنَ اللهِ فَقَدْ طَلَبَهَا مِنْ خَالِقِهَا الَّذِي لَا يَأْتِي بِهَا إِلَّا هُوَ»(٣).

(١) «شرح حديث النزول» (ص: ١٨٦).
(٢) أخرجه البخاري (٤٢٠٥)، ومسلم (٢٧٠٤).
(٣) «مجموع الفتاوىٰ» (١٣/ ٣٢٢).

«وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ- يذكر أثرًا في هذا الباب ويقول: إن الملائكة لما أمروا بحمل العرش قالوا: يا ربنا كيف نحمل عرشك وعليه عظمتك وجلالك؟ فقال: قولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله، فلما قالوا حملوه. حتىٰ رأيت ابن أبي الدنيا قد ذكر هذا الأثر بعينه عن الليث بن سعد عن معاوية بن صالح قال: حدثنا مشيختنا أنه بلغهم أن أول ما خلق الله عَزَّوَجَلَّ -حين كان عرشه علىٰ الماء- حملة العرش، قالوا: ربنا لم خلقتنا؟ قال: خلقتكم لحمل عرشي، قالوا: ربنا ومن يقوىٰ علىٰ حمل عرشك وعليه عظمتك وجلالك ووقارك؟ قال: لذلك خلقتكم، فأعادوا عليه ذلك مرارًا فقال لهم: قولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله، فحملوه(١).

وهذه الكلمة لها تأثير عجيب في معالجة الأشغال الصعبة، وتحمل المشاق، والدخول علىٰ الملوك، ومن يخاف، وركوب الأهوال، ولها -أيضًا- تأثير في دفع الفقر، كما روىٰ ابن أبي الدنيا عن الليث بن معاوية بن صالح عن أسد بن وداعة -رضي الله تعالىٰ عنه(٢)- قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من قال: لا حول ولا قوة إلا بالله مائة مرة في كل يوم لم يصبه فقر أبدًا»(٣)، وكان حبيب بن سلمة يستحب إذا لقي عدوًا أو ناهض حصنًا قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، وإنه ناهض يومًا حصنًا للروم فانهزم، فقالها المسلمون وكبروا فانهدم الحصن»(٤).

---

(١) لم أقف علىٰ هذا الأثر مسندًا إلىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٢) كذا في «الوابل الصيب»، وهو يُشعِر بأنه صحابي، وليس كذلك، بل أسد بن وداعة شامي من صغار التابعين.

(٣) عزاه المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/ ٢٨٥) لابن أبي الدنيا.

(٤) «الوابل الصيب من الكلم الطيب» (ص: ٧٧).

«وفي «الترمذي» عن أنس بن مالك: قال رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من قال -يعني إذا خرج من بيته-: بسم الله توكلت علىٰ الله لا حول ولا قوة إلا بالله. يقال له: كفيت وهديت ووقيت، وتنحىٰ عنه الشيطان، فيقول لشيطان آخر: كيف لك برجل قد هدي وكفي ووقي؟**»، رواه أبو داود والنسائي والترمذي وقال: حديث حسن[(١)]»[(٢)].

«وأما تأثير لا حول ولا قوة إلا بالله في دفع هذا الداء (الهم والحزن) فلِما فيها من كمال التفويض والتبري من الحول والقوة إلا به وتسليم الأمر كله له وعدم منازعته في شيء منه، وعموم ذلك لكل تحول من حال إلىٰ حال في العالم العلوي والسفلي والقوة علىٰ ذلك التحول وأن ذلك كله بالله وحده، فلا يقوم لهذه الكلمة شيء، وفي بعض الآثار أنه ما ينزل ملك من السماء، ولا يصعد إليها إلا بلا حول ولا قوة إلا بالله. ولها تأثير عجيب في طرد الشيطان، والله المستعان»[(٣)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**أَلَا أَدُلُّكَ عَلَىٰ كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ؟**» قُلْتُ: بَلَىٰ، قَالَ: «**لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**» قَالَ: أَحْسِبُهُ قَالَ: «**يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: أَسْلَمَ عَبْدِي وَاسْتَسْلَمَ**»، رواه أحمد والنسائي بإسناد حسن[(٤)].

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٩٥)، والترمذي (٣٤٢٦)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٩٨٣٧)، وصححه الألباني.

(٢) «الوابل الصيب من الكلم الطيب» (ص: ٨٣).

(٣) «الطب النبوي» لابن القيم - الفكر (ص: ١٦٤).

(٤) أخرجه أحمد (١٠٧٤٧)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٩٧٥٧)، والحاكم (٥٤) وصححه ووافقه الذهبي.

وَأخرج ابْن جرير وَابْن الْمُنْذر وَابْن أبي حَاتِم والبَيْهَقِيُّ فِي «الأَسْمَاء والصِّفَات» عَن ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ۝٨٧﴾ [مريم:٨٧]، قَالَ: شَهَادَة أَن لَا إِلَه إِلَّا الله وتبرأ من الحول والقوَّة، وَلَا يَرْجُو إِلَّا الله(١).

وَفِي هَذَا التَنْبِيهُ عَلَىٰ أَنَّ كَمَالَ الإِيمَانِ لَا يَحْصُلُ إِلَّا عِنْدَ تَفْوِيضِ جَمِيعِ الأُمُورِ إِلَىٰ الخَالِقِ وَإِظْهَارِ التَّبَرِّي مِنَ الحَوْلِ والقُوَّةِ، وَأَيْضًا فَفِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَىٰ فَسَادِ طَرِيقَةِ مَنِ اسْتَعَانَ بِغَيْرِ الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، فَإِنَّ المُشْرِكِينَ كَانُوا يَسْتَعِينُونَ بِالأَصْنَامِ وَيَقُولُونَ: هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ الله، والدَّهْرِيَّةُ والطَّبِيعِيُّونَ يَسْتَعِينُونَ بِالأَفْلَاكِ والكَوَاكِبِ والطَّبَائِعِ وَغَيْرِهَا، واليَهُودُ كَانُوا يَقُولُونَ فِي دَفْعِ عِقَابِ الآخِرَةِ عَنْهُمْ: إِنَّهُمْ مِنْ أَوْلَادِ الأَنْبِيَاءِ، والنَّصَارَىٰ كَانُوا يَقُولُونَ: ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، فَجَمِيعُ الفِرَقِ قَدِ اسْتَعَانُوا بِغَيْرِ الله، قال أهل العلم: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]، فالأول تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة والتفويض إلىٰ الله.

«ومما يوضح ذلك ويقويه أَن في تعلق العبد بما سوىٰ الله مضرة عليه إِذا أَخذ منه القدر الزائد علىٰ حاجته المعينة له علىٰ عبودية الله ومحبته وتفريغ قلبه له، فإِنه إِن نال من الطعام الشراب فوق حاجاته ضره أَو أَهلكه، وكذلك من النكاح واللباس، وإِن أَحب شيئًا بحيث يُخالِلُهُ، فلا بد أَن يسأَمه أَو يفارقه، فالضرر حاصل له إِن وجد أَو فقد، فإِن فقد تعذب بالفراق وتأَلم، وإِن وجد فإِنه يحصل له من الأَلم أَكثر مما يحصل له من اللذة. وهذا أَمر معلوم بالاعتبار

(١) «تفسير الطبري» (١/ ٢٥٥)، و«الدعاء» للطبراني (١٥٧٠).

والاستقراء أَن كل من أَحب شيئًا دون الله لغير الله فإِن مضرته أَكثر من منفعته وعذابه أَعظم من نعيمه، ويزيد ذلك إِيضاحًا أَن اعتماده علىٰ المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته، فإِنه يخذل من تلك الجهة. وهذا أَيضًا معلوم بالاعتبار والاستقراء، فإِنه ما علق العبد رجاءَه وتوكله بغير الله إِلا خاب من تلك الجهة، ولا استنصر بغيره إِلا خذل، قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزًّا ۝٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ۝٨٢﴾ [مريم:٨١-٨٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ۝٧٤ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٌ مُّحۡضَرُونَ ۝٧٥﴾ [يس:٧٤-٧٥].

وقال تعالىٰ عن إِمام الحنفاء أَنه قال للمشركين: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ [العنكبوت:٢٥].

ولما كان غاية صلاح العبد في عبادة الله وحده واستعانته وحده كان في عبادة غيره والاستعانة بغيره غاية مضرته. ومما يوضح الأَمر في ذلك ويبينه أَن الله سبحانه غني حميد كريم رحيم، فهو محسن إِلىٰ عبده مع غناه عنه يريد به الخير ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إِليه سبحانه، ولا لدفع مضرة، بل رحمة وإِحسانًا وجودًا محضًا، فإِنه رحيم لذاته محسن لذاته جواد لذاته كريم لذاته كما أَنه غني لذاته قادر لذاته حي لذاته، فإِحسانه وجوده وبره ورحمته من لوازم ذاته لا يكون إِلا كذلك، كما أَن قيامه قدرته وغناه من لوازم ذاته، فلا يكون إِلا كذلك، وأَما العباد، فلا يتصور أَن يحسنوا إِلا لحظوظهم، فأَكثر ما عندهم للعبد أَن يحبوه ويعظموه ليجلبوا له منفعة ويدفعوا عنه مضرة، وذلك

من تيسير الله وإِذنه لهم به، فهو في الحقيقة ولي هذه النعمة ومسديها ومجريها علىٰ أَيديهم، ومع هذا فإِنهم لا يفعلون ذلك إِلا لحظوظهم من العبد، فإنهم إذا أحبوه طلبوا أن ينالوا غرضهم من محبته سواءٌ أَحبوه لجماله الباطن أَو الظاهر، فإِذا أَحبوا الأَنبياءَ والأَولياءَ فطلبوا لقاءَهم فهم يحبون التمتع برؤيتهم وسماع كلامهم ونحو ذلك، وكذلك من أَحب إِنسانًا لشجاعته أَو رياسته أَو جماله أَو كرمه، فهو يحب أَن ينال حظه من تلك المحبة، ولولا التذاذه بها لما أَحب ذلك، وإِن جلبوا له منفعة أَو دفعوا عنه مضرة -كمرض وعدو- ولو بالدعاءِ فهم يطلبون العِوضَ إِذا لم يكن العمل لله»(١).

وفي قوله تعالىٰ عن يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾ [يوسف:٦٧]، إِشَارَةٌ إِلَىٰ عَدَمِ الِاعتماد علىٰ الأَسْبَاب، وبيان حقيقة التوكل.

❁ ❁ ❁

ذو الجلال والإكرام

قال تعالىٰ: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٢٧﴾ [الرحمن:٢٧].

وَأخرج ابْن جرير وَابْن الْمُنْذر وَابْن أبي حَاتِم وَأَبُو الشَّيْخ فِي «العظمة» وَابْن مرْدَوَيْه والبَيْهَقِيُّ فِي «الأَسْمَاء والصِّفَات» عَن ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٢٧﴾ [الرحمن:٢٧]، قَالَ: ذُو الكِبْرِيَاء والعَظَمَة(٢).

---

(١) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ٦١).

(٢) «تفسير الطبري» (٢٣/ ٨٦)، و«الأسماء والصفات» (١٥٩)، و«العظمة» (٧٥).

«وَهُوَ سُبْحَانَهُ ذُو الجَلَالِ والإِكْرَامِ. فَهُوَ المُسْتَحِقُّ لَأَنْ يُجَلَّ وَلَأَنْ يُكْرَمَ، والإِجْلَالُ يَتَضَمَّنُ التَّعْظِيمَ، والإِكْرَامُ يَتَضَمَّنُ الحَمْدَ والمَحَبَّةَ»(١).

وعَنِ أنس قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلِظُّوا بـ: يَا ذَا الجَلالِ والإِكْرَامِ**»(٢)، يَعْنِي: تَعَلَّقُوا بِهَا والزَمُوا وَدَاوِمُوا عَلَيْهَا.

«والكمال أَن تَجْتَمِع المحبَّة والود والتعظيم والإجلال، وهذا لَا يُوجد إِلَّا إِذا كَانَ فِي المحبوب صِفَات الكَمَال الَّتِي يسْتَحق أَن يعظم لأَجلهَا وَيُحب لأَجلهَا، وَلما كَانَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَحَق بِهَذَا من كل أحد كَانَ المُسْتَحق لِأَن يعظم وَيكبَّر ويهاب وَيُحب وَيَوَد بِكُل جُزْء من أَجزَاء القلب، وَلَا يَجْعَل لَهُ شريك فِي ذَلِك، وهذا هُوَ الشِّرك الَّذِي لَا يغفره الله سُبْحَانَهُ أَن يُسَوِّي بَينه وَبَين غَيره فِي هَذَا الحبِّ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة:١٦٥]، فَأخبر أَن من أحب شَيْئا غير الله مثل حبِّه لله كَانَ قد اتَّخذهُ ندًّا، وَقَالَ أهل النَّار فِي النَّار لمعبودهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ [الشعراء:٩٧-٩٨].

وَلِهَذَا جَاءَ فِي «مُسْنَد الإِمَام أَحْمد» من حَدِيث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنه قَالَ: «**أَلَظُّوا بيا ذَا الجلَال والإِكْرَام**»(٣)؛ حَدِيث صَحِيح، أَي:

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (١٦/ ٢٩٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٢٤)، وصححه الألباني.

(٣) لم أقف عليه عند أحمد من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وإنما رواه من حديث ربيعة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما في «المسند» برقم (١٧٦٣٢)، أما حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد أخرجه الترمذي (٣٥٢٥)، وصححه الألباني.

الزموها والْهَجوا بهَا، وَفِي «مُسْند أبي يعلىٰ الموصِلِي» عَن بعض الصَّحَابَة أَنه طلب أَن يعرف اسْم الله الأَعْظَم، فَرَأىٰ فِي مَنَامه مَكْتُوبًا فِي السَّمَاء بالنجوم: يَا بديع السَّمَاوَات والأَرْض، يَا ذَا الجلَال والإِكْرَام(١).

وكل محبَّة وتعظيم للبشر فَإِنَّمَا تجوز تبعًا لمحبة الله وتعظيمه كمحبة رَسُوله وتعظيمه، فَإِنَّهَا من تَمام محبَّة مرسله وتعظيمه، فَإِن أمته يحبونه لحب الله لَهُ ويعظمونه ويجلونه لإجلال الله لَهُ، فَهِيَ محبَّة لله من مُوجبَات محبَّة الله، وَكَذَلِكَ محبَّة أهل العلم والإِيمَان ومحبة الصَّحَابَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وإجلالهم تَابع لمحبة الله وَرَسُوله لَهُم»(٢).

وعن عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّثَهُمْ: «أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللهِ قَالَ: يَا رَبِّ، لَكَ الحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَلِعَظِيمِ سُلْطَانِكَ، فَعَضَّلَتْ بِالمَلَكَيْنِ، فَلَمْ يَدْرِيَا كَيْفَ يَكْتُبَانِهَا، فَصَعِدَا إِلَىٰ السَّمَاءِ، وَقَالَا: يَا رَبَّنَا، إِنَّ عَبْدَكَ قَدْ قَالَ مَقَالَةً لَا نَدْرِي كَيْفَ نَكْتُبُهَا، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا قَالَ عَبْدُهُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ قَالَا: يَا رَبِّ، إِنَّهُ قَالَ: يَا رَبِّ، لَكَ الحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ، فَقَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لَهُمَا: اكْتُبَاهَا كَمَا قَالَ عَبْدِي، حَتَّىٰ يَلْقَانِي فَأَجْزِيَهُ بِهَا»، رواه ابن ماجه والطبراني في «الأوسط» وفي «الدعاء»، وهو حديث حسن(٣).

---

(١) أخرجه أبو يعلىٰ (٧٢٠٦) بإسناد منقطع.

(٢) «جِلاء الأفهام» (ص: ١٨٦).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٨٠١)، والطبراني في «الكبير» (١٣٢٩٧)، و«الأسط» (٩٢٤٩).

وَأخرج ابْن أبي شيبَة وَأحمد وَأَبُو دَاوُد والنَّسَائِيُّ والبَيْهَقِيُّ فِي «الأَسْمَاء والصِّفَات» عَن أنس بن مَالك قَالَ: كنت مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا فِي الحلقَة وَرجل قَائِم يُصَلِّي فَلَمَّا ركع وَسجد تشهد ودعا فَقَالَ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلك بِأَن لَك الحَمد لَا إِلَه إِلَّا أَنْت وَحدك لَا شريك لَك المنان، بديع السَّمَوَات والأَرْض يَا ذَا الجلَال والإكرام، يَا حيُّ يَا قيوم إِنِّي أَسأَلك، فَقَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لقد دَعَا الله باسمه العَظِيم الَّذِي إِذا دعِي بِهِ أجَاب وَإِذا سُئِلَ بِهِ أعْطى**»(١)»(٢).

فَعَلَىٰ قَدْرِ المَعْرِفَةِ يَكُونُ تَعْظِيمُ الرَّبِّ تَعَالَىٰ فِي القَلْبِ. وَأَعْرَفُ النَّاسِ بِهِ: أَشَدُّهُمْ لَهُ تَعْظِيمًا وَإِجْلَالًا. وَقَدْ ذَمَّ اللهُ تَعَالَىٰ مَنْ لَمْ يُعَظِّمْهُ حَقَّ عَظَمَتِهِ. وَلَا عَرَفَهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ. وَلَا وَصَفَهُ حَقَّ صِفَتِهِ، وَرُوحُ العِبَادَةِ: هُوَ الإِجْلَالُ والمَحَبَّةُ. فَإِذَا تَخَلَّىٰ أَحَدُهُمَا عَنِ الآخَرِ فَسَدَتْ. فَإِذَا اقْتَرَنَ بِهَذَيْنِ الثَّنَاءُ عَلَىٰ المَحْبُوبِ المُعَظَّمِ فَذَلِكَ حَقِيقَةُ الحَمْدِ.

«وتدبر قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث ثوبان الذي رواه مسلم في «صحيحه» عند انصرافه من الصلاة: «**اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام**»، رواه مسلم وأبو داود وأحمد(٣).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٣٦١)، وأحمد (١٢٢٢٦)، وأبو داود (١٤٩٥)، والترمذي (٣٥٤٤)، والنسائي (١٣٠٠)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٤)، وصححه الألباني.

(٢) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (٢/ ٤٦٣).

(٣) أخرجه مسلم (٥٩١)، وأبو داود (١٥١٣)، والترمذي (٣٠٠)، والنسائي (١٣٣٧)، وابن ماجه (٩٢٨)، أحمد (٢٢٤١٩).

فتأمل هذه الألفاظ الكريمة كيف جمعت نوعي الثناء -أعني ثناء التنزيه والتسبيح وثناء الحمد والتمجيد- بأبلغ لفظ وأوجزه وأتمِّه معنىٰ، فأخبر أنه السلام ومنه السلام، فالسلام له وصفًا وملكًا، وقد تقدم بيان هذا في وصفه تعالىٰ بالسلام وأن صفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله وأسمائه كلها سلام، وكذا الحمد كله له وصفًا وملكًا، فهو المحمود في ذاته، وهو الذي يجعل من يشاء من عباده محمودًا فيهبه حمدًا من عنده، وكذلك العزة كلها له وصفًا وملكًا، وهو العزيز الذي لا شيء أعز منه، ومن عز من عباده فبإعزازه له، وكذلك الرحمة كلها له وصفًا وملكًا، وكذلك البركة، فهو المتبارك في ذاته الذي يبارك فيمن شاء من خلقه وعليه فيصير بذلك مباركًا: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٤﴾ [غافر:٦٤]: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٥﴾ [الزخرف:٨٥].

وهذا بساط، وإنما غاية معارف العلماء الدنو من أول حواشيه وأطرافه، وأما ما وراء ذلك فكما قال أعلم الخلق بالله وأقربهم إلىٰ الله وأعظمهم عنده جاهًا: «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت علىٰ نفسك**» رواه مسلم(١). وقال: في حديث الشفاعة الطويل: «**فأخِرُّ ساجدًا لربي فيفتح علي من محامده بما لا أحسنه الآن**» رواه البخاري ومسلم(٢). وفي دعاء الهم والغم: «**أسألك بكل اسم**

(١) أخرجه مسلم (٤٨٦).

(٢) سبق تخريجه.

هو لك، سميتَ به نفسَك، أو أنزلته في كتابك، أو علَّمتَه أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك» صحيح[(١)]. فدل علىٰ أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده دون خلقه لا يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل وحسبنا الإقرار بالعجز والوقوف عند ما أذن لنا فيه من ذلك، فلا نغلو فيه، ولا نجفو عنه، وبالله التوفيق»[(٢)].

وقال تعالىٰ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٧٨﴾ [الرحمن:٧٨].

«فالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أحق أن يكون متباركًا، وهذا ثناء يشعر بالعظمة، والرفعة والسعة، كما يقال: تعاظم وتعالىٰ، ونحوه، فهو دليل علىٰ عظمته وكثرة خيره ودوامه، واجتماع صفات الكمال فيه، وأن كل نفع في العالم كان ويكون فمن نفعه سبحانه وإحسانه. ويدل هذا الفعل -أيضًا- في حقه علىٰ العظمة والجلال وعلو الشأن، ولهذا إنما يذكره غالبًا مفتتحًا به جلاله وعظمته وكبرياءه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ [الأعراف:٥٤].

وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١﴾ [الفرقان:١]، وقال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ٦١﴾ [الفرقان:٦١]: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «بدائع الفوائد» (٢/ ١٨٧).

﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٥﴾ [الزخرف:٨٥]، ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١﴾ [الملك:١]، وقال تعالىٰ عقب خلق الإنسان في أطواره السبعة: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون:١٤].

فقد ذكر تباركه سبحانه في المواضع التي أثنىٰ فيها علىٰ نفسه بالجلال والعظمة، والأفعال الدالة علىٰ ربوبيته وإلهيته وحكمته وسائر صفات كماله: من إنزال الفرقان، وخلق العالمين، وجعله البروج في السماء والشمس والقمر، وانفراده بالملك، وكمال القدرة.

ولهذا قال أبو صالح: عن ابن العباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: «تبارك بمعنىٰ: تعالىٰ»، وقال أبو العباس: «تبارك ارتفع، والمبارك: المرتفع».

وقال ابن الأنباري: «تبارك بمعنىٰ: تقدس».

وقال الحسن: «تبارك تجيء البركة من قبله». وقال الضحاك: «تبارك تعاظم». وقال الخليل بن أحمد: «تمجد».

وقال الحسين بن الفضل: «تبارك في ذاته، وبارك فيمن شاء من خلقه»، وهذا أحسن الأقوال، فتباركه سبحانه صفة ذات له، وصفة فعل، كما قال الحسين بن الفضل.

والذي يدل علىٰ ذلك أيضًا: أنه سبحانه يسند التبارك إلىٰ اسمه، كما قال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٧٨﴾ [الرحمن:٧٨]، وفي حديث الاستفتاح:

«**تبارك اسمك وتعالىٰ جدك**»[(١)]، فدل هذا علىٰ أن تبارك ليس بمعنىٰ بارك، كما قاله الجوهري، وأن تبريكه سبحانه جزء مسمىٰ اللفظ، لا كمال معناه.

وقال ابن عطية: معناه عظم، وكثرت بركاته. ولا يوصف بهذه اللفظة إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولا تتصرف هذه اللفظة في لغة العرب، لا يستعمل منها مضارع، ولا أمر. قال: وعلة ذلك أن تبارك لما لم يوصف به غير الله، لم يقتض مستقبلًا،؛ إذ الله تعالىٰ قد تبارك في الأزل»[(٢)].

❁ ❁ ❁

الأحد الصمد

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص:١-٢].

وَأخرج أَبُو يعلىٰ، وَابْن جرير، وَابْن الْمُنْذر، والطَّبَرَانِيُّ فِي «الأَوْسَط»، وَأَبُو نعيم فِي «الحِلْية»، والبَيْهَقِيُّ بِسَنَد حسن، عَن جَابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِي إِلَىٰ النَّبِي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَقَالَ: أنسب لنا رَبك، فَأنْزل الله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص:١-٤]»[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو داود (٧٧٦)، والترمذي (٢٤٣) من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، وصححه الألباني.

(٢) «جلاء الأفهام» (دار ابن كثير) (٤/ ١٣٥).

(٣) «الأسماء والصفات» (٦٠٨)، و«حلية الأولياء» (٤/ ٣٣٥)، و«الأوسط» للطبراني (٥٦٨٧)، و«مسند أبي يعلىٰ» (٢٠٤٤).

«فَنَزَّهَ نَفْسَهُ أَنْ يَلِدَ كَمَا يَقُولُونَ: هُوَ الأَبُ، وَأَنْ يُولَدَ كَمَا يَقُولُونَ: هُوَ الِابْنُ، وَأَنْ يَكُونَ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، كَمَا يَقُولُونَ: إِنَّ لَهُ مَنْ يُسَاوِيهِ»(١).

وأخرج ابْن الْمُنْذر وَابْن أبي حَاتِم وَأَبُو الشَّيْخ فِي «العظمة» والبَيْهَقِيُّ فِي «الأَسْمَاء والصِّفَات» من طَرِيق عَليٍّ عَن ابْن عَبَّاس قَالَ: «الصَّمد السَّيِّد الَّذِي قد كمل فِي سؤدده، والشريف الَّذِي قد كمل فِي شرفه، والعظيم الَّذِي قد كمل فِي عَظمته، والحليم الَّذِي قد كمل فِي حلمه، والغني الَّذِي قد كمل فِي غناهُ، والجبار الَّذِي قد كمل فِي جبروته، والعالم الَّذِي قد كمل علمه، والحكيم الَّذِي قد كمل فِي حكمته، وَهُوَ الَّذِي قد كمل فِي أَنْوَاع الشَّرف والسؤدد، وَهُوَ الله سُبْحَانَهُ هَذِه صفته لَا تنبغي إِلَّا لَهُ لَيْسَ كفو وَلَيْسَ كمثله شَيْء»(٢).

فَذَكَرُوا فِيهِ وُجُوهًا:

الأَوَّلُ: الصَّمَدُ هُوَ الغَنِيُّ عَلَىٰ مَا قَالَ: ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٢٤﴾ [الحديد:٢٤].

الثَّانِي: الصَّمَدُ الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ أَحَدٌ، لِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]، وَلَا يَخَافُ مَنْ فَوْقَهُ، وَلَا يَرْجُو مَنْ دُونَهُ، تُرْفَعُ الحَوَائِجُ إِلَيْهِ.

الثَّالِثُ: قَالَ قَتَادَةُ: لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام:١٤].

الرَّابِعُ: قَالَ قَتَادَةُ: البَاقِي بَعْدَ فَنَاءِ خَلْقِهِ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦﴾ [الرحمن:٢٦].

---

(١) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» لابن تيمية (٣/ ٢٣١).

(٢) «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٩٢)، و«الأسماء والصفات» (٩٨)، و«العظمة» (٩٦).

الخَامِسُ: قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: الَّذِي لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الزَّوَالُ.

السَّادِسُ: قَالَ أُبَيُّ بن كَعْبٍ: الَّذِي لَا يَمُوتُ وَلَا يُورَثُ وَلَهُ ميراث السموات والأَرْضِ.

السابع: قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: إِنَّهُ الكَامِلُ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ.

«فَالصَّمَدُ: السَّيِّدُ المُسْتَوْجِبُ لِصِفَاتِ الكَمَالِ، والأَحَدُ: الَّذِي لَيْسَ لَهُ كُفْوٌ، وَلَا مِثَالٌ»(١).

«وكونه الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد يقتضي توحده في صمديته فيكون هو السيد المقصود، الذي يصمد الناس إليه في كل حوائجهم، المستغني عما سواه، وكل ما سواه مفتقرون إليه لا غنىٰ بهم عنه، وهذا سبب لقضاء المطلوبات»(٢).

«وَهُوَ الصَّمَدُ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ وَيَسْأَلُهُ كُلُّ أَحَدٍ، وَهُوَ غَنِيٌّ بِنَفْسِهِ لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ أَحَدٍ فِي شَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ كَمَا قَالَ -تَعالَىٰ-: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ

---

(١) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» لابن تيمية (١/ ٧٣).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم» (٢/ ٣٢٢).

﴿أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ۝٩٥﴾ [مريم:٨٨-٩٥]»[1].

وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي ابْنُ آدَمَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: أَنَّىٰ يُعِيدُنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: أَنِّي اتَّخَذْتُ وَلَدًا، وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**»[2].

قلت: وفي قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص:١]، الإشارة إلىٰ حديث: «**كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ المَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ**»، رواه البخاري[3].

وقوله تعالىٰ: «**وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ**» الأحد تنفي الشريك، والصمد تنفي المثيل، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٧﴾ [الروم:٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورىٰ:١١].

---

(١) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» لابن تيمية (٢/ ١٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٧٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٣١٩١) من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«أنه سبحانه وصف نفسه بأنه ليس كمثله شيء وأنه لا سمي له، ولا كفؤ له، وهذا يستلزم وصفه بصفات الكمال التي فات بها شبه المخلوقين واستحق بقيامها به أن يكون: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى:١١]، وهكذا كونه ليس له سمي؛ أي: مثيل يساميه في صفاته وأفعاله، ولا مَن يكافيه فيها»(١).

«وكونه أعظم من كل شيء وفوق كل شيء وعاليًا علىٰ كل شيء وأن يكون هو الأول الذي ليس قبله شيء والآخر الذي ليس بعده شيء والظاهر الذي ليس فوقه شيء والباطن الذي ليس دونه شيء، فباين خلقه بذاته وصفاته وأفعاله، وأوليته وآخريته، ووجوب وجوده وامتناع عدمه، وكثرة أوصافه التي ليس كمثله فيها شيء، فهو العليم الذي ليس كمثله شيء في علمه البصير الذي ليس كمثله شيء في بصره، القدير الذي ليس كمثله شيء في قدرته، الحي القيوم الذي ليس كمثله شيء في حياته وقيوميته، العلي الذي ليس كمثله شيء في علوه، بل هو منفرد بذاته وصفاته عن مماثلة مخلوقاته فله أعظم المباينة وأجلها وأكملها كما له من كل صفة كمال أعظمها وأكملها»(٢).

«فَفِي اسْمِهِ الصَّمَدِ إِثْبَاتُ كُلِّ الكَمَالِ، وَفِي نَفْيِ الكُفْءِ التَّنْزِيهُ عَنِ الشَّبِيهِ والمِثَالِ. وَفِي الأَحَدِ نَفْيُ كُلِّ شَرِيكٍ لِذِي الجَلَالِ، وَهَذِهِ الأُصُولُ الثَّلَاثَةُ هِيَ مَجَامِعُ التَّوْحِيدِ»(٣).

(١) «الصواعق المرسلة في الرد علىٰ الجهمية والمعطلة» (٣/ ١٠١٩).

(٢) «الصواعق المرسلة في الرد علىٰ الجهمية والمعطلة» (٤/ ١٣٣٨).

(٣) «زاد المعاد في هدي خير العباد» (٤/ ١٦٦).

ومعناه: المفتقر إليه كلُّ ما عداه، فالمعدوم مفتقر وجودُه إليه والموجود مفتقر في شئونه إليه، وقد قال تعالىٰ عن إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦﴾ [الأنعام:٧٦]. وَأخرج عبد بن حميد وَابْن الْمُنْذر وَابْن أبي حَاتِم وَأَبُو الشَّيْخ عَن قَتَادَة فِي الآيَة: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦﴾ [الأنعام:٧٦]، علم أَن ربه دَائِم لَا يَزُول»(١). فاسمه الصمد يدل علىٰ جميع صفات الكمال، الذي تَصْمُدُ نَحْوَهُ القُلُوبُ بِالرَّغْبَةِ والرَّهْبَةِ.

وأَوَّلَ السُّورَةِ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَاحِدٌ، والصَّمَدُ عَلَىٰ أَنَّهُ كَرِيمٌ رَحِيمٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يُصْمَدُ إِلَيْهِ حَتَّىٰ يَكُونَ مُحْسِنًا وَ: ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣﴾ [الإخلاص:٣]، عَلَىٰ أَنَّهُ غَنِيٌّ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ وَمُنَزَّهٌ عَنِ التَّغَيُّرَاتِ، فَلَا يَبْخَلُ بِشَيْءٍ أَصْلًا، وَلَا يَكُونُ جُودُهُ لِأَجْلِ جَرِّ نَفْعٍ أَوْ دَفْعِ ضُرٍّ، بَلْ بِمَحْضِ الإِحْسَانِ، وقوله: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ [الإخلاص:٤]، إِشَارَةٌ إِلَىٰ نفي الشريك والنظير.

«وأما محبة الرب سبحانه (الأحد الصمد) فشأنها غير هذا الشأن، فإنه لا شيء أحب إلىٰ القلوب من خالقها وفاطرها، فهو إلهها ومعبودها، ووليها ومولاها، وربها ومدبرها ورازقها، ومميتها ومحييها، فمحبة نعيم النفوس، وحياة الأرواح، وسرور النفوس، وقوت القلوب، ونور العقول، وقرة العيون، وعمارة الباطن، فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة، والعقول الزاكية أحلىٰ، ولا ألذ، ولا أطيب، ولا أسر، ولا أنعم من محبته والأنس به، والشوق

---

(١) «تفسير الطبري» (١١/ ٤٨٠)، و«ابن أبي حاتم» (٤/ ١٣٢٩).

إلىٰ لقائه، والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك فوق كل حلاوة، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتم من كل نعيم، واللذة التي تناله أعلىٰ من كل لذة. كما أخبر بعض الواجدين عن حاله بقوله: «إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب».

وقال آخر: «إنه ليمر بالقلب أوقات يهتز فيها طربًا بأنسه بالله وحبه له».

وقال آخر: «مساكين أهل الغفلة، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها».

وقال آخر: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف».

ووجدان هذه الأمور وذوقها هو بحسب قوة المحبة وضعفها، وبحسب إدراك جمال المحبوب والقرب منه، وكلما كانت المحبة أكمل، وإدراك المحبوب أتم، والقرب منه أوفر، كانت الحلاوة واللذة والسرور والنعيم أقوىٰ.

فمن كان بالله سبحانه وأسمائه وصفاته أعرف، وفيه أرغب، وله أحب، وإليه أقرب وجد من هذه الحلاوة في قلبه ما لا يمكن التعبير عنه، ولا يعرف إلا بالذوق والوجد، ومتىٰ ذاق القلب ذلك لم يمكنه أن يقدم عليه حبًّا لغيره، ولا أنسابه، وكلما ازداد له حبًّا ازداد له عبودية وذلًّا، وخضوعًا ورِقًّا له، وحرية عن رقِّ غيره.

فالقلب لا يفلح، ولا يصلح، ولا يتنعم، ولا يبتهج، ولا يلتذ، ولا يطمئن، ولا يسكن، إلا بعبادة ربه وحبه، والإنابة إليه، ولو حصل له جميع ما يلتذ به من

المخلوقات لم يطمئن إليها، ولم يسكن إليها، بل لا تزيده إلا فاقة وقلقًا، حتىٰ يظفر بما خلق له، وهيئ له: من كون الله وحده نهاية مراده، وغاية مطالبه، فإن فيه فقرًا ذاتيًّا إلىٰ ربه وإلهه، من حيث هو معبوده ومحبوبه وإلهه ومطلوبه، كما أن فيه فقرًا ذاتيًّا إليه من حيث هو ربه وخالقه ورازقه ومدبره، وكلما تمكنت محبة الله من القلب وقويت فيه أخرجت منه تألهه لما سواه وعبودبته له.

فَأَصْبَحَ حُرًّا عِزَّةً وَصِيَانَةً عَلَىٰ وَجْهِهِ أَنْوَارُه وَضِيَاؤُه

وما من مؤمن إلا وفي قلبه محبة لله تعالىٰ، وطمأنينة بذكره، وتنعم بمعرفته، ولذة وسرور بذكره، وشوق إلىٰ لقائه، وأنس بقربه، وإن لم يحسن به، لاشتغال قلبه بغيره، وانصرافه إلىٰ ما هو مشغول به، فوجود الشيء غير الإحساس والشعور به.

وقوة ذلك وضعفه وزيادته ونقصانه: هو بحسب قوة الإيمان وضعفه وزيادته ونقصانه.

ومتىٰ لم يكن الله وحده غاية مراد العبد ونهاية مقصوده، وهو المحبوب المراد له بالذات والقصد الأول، وكل ما سواه، فإنما يحبه ويريده ويطلبه تبعًا لأجله، لم يكن قد حقق شهادة أن لا إله إلا الله، وكان فيه من النقص والعيب والشرك بقدره، وله من موجبات ذلك من الألم والحسرة والعذاب بحسب ما فاته من ذلك.

ولو سعىٰ في هذا المطلوب بكل طريق، واستفتح من كل باب، ولم يكن مستعينًا بالله، متوكلًا عليه، مفتقرًا إليه في حصوله، متيقنًا أنه إنما يحصل بتوفيقه

ومشيئته، وإعانته، لا طريق له سوىٰ ذلك بوجه من الوجوه، لم يحصل له مطلوبه، فإنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. فلا يوصِّل إليه سواه، ولا يدل عليه سواه، ولا يعبد إلا بإعانته، ولا يطاع إلا بمشيئته: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير:٢٨-٢٩]»(١).

وفي قوله: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤﴾ [الإخلاص:٤]، الإشارة إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

«قال الإمام أبو بكر بن أبي عاصم في كتاب «السنة» باب نسبة الرب تبارك اسمه: حدثنا أبو كامل الفضيل بن حسين، حدثنا أبو سعد الخراساني، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبي بن كعب، أن المشركين قالوا للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: انسب لنا ربك، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤﴾ [الإخلاص:١-٤]. قال: فالصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولا يولد له؛ لأنه ليس شيء يلد إلَّا يولد، ولا يولد إلَّا سيموت وليس شيء يموت إلَّا يورث وإن الله لا يموت، ولا يورث، ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤﴾ [الإخلاص:٤]، قال: ليس له شبيه، ولا مثل، ولا عديل(٢)»(٣).

---

(١) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (٢/ ١٩٧).

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٦٦٣)، والترمذي (٣٣٦٤)، والحاكم (٣٩٨٧) وصححه ووافقه الذهبي، وقال الألباني: حسن دون قوله: (والصمد الذي...).

(٣) «بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية» (٧/ ٤٩٤).

وعن عَبْدِ اللهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، فَقَالَ: «**لَقَدْ سَأَلَ اللهَ بِالِاسْمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَىٰ، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ**» وَفِي لَفْظٍ: «**لَقَدْ سَأَلْتَ اللهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ**» رواه ابن حبان في «صحيحه»(١)، قال الحافظ ابن حجر: وهو أرجح من حيث السند من جميع ما ورد.

«فهذا توسل إلىٰ الله بتوحيده، وشهادة الداعي له بالوحدانية. وثبوت صفاته المدلول عليها باسم الصمد»(٢).

«وفي قوله تعالىٰ: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ [غافر:٦٠]، فَكُلُّ مَنْ دَعَا اللهَ وَفِي قَلْبِهِ ذَرَّةٌ مِنَ الِاعْتِمَادِ عَلَىٰ مَالِهِ وَجَاهِهِ وَأَقَارِبِهِ وَأَصْدِقَائِهِ وَجِدِّهِ وَاجْتِهَادِهِ، فَهُوَ فِي الحَقِيقَةِ مَا دَعَا اللهَ إِلَّا بِاللِّسَانِ، أَمَّا بِالقَلْبِ فَإِنَّهُ مُعَوِّلٌ فِي تَحْصِيلِ ذَلِكَ المَطْلُوبِ عَلَىٰ اللهِ، فَهَذَا الإِنْسَانُ مَا دَعَا رَبَّهُ فِي وَقْتٍ، أَمَّا إِذَا دَعَا فِي وَقْتٍ لَا يَبْقَىٰ فِي القَلْبِ التِفَاتٌ إِلَىٰ غَيْرِ اللهِ، فَحِينئذ تَحْصُلُ الِاسْتِجَابَةُ، قال تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾ [النمل:٦٢].

«مِنْهَا: التَّوْحِيد بِانْقِطَاع أَسبَاب الشِّرك وَتحقُّق بُطْلَانه، فَزَالَتْ مِنْهَا تِلْكَ المنازعات الَّتِي كَانَت مَشْغُولَة بهَا وَاجْتمعَ همها علىٰ من أيقنت بالقدوم عَلَيْهِ

(١) (٨٩١)، وصححه الألباني. انظر: «صحيح أبي داود» (١٣٤١).

(٢) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (١/ ٤٧).

والمصير إِلَيْهِ، فَوجَّه العَبْد وَجهه بكليته إِلَيْهِ وَأَقْبل بِقَلْبِه وروحه وهمه عَلَيْهِ فاستسلم وَحده ظَاهرًا وَبَاطنًا واستوىٰ سره وعلانيته فَقَالَ: لَا إِلَه إِلَّا الله مخلصًا من قلبه، وَقد تخلص قلبه من التَّعَلُّق بِغَيْرِهِ والالتفات إِلَىٰ مَا سواهُ، قد خرجت الدُّنْيَا كلهَا من قلبه وشارف القدوم علىٰ ربه وخمدت نيران شَهْوَته وامتلأ قلبه من الآخِرَة فَصَارَت نصب عَيْنَيْهِ، وَصَارَت الدُّنْيَا وَرَاء ظَهره، فَكَانَت تِلْكَ الشَّهَادَة الخَالِصَة خَاتِمَة عمله فطهَّرته من ذنُوبه وأدخلته علىٰ ربه؛ لِأَنَّهُ لَقِي ربه بِشَهَادَة صَادِقَة خَالِصَة وَافق ظَاهرهَا بَاطِنهَا وسرها علانيتها، فَلَو حصلت لَهُ الشَّهَادَة علىٰ هَذَا الوَجْه فِي أَيَّام الصِّحَّة لاستوحش من الدُّنْيَا وَأَهْلهَا وفر إِلَىٰ الله من النَّاس وَأنس بِهِ دون مَا سواهُ، لكنه شهد بهَا بقلب مشحون بالشهوات وَحب الحَيَاة وأسبابها وَنَفس مَمْلُوءَة بِطَلَب الحظوظ والالتفات إِلَىٰ غير الله، فَلَو تجردت كتجردها عِنْد المَوْت لَكَانَ لَهَا نبأ آخر وعيش آخر سوىٰ عيشها البهيمي، والله المُسْتَعَان»(١).

❁ ❁ ❁

الحميد المجيد

قال تعالىٰ: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣﴾ [هود:٧٣].

---

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص: ٥٦).

«فالحميد: هُوَ الَّذِي لَهُ من الصِّفَات وَأَسْبَاب الحَمد مَا يَقْتَضِي أَن يكون مَحْمُودًا وَإِن لم يحمده غَيره، فَهُوَ حميد فِي نَفسه والمحمود من تعلق بِهِ حمد الحامدين، وَهَكَذَا المجِيد والممجد والكَبِير والمكبر والعظيم والمعظم، والحَمْد والمجد إِلَيْهِمَا يرجع الكَمَال كُله، فَإِن الحَمد يسْتَلْزم الثَّنَاء والمحبة للمحمود، فَمن أحببته وَلم تُثنِ عَلَيْهِ لم تكن حامدًا لَهُ حَتَّىٰ تكون مثنيًا عَلَيْهِ محبًّا لَهُ، وهذا الثَّنَاء والحب تبع للأسباب المُقْتَضِيَة لَهُ، وَهُوَ مَا عَلَيْهِ المَحْمُود من صِفَات الكَمَال ونعوت الجلَال والإِحْسَان إِلَىٰ الغَيْر، فَإِن هَذِه هِيَ أَسبَاب المحبَّة، وَكلما كَانَت هَذِه الصِّفَات أجمع وأكمل كَانَ الحَمد والحب أتم وَأعظم.

والله سُبْحَانَهُ لَهُ الكَمَال المُطلق الَّذِي لَا نقص فِيهِ بِوَجْه مَا والإِحْسَان كُله لَهُ وَمِنْه، فَهُوَ أَحَق بِكُل حمد وَبِكُل حب من كل جِهَة، فَهُوَ أهل أَن يحب لذاته ولصفاته ولأفعاله ولأسمائه ولإحسانه وَلكُل مَا صدر مِنْهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وَأما المجد، فَهُوَ مُسْتَلْزم للعظمة والسعَة والجلال، والحَمْد يدل علىٰ صِفَات الإِكْرَام، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ذُو الجلَال والإِكْرَام، وهذا معنىٰ قَول العَبْد: لَا إِلَه إِلَّا الله، والله أكبر، فـ«لَا إِلَه إِلَّا الله» دَال علىٰ ألوهيته وتفرده فِيهَا، فألوهيته تَسْتَلْزِم محبته التَّامَّة، والله أكبر دَال علىٰ مجده وعظمته، وَذَلِكَ يسْتَلْزم تَعْظِيمه وتمجيده وتكبيره، ولهذا يقرن سُبْحَانَهُ بَين هذَيْن النَّوْعَيْنِ فِي القُرْآن كثيرًا؛ كَقَوْلِه: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣﴾ [هود:٧٣].

«هذا حقيقة المجد، فإنه السعة، ومنه مجد الشيء: إذا اتسع، واستمجد، والعرش المجيد لسعته»[(١)].

«ولما كانت الصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي ثناء الله تعالىٰ عليه وتكريمه والتنويه به، ورفع ذكره، وزيادة حبه وتقريبه كما تقدم، كانت مشتملة علىٰ الحمد والمجد، فكأن المصلي طلب من الله تعالىٰ أن يزيد في حمده ومجده، فإن الصلاة عليه هي نوع حمد له وتمجيد، هذا حقيقتها، فذكر في هذا المطلوب الاسمين المناسبين له، وهما أسماء الحميد والمجيد، وهذا كما تقدم أن الداعي يُشرع له أن يختم دعاءه باسم من الأسماء الحسنىٰ مناسب لمطلوبه، أو يفتتح دعاءه به، وتقدم أن هذا من قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]، قال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعائه ربه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [ص:٣٥]، وقال الخليل وابنه إسماعيل في دعائهما: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة:١٢٨].

وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور**» مائة مرة في مجلسه[(٢)]، وقال لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وقد سألته: إن وافقت ليلة القدر ما أدعو به؟ قال: قولي: «**اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني**»[(٣)]، وقال للصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد سأله أن يعلمه دعاء يدعو به في صلاته: قل: «**اللهم**

(١) «جلاء الأفهام» (دار ابن كثير) (٤/ ١٣٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٣٤) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥١٣)، وصححه الألباني.

إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»(١).

وما قاله الناس في قول المسيح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١١٨﴾ [المائدة:١١٨]، ولم يقل: الغفور الرحيم، وقول الخليل: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٣٦﴾ [إبراهيم:٣٦]، فلما كان المطلوب للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حمدًا ومجدًا بصلاة الله عليه، ختم هذا السؤال باسمي الحميد والمجيد، وأيضًا، فإنه لما كان المطلوب للرسول حمدًا ومجدًا، وكان ذلك حاصلًا له، ختم ذلك بالإخبار عن ثبوت ذينك الوصفين للرب بطريق الأولىٰ، وكل كمال في العبد غير مستلزم للنقص، فالرب أحق به.

وأيضًا، فإنه لما طلب للرسول حمدًا ومجدًا بالصلاة عليه، وذلك يستلزم الثناء عليه، ختم هذا المطلوب بالثناء علىٰ مرسلة بالحمد والمجد، فيكون هذا الدعاء متضمنًا لطلب الحمد والمجد للرسول -صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم-، والإخبار عن ثبوته للرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ»(٢).

وَقوله تَعَالَىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ١١١﴾ [الإسراء:١١١]، فَأمر بِحَمْدِهِ وتكبيره(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥).

(٢) «جلاء الأفهام» (دار ابن كثير) (٤/ ١٤٦).

(٣) «جلاء الأفهام» (ص: ٣١٦).

قَوْلَنَا: الحَمْدُ لِلَّهِ، مَعْنَاهُ أَنَّ الحَمْدَ والثَّنَاءَ حُقٌّ لِلَّهِ وَمِلْكُهُ، فَإِنَّهُ تَعَالَىٰ هُوَ المُسْتَحِقُّ لِلْحَمْدِ بِسَبَبِ كَثْرَةِ أَيَادِيهِ وَأَنْوَاعِ آلَائِهِ عَلَىٰ العِبَادِ، فَقَوْلُنَا: الحَمْدُ لِلَّهِ مَعْنَاهُ أَنَّ الحَمْدَ لِلَّهِ حَقٌّ يَسْتَحِقُّهُ لِذَاتِهِ، فالحَمْدَ عِبَارَةٌ عَنْ عمل القَلْبِ وَهِيَ اعْتِقَادُ كَوْنِ ذَلِكَ المَحْمُودِ مُتَفَضِّلًا مُنْعِمًا مُسْتَحِقًّا لِلتَّعْظِيمِ والإِجْلَالِ، فَإِذَا قَالَ العَبْدُ: الحَمْدُ لِلَّهِ كَانَ مَعْنَاهُ الحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ إِنْعَامِهِ عَلَىٰ كُلِّ مَخْلُوقٍ خَلَقَهُ وَعَلَىٰ كُلِّ مُحْدَثٍ أَحْدَثَهُ مِنْ نُورٍ وَظُلْمَةٍ وَسُكُونٍ وَحَرَكَةٍ وَعَرْشٍ وَكُرْسِيٍّ وَجِنِّيٍّ وَإِنْسِيٍّ وَذَاتٍ وَصِفَةٍ وَجِسْمٍ وَعَرَضٍ إِلَىٰ أَبَدِ الآبَادِ وَدَهْرِ الدَّاهِرِينَ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّهَا بِأَسْرِهَا حَقُّكَ وَمِلْكُكَ وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مَعَكَ فِيهَا شَرِكَةٌ وَمُنَازَعَةٌ، وأَوَّلُ كَلِمَةٍ ذَكَرَهَا أَبُونَا آدَمُ هُوَ قَوْلُهُ: الحَمْدُ لِلَّهِ، وَآخِرُ كَلِمَةٍ يَذْكُرُهَا أَهْلُ الجَنَّةِ هُوَ قَوْلُنَا: الحَمْدُ لِلَّهِ.

أَمَّا الأَوَّلُ: فَلِأَنَّهُ لَمَّا نفخ فيه الرُّوحَ عَطَسَ فَقَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

وَأَمَّا الثَّانِي: فَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٠﴾ [يونس: ١٠].

فَفَاتِحَةُ العَالَمِ مَبْنِيَّةٌ عَلَىٰ الحَمْدِ وَخَاتِمَتُهُ مَبْنِيَّةٌ عَلَىٰ الحَمْدِ، فَاجْتَهِدْ حَتَّىٰ يَكُونَ أَوَّلُ أَعْمَالِكَ وَآخِرُهَا مَقْرُونًا بِهَذِهِ الكَلِمَةِ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ عَالَمٌ صَغِيرٌ فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ أَحْوَالُهُ مُوَافِقَةً لِأَحْوَالِ العَالَمِ الكَبِيرِ، وحَمْدُ المُنْعِمِ عِبَارَةٌ عَنْ كُلِّ فِعْلٍ يُشْعِرُ بِتَعْظِيمِ المُنْعِمِ بِسَبَبِ كَوْنِهِ مُنْعِمًا. وَذَلِكَ الفِعْلُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِعْلَ القَلْبِ، أَوْ فِعْلَ اللِّسَانِ، أَوْ فِعْلَ الجَوَارِحِ، أَمَّا فِعْلُ القَلْبِ، فَهُوَ أَنْ يَعْتَقِدَ فِيهِ كَوْنَهُ مَوْصُوفًا بِصِفَاتِ الكَمَالِ والإِجْلَالِ، وَأَمَّا فِعْلُ اللِّسَانِ، فَهُوَ أَنْ يَذْكُرَ أَلْفَاظًا دَالَّةً عَلَىٰ كَوْنِهِ مَوْصُوفًا بِصِفَاتِ الكَمَالِ، وَأَمَّا فِعْلُ الجَوَارِحِ، فَهُوَ أَنْ يَأْتِيَ بِأَفْعَالٍ دَالَّةٍ

عَلَىٰ كَوْنِ ذَلِكَ المُنْعِمِ مَوْصُوفًا بِصِفَاتِ الكَمَالِ والإِجْلَالِ، فَهَذَا هُوَ المُرَادُ مِنَ الحَمْدِ.

فالَّذِي يُحْمَدُ وَيُمْدَحُ وَيُعَظَّمُ فِي الدُّنْيَا إِنَّمَا يَكُونُ كَذَلِكَ لِأَحَدِ وُجُوهٍ أَرْبَعَةٍ:

- إِمَّا لِكَوْنِهِ كَامِلًا فِي ذَاتِهِ وَفِي صِفَاتِهِ مُنَزَّهًا عَنْ جَمِيعِ النَّقَائِصِ والآفَاتِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ إِحْسَانٌ إِلَيْكَ.

- وَإِمَّا لِكَوْنِهِ مُحْسِنًا إِلَيْكَ وَمُنْعِمًا عَلَيْكَ.

- وَإِمَّا لِأَنَّكَ تَرْجُو وَصُولَ إِحْسَانِهِ إِلَيْكَ فِي المُسْتَقْبَلِ مِنَ الزَّمَانِ.

- وَإِمَّا لِأَجْلِ أَنَّكَ تَكُونُ خَائِفًا مِنْ قَهْرِهِ وَقُدْرَتِهِ وَكَمَالِ سَطْوَتِهِ.

فَهَذِهِ الحَالَاتُ هِيَ الجِهَاتُ المُوجِبَةُ لِلتَّعْظِيمِ، فَكَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقُولُ: إِنْ كُنْتُمْ مِمَّنْ يُعَظِّمُونَ الكَمَالَ الذَّاتِيَّ فَاحْمَدُونِي فَإِنِّي إِلَهُ العَالَمِينَ، وَهُوَ المُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: الحَمْدُ لِلَّهِ، وَإِنْ كُنْتُمْ مِمَّنْ تُعَظِّمُونَ الإِحْسَانَ فَأَنَا رَبُّ العَالَمِينَ، وَإِنْ كُنْتُمْ تُعَظِّمُونَ لِلطَّمَعِ فِي المُسْتَقْبَلِ فَأَنَا الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، وَإِنْ كُنْتُمْ تُعَظِّمُونَ لِلْخَوْفِ فَأَنَا مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ.

واعْلَمْ -رحمك الله- أَنَّ مَنْ عَرَفَ فَوَائِدَ العِبَادَةِ طَابَ لَهُ الِاشْتِغَالُ بِهَا، وَثَقُلَ عَلَيْهِ الِاشْتِغَالُ بِغَيْرِهَا، وَبَيَانُهُ مِنْ وُجُوهٍ:

الأَوَّلُ: أَنَّ الكَمَالَ مَحْبُوبٌ بِالذَّاتِ، وَأَكْمَلُ أَحْوَالِ الإِنْسَانِ وَأَقْوَاهَا فِي كَوْنِهَا سَعَادَةً اشْتِغَالُهُ بِعِبَادَةِ اللهِ، فَإِنَّهُ يَسْتَنِيرُ قَلْبُهُ بِنُورِ الإِلَهِيَّةِ، وَيَتَشَرَّفُ لِسَانُهُ بِشَرَفِ الذِّكْرِ والقِرَاءَةِ، وَتَتَجَمَّلُ أَعْضَاؤُهُ بِطاعة اللهِ، وَهَذِهِ الأَحْوَالُ أَشْرَفُ

المَرَاتِبِ الإِنْسَانِيَّةِ والدَّرَجَاتِ البَشَرِيَّةِ، فالِاشْتِغَالَ بِالعِبَادَةِ انْتِقَالٌ مِنْ عَالَمِ الغُرُورِ إِلَىٰ عَالَمِ السُّرُورِ، وَمِنَ الِاشْتِغَالِ بِالخَلْقِ إِلَىٰ الإقبال علىٰ الحَقِّ، وَذَلِكَ يُوجِبُ كَمَالَ اللَّذَّةِ والبَهْجَةِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ الحَمِيدُ المَجِيدُ، وَحَمْدُهُ وَمَجْدُهُ يَقْتَضِيَانِ آثَارَهُمَا، وَمِنْ آثَارِهِمَا مَغْفِرَةُ الزَّلَّاتِ، وَإِقَالَةُ العَثَرَاتِ، والعَفْوُ عَنِ السَّيِّئَاتِ، والمُسَامَحَةُ عَلَىٰ الجِنَايَاتِ، مَعَ كَمَالِ القُدْرَةِ عَلَىٰ اسْتِيفَاءِ الحَقِّ. والعِلْمُ مِنْهُ سُبْحَانَهُ بِالجِنَايَةِ وَمِقْدَارِ عُقُوبَتِهَا، فَحِلْمُهُ بَعْدَ عِلْمِهِ، وَعَفْوُهُ بَعْدَ قُدْرَتِهِ، وَمَغْفِرَتُهُ عَنْ كَمَالِ عِزَّتِهِ وَحِكْمَتِهِ.

«والله سبحانه افتتح الخلق بالحمد وختم أمر هذا العالم بالحمد فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام:١]، وقال: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٥﴾ [الزمر:٧٥]، وأنزل كتابه بالحمد وشرع دينه بالحمد وأوجب ثوابه وعقابه بالحمد فحمده من لوازم ذاته؛ إذ يستحيل أن يكون إلا محمودًا، فالحمد سبب الخلق وغايته الحمد أوجبه وللحمد وجد، فحمده واسع لما وسعه علمه ورحمته وقد وسع ربنا كل شيء رحمة وعلمًا، فلم يوجد شيئًا ولم يقدره ولم يشرعه إلا بحمده ولحمده، وكل ما خلقه وشرعه فهو متضمن للغايات الحميدة، ولا بد من لوازمها ولوازم لوازمها، ولهذا ملأ حمده سماواته وأرضه وما بينهما وما شاء من شيء بعد مما خلقه ويخلقه بعد هذا الخلق، فحمده ملأ ذلك كله.

وحمده تعالىٰ أنواع: حمد علىٰ ربوبيته، وحمد علىٰ تفرده بها، وحمد علىٰ ألوهيته وتفرده، وحمد علىٰ نعمته، وحمد علىٰ منته، وحمد علىٰ حكمته، وحمد علىٰ عدله في خلقه، وحمد علىٰ غناه عن إيجاد الولد والشريك والولي

من الذل، وحمده علىٰ كماله الذي لا يليق بغيره، فهو محمود علىٰ كل حال وفي كل آنٍ ونفس، وعلىٰ كل ما فعل وكل ما شرع، وعلىٰ كل ما هو متصف به، وعلىٰ كل ما هو منزه عنه، وعلىٰ كل ما في الوجود من خير وشر ولذة وألم وعافية وبلاء، فكما أن الملك كله له والقدرة كلها له والعزة كلها له والعلم كله له والجمال كله له والحمد كله له كما في الدعاء المأثور: «اللهم لك الحمد كله ولك الملك كله وبيدك الخير كله وإليك يُرجع الأمر كله وأنت أهل لأن تحمد»(١)، وما عمرت الدنيا إلا بحمده، ولا الجنة إلا بحمده، ولا النار إلا بحمده حتىٰ إن أهلها ليحمدونه، كما قال الحسن: «لقد دخل أهل النار النارَ وإن قلوبهم لتحمده، ما وجدوا عليه من حجة ولا سبيل»(٢).

«ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء:١١١]، وَمَعْنَاهُ أَنَّ التَّحْمِيدَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَقْرُونًا بِالتَّكْبِيرِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْوَاعًا مِنَ المَعَانِي:

أَوَّلُهَا: تَكْبِيرُهُ فِي ذَاتِهِ، وَهُوَ أَنْ يُعْتَقَدَ أَنَّهُ وَاجِبُ الوُجُودِ لِذَاتِهِ وَأَنَّهُ غَنِيٌّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ.

وَثَانِيهَا: تَكْبِيرُهُ فِي صِفَاتِهِ وَذَلِكَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:

أَوَّلُهَا: أَنْ يُعْتَقَدَ أَنَّ كُلَّ مَا كَانَ صِفَةً لَهُ، فَهُوَ مِنْ صِفَاتِ الجَلَالِ والعِزِّ والعَظَمَةِ والكَمَالِ، وَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ صِفَاتِ النَّقَائِصِ.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الدعاء» (١٧٤٦) من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» (ص: ٢٥١).

وَثَالِثُهَا: أَنْ يُعْتَقَدَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ تِلْكَ الصِّفَاتِ مُتَعَلِّقٌ بِمَا لَا نِهَايَةَ لَهُ مِنَ المَعْلُومَاتِ وَقُدْرَتُهُ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَا لَا نِهَايَةَ لَهُ مِنَ المَقْدُورَاتِ والمُمْكِنَاتِ.

وَرَابِعُهَا: أَنْ يُعْتَقَدَ أَنَّهُ كَمَا تَقَدَّسَتْ ذَاتُهُ عَنِ الحُدُوثِ وَتَنَزَّهَتْ عَنِ التَّغَيُّرِ والزَّوَالِ والتَّحَوُّلِ، فَكَذَلِكَ صِفَاتُهُ أَزَلِيَّةٌ قَدِيمَةٌ سَرْمَدِيَّةٌ مُنَزَّهَةٌ عَنِ التَّغَيُّرِ والزَّوَالِ والتَّحَوُّلِ»(١).

«ثم وصف نفسه بالمجيد، وهو المتضمن لكثرة صفات كماله وسعتها وعدم إحصاء الخلق لها وسعة أفعاله وكثرة خيره ودوامه، والمجد في لغة العرب كثرة أوصاف الكمال وكثرة أفعال الخير، وأحسن ما قرن اسم المجيد إلىٰ الحميد كما قالت الملائكة لبيت الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ۝٧٣﴾ [هود:٧٣]، وكما شرع لنا في آخر الصلاة أن نثني علىٰ الرب تعالىٰ بأنه حميد مجيد، وشرع في آخر الركعة عند الاعتدال أن نقول: ربنا ولك الحمد، أهل الثناء والمجد. فالحمد والمجد علىٰ الاطلاق لله الحميد المجيد، فالحميد الحبيب المستحق لجميع صفات الكمال والمجيد العظيم الواسع القادر الغني ذو الجلال والإكرام»(٢).

«وَهُوَ سُبْحَانَهُ الحَمِيدُ المَجِيدُ، وَحَمْدُهُ وَمَجْدُهُ يَقْتَضِيَانِ آثَارَهُمَا. وَمِنْ آثَارِهِمَا مَغْفِرَةُ الزَّلَّاتِ، وَإِقَالَةُ العَثَرَاتِ، والعَفْوُ عَنِ السَّيِّئَاتِ، والمُسَامَحَةُ عَلَىٰ الجِنَايَاتِ، مَعَ كَمَالِ القُدْرَةِ عَلَىٰ اسْتِيفَاءِ الحَقِّ. والعِلْمُ مِنْهُ سُبْحَانَهُ بِالجِنَايَةِ

---

(١) «التفسير الكبير» (٢١/ ٤٢٠).

(٢) «التبيان في أقسام القرآن» – الفكر (ص: ٥٧).

وَمِقْدَارِ عُقُوبَتِهَا، فَحِلْمُهُ بَعْدَ عِلْمِهِ، وَعَفْوُهُ بَعْدَ قُدْرَتِهِ، وَمَغْفِرَتُهُ عَنْ كَمَالِ عِزَّتِهِ وَحِكْمَتِهِ، كَمَا قَالَ المَسِيحُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة:١١٨]، أَيْ: فَمَغْفِرَتُكَ عَنْ كَمَالِ قُدْرَتِكَ وَحِكْمَتِكَ، لَسْتَ كَمَنْ يَغْفِرُ عَجْزًا، وَيُسَامِحُ جَهْلًا بِقَدْرِ الحَقِّ، بَلْ أَنْتَ عَلِيمٌ بِحَقِّكَ، قَادِرٌ عَلَىٰ اسْتِيفَائِهِ، حَكِيمٌ فِي الأَخْذِ بِهِ.

فَمَنْ تَأَمَّلَ سَرَيَانَ آثَارِ الأَسْمَاءِ والصِّفَاتِ فِي العَالَمِ، وَفِي الأَمْرِ، تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ مَصْدَرَ قَضَاءِ هَذِهِ الجِنَايَاتِ مِنَ العَبِيدِ، وَتَقْدِيرُهَا: هُوَ مِنْ كَمَالِ الأَسْمَاءِ والصِّفَاتِ والأَفْعَالِ، وَغَايَاتُهَا أَيْضًا: مُقْتَضَىٰ حَمْدِهِ وَمَجْدِهِ، كَمَا هُوَ مُقْتَضَىٰ رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ»[١].

«فإنه المحمود علىٰ ما خلقه وأمر به ونهىٰ عنه، فهو المحمود علىٰ طاعات العباد ومعاصيهم وإيمانهم وكفرهم، وهو المحمود علىٰ خلق الأبرار والفجار والملائكة والشياطين، وعلىٰ خلق الرسل وأعدائهم، وهو المحمود علىٰ عدله في أعدائه كما هو المحمود علىٰ فضله وإنعامه علىٰ أوليائه، فكل ذرة من ذرات الكون شاهدة بحمده، ولهذا سبح بحمده السموات السبع والأرض ومن فيهن: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤]، وكان في قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند الاعتدال من الركوع: «**رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْد، مِلْءَ السَّمَاءِ وَمِلْءَ الأَرْضِ، وَمِلءَ مَا بَيْنَهُمَا وَمِلءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيء بَعْد**»[٢]، فله سبحانه الحمد حمدًا يملأ

---

(١) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (١/ ٤٢٠).

(٢) أخرجه مسلم (٤٧٦) من حديث ابن أبي أوفىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المخلوقات والفضاء الذي بين السماوات والأرض، ويملأُ ما يقدر بعد ذلك مما يشاءُ أَن يملأَ بحمده»(١).

«وأَيضًا، فإِن تنويع أَسباب الحمد أَمر مطلوب للرب تعالىٰ محبوب له، فكما تنوعت أَسباب الحمد تنوَّع الحمد بتنوُّعها وكثر بكثرتها، ومعلوم أَنه سبحانه محمود علىٰ انتقامه من أَهل الإِجرام والإِساءة، كما هو محمود علىٰ إِكرامه لأَهل العدل والإِحسان، فهو محمول علىٰ هذا، وعلىٰ هذا، مع ما يتبع ذلك من حمده علىٰ حلمه وعفوه ومغفرته وترك حقوقه ومسامحة خلقه بها والعفو عن كثير من جنايات العبيد، فنبههم باليسير من عقابه وانتقامه علىٰ الكثير الذي عفا عنه، وأَنه لو عاجلهم بعقوبته وأَخذهم بحقه لقضي إِليهم أَجلهم ولما ترك علىٰ ظهرها من دابة، ولكنه سبقت رحمته غضبه وعفوه انتقامه ومغفرته عقابه، فله الحمد علىٰ عفوه وانتقامه، وعلىٰ عدله وإِحسانه، ولا سبيل إِلىٰ تعطيل أَسباب حمده، ولا بعضها. فليتدبر اللبيب هذا الموضع حق التدبر، وليعطه حقه يطلعه علىٰ أَبواب عظيمة من أَسرار القدر، ويهبط به علىٰ رياض منه معشبة وحدائق مونقة. والله الموفق الهادي للصواب»(٢).

❁ ❁ ❁

---

(١) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ١١٣).

(٢) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ١٢٢).

الغفور الرحيم

قال تعالىٰ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الحجر:٤٩].

أَنَّهُ عَزَّوَجَلَّ وَصَفَ نَفْسَهُ بِكَوْنِهِ غَفُورًا، وَلَفْظُ الغَفُورِ يُفِيدُ المُبَالَغَةَ، ووَصَفَ نَفْسَهُ بِكَوْنِهِ رَحِيمًا، والرَّحْمَةُ تُفِيدُ فَائِدَةً عَلَىٰ المَغْفِرَةِ فكان قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ [يوسف:٩٨]، إِشَارَةً إِلَىٰ إِزَالَةِ مُوجِبَاتِ العِقَابِ، وقوله: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ إِشَارَةً إِلَىٰ تَحْصِيلِ مُوجِبَاتِ الرَّحْمَةِ، فقَوْلَهُ: ﴿أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الحجر:٤٩]، يُفِيدُ الحَصْرَ، وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا غَفُورَ، وَلَا رَحِيمَ إِلَّا هُوَ، وَذَلِكَ يُفِيدُ الكَمَالَ فِي وَصْفِهِ سُبْحَانَهُ بِالغُفْرَانِ والرَّحْمَةِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ الغَفُورُ المُطْلَقُ والرَّحِيمُ المُطْلَقُ هُوَ اللهُ.

واعْلَمْ -رحمك الله- أَنَّ الله تَعَالَىٰ وَصَفَ نَفْسَهُ بِكَوْنِهِ غَافِرًا وَغَفُورًا وَغَفَّارًا، وَبِأَنَّ لَهُ غُفْرَانًا وَمَغْفِرَةً وَعَبَّرَ عَنْهُ بِلَفْظِ المَاضِي والمُسْتَقْبَلِ والأَمْرِ. أَمَّا إِنَّهُ وَصَفَ نَفْسَهُ بِكَوْنِهِ غَافِرًا فَقَوْلُهُ: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ [غافر:٣]، وَأَمَّا كَوْنُهُ غَفُورًا فَقَوْلُهُ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨]، وَأَمَّا كَوْنُهُ غَفَّارًا فَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ [طه:٨٢]، وَأَمَّا الغُفْرَانُ فَقَوْلُهُ: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ [البقرة:٢٨٥]، وَأَمَّا المَغْفِرَةُ فَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ﴾ [الرعد:٦]، وَأَمَّا صِيغَةُ المَاضِي فَقَوْلُهُ فِي حَقِّ دَاوُدَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ [ص:٢٥]، وَأَمَّا صِيغَةُ المُسْتَقْبَلِ فَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣]، وقوله فِي حَقِّ مُحَمَّدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح:٢]، وَأَمَّا لَفْظُ الِاسْتِغْفَارِ فَقَوْلُهُ: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ

﴿لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد:١٩]، وَفِي حَقِّ نُوحٍ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠﴾ [نوح:١٠]، وَفِي المَلَائِكَةِ: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [الشورىٰ:٥].

وَاعْلَمْ أَنَّ الأَنْبِيَاءَ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ كُلَّهُمْ طَلَبُوا المَغْفِرَةَ، أَمَّا آدَمُ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فَقَالَ: ﴿وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ [الأعراف:٢٣]، وَأَمَّا نُوحٌ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فَقَالَ: ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ﴾ [هود:٤٧]، وَأَمَّا إِبْرَاهِيمُ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فَقَالَ: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٨٢﴾ [الشعراء:٨٢]، وَطَلَبَهَا لِأَبِيهِ: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾ [مريم:٤٧]، وَأَمَّا يُوسُفُ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فَقَالَ فِي إِخْوَتِهِ: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ [يوسف:٩٢]، وَأَمَّا موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ففي قصة القبطي: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي﴾ [الأعراف:١٥١]، وَأَمَّا دَاوُدُ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ﴾ [ص:٢٤]، أَمَّا سُلَيْمَانُ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا﴾ [ص:٣٥]، وَأَمَّا عِيسَىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨﴾ [المائدة:١١٨]، وَأَمَّا مُحَمَّدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فقول: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد:١٩]، وَأَمَّا الأُمَّةُ فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا﴾ [الحشر:١٠].

«وأما تقديم الغفور علىٰ الرحيم، فهو أولىٰ بالطبع؛ لأن المغفرة سلامة والرحمة غنيمة، والسلامة تطلب قبل الغنيمة، وفي الحديث أن النبي قال لعمرو ابن العاص: «**أبعثك وجهًا يسلمك الله فيه ويغنمك وأرغب لك رغبة من**

المال»[(١)]؛ صحيح، فهذا من الترتيب البديع بدأ بالسلامة قبل الغنيمة وبالغنيمة قبل الكسب»[(٢)].

«فالنعيم والثواب من مقتضىٰ رحمته ومغفرته وبره كرمه، ولذلك يضيف ذلك إلىٰ نفسه، وأما العذاب والعقوبة، فإنما هو من مخلوقاته، ولذلك لا يسمىٰ بالمعاقِب والمعذِّب، بل يفرق بينهما فيجعل ذلك من أوصافه، وهذا من مفعولاته حتىٰ في الآية الواحدة، كقوله تعالىٰ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر:٤٩-٥٠]، وقال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ [المائدة:٩٨]: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف:١٦٧]»[(٣)].

«فَالِاسْتِغْفَارُ الْمُفْرَدُ كَالتَّوْبَةِ، بَلْ هُوَ التَّوْبَةُ بِعَيْنِهَا، مَعَ تَضَمُّنِهِ طَلَبَ الْمَغْفِرَةِ مِنَ اللهِ، وَهُوَ مَحْوُ الذَّنْبِ، وَإِزَالَةُ أَثَرِهِ، وَوِقَايَةُ شَرِّهِ، لَا كَمَا ظَنَّهُ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهَا السَّتْرُ، فَإِنَّ اللهَ يَسْتُرُ عَلَىٰ مَنْ يَغْفِرُ لَهُ وَمَنْ لَا يَغْفِرُ لَهُ، وَلَكِنَّ السَّتْرَ لَازِمُ مُسَمَّاهَا أَوْ جُزْؤُهُ، فَدَلَالَتُهَا عَلَيْهِ إِمَّا بِالتَّضَمُّنِ وَإِمَّا بِاللُّزُومِ.

وَحَقِيقَتُهَا وِقَايَةُ شَرِّ الذَّنْبِ، وَمِنْهُ المِغْفَرُ، لِمَا يَقِي الرَّأْسَ مِنَ الأَذَىٰ، والسَّتْرُ لَازِمٌ لِهَذَا المَعْنَىٰ، وَإِلَّا فَالعِمَامَةُ لَا تُسَمَّىٰ مِغْفَرًا، وَلَا القُبَّعُ وَنَحْوُهُ مَعَ سَتْرِهِ، فَلَا بُدَّ فِي لَفْظِ المِغْفَرِ مِنَ الوِقَايَةِ، وهذا الِاسْتِغْفَارُ هُوَ الَّذِي يَمْنَعُ العَذَابَ

(١) أخرجه أحمد (١٧٨٣٥)، وابن حبان (٣٢١١)، وصححه الألباني.

(٢) «بدائع الفوائد» (١/ ٦٤).

(٣) «حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح» (ص: ٣٧٤).

فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال:٣٣]، فَإِنَّ اللهَ لَا يُعَذِّبُ مُسْتَغْفِرًا، وَأَمَّا مَنْ أَصَرَّ عَلَىٰ الذَّنْبِ، وَطَلَبَ مِنَ اللهِ مَغْفِرَتَهُ، فَهَذَا لَيْسَ بِاسْتِغْفَارٍ مُطْلَقٍ، ولهذا لَا يَمْنَعُ العَذَابَ، فَالِاسْتِغْفَارُ يَتَضَمَّنُ التَّوْبَةَ، والتَّوْبَةُ تَتَضَمَّنُ الِاسْتِغْفَارَ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا يَدْخُلُ فِي مُسَمَّىٰ الآخَرِ عِنْدَ الإِطْلَاقِ.

وَأَمَّا عِنْدَ اقْتِرَانِ إِحْدَىٰ اللَّفْظَتَيْنِ بِالأُخْرَىٰ، فَالِاسْتِغْفَارُ: طَلَبُ وِقَايَةِ شَرِّ مَا مَضَىٰ، والتَّوْبَةُ: الرُّجُوعُ وَطَلَبُ وِقَايَةِ شَرِّ مَا يَخَافُهُ فِي المُسْتَقْبَلِ مِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِهِ»[(١)].

«والمغفرة تمنع الشر، والرحمة توجب الخير، والرب سبحانه إن لم يغفر للإنسان فيقيه السيئات ويرحمه فيؤتيه الحسنات وإلا هلك، ولا بد؛ إذ كان ظالمًا لنفسه ظلومًا بنفسه، فإن نفسه ليس عندها خير يحصل لها منها، وهي متحركة بالذات، فإن لم تتحرك إلىٰ الخير تحركت إلىٰ الشر فضرت صاحبها، وكونها متحركة بالذات من لوازم كونها نفسًا؛ لأن ما ليس حساسًا متحركًا بالإرادة فليس نفسًا، في «الصحيح» عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَصْدَقُ الأَسْمَاءِ حَارِثٌ وَهَمَّام**»[(٢)]، فالحارث الكاسب العامل، والهمام الكثير الهم، والهم مبدأ الإرادة، فالنفس لا تكون إلا مريدة عاملة، فإن لم توفق للإرادة الصالحة وإلا وقعت في الإرادة الفاسدة والعمل الضار»[(٣)].

---

(١) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (١/ ٣١٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٥٠) من حديث أبي وهب الجشمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني.

(٣) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ١٠٧).

«وقال صدِّيق الأمة وخيرها وأبرُّها وأتقاها لله بعد رسوله: يا رسول الله، علمني دعاء أدعو به في صلاتي فقال: «**قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كبيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني أنك أنت الغفور الرحيم**»(١)، فاستفتح الخبر عن نفسه بأداة التوكيد التي تقتضي تقرير ما بعدها، ثم ثنىٰ بالإخبار عن ظلمه لنفسه، ثم وصف ذلك الظلم بكونه ظلمًا كبيرًا، ثم طلب من ربه أن يغفر له مغفرة من عنده أي: لا يبلغها علمه، ولا سعيه، بل هي محض منته وإحسانه وأكبر من عمله، فإذا كان هذا شأن من وزن بالأمة فرجح بهم فكيف بمن دونه»(٢).

«لما سلم لآدَم أصل العُبُودِيَّة لم يقْدَح فِيهِ الذَّنب: «**ابْن آدم، لَو لقيتني بقراب الأَرْض خَطَايَا، ثمَّ لقيتني لَا تشرك بِي شَيْئا لقيتك بقرابها مغْفرَة**»(٣)، لما علم السَّيِّد أَن ذَنْب عَبده لم يكن قصدًا لمُخَالفَته، وَلَا قدحًا فِي حكمته علَّمَه كَيفَ يعْتَذر إِلَيْهِ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾ [البقرة:٣٧]، العَبْد لَا يُرِيد بمعصيته مُخَالفَة سَيِّده، وَلَا الجرأة علىٰ مَحَارمه وَلَكِن غلبات الطَّبْع وتزيين النَّفس والشيطان وقهر الهوىٰ والثقة بِالعَفو ورجاء المَغْفِرَة هَذَا من جَانب العَبْد، وَأما من جَانب الربوبية فجريان الحكم وَإِظْهَار عز الربوبية وذل العُبُودِيَّة وَكَمَال الِاحْتِيَاج وَظُهُور آثَار الأَسْمَاء الحسنىٰ، كالعفو والغفور والتوَّاب

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» (ص: ١١٩).

(٣) أخرجه أحمد (٢١٣٥٣)، والحاكم (٧٦٠٥) وصححه ووافقه الذهبي، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٢٨).

والحليم لمن جَاءَ تَائِبًا نَادِمًا، والمنتقم والعدْل وَذي البَطْش الشَّديد لمن أصر وَلزِمَ المجرة، فَهُوَ سُبْحَانَهُ يُرِيد أَن يرىٰ عَبده تفرده بالكمال وَنقص العَبْد وَحَاجته إِلَيْهِ ويشهده كَمَال قدرته وعزته وَكَمَال مغفرته وعفوه وَرَحمته وَكَمَال بره وستره وحلمه وتجاوزه وصفحه وَأَن رَحمته بِهِ إِحْسَان إِلَيْهِ لَا مُعَارضَة، وَأَنه إِن لم يتغمَّده برحمته وفضله، فَهُوَ هَالك لَا محَالة، فَللَّه كم فِي تَقْدِير الذَّنب من حِكْمَة، وَكم فِيهِ مَعَ تَحْقِيق التَّوْبَة للْعَبد من مصلحَة وَرَحْمَة، التَّوْبَة من الذَّنب كشرب الدَّوَاء للعليل وَرب عِلَّة كَانَت سَبَب الصِّحَّة.

لَعَلَّ عتبَكَ مَحْمُودٌ عواقِبُه وَرُبمَا صحَّت الأجسادُ بالعِلَل

لَوْلَا تَقْدِير الذَّنب هلك ابْن آدم من العُجب، ذَنْب يذل بِهِ أحب إِلَيْهِ من طَاعَة يُدلُّ بهَا عَلَيْهِ، شمعة النَّصْر إِنَّمَا تنزل فِي شمعدان الانكسار، لَا يكرم العَبْد نَفسه بِمثل إهانتها، وَلَا يعزها بِمثل ذلها، وَلَا يريحها بِمثل تعبها كَمَا قيل:

سأُتعب نَفسِي أَو أصادف رَاحَة فَإِن هوان النَّفس فِي كرم النَّفس

وَلَا يشبعها بِمثل جوعها، وَلَا يؤمنها بِمثل خوفها، وَلَا يؤنسها بِمثل وحشتها من كل مَا سوىٰ فاطرها وبارئها، وَلَا يُحْيِيهَا بِمثل امانتها كَمَا قيل:

موت النُّفُوس حياتها من شَاءَ أَن يحيا يَمُوت»[(١)]

«ومما يوضحه أن شكره سبحانه مستحق عليهم بجهة ربوبيته لهم وكونهم عبيده ومماليكه، وذلك يوجب عليهم أن يعرفوه ويعظموه ويوحدوه ويتقربوا

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص: ٦٦).

إليه تقرب العبد المحب الذي يتقلب في نعمه، ولا غناء به عنه طرفة عين، فهو يدأب في التقرب إليه بجهده ويستفرغ في ذلك وسعه وطاقته، ولا يعدل به سواه في شيء من الأشياء ويؤثر رضا سيده علىٰ إرادته وهواه، بل لا هوىٰ له، ولا إرادة إلا فيما يريد سيده ويحبه، وهذا يستلزم علومًا وأعمالًا وإرادات وعزائم لا يعارضها غيرها، ولا يبقىٰ له معها التفات إلىٰ غيره بوجه، ومعلوم أن ما يطبع عليه البشر لا يفي بذلك وما يستحقه الرب تعالىٰ لذاته وأنه أهل أن يعبد أعظم مما يستحقه لإحسانه، فهو المستحق لنهاية العبادة والخضوع والذل لذاته ولإحسانه وإنعامه، وفي بعض الآثار: «لو لم أخلق جنة ولا نارًا لكنتُ أهلًا أن أُعبَد»[(١)]، ولهذا يقول أَعْبَدُ خلقِه له يوم القيامة وهم الملائكة: (سبحانك ما عبدناك حق عبادتك)[(٢)].

فمن كرمه وجوده ورحمته أن رضي من عباده بدون اليسير مما ينبغي أن يعبد به ويستحقه لذاته وإحسانه، فلا نسبة للواقع منهم إلىٰ ما يستحقه بوجه من الوجوه، فلا يسعهم إلا عفوه وتجاوزه، وهو سبحانه أعلم بعباده منهم بأنفسهم، فلو عذبهم لعذبهم بما يعلمه منهم وإن لم يحيطوا به علمًا، ولو عذبهم قبل أن يرسل رسله إليهم علىٰ أعمالهم لم يكن ظالمًا لهم، كما أنه سبحانه لم يظلمهم بمقته لهم قبل إرسال رسوله علىٰ كفرهم وشركهم وقبائحهم، فإنه سبحانه نظر إلىٰ أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، ولكن

---

(١) ذكره الغزالي في «الإحياء» (٤/ ٣٠٦) بنحوه، دون إسناد.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه الحاكم (٨٧٣٩) وصححه ووافقه الذهبي، من حديث سلمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٤١).

أوجب علىٰ نفسه؛ إذ كتب عليها الرحمة أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه برسالته.

وسر المسألة: أنه لما كان شكر المنعم علىٰ قدره، وعلىٰ قدر نعمه، ولا يقوم بذلك أحد، كان حقه سبحانه علىٰ كل أحد وله المطالبة به وإن لم يغفر له ويرحمه وإلا عذبه، فحاجتهم إلىٰ مغفرته ورحمته وعفوه كحاجتهم إلىٰ حفظه وكلاءته ورزقه، فإن لم يحفظهم هلكوا وإن لم يرزقهم هلكوا وإن لم يغفر لهم ويرحمهم هلكوا وخسروا، ولهذا قال أبوهم آدم وأمهم حواء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف:٢٣]، وهذا شأن ولده من بعده، وقد قال موسىٰ كليمه سبحانه: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ [القصص:١٦]، وقال: ﴿سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف:١٤٣]، وقال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف:١٥١]، وقال: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأعراف:١٥٥].

وقال خليله إبراهيم: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم:٤٠-٤١]، وقال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ [الشعراء:٧٨]، إلىٰ قوله: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء:٨٢]، وقال أول رسله إلىٰ أهل الأرض: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود:٤٧]، وقال لأكرم خلقه عليه وأحبهم إليه:

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ [محمد:١٩]، وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النساء:١٠٥]، إلىٰ قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾ [النساء:١٠٦]، وقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾ [الفتح:١-٢]، وقد تقدم حديث ابن عباس في دعائه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رب أعني، ولا تُعن عليَّ**» وفيه: «**رب تقبل توبتي واغسل حَوبتي**» الحديث(١).

وقد أخبر سبحانه عن أعبد البشر داود أنه استغفر ربه راكعًا وأناب، وقال تعالىٰ: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ﴾ [ص:٢٥]، وقال عن نبيه سليمان: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [ص:٣٤-٣٥]، وقال عن نبيه يونس أنه ناداه في الظلمات: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء:٨٧]»(٢).

«لما علم الموفقون ما خلقوا له وما أريد بإيجادهم رفعوا رءوسهم، فإذا علم الجنة قد رفع لهم فشمروا إليه، وإذا صراطها المستقيم قد وضح لهم فاستقاموا عليه ورأوا من أعظم الغبن بيع ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر في أبدٍ لا يزول، ولا ينفذ بصبابة عيش، إنما هو كأضغاث أحلام أو كطيف زار في المنام مشوب بالنغص ممزوج بالغصص، إن أضحك

(١) أخرجه أبو داود (١٥١٠)، والترمذي (٣٥٥١)، وصححه الألباني.
(٢) «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» (ص: ١١٨).

قليلًا أبكىٰ كثيرًا، وإن سَرَّ يومًا أحزن شهورًا، آلامه تزيد علىٰ لذَّاته، وأحزانه أضعاف مسراته، وله مخاوف وآخره متآلف.

فيا عجبًا من سفيه في صورة حليم ومعتوه في مسلاخ عاقل آثر الحظَّ الفاني الخسيس علىٰ الحظ الباقي النفيس، وباع جنة عرضها السماوات والأرض بسجن ضيق بين أرباب العاهات والبليات. ومساكن طيبة في جنات عدن تجري من تحتها الأنهار بأعطان ضيقة آخرها الخراب والبوار. وأبكارًا عرابًا أترابًا كأنهن الياقوت والمرجان بقذرات دنسات سيئات الأخلاق مسافحات أو متخذات أخدان. وحورًا مقصورات في الخيام بخبيثات مسيبات بين الأنام. وأنهارًا من خمر لذة للشاربين بشراب نجس مذهب للعقل مفسد للدنيا والدين. ولذةَ النظر إلىٰ وجه العزيز الرحيم بالتمتع برؤية الوجه القبيح الذميم، وسماع الخطاب من الرحمن بسماع المعازف والغناء والألحان. والجلوسَ علىٰ منابر اللؤلؤ والياقوت والزبرجد يوم المزيد بالجلوس في مجالس الفسوق مع كل شيطان مريد. ونداءَ المنادي: يا أهل الجنة، إن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا، وتحيوا فلا تموتوا، وتقيموا فلا تظعنوا، وتشبوا فلا تهرموا، بغناء المغنين:

وقف الهوىٰ بي حيث أنت فليس متأخر عنه ولا متقدمُ
أجد الملامة في هواك لذيذة حبًّا لذِكرك فليلمني اللوَّمُ

وإنما يظهر الغبن الفاحش في هذا البيع يوم القيامة، وإنما يتبين سفه بائعه يوم الحسرة والندامة، إذا حُشر المتقون إلىٰ الرحمن وفدًا، وسيق المجرمون إلىٰ جهنم وردًا، ونادىٰ المنادي علىٰ رءوس الأشهاد: ليَعلمن أهلُ الموقف مَن

أولي بالكرم من بين العباد، فلو توهم المتخلف عن هذه الرفقة ما أعد الله لهم من الإكرام وادَّخر لهم من الفضل والإنعام، وما أخفىٰ لهم من قرة أعين لم يقع علىٰ مثلها بصر، ولا سمعته أذن، ولا خطر علىٰ قلب بشر - لعلم أي بضاعة أضاع، وأنه لا خير له في حياته، وهو معدود مِن سقَط المتاع، وعلم أن القوم قد توسطوا ملكًا كبيرًا لا تعتريه الآفات، ولا يلحقه الزوال، وفازوا بالنعيم المقيم في جوار الكبير المتعال، فهم في روضات الجنة يتقلبون، وعلىٰ أسِرَّتها تحت الحجال يجلسون، وعلىٰ الفرش التي بطائنها من إستبرق يتكئون، وبالحور العين يتنعمون، وبأنواع الثمار يتفكهون، ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الواقعة:١٧-٢٤]، ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [الزخرف:٧١].

تالله لقد نودي عليها في سوق الكساد، فما قلب ولا استام! إلا أفراد من العباد، فواعجبًا لها كيف نام طالبها! وكيف لم يسمح بمهرها خاطبها، وكيف طاب العيش في هذه الدار بعد سماع أخبارها، وكيف قر للمشتاق القرار دون معانقة أبكارها، وكيف قرت دونها أعين المشتاقين، وكيف صبرت عنها أنفس الموقنين، وكيف صدفت عنها قلوب أكثر العالمين، وبأي شيء تعوضت عنها نفوس المعرضين!»(١).

(١) «حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح» (ص: ٦).

«طَرَدَ إِبْلِيسَ عَنْ سَمَائِهِ، وَأَخْرَجَهُ مِنْ جَنَّتِهِ، وَأَبْعَدَهُ مِنْ قُرْبِهِ، إِذْ لَمْ يَسْجُدْ لَكَ وَأَنْتَ فِي صُلْبِ أَبِيكَ آدَمَ، لِكَرَامَتِكَ عَلَيْهِ، فَعَادَاهُ وَأَبْعَدَهُ، ثمَّ والَيْتَ عَدُوَّهُ، وَمِلْتَ إِلَيْهِ وَصَالَحْتَهُ، وَتَتَظَلَّمُ مَعَ ذَلِكَ، وَتَشْتَكِي الطَّرْدَ والإِبْعَادَ، وَتَقُولُ:

عَوَّدُونِي الوِصَالَ والوَصْلُ عَذْبُ وَرَمَوْنِي بِالصَّدِّ والصَّدُّ صَعْبُ

نَعَمْ، وَكَيْفَ لَا يَطْرُدُ مَنْ هَذِهِ مُعَامَلَتُهُ؟ وَكَيْفَ لَا يَبْعُدُ عَنْهُ مَنْ كَانَ هَذَا وَصْفَهُ؟ وَكَيْفَ يَجْعَلُ مِنْ خَاصَّتِهِ وَأَهْلِ قُرْبِهِ مَنْ حَالُهُ مَعَهُ هَكَذَا؟ قَدْ أَفْسَدَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ وَكَدَّرَهُ.

أَمَرَهُ اللهُ بِشُكْرِهِ، لَا لِحَاجَتِهِ إِلَيْهِ، وَلَكِنْ لِيَنَالَ بِهِ المَزِيدَ مِنْ فَضْلِهِ، فَجَعَلَ كُفْرَ نِعَمِهِ، والِاسْتِعَانَةَ بِهَا عَلَىٰ مَسَاخِطِهِ مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ صَرْفِهَا عَنْهُ.

وَأَمَرَهُ بِذِكْرِهِ لِيُذَكِّرَهُ بِإِحْسَانِهِ، فَجَعَلَ نِسْيَانَهُ سَبَبًا لِنِسْيَانِ اللهِ لَهُ: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ﴾ [الحشر:١٩]، ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ﴾ [التوبة:٦٧].

أَمَرَهُ بِسُؤَالِهِ لِيُعْطِيَهُ، فَلَمْ يَسْأَلْهُ، بَلْ أَعْطَاهُ أَجَلَّ العَطَايَا بِلَا سُؤَالٍ، فَلَمْ يَقْبَلْ، يَشْكُو مَنْ يَرْحَمُهُ إِلَىٰ مَنْ لَا يَرْحَمُهُ، وَيَتَظَلَّمُ مِمَّنْ لَا يَظْلِمُهُ، وَيَدَعُ مَنْ يُعَادِيهِ وَيَظْلِمُهُ، إِنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِالصِّحَّةِ والعَافِيَةِ والمَالِ والجَاهِ اسْتَعَانَ بِنِعَمِهِ عَلَىٰ مَعَاصِيهِ، وَإِنْ سَلَبَهُ ذَلِكَ ظَلَّ مُتَسَخِّطًا عَلَىٰ رَبِّهِ، وَهُوَ شَاكِيهِ، لَا يَصْلُحُ لَهُ عَلَىٰ عَافِيَةٍ، وَلَا عَلَىٰ ابْتِلَاءٍ، العَافِيَةُ تُلْقِيهِ إِلَىٰ مَسَاخِطِهِ، والبَلَاءُ يَدْفَعُهُ إِلَىٰ كُفْرَانِهِ وَجُحُودِ نِعْمَتِهِ، وَشِكَايَتِهِ إِلَىٰ خَلْقِهِ.

دَعَاهُ إِلَىٰ بَابِهِ فَمَا وَقَفَ عَلَيْهِ، وَلَا طَرَقَهُ، ثُمَّ فَتَحَهُ لَهُ فَمَا عَرَّجَ عَلَيْهِ، وَلَا وَلَجَهُ، أَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولَهُ يَدْعُوهُ إِلَىٰ دَارِ كَرَامَتِهِ، فَعَصَىٰ الرَّسُولَ، وَقَالَ: لَا أَبِيعُ نَاجِزًا بِغَائِبٍ، وَنَقْدًا بِنَسِيئَةٍ، وَلَا أَتْرُكُ مَا أَرَاهُ لِشَيْءٍ سَمِعْتُ بِهِ، وَيَقُولُ:

خُذْ مَا رَأَيْتَ وَدَعْ شَيْئًا سَمِعْتَ بِهِ فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ

فَإِنْ وَافَقَ حَظَّهُ طَاعَةُ الرَّسُولِ أَطَاعَهُ لِنَيْلِ حَظِّهِ، لَا لِرِضَىٰ مُرْسِلِهِ، لَمْ يَزَلْ يَتَمَقَّتُ إِلَيْهِ بِمَعَاصِيهِ، حَتَّىٰ أَعْرَضَ عَنْهُ، وَأَغْلَقَ البَابَ فِي وَجْهِهِ.

وَمَعَ هَذَا فَلَمْ يُؤَيِّسْهُ مِنْ رَحْمَتِهِ، بَلْ قَالَ: مَتَىٰ جِئْتَنِي قَبِلْتُكَ، إِنْ أَتَيْتَنِي لَيْلًا قَبِلْتُكَ، وَإِنْ أَتَيْتَنِي نَهَارًا قَبِلْتُكَ، وَإِنْ تَقَرَّبْتَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْكَ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبْتَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْكَ بَاعًا، وَإِنْ مَشَيْتَ إِلَيَّ هَرْوَلْتُ إِلَيْكَ، وَلَوْ لَقِيتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، أَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً، وَلَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَمَنْ أَعْظَمُ مِنِّي جُودًا وَكَرَمًا؟

عِبَادِي يُبَارِزُونَنِي بِالعَظَائِمِ، وَأَنَا أَكْلَؤُهُمْ عَلَىٰ فُرُشِهِمْ، إِنِّي والجِنُّ والإِنْسُ فِي نَبَأٍ عَظِيمٍ: أَخْلُقُ وَيُعْبَدُ غَيْرِي، وَأَرْزُقُ وَيُشْكَرُ سِوَايَ، خَيْرِي إِلَىٰ العِبَادِ نَازِلٌ، وَشَرُّهُمْ إِلَيَّ صَاعِدٌ، أَتَحَبَّبُ إِلَيْهِمْ بِنِعَمِي، وَأَنَا الغَنِيُّ عَنْهُمْ، وَيَتَبَغَّضُونَ إِلَيَّ بِالمَعَاصِي، وَهُمْ أَفْقَرُ شَيْءٍ إِلَيَّ.

مَنْ أَقْبَلَ إِلَيَّ تَلَقَّيْتُهُ مِنْ بَعِيدٍ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِّي نَادَيْتُهُ مِنْ قَرِيبٍ، وَمَنْ تَرَكَ لِأَجْلِي أَعْطَيْتُهُ فَوْقَ المَزِيدِ، وَمَنْ أَرَادَ رِضَايَ أَرَدْتُ مَا يُرِيدُ، وَمَنْ تَصَرَّفَ بِحَوْلِي وَقُوَّتِي أَلَنْتُ لَهُ الحَدِيدَ، مُوَالَاتُهُ لِعَبْدِهِ إِحْسَانًا إِلَيْهِ، وَمَحَبَّةً لَهُ وَبِرًّا بِهِ، لَا

يَتَكَثَّرُ بِهِ مِنْ قِلَّةٍ، وَلَا يَتَعَزَّزُ بِهِ مِنْ ذِلَّةٍ، وَلَا يَنْتَصِرُ بِهِ مِنْ غَلَبَةٍ، وَلَا يَعُدُّهُ لِنَائِبَةٍ، وَلَا يَسْتَعِينُ بِهِ فِي أَمْرٍ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ۝١١١﴾ [الإسراء:١١١]، فَنَفَىٰ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ، واللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا، وَهُمْ أَوْلِيَاؤُهُ.

فَهَذَا شَأْنُ الرَّبِّ وَشَأْنُ العَبْدِ، وَهُمْ يُقِيمُونَ أَعْذَارَ أَنْفُسِهِمْ، وَيَحْمِلُونَ ذُنُوبَهُمْ عَلَىٰ أَقْدَارِهِ»(١).

«قَالَ المَسِيحُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١١٨﴾ [المائدة:١١٨]، أَيْ: فَمَغْفِرَتُكَ عَنْ كَمَالِ قُدْرَتِكَ وَحِكْمَتِكَ، لَسْتَ كَمَنْ يَغْفِرُ عَجْزًا، وَيُسَامِحُ جَهْلًا بِقَدْرِ الحَقِّ، بَلْ أَنْتَ عَلِيمٌ بِحَقِّكَ، قَادِرٌ عَلَىٰ اسْتِيفَائِهِ، حَكِيمٌ فِي الأَخْذِ به»(٢).

«وفي «صحيح البخاري» عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»(٣)، ولما سمع أبو هريرة هذا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول ما رواه الإمام أحمد في كتاب «الزهد» عنه: «إني لأستغفر الله في اليوم والليلة اثني عشر ألف مرة بقدر ديتي»(٤)، ثم ساقه من طريق آخر وقال: «بقدر ذنبه».

---

(١) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (١/ ٢١١).

(٢) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (١/ ٤٢٠).

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٠٧).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٨٣).

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا محمد بن راشد عن مكحول عن رجل عن أبي هريرة قال: «ما جلست إلىٰ أحد أكثر استغفارًا من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، قال الرجل: «وما جلست إلىٰ أحد أكثر استغفارًا من أبي هريرة»[(١)].

وفي «صحيح مسلم» عن الأغر المزني أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنه لَيُغَانُ علىٰ قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة**»[(٢)]، وفي «السنن» و«المسند» من حديث ابن عمر قال: كنا نعد لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المجلس الواحد مائة مرة: «**رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم**»[(٣)]، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، ثنا يونس عن حميد بن هلال عن أبي بردة قال: جلست إلىٰ شيخ من أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مسجد الكوفة فحدثني قال: سمعت رسول الله، أو قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا أيها الناس، توبوا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ واستغفروه، فإني أتوب إلىٰ الله وأستغفره كل يوم مائة مرة**»[(٤)].

---

(١) «الزهد» للإمام أحمد (ص٣٥) (٢١١) قال عبد الله بن أحمد: حدثنا أبي، حدثنا يزيد بن هارون... به.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٢).

(٣) أخرجه أبو داود (١٥١٦)، والترمذي (٣٤٣٤)، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه أحمد (٢٣٥٣٥).

قال الإمام أحمد: وثنا يحيىٰ عن شعبة، ثنا عمرو بن مرة قال: سمعت أبا بردة قال: سمعت الأغر يحدث ابن عمر أنه سمع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**يا أيها الناس، توبوا إلىٰ ربكم عَزَّوَجَلَّ، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة**»(١).

وقال أحمد: ثنا يزيد، أنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أبي عثمان النهدي عن عائشة قالت: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «اللهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أساءوا استغفروا»(٢)، وكان من دعائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أول الصلاة عند الاستفتاح بعد التكبير: «**اللهم أنت ربي وأنا عبدك، ظلمتُ نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، لبيك وسعديك والخير في يديك وأنا بك وإليك تباركت وتعاليت أستغفرك وأتوب إليك**»، رواه مسلم(٣).

وفي «الصحيحين» عنه أنه كان يقول في دعائه: «**اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقِّني من خطاياي بالماء والثلج والبَرَد**»(٤)، وكان يقول هذا سرًّا لم يعلم به من خلفه حتىٰ سأله عنه أبو هريرة. وروىٰ عنه علي بن أبي طالب أنه كان إذا استفتح الصلاة قال: «**لا إله إلا أنت ظلمتُ نفسي وعملتُ سوءًا فاغفر لي إنه لا يغفر لذنوب إلا أنت**»(٥)، وفي

(١) أخرجه أحمد (١٧٨٨٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٠٢٤).

(٣) أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه البيهقي (٢٣٤٦).

«الصحيحين» أنه كان يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي**»[١]، وفي «صحيح مسلم» من حديث عبد الله بن أبي أوفىٰ: أنه ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع قال: «**سمع الله لمن حمده، اللهم ربنا لك الحمد مِلء السماوات، وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، اللهم طهرني بالثلج والبرد والماء البارد، اللهم طهرني من الذنوب والخطايا، كما ينقىٰ الثوب الأبيض من الوسخ**»[٢].

وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول في سجوده: «**اللهم اغفر لي ذنبي كله دِقَّه وجلَّه، أوله وآخره علانيته وسره**»[٣]، وفي «مسند الإمام أحمد» أنه كان يقول في صلاته: «**اللهم اغفر لي ووسع عليَّ في ذاتي وبارك لي فيما رزقتني**»[٤]، وفي «صحيح مسلم» عن فروة ابن نوفل قال: قلت لعائشة: حدثيني بشيء كان رسول الله ﷺ يدعو به في صلاته قالت: نعم كان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت ومن شر ما لم أعمل**»[٥]. وكان يقول بين السجدتين: «**اللهم اغفر لي وارحمني واجبرني واهدني وارزقني**»[٦]، وكان يقول في قيامه إلىٰ الصلاة بالليل: «**اللهم**

(١) أخرجه البخاري (٧٩٤، ٨١٧)، ومسلم (٤٨٤) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.
(٢) أخرجه مسلم (٤٧٦).
(٣) أخرجه مسلم (٤٨٣).
(٤) أخرجه أحمد (٢٣١٦٣).
(٥) أخرجه مسلم (٢٧١٦).
(٦) أخرجه أبو داود (٨٥٠)، والترمذي (٢٨٤) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الألباني.

لك الحمد» الحديث، وفيه: «**فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت**»[(١)].

وفي «الصحيحين» عن أبي موسىٰ الأشعري أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كان يدعو بهذا الدعاء: «**اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت علىٰ كل شيء قدير**»[(٢)][(٣)].

واقترن الغفور بالودود، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ١٤﴾ [البروج:١٤].

«وهو مع ذلك الغفور الودود يغفر لمن تاب إليه ويوده ويحبه، فهو سبحانه الموصوف بشدة البطش ومع ذلك هو الغفور الودود المتودد إلىٰ عباده بنعمه الذي يود من تاب إليه وأقبل عليه، وهو الودود -أيضًا- أي: المحبوب، قال البخاري في «صحيحه»[(٤)]: الودود الحبيب. والتحقيق أن اللفظ يدل علىٰ الأمرين علىٰ كونه وادًّا لأوليائه ومودودًا لهم، فأحدهما بالوضع والآخر باللزوم، فهو الحبيب المحب لأوليائه يحبهم ويحبونه، وقال شعيب عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠﴾ [هود:٩٠]، وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور، فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه، ولا يحبه، وكذلك قد يرحم من لا

---

(١) أخرجه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩) من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا.
(٢) أخرجه البخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩).
(٣) «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» (ص: ١١٧).
(٤) (٩/ ١٢٤).

يحب، والرب تعالىٰ يغفر لعبده إذا تاب إليه ويرحمه ويحبه مع ذلك، فإنه يحب التوابين وإذا تاب إليه عبده أحبه، ولو كان منه ما كان»(١).

«وتأمل سر اقتران هذين الاسمين في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤﴾ [البروج:١٣-١٤]، تجد فيه من الرد والإنكار علىٰ من قال: لا يعود الود والمحبة منه لعبده أبدًا، ما هو من كنوز القرآن ولطائف فهمه، وفي ذلك ما يهيج القلب السليم ويأْخذ بمجامعه ويجعله عاكفًا علىٰ ربه -الذي لا إله إلا هو، ولا رب له سواه- عكوف المحب الصادق علىٰ محبوبه الذي لا غنىٰ له عنه، ولا بد له منه، ولا تندفع ضرورته بغيره أبدًا»(٢).

واقترن الغفور بالشكور، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤﴾ [فاطر:٣٤].

«لما صَارُوا إِلَىٰ كرامته بمغفرته ذنوبهم وشكره إحسانهم قَالُوا: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤﴾ [فاطر:٣٤]، وَفِي هَذَا معنىٰ التَّعْلِيل: أَي: بمغفرته وشكره وصلنا إِلَىٰ دَار كرامته، فَإِنَّهُ غفر لنا السَّيِّئَات وشكر لنا الحَسَنَات، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ۝١٤٧﴾ [النساء:١٤٧]، فَهَذَا جَزَاء لشكرهم، أَي: إِن شكرتم ربكُم شكركم، وَهُوَ عليم بشكركم لَا يخفىٰ عَلَيْهِ من شكره مِمَّن كفره»(٣).

(١) «التبيان في أقسام القرآن» (ص: ٩٣).
(٢) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ٢٣٣).
(٣) «جلاء الأفهام» (ص: ١٧٥).

«نهج للعبد طريق النجاة وفتح له أبوابها وعرفه طرق تحصيل السعادة وأعطاه أسبابها، وحذره من وبال معصيته وأشهده علىٰ نفسه وعلىٰ غيره شؤمها وعقابها، وقال: إن أطعتَ فبفضلي وأنا أشكر، وإن عصيت فبقضائي وأنا أغفر إن ربنا لغفور شكور.

أزاح عن العبد العلل وأمره أن يستعيذ به من العجز والكسل ووعده أن يشكر له القليل من العمل ويغفر له الكثير من الزلل، إن ربنا لغفور شكور. أعطاه ما يشكر عليه، ثم يشكره علىٰ إحسانه إلىٰ نفسه لا علىٰ إحسانه إليه ووعده علىٰ إحسانه لنفسه أن يحسن جزاءه ويقربه لديه وأن يغفر له خطاياه إذا تاب منها، ولا يفضحه بين يديه، إن ربنا لغفور شكور، وَثِقَتْ بعفوه هفوات المذنبين فوسعتها، وعكفت بكرمه آمال المحسنين فما قطع طمعها، وخرقت السبع الطباق دعوات التائبين والسائلين فسمعها، ووسع الخلائق عفوه ومغفرته ورزقه، فما من دابة في الأرض إلا علىٰ الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها، إن ربنا لغفور شكور.

يجود علىٰ عبيده بالنوافل قبل السؤال، ويعطي سائله ومؤمله فوق ما تعلقت به منهم الآمال، ويغفر لمن تاب إليه، ولو بلغت ذنوبه عدد الأمواج والحصىٰ والتراب والرمال، إن ربنا لغفور شكور.

أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وأفرح بتوبة التائب من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا وجدها، وأشكر للقليل من جميع خلقه، فمن تقرب إليه بمثقال ذرة من الخير شكرها وحمدها، إن ربنا لغفور شكور. تعرف إلىٰ عباده بأسمائه وأوصافه وتحبب إليهم بحلمه وآلائه ولم

تمنعه معاصيهم بأن جاد عليهم بآلائه ووعد من تاب إليه وأحسن طاعته بمغفرة ذنوبه يوم لقائه، إن ربنا لغفور شكور.

السعادة كلها في طاعته، والأرباح كلها في معاملته، والمحن والبلايا كلها في معصيته ومخالفته، فليس للعبد أنفع من شكره وتوبته، إن ربنا لغفور شكور. أفاض علىٰ خلقه النعمة وكتب علىٰ نفسه الرحمة وضمن الكتاب الذي كتبه أن رحمته تغلب غضبه، إن ربنا لغفور شكور.

يطاع فيشكر وطاعته من توفيقه وفضله، ويعصىٰ فيحلم ومعصية العبد من ظلمه وجهله، ويتوب إليه فاعل القبيح فيغفر له حتىٰ كأنه لم يكن قط من أهله، إن ربنا لغفور شكور.

الحسنة عنده بعشر أمثالها أو يضاعفها بلا عدد ولا حسبان، والسيئة عنده بواحدة، ومصيرها إلىٰ العفو والغفران، وباب التوبة مفتوح لديه منذ خلق السموات والأرض إلىٰ آخر الزمان، إن ربنا لغفور شكور.

بابه الكريم مناخ الآمال، ومحط الأوزار، وسماء عطاه لا تقلع عن الغيث، بل هي مدرار، ويمينه ملأىٰ لا تغيضها نفقة سحَّاء الليل والنهار، إن ربنا لغفور شكور»(١).

«وتأمل قوله سبحانه: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ١٤٧﴾ [النساء:١٤٧]، كيف تجد في ضمن هذا الخطاب أن شكره تعالىٰ يأبىٰ تعذيب عباده سُدىٰ بغير جرم، كما يأبىٰ إضاعة سعيهم

(١) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» (ص: ٢٨٤).

باطلًا، فالشكور لا يضيع أجر محسن، ولا يعذب غير مسيء، وفي هذا رد لقول من زعم أنه سبحانه يكلفه ما لا يطيقه، ثم يعذبه علىٰ ما لا يدخل تحت قدرته، تعالىٰ الله عن هذا الظن الكاذب والحسبان الباطل علوًّا كبيرًا، فشكره سبحانه اقتضىٰ أن لا يعذب المؤمن الشكور، ولا يضيع عمله، وذلك من لوازم هذه الصفة، فهو منزه عن خلاف ذلك، كما ينزه عن سائر العيوب والنقائص التي تنافي كماله وغناه وحمده.

ومن شكره سبحانه أنه يخرج العبد من النار بأدنىٰ مثقال ذرة من خير، ولا يضيع عليه هذا القدر، ومن شكره سبحانه أن العبد من عباده يقوم له مقامًا يرضيه بين الناس فيشكره له وينوه بذكره ويخبر به ملائكته وعباده المؤمنين، كما شكر لمؤمن آل فرعون ذلك المقام وأثنىٰ به عليه ونوه بذكره بين عباده، وكذلك شكره لصاحب يس مقامه ودعوته إليه، فلا يهلك عليه بين شكره ومغفرته إلا هالك، فإنه سبحانه غفور شكور يغفر الكثير من الزلل ويشكر القليل من العمل»(١).

❁❁❁

التواب الرحيم

قال تعالىٰ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧﴾ [البقرة:٣٧].

---

(١) «عدة الصابرين» - العلمية (ص: ٢٤١).

المُرَادُ مِنْ وَصْفِ اللهِ تَعَالَىٰ بِالتَّوَّابِ المُبَالَغَةُ فِي قَبُولِ التَّوْبَةِ، وَذَلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ:

الأَوَّلُ: أَنَّ وَاحِدًا مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا مَتَىٰ جَنَىٰ عَلَيْهِ إِنْسَانٌ، ثمَّ اعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ يَقْبَلُ الِاعْتِذَارَ، ثمَّ إِذَا عَادَ إِلَىٰ الجِنَايَةِ وَإِلَىٰ الِاعْتِذَارِ مَرَّةً أُخْرَىٰ فَإِنَّهُ لَا يَقْبَلُهُ؛ لِأَنَّ طَبْعَهُ يَمْنَعُهُ مِنْ قَبُولِ العُذْرِ، أَمَّا اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فَإِنَّهُ بِخِلَافِ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَقْبَلُ التَّوْبَةَ لَا لِأَمْرٍ يَرْجِعُ إِلَىٰ رِقَّةِ طَبْعٍ أَوْ جَلْبِ نَفْعٍ أَوْ دَفْعِ ضَرَرٍ، بَلْ إِنَّمَا يَقْبَلُهَا لِمَحْضِ الإِحْسَانِ والتَّفَضُّلِ. فَلَوْ عَصَىٰ المُكَلَّفُ كُلَّ سَاعَةٍ، ثمَّ تَابَ وَبَقِيَ عَلَىٰ هَذِهِ الحَالَةِ العُمْرَ الطَّوِيلَ لَكَانَ اللهُ تَعَالَىٰ يَغْفِرُ لَهُ مَا قَدْ سَلَفَ وَيَقْبَلُ تَوْبَتَهُ، فَصَارَ تَعَالَىٰ مُسْتَحِقًّا لِلْمُبَالَغَةِ فِي قَبُولِ التَّوْبَةِ فَوُصِفَ بِأَنَّهُ تَعَالَىٰ تَوَّابٌ.

الثَّانِي: أَنَّ الَّذِينَ يَتُوبُونَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ فَإِنَّهُ يَكْثُرُ عَدَدُهُمْ، فَإِذَا قَبِلَ تَوْبَةَ الجَمِيعِ اسْتَحَقَّ المُبَالَغَةَ فِي ذَلِكَ، وَلَمَّا كَانَ قَبُولُ التَّوْبَةِ مَعَ إِزَالَةِ العِقَابِ يَقْتَضِي حُصُولَ الثَّوَابِ وَكَانَ الثَّوَابُ مِنْ جِهَتِهِ نِعْمَةً وَرَحْمَةً وَصَفَ نَفْسَهُ مَعَ كَوْنِهِ تَوَّابًا بِأَنَّهُ رَحِيمٌ.

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٤﴾ [المائدة:٧٤].

«وَهَذَا مِنْ كَرَمِهِ تَعَالَىٰ وَجُودِهِ وَلُطْفِه وَرَحْمَته بِخَلْقِهِ مَعَ هَذَا الذَّنْب العَظِيم، وهذا الِافْتِرَاء والكَذِب والإِفْك يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ التَّوْبَة والمَغْفِرَة فَكُلّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ»(١).

---

(١) «تفسير ابن كثير» ت: مجموعة (٥/ ٢٩٨).

«وهو سبحانه لمحبته للعفو والتوبة خلق خلقه علىٰ صفات وهيئات وأحوال تقتضي توبتهم إليه واستغفارهم وطلبهم عفوه ومغفرته، وقد روىٰ مسلم في «صحيحه» من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولَجاء بقوم يُذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم»**(١)، والله تعالىٰ يحب التوابين، والتوبة من أحب الطاعات إليه، ويكفي في محبتها شدة فرحه بها، كما في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«قال الله عَزَّوَجَلَّ: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، واللهِ للهُ أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته في الفلاة»**(٢).

وفي «الصحيحين» من حديث عبد الله بن مسعود عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«للهُ أشدُّ فرحًا بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتىٰ أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلىٰ المكان الذي كنت فيه فأنام حتىٰ أموت، فوضع رأسه علىٰ ساعده ليموت فاستيقظ وعنده راحلته عليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده»**(٣).

وفي «صحيح مسلم» عن النعمان بن بشير، يرفعه إلىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«لله أشد فرحًا بتوبة عبده من رجل حمل زاده ومزاده علىٰ بعير، ثم سار حتىٰ كان بفلاة فأدركته القائلة فنزل فقال تحت شجرة، فغلبته عينه وانسل بعيره**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤).

فاستيقظ فسعىٰ شرفًا فلم ير شيئًا، ثم سعىٰ شرفًا ثانيًا، ثم سعىٰ شرفًا ثالثًا فلم ير شيئًا، فأقبل حتىٰ أتىٰ إلىٰ مكانه الذي قال فيه فبينما هو قاعد فيه؛ إذ جاء بعيره يمشي حتىٰ وضع خطامه في يده، فالله أشد فرحًا بتوبة العبد من هذا حين وجد بعيره»(١).

فتأمل محبته سبحانه لهذه الطاعة التي هي أصل الطاعات وأساسها، فإن من زعم أن أحدًا من الناس يستغني عنها ولا حاجة به إليها فقد جهل حق الربوبية ومرتبة العبودية، وينتقص بمن أغناه بزعمه عن التوبة من حيث زعم أنه معظِّم له؛ إذ عطله عن هذه الطاعة العظيمة التي هي من أجل الطاعات والقربة الشريفة التي هي من أجل القربات، وقال: لست من أهل هذه الطاعة ولا حاجة بك إليها، فلا قدَر الله حق قدره ولا قدر العبد حق قدره، وقد جعل بعض عباده غنيًا عن مغفرة الله وعفوه وتوبته إليه وزعم أنه لا يحتاج إلىٰ ربه في ذلك»(٢).

«وَتَوْبَةُ العَبْدِ إِلَىٰ اللهِ مَحْفُوفَةٌ بِتَوْبَةٍ مِنَ اللهِ عَلَيْهِ قَبْلَهَا، وَتَوْبَةٍ مِنْهُ بَعْدَهَا، فَتَوْبَتُهُ بَيْنَ تَوْبَتَيْنِ مِنْ رَبِّهِ، سَابِقَةٍ وَلَاحِقَةٍ، فَإِنَّهُ تَابَ عَلَيْهِ أَوَّلًا إِذْنًا وَتَوْفِيقًا وَإِلْهَامًا، فَتَابَ العَبْدُ، فَتَابَ اللهُ عَلَيْهِ ثَانِيًا، قَبُولًا وَإِثَابَةً، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٥).

(٢) «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» (ص: ١١٦).

عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة:١١٧-١١٨]، فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ تَوْبَتَهُ عَلَيْهِمْ سَبَقَتْ تَوْبَتَهُمْ، وَأَنَّهَا هِيَ الَّتِي جَعَلَتْهُمْ تَائِبِينَ، فَكَانَتْ سَبَبًا مُقْتَضِيًا لِتَوْبَتِهِمْ، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ مَا تَابُوا حَتَّىٰ تَابَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ»(١).

«فأسماؤه الحسنىٰ اقْتَضَت مَا اقتضته من التَّخْلِيَة بَين العَبْد وَبَين الذَّنب، فَإِنَّهُ الغفار التواب العَفو الحَلِيم، وَهَذِه أسماء تطلب آثارها وموجباتها وَلَا بُد، فَلَو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بِقوم يذنبون فيستغفرون فَيغْفر لَهُم»(٢).

«وَمَنْزِلُ التَّوْبَةِ أَوَّلُ المَنَازِلِ، وَأَوْسَطُهَا، وَآخِرُهَا، فَلَا يُفَارِقُهُ العَبْدُ السَّالِكُ، وَلَا يَزَالُ فِيهِ إِلَىٰ المَمَاتِ، وَإِنِ ارْتَحَلَ إِلَىٰ مَنْزِلٍ آخَرَ ارْتَحَلَ بِهِ، وَاسْتَصْحَبَهُ مَعَهُ وَنَزَلَ بِهِ، فَالتَّوْبَةُ هِيَ بِدَايَةُ العَبْدِ وَنِهَايَتُهُ، وَحَاجَتُهُ إِلَيْهَا فِي النِّهَايَةِ ضَرُورِيَّةٌ، كَمَا أَنَّ حَاجَتَهُ إِلَيْهَا فِي البِدَايَةِ كَذَلِكَ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور:٣١]، وَهَذِهِ الآيَةُ فِي سُورَةٍ مَدَنِيَّةٍ، خَاطَبَ اللهُ بِهَا أَهْلَ الإِيمَانِ وَخِيَارَ خَلْقِهِ أَنْ يَتُوبُوا إِلَيْهِ، بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَصَبْرِهِمْ، وَهِجْرَتِهِمْ وَجِهَادِهِمْ، ثمَّ عَلَّقَ الفَلَاحَ بِالتَّوْبَةِ تَعْلِيقَ المُسَبَّبِ بِسَبَبِهِ، وَأَتَىٰ بِأَدَاةِ لَعَلَّ المُشْعِرَةِ بِالتَّرَجِّي، إِيذَانًا بِأَنَّكُمْ إِذَا تُبْتُمْ كُنْتُمْ عَلَىٰ رَجَاءِ الفَلَاحِ، فَلَا يَرْجُو الفَلَاحَ إِلَّا التَّائِبُونَ، جَعَلَنَا اللهُ مِنْهُمْ»(٣).

---

(١) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (١/ ٣١٩).

(٢) «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (١/ ٢٨٥).

(٣) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (١/ ١٩٦).

«فَحَقِيقَةُ التَّوْبَةِ: هِيَ النَّدَمُ عَلَىٰ مَا سَلَفَ مِنْهُ فِي المَاضِي، والإِقْلَاعُ عَنْهُ فِي الحَالِ، والعَزْمُ عَلَىٰ أَنْ لَا يُعَاوِدَهُ فِي المُسْتَقْبَلِ.

وَالثَّلَاثَةُ تَجْتَمِعُ فِي الوَقْتِ الَّذِي تَقَعُ فِيهِ التَّوْبَةُ، فَإِنَّهُ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ يَنْدَمُ، وَيُقْلِعُ، وَيَعْزِمُ»(١).

«فَالتَّوْبَةُ المَقْبُولَةُ الصَّحِيحَةُ لَهَا عَلَامَاتٌ:

مِنْهَا: أَنْ يَكُونَ بَعْدَ التَّوْبَةِ خَيْرًا مِمَّا كَانَ قَبْلَهَا.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ لَا يَزَالُ الخَوْفُ مُصَاحِبًا لَهُ لَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، فَخَوْفُهُ مُسْتَمِرٌّ إِلَىٰ أَنْ يَسْمَعَ قَوْلَ الرُّسُلِ لِقَبْضِ رُوحِهِ: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠﴾ [فصلت:٣٠]، فَهُنَاكَ يَزُولُ الخَوْفُ.

وَمِنْهَا: انْخِلَاعُ قَلْبِهِ، وَتَقَطُّعُهُ نَدَمًا وَخَوْفًا، وهذا عَلَىٰ قَدْرِ عِظَمِ الجِنَايَةِ وَصِغَرِهَا، وهذا تَأْوِيلُ ابْنِ عُيَيْنَةَ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة:١١٠]، قَالَ: تَقَطُّعُهَا بِالتَّوْبَةِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ الخَوْفَ الشَّدِيدَ مِنَ العُقُوبَةِ العَظِيمَةِ يُوجِبُ انْصِدَاعَ القَلْبِ وَانْخِلَاعَهُ، وهذا هُوَ تَقَطُّعُهُ، وهذا حَقِيقَةُ التَّوْبَةِ، لِأَنَّهُ يَتَقَطَّعُ قَلْبُهُ حَسْرَةً عَلَىٰ مَا فَرَطَ مِنْهُ، وَخَوْفًا مِنْ سُوءِ عَاقِبَتِهِ، فَمَنْ لَمْ يَتَقَطَّعْ قَلْبُهُ فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ مَا فَرَّطَ حَسْرَةً وَخَوْفًا، تَقَطَّعَ فِي الآخِرَةِ إِذَا حَقَّتِ الحَقَائِقُ، وَعَايَنَ ثَوَابَ المُطِيعِينَ، وَعِقَابَ العَاصِينَ، فَلَا بُدَّ مِنْ تَقَطُّعِ القَلْبِ إِمَّا فِي الدُّنْيَا وَإِمَّا فِي الآخِرَةِ.

(١) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (١/ ١٩٩).

وَمِنْ مُوجِبَاتِ التَّوْبَةِ الصَّحِيحَةِ أَيْضًا: كَسْرَةٌ خَاصَّةٌ تَحْصُلُ لِلْقَلْبِ لَا يُشْبِهُهَا شَيْءٌ، وَلَا تَكُونُ لِغَيْرِ المُذْنِبِ، لَا تَحْصُلُ بِجُوعٍ، وَلَا رِيَاضَةٍ، وَلَا حُبٍّ مُجَرَّدٍ، وَإِنَّمَا هِيَ أَمْرٌ وَرَاءَ هَذَا كُلِّهِ، تَكْسِرُ القَلْبَ بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ كَسْرَةً تَامَّةً، قَدْ أَحَاطَتْ بِهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ، وَأَلْقَتْهُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ طَرِيحًا ذَلِيلًا خَاشِعًا، كَحَالِ عَبْدٍ جَانٍ آبِقٍ مِنْ سَيِّدِهِ، فَأُخِذَ فَأُحْضِرَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلَمْ يَجِدْ مَنْ يُنْجِيهِ مِنْ سَطْوَتِهِ، وَلَمْ يَجِدْ مِنْهُ بُدًّا، وَلَا عَنْهُ غَنَاءً، وَلَا مِنْهُ مَهْرَبًا، وَعَلِمَ أَنَّ حَيَاتَهُ وَسَعَادَتَهُ وَفَلَاحَهُ وَنَجَاحَهُ فِي رِضَاهُ عَنْهُ، وَقَدْ عَلِمَ إِحَاطَةَ سَيِّدِهِ بِتَفَاصِيلِ جِنَايَاتِهِ، هَذَا مَعَ حُبِّهِ لِسَيِّدِهِ، وَشِدَّةِ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ، وَعِلْمِهِ بِضَعْفِهِ وَعَجْزِهِ وَقُوَّةِ سَيِّدِهِ، وَذُلِّهِ وَعِزِّ سَيِّدِهِ، فَيَجْتَمِعُ مِنْ هَذِهِ الأَحْوَالِ كَسْرَةٌ وَذِلَّةٌ وَخُضُوعٌ، مَا أَنْفَعَهَا لِلْعَبْدِ وَمَا أَجْدَىٰ عَائِدَتَهَا عَلَيْهِ! وَمَا أَعْظَمَ جَبْرَهُ بِهَا، وَمَا أَقْرَبَهُ بِهَا مِنْ سَيِّدِهِ! فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَىٰ سَيِّدِهِ مِنْ هَذِهِ الكَسْرَةِ، والخُضُوعِ والتَّذَلُّلِ، والإِخْبَاتِ، والِانْطِرَاحِ بَيْنَ يَدَيْهِ، والِاسْتِسْلَامِ لَهُ.

فَلِلَّهِ مَا أَحْلَىٰ قَوْلَهُ فِي هَذِهِ الحَالِ: أَسْأَلُكَ بِعِزِّكَ وَذُلِّي إِلَّا رَحِمْتَنِي، أَسْأَلُكَ بِقُوَّتِكَ وَضَعْفِي، وَبِغِنَاكَ عَنِّي وَفَقْرِي إِلَيْكَ، هَذِهِ نَاصِيَتِي الكَاذِبَةُ الخَاطِئَةُ بَيْنَ يَدَيْكَ، عَبِيدُكَ سِوَايَ كَثِيرٌ، وَلَيْسَ لِي سَيِّدٌ سِوَاكَ، لَا مَلْجَأَ، وَلَا مَنْجَىٰ مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، أَسْأَلُكَ مَسْأَلَةَ المِسْكِينِ، وَأَبْتَهِلُ إِلَيْكَ ابْتِهَالَ الخَاضِعِ الذَّلِيلِ، وَأَدْعُوكَ دُعَاءَ الخَائِفِ الضَّرِيرِ، سُؤَالَ مَنْ خَضَعَتْ لَكَ رَقَبَتُهُ، وَرَغِمَ لَكَ أَنْفُهُ، وَفَاضَتْ لَكَ عَيْنَاهُ، وَذَلَّ لَكَ قَلْبُهُ»(١).

(١) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (١/ ٢٠٣).

«وَهَذَا مَوْضِعُ الحِكَايَةِ المَشْهُورَةِ عَنْ بَعْضِ العَارِفِينَ، أَنَّهُ حَصَلَ لَهُ شُرُودٌ وَإِبَاقٌ مِنْ سَيِّدِهِ، فَرَأَىٰ فِي بَعْضِ السِّكَكِ بَابًا قَدْ فُتِحَ، وَخَرَجَ مِنْهُ صَبِيٌّ يَسْتَغِيثُ وَيَبْكِي، وَأُمُّهُ خَلْفَهُ تَطْرُدُهُ، حَتَّىٰ خَرَجَ، فَأَغْلَقَتِ البَابَ فِي وَجْهِهِ وَدَخَلَتْ، فَذَهَبَ الصَّبِيُّ غَيْرَ بَعِيدٍ، ثمَّ وَقَفَ مُفَكِّرًا، فَلَمْ يَجِدْ لَهُ مَأْوًىٰ غَيْرَ البَيْتِ الَّذِي أُخْرِجَ مِنْهُ، وَلَا مَنْ يُئْوِيهِ غَيْرَ والِدَتِهِ، فَرَجَعَ مَكْسُورَ القَلْبِ حَزِينًا، فَوَجَدَ البَابَ مُرَتَّجًا، فَتَوَسَّدَهُ وَوَضَعَ خَدَّهُ عَلَىٰ عَتَبَةِ البَابِ وَنَامَ، فَخَرَجَتْ أُمُّهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ عَلَىٰ تِلْكَ الحَالِ لَمْ تَمْلِكْ أَنْ رَمَتْ نَفْسَهَا عَلَيْهِ، والتَزَمَتْهُ تُقَبِّلُهُ وَتَبْكِي، وَتَقُولُ: يَا وَلَدِي، أَيْنَ تَذْهَبُ عَنِّي؟ وَمَنْ يُئْوِيكَ سِوَايَ؟ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ: لَا تُخَالِفْنِي، وَلَا تَحْمِلْنِي بِمَعْصِيَتِكَ لِي عَلَىٰ خِلَافِ مَا جُبِلْتُ عَلَيْهِ مِنَ الرَّحْمَةِ بِكَ، والشَّفَقَةِ عَلَيْكَ، وَإِرَادَتِي الخَيْرَ لَكَ؟ ثمَّ أَخَذَتْهُ وَدَخَلَتْ»(١).

«وكذلك العبد، فلا فرحَ له أعظم من فرحه بوجود ربه وأُنسه به وطاعته له وإِقباله عليه وطمأنينته بذكره وعِمارة قلبه بمعرفته والشوق إِلىٰ لقائه، فليس في الكائنات ما يسكن العبد إِليه ويطمئن به ويتنعم بالتوجه إِليه إِلا الله سبحانه، ومن عبد غيره وأَحبه -وإِن حصل له نوع من اللَّذة والمودَّة والسكون إِليه والفرح والسرور بوجوده- ففساده به ومضرته وعطبه أَعظم من فساد أكل الطعام المسموم اللذيذ الشهي الذي هو عذب في مبدئه عذاب في نهايته»(٢).

---

(١) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (١/ ٢٢٩).

(٢) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ٥٧).

«وفي قوله تعالىٰ: ﴿فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النساء:٧٩]، من الفوائد: أن العبد لا يركن إلىٰ نفسه، ولا يسكن إليها؛ فإن الشر لا يجيء إلا منها، ولا يشتغل بملام الناس، ولا ذمهم إذا أساءوا إليه؛ فإن ذلك من السيئات التي أصابته، وهي إنما أصابته بذنوبه، فيرجع إلىٰ الذنوب فيستغفر منها، ويستعيذ بالله من شر نفسه وسيئات عمله، ويسأل الله أن يعينه علىٰ طاعته، فبذلك يحصل له كل خير، ويندفع عنه كل شر.

ولهذا كان أنفع الدعاء، وأعظمه وأحكمه دعاء الفاتحة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [الفاتحة:٦-٧]، فإنه إذا هداه هذا الصراط أعانه علىٰ طاعته وترك معصيته، فلم يصبه شر، لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

لكن الذنوب هي من لوازم نفس الإنسان، وهو محتاج إلىٰ الهدىٰ في كل لحظة، وهو إلىٰ الهدىٰ أحوج منه إلىٰ الأكل والشرب»(١).

❖ ❖ ❖

الملك القدوس

قال تعالىٰ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ [الجمعة:١].

---

(١) «الحسنة والسيئة» (ص: ٨٣).

وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر:٢٣].

«وَهُوَ القُدُّوسُ السَّلَامُ المُتَنَزِّهُ أَنْ يُمَاثِلَهُ شَيْءٌ فِي نُعُوتِ الكَمَالِ أَوْ يَلْحَقَهُ شَيْءٌ مِنَ الآفَاتِ»(١).

«فالقدوس المنزَّه من كل شر ونقص وعيب، كما قال أهل التفسير: هو الطاهر من كل عيب المنزه عما لا يليق به، وهذا قول أهل اللغة، وأصل الكلمة من الطهارة والنزاهة ومنه بيت المقدس؛ لأنه مكان يتطهر فيه من الذنوب، ومن أمة لا يريد إلا الصلاة فيه رجع من خطيئته كيوم ولدته أمه، ومنه سميت الجنة حظيرة القدس لطهارتها من آفات الدنيا، ومنه سمي جبريل روح القدس؛ لأنه طاهر من كل عيب، ومنه قول الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:٣٠]، فقيل: المعنىٰ ونقدس أنفسنا لك، فعدِّي باللام، وهذا ليس شيء، والصواب أن المعنىٰ نقدسك وننزهك عما لا يليق بك، هذا قول جمهور أهل التفسير.

وقال ابن جرير: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:٣٠]، ننسبك إلىٰ ما هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس ومما أضاف إليك أهل الكفر بك. قال: وقال بعضهم: نعظمك ونمدحك، قاله أبو صالح. وقال مجاهد: نعظمك ونكبرك. انتهىٰ(٢).

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (١/ ١).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (١/ ٤٧٥).

وقال بعضهم: ننزهك عن السوء، فلا ننسبه إليك، واللام فيه علىٰ حدها في قوله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل:٧٢]؛ لأن المعنىٰ تنزيه الله لا تنزيه نفوسهم لأجله. قلت: ولهذا قرن هذا اللفظ بقولهم: ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة:٣٠]، فإن التسبيح تنزيه الله سبحانه عن كل سوء.

قال ميمون بن مهران: (سبحان الله) كلمة يعظم بها الرب ويحاشىٰ بها من السوء. وقال ابن عباس: هي تنزيه لله من كل سوء. وأصل اللفظة من المباعدة من قولهم: سبحت في الأرض إذا تباعدت فيها، ومنه: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٣٣﴾ [الأنبياء:٣٣]، فمن أثنىٰ علىٰ الله ونزهه عن السوء فقد سبحه، ويقال: سبَّح الله، وسبَّح له، وقدَّسه، وقدَّس له.

وكذلك اسمه السلام، فإنه الذي سلم من العيوب والنقائص ووصفه بالسلام أبلغ في ذلك من وصفه بالسالم، ومن موجبات وصفه بذلك سلامة خلقه من ظلمه لهم، فسلم سبحانه من إرادة الظلم والشر، ومن التسمية به، ومن فعله، ومن نسبته إليه، فهو السلام من صفات النقص وأفعال النقص وأسماء النقص المسلم لخلقه من الظلم، ولهذا وصف سبحانه ليلة القدر بأنها سلام، والجنةَ بأنها دار السلام، وتحية أهلها السلام، وأثنىٰ علىٰ أوليائه بالقول السلام»(١).

القُدُّوسُ قُرِئَ: بِالضَّمِّ والفَتْحِ، وهو الكامل في النزاهة في الذات والصفات، والأفعال والأَحْكَامِ والأَسْمَاءِ، وقرنه وأتبع هذا الاسم باسم الملك لما يعرض

(١) «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» (١٧٩).

للملوك من تغير أحوالهم بالجور والظلم والاعتداء في الأحكام، «ومن أثبته له علىٰ وجه يماثل فيه خلقه فقد شبهه بخلقه، ومن شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن أثبته له علىٰ وجه لا يماثل فيه خلقه، بل كما يليق بجلاله وعظمته فقد بريء من فرث التشبيه ودم التعطيل، وهذا طريق أهل السنة، وما لزم الصفة لإضافتها إلىٰ العبد وجب نفيه عن الله، كما يلزم حياة العبد من النوم والسنة والحاجة إلىٰ الغذاء ونحو ذلك، وكذلك ما يلزم إرادته من حركة نفسه في جلب ما ينتفع به ودفع ما يتضرر به، وكذلك ما يلزم علوه من احتياجه إلىٰ ما هو عالٍ عليه وكونه محمولًا به مفتقرًا إليه محاطًا به، كل هذا يجب نفيه عن القدوس السلام تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ»(١).

وَأخرج عبد بن حميد وَابْن الْمُنْذر وَأَبُو الشَّيْخ فِي «العظمة» فِي قَوْله: ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ [الحشر:٢٣]، قَالَ: المُبَارك(٢).

«وأما البركة فكذلك نوعان أيضًا:

أحدهما: بركة هي فعله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، والفعل منها بارك، ويتعدىٰ بنفسه تارة، وبأداة (علىٰ) تارة، وبأداة (في) تارة، والمفعول منها مبارك، وهو ما جعل كذلك فكان مباركًا بجعله تعالىٰ.

والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها: تبارك، ولهذا لا يقال لغيره ذلك، ولا يصلح إلا له عَزَّوَجَلَّ، فهو سبحانه المبارك وعبده

(١) «بدائع الفوائد» - نزار الباز (١/ ١٧٣).

(٢) «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٠٢).

ورسوله، كما قال المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم:٣١]، فمن بارك الله فيه وعليه، فهو المبارك.

وأما صفته (تبارك) فمختصة به تعالىٰ، كما أطلقها علىٰ نفسه بقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف:٥٤]، ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك:١]، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون:١٤]، ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٥﴾ [الزخرف:٨٥]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان:١]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ [الفرقان:١٠]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان:٦١].

أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به لا تطلق علىٰ غيره، وجاءت علىٰ بناء السعة والمبالغة، كـ«تعالىٰ وتعاظم» ونحوهما، فجاء بناء (تبارك) علىٰ بناء (تعالىٰ) الذي هو دال علىٰ كمال العلو ونهايته، فكذلك (تبارك) دال علىٰ كمال بركته وعظمها وسعتها، وهذا معنىٰ قول مَن قال مِن السلف: تبارك: تعاظم.

وقال آخر: معناه أن تجيء البركات من قبله، فالبركة كلها منه، وقال غيره: كثر خيره وإحسانه إلىٰ خلقه، وقيل: اتسعت رأفته ورحمته بهم، وقيل: تزايد عن كل شيء وتعالىٰ عنه في صفاته وأفعاله، ومن هنا قيل: معناه تعالىٰ وتعاظم، وقيل: تبارك تقدس والقدس الطهارة، وقيل: تبارك أي: باسمه يبارك في كل شيء، وقيل: تبارك ارتفع والمبارك المرتفع، ذكره البغوي، وقيل: تبارك أي: البركة تُكتسب وتُنال بذِكره.

وقال ابن عباس: جاء بكل بركة، وقيل: معناه ثبت ودام بما لم يزل، ولا يزال، ذكره البغوي -أيضًا-. وحقيقة اللفظة أن البركة كثرة الخير ودوامه، ولا أحد أحق بذلك وصفًا وفعلًا منه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وتفسير السلف يدور علىٰ هذين المعنيين وهما متلازمان، لكن الأليق باللفظة معنىٰ الوصف لا الفعل، فإنه فعل لازم مثل تعالىٰ وتقدس وتعاظم، ومثل هذه الألفاظ ليس معناها أنه جعل غيره عاليًا، ولا قدوسًا، ولا عظيمًا هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه، وإنما معناها في نفس من نسبت إليه، فهو المتعالي المتقدس، فكذلك تبارك لا يصح أن يكون معناها بارك في غيره، وأين أحدهما من الآخر لفظًا ومعنىٰ، هذا لازم، وهذا متعدٍّ، فعلمت أن من فسر تبارك بمعنىٰ ألقىٰ البركة وبارك في غيره لم يصب معناها، وإن كان هذا من لوازم كونه متباركًا، فتبارك من باب مجَّد، والمجد كثرة صفات الجلال والسعة والفضل، وبارك من باب أعطىٰ وأنعم، ولما كان المتعدي في ذلك يستلزم اللازم من غير عكس فسَّر مَن فسَّر من السلف اللفظة بالمتعدي لينتظم المعنيين فقال: مجيء البركة كلها من عنده أو البركة كلها من قبله، وهذا فرع علىٰ تبارك في نفسه»(١).

❁ ❁ ❁

العلي الكبير

قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٦٢﴾ [الحج:٦٢].

---

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ١٨٥).

«وَقَدْ أَجْمَعَ المُسْلِمُونَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ العَلِيُّ الأَعْلَىٰ، وَنَطَقَ بِذَلِكَ القُرْآنُ فَزَعَمَ هَؤُلَاءِ أَنَّ ذَلِكَ بِمَعْنَىٰ عُلُوِّ الغَلَبَةِ لَا عُلُوِّ الذَّاتِ، وَعِنْدَ المُسْلِمِينَ أَنَّ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ عُلُوَّ الغَلَبَةِ. والعُلُوُّ مِنْ سَائِرِ وُجُوهِ العُلُوِّ؛ لِأَنَّ العُلُوَّ صِفَةُ مَدْحٍ فَثَبَتَ أَنَّ لِلَّهِ تَعَالَىٰ عُلُوَّ الذَّاتِ وَعُلُوَّ الصِّفَاتِ وَعُلُوَّ القَهْرِ والغَلَبَةِ، وَفِي مَنْعِهِمُ الإِشَارَةَ إِلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مِنْ جِهَةِ الفَوْقِ خِلَافٌ مِنْهُمْ لِسَائِرِ المِلَلِ؛ لِأَنَّ جَمَاهِيرَ المُسْلِمِينَ وَسَائِرَ المِلَلِ قَدْ وَقَعَ مِنْهُمُ الإِجْمَاعُ عَلَىٰ الإِشَارَةِ إِلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مِنْ جِهَةِ الفَوْقِ فِي الدُّعَاءِ والسُّؤَالِ، وَاتِّفَاقُهُمْ بِأَجْمَعِهِمْ عَلَىٰ ذَلِكَ حُجَّةٌ، وَلَمْ يَسْتَجِزْ أَحَدٌ الإِشَارَةَ إِلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الأَسْفَلِ، وَلَا مِنْ سَائِرِ الجِهَاتِ سِوَىٰ جِهَةِ الفَوْقِ، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠]. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤].

وَأَخْبَرَ تَعَالَىٰ عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر:٣٦-٣٧]، فَكَانَ فِرْعَوْنُ قَدْ فَهِمَ مِنْ مُوسَىٰ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أَنَّهُ يُثْبِتُ إِلَهًا فَوْقَ السَّمَاءِ، حَتَّىٰ رَامَ بِصَرْحِهِ أَنْ يَطَّلِعَ إِلَيْهِ وَاتَّهَمَ مُوسَىٰ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ بِالكَذِبِ فِي ذَلِكَ، والجَهْمِيَّةُ لَا تَعْلَمُ أَنَّ اللهَ فَوْقَهَا بِوُجُودِ ذَاتِهِ فَهُمْ أَعْجَزُ فَهْمًا مِنْ فِرْعَوْنَ (بَلْ وَأَضَلُّ)، وَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ سَأَلَ الجَارِيَةَ الَّتِي أَرَادَ مَوْلَاهَا عِتْقَهَا: «أَيْنَ اللهُ؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، وَأَشَارَتْ بِرَأْسِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ،

وَقَالَ: «**مَنْ أَنَا؟**» فَقَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ: «**أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**»(١). فَحَكَمَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- بِإِيمَانِهَا حِينَ قَالَتْ: إِنَّ اللهَ فِي السَّمَاءِ»(٢).

وهو المتفرد بالعلو والكبرياء شأنًا وسلطانًا ذاتًا وصفة قولًا وفعلًا، وهو العلي أن يحيط به وصف الواصفين، بل وعلم العارفين، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا دافع لأمره، ولا راد لقضائه، والكبير هو العَظِيمُ فِي قُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ، الذي يحتقر كل شيء في جنب كبريائه، وهو الكَبِيرِ الَّذِي لَا شَيْءَ أَكْبَرُ مِنْهُ، الذي يقضي ولا يقضىٰ عليه.

وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ، إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّهُ فَوْقَ الكَامِلِينَ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، عن أبي هُرَيْرَةَ، يَقُولُ: إِنَّ نَبِيَّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِذَا قَضَىٰ اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَىٰ صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الحَقَّ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ -وَوَصَفَ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا، وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ- فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّىٰ يُلْقِيَهَا عَلَىٰ لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا، فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَ مِنَ السَّمَاءِ**»، رواه البخاري(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السُّلَمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) «اجتماع الجيوش الإسلامية» (٢/ ١٨٢).
(٣) أخرجه البخاري (٤٨٠٠).

«فتارة يستدل بثبوت تلك المحامد والكمالات علىٰ نفي النقائص التي تنافيها، وتارة يستدل بنفي تلك النقائص علىٰ ثبوت الكمالات التي تنافيها، فهو سبحانه القدوس السلام، كما قال: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، لكمال حياته وقيوميته و: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ [سبأ:٣]، لكمال علمه: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق:٣٨]، لكمال قدرته: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩]، لكمال عدله وغناه ورحمته و: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه:٥٢]، لكمال علمه وحفظه: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة:٢٥٥]، لكمال قدرته وقوته: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام:١٤]، و: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾﴾ [الإخلاص:٣]، لكمال صمديته: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص:٤]، لتفرده بالكمال المطلق الذي لا يشاركه فيه غيره: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء:١١١]، لكمال عزته وسلطانه: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس:١٥]، فنفىٰ عن نفسه خوف عاقبة ما فعله من إهلاك أعدائه بخلاف المخلوق، فإنه إذا انتقم من عدوه يخاف عاقبة ذلك إما من الله وإما من المنتصرين لعدوه، وذلك علىٰ الله محال»[1].

«فِي كِتَابِ «المِنْهَاجِ» لِأَبِي عَبْدِ الله الحَلِيمِيِّ: وَأَحْسَنُ مَا فِيهِ أَنْ يَكُونَ مُسْتَحْضِرًا لِأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: عِزَّةُ الربوبية.

والثانية: ذلة العبودية.

---

(١) «الصواعق المرسلة في الرد علىٰ الجهمية والمعطلة» (٤/ ١٤٤٣).

فهناك يحسن ذلك الدُّعَاءُ وَيَعْظُمُ مَوْقِعُ ذَلِكَ الذِّكْرِ. فَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ كَانَ قَلِيلَ الفَائِدَةِ، وَأَنَا أَذْكُرُ لِهَذَا المَعْنَىٰ مِثَالًا، وَهُوَ أَنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَقُولَ فِي تَحْرِيمَةِ صَلَاتِهِ: الله أَكْبَرُ، فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَسْتَحْضِرَ فِي النِّيَّةِ جميع ما أمكنه من معرفة آثار حكمة الله تَعَالَىٰ فِي تَخْلِيقِ نَفْسِهِ وَبَدَنِهِ وَقُوَاهُ العَقْلِيَّةِ والحِسِّيَّةِ أَوِ الحَرَكِيَّةِ، ثمَّ يَتَعَدَّىٰ مِنْ نَفْسِهِ إِلَىٰ اسْتِحْضَارِ آثَارِ حِكْمَةِ الله فِي تَخْلِيقِ جَمِيعِ النَّاسِ، وَجَمِيعِ الحَيَوَانَاتِ، وَجَمِيعِ أَصْنَافِ النَّبَاتِ والمَعَادِنِ، والآثَارِ العُلْوِيَّةِ مِنَ الرَّعْدِ والبَرْقِ والصَّوَاعِقِ الَّتِي تُوجَدُ فِي كُلِّ أَطْرَافِ العَالَمِ، ثمَّ يَسْتَحْضِرُ آثَارَ قُدْرَةِ الله تَعَالَىٰ فِي تَخْلِيقِ الأَرْضِينَ والجِبَالِ والبِحَارِ والمَفَاوِزِ، ثمَّ يَسْتَحْضِرُ آثَارَ قُدْرَةِ الله تَعَالَىٰ فِي تَخْلِيقِ طَبَقَاتِ العَنَاصِرِ السُّفْلِيَّةِ والعُلْوِيَّةِ، ثمَّ يَسْتَحْضِرُ آثَارَ قُدْرَةِ الله تعالىٰ في تخليق أطباق السموات عَلَىٰ سَعَتِهَا وَعِظَمِهَا، وَفِي تَخْلِيقِ أَجْرَامِ النَّيِّرَاتِ مِنَ الثَّوَابِتِ والسَّيَّارَاتِ.

ثمَّ يَسْتَحْضِرُ آثَارَ قُدْرَةِ الله تَعَالَىٰ فِي تَخْلِيقِ الكُرْسِيِّ وَسِدْرَةِ المُنْتَهَىٰ، ثمَّ يَسْتَحْضِرُ آثَارَ قُدْرَتِهِ فِي تَخْلِيقِ العَرْشِ العَظِيمِ المُحِيطِ بِكُلِّ هَذِهِ المَوْجُودَاتِ، ثمَّ يَسْتَحْضِرُ آثَارَ قُدْرَتِهِ فِي تَخْلِيقِ المَلَائِكَةِ مِنْ حَمَلَةِ العَرْشِ والكُرْسِيِّ وَجُنُودِ عَالَمِ الرُّوحَانِيَّاتِ، فَلَا يَزَالُ يَسْتَحْضِرُ مِنْ هَذِهِ الدَّرَجَاتِ والمَرَاتِبِ أَقْصَىٰ مَا يَصِلُ إِلَيْهِ فَهْمُهُ وَعَقْلُهُ وَذِكْرُهُ وَخَاطِرُهُ وَخَيَالُهُ، ثمَّ عِنْدَ اسْتِحْضَارِ جَمِيعِ هَذِهِ الرُّوحَانِيَّاتِ وَالجُسْمَانِيَّاتِ علىٰ تفاوت درجاتها وتباين منازلها ومراتبها، ويقول: الله أَكْبَرُ، وَيُشِيرُ بِقَوْلِهِ: الله، إِلَىٰ المَوْجُودِ الَّذِي خَلَقَ هَذِهِ الأَشْيَاءَ وَأَخْرَجَهَا مِنَ العَدَمِ إِلَىٰ الوُجُودِ، وَرَتَّبَهَا بِمَا لَهَا مِنَ الصِّفَاتِ والنُّعُوتِ، وَبِقَوْلِهِ:

أَكْبَرُ، أَيْ: أَنَّهُ لَا يُشْبِهُ لِكِبْرِيَائِهِ وَجَبَرُوتِهِ وَعِزِّهِ وَعُلُوِّهِ وَصَمَدِيَّتِهِ هَذِهِ الأَشْيَاءَ، بَلْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ هَذِهِ الأَشْيَاءِ.

فَإِذَا عَرَفْتَ هَذَا المِثَالَ الوَاحِدَ فَقِسِ الذِّكْرَ الحَاصِلَ مَعَ العِرْفَانِ والشعور، وعند هذا يَنْفَتِحُ عَلَىٰ عَقْلِكَ نَسَمَةٌ مِنَ الأَسْرَارِ المُودَعَةِ تَحْتَ قَوْلِهِ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]»(١).

«رَوَىٰ الترمذي فِي «جَامِعِهِ»: مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ مِنَ الحُمَّىٰ، وَمِنَ الأَوْجَاعِ كُلِّهَا أَنْ يَقُولُوا: «بِسْمِ اللهِ الكَبِيرِ، أَعُوذُ بِاللهِ العَظِيمِ مِنْ شَرِّ كُلِّ عِرْقٍ نَعَّارٍ، وَمِنْ شَرِّ حَرِّ النَّارِ»(٢)»(٣).

ومن أراد الرفع عن أسافل الأمور إلىٰ أعاليها، فإنه يتوسل إلىٰ الله باسمه العلي.

❖ ❖ ❖

الفتاح العليم

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ۝٢٦﴾ [سبأ:٢٦].

---

(١) «التفسير الكبير» (١٥/ ٤١٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٧٥).

(٣) «الطب النبوي» لابن القيم (ص: ٢٧٢).

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح:١].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٩٦﴾ [الأعراف:٩٦].

والفَتَّاحُ الحاكم الفيصل في القضايا المنغلقة أي: المشكلة، العَلِيمُ بما ينبغي أن يقضىٰ به وبمن يقضىٰ له وعليه، ولا يخفىٰ عليه شيء من ذلك، كما لا يخفىٰ عليه ما عدا ذلك، والمتفضل بإظهار الخير والسعة علىٰ أثر ضيق وانغلاق، والفتاح هو الذي بعنايته ينفتح كل منغلق. والذي يذهب ضيق النفس بخيره وضيق الجهل بتعليمه وضيق الفقر بفضله.

«وقال الفرَّاء: أهل عمان يسمون القاضي الفاتح والفتاح؛ لأنه يفتح مواضع الحق، وعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنه قال: ما كنت أدري قوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٨٩]، حتىٰ سمعت ابنة ذي يزن تقول لزوجها: تعالَ أُفاتِحْكَ، أيْ: أُحاكِمْك، قال الزجاج: وجائز أن يكون قوله: ﴿ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٨٩]، أي: أظهر أمرنا حتىٰ ينفتح بيننا وبين قومنا وينكشف»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعام:٥٩].

(١) «التفسير الكبير» (١٤/ ٣١٩).

اعلم -رحمك الله- أن الله تعالىٰ جعل لكل شيء من المكونات شهادة تناسب ذلك الشيء، وغيبًا مناسبًا له، وجعل لغيب كل مفتاحًا يفتح به باب غيب ذلك الشيء وشهادته فينفعل ذلك الشيء، كما أراده الله في الأزل وقدره، فقال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأنعام:٥٩]، لأنه لا خالق إلا هو، ليس لنبي، ولا لولي مدخل في علم هذه المفاتح، ولا في استعمالها لأنه مختص بالخالق فقط.

واعلم -رحمك الله- أن أعظم فتوح الله علىٰ عبده هو العلم بالله، «وَلَا ريب أن أجل مَعْلُوم وأعظمه وأكبره، فَهُوَ الله الَّذِي لَا إِلَه إِلَّا هُوَ رب العَالمين وقيوم السَّمَوَات والأرضين، الملك الحق المُبين، المَوْصُوف بالكمال كُله المنزه عَن كل عيب وَنقص وَعَن كل تَمْثِيل وتشبيه فِي كَمَاله، وَلَا ريب أن العلم بِهِ وبأسمائه وَصِفَاته وأفعاله أجل العُلُوم وأفضلها، ونسبته إِلَىٰ سَائِر العُلُوم كنسبة مَعْلُومِه إِلَىٰ سَائِر المعلومات، وكما أن العلم بِهِ أجل العُلُوم وأشرفها، فَهُوَ أصلها كلهَا، كَمَا أن كل مَوْجُود فَهُوَ مُسْتَند فِي وجوده إِلَىٰ الملك الحق المُبين ومفتقر إليه فِي تحقق ذَاته وأينيته، وكل علم فَهُوَ تَابع للْعلم بِهِ مفتقر فِي تحقق ذَاته إليه، فالعلم بِهِ أصل كل علم، كَمَا أنه سُبْحَانَهُ رب كل شَيْء ومليكه وموجده.

وَلَا ريب أن كَمَال العلم بِالسَّبَبِ التَّام وَكَونه سَببًا يسْتَلْزم العلم بمسببه، كَمَا أن العلم بِالعِلَّةِ التَّامَّة وَمَعْرِفَة كَونهَا عِلَّة يسْتَلْزم العلم بمعلوله، وكل مَوْجُود سوىٰ الله فَهُوَ مُسْتَند فِي وجوده إليه استناد المَصْنُوع إِلَىٰ صانعه والمَفْعُول إلىٰ فَاعله، فالعلم بِذَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَصِفَاته وأفعاله يسْتَلْزم العلم بِمَا سواهُ، فَهُوَ فِي ذَاته

رب كل شَيْء ومليكه، والعلم بِهِ أصل كل علم ومنشؤه، فَمن عرف الله عرف مَا سواهُ، وَمن جهل ربه، فَهُوَ لما سواهُ أجهل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ [الحشر:١٩].

فَتَأمل هَذِه الآية تَجِد تحتهَا معنىٰ شريفًا عَظِيمًا، وَهُوَ أن من نسي ربه أنساه ذَاته وَنَفسه فَلم يعرف حَقِيقَته، وَلَا مَصَالِحه، بل نسي مَا بِهِ صَلَاحه وفلاحه فِي معاشه ومعاده، فَصَارَ معطَّلًا مهمَلًا بِمَنْزِلَة الأنعام السائبة، بل رُبمَا كَانَت الأنعام أخبر بمصالحها مِنْهُ لبقائها، هداها الَّذِي أعطاها إِيَّاه خَالِقهَا، وَأما هَذَا فَخرج عَن فطرته الَّتِي خلق عَلَيْهَا فنسي ربه فأنساه نَفسه وصفاتها، وَمَا تكمل بِهِ وتزكو به وتسعد بِهِ فِي معاشها ومعادها، قَالَ الله تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾ [الكهف:٢٨]، فَغَفَلَ عَن ذكر ربه فانفرط عَلَيْهِ أمْرَهْ وَقَلبه، فَلَا التِفَات لَهُ إِلَىٰ مَصَالِحه وكماله وَمَا تزكو بِهِ نَفسه وَقَلبه، بل هُوَ مشتت القلب مضيعه، مُفْرط الأمر حيران لا يهتدي سَبِيلًا.

والمَقْصُود أن العلم بِالله أصل كل علم، وَهُوَ أصل علم العَبْد بسعادته وكماله ومصالح دُنْيَاهُ وآخرته، والجهل بِهِ مُسْتَلْزم للْجَهْل بِنَفسِهِ ومصالحها وكمالها وَمَا تزكو بِهِ وتفلح بِهِ، فالعلم بِهِ سَعَادَة العَبْد والجهل بِهِ أصل شقاوته.

فلَا شَيْء أطيب للْعَبد، وَلَا ألذ، وَلَا أهنأ، وَلَا أنْعمْ لِقَلْبِهِ وعيشه من محبَّة فاطره وباريه ودوام ذكره والسَّعْي فِي مرضاته، وهذا هُوَ الكَمَال الَّذِي لا كمال للْعَبد بِدُونِهِ، وَله خُلق الخلق، ولأجله نزل الوَحْي، وأرسلت الرُّسُل، وَقَامَت السَّمَوَات والأرض، وَوُجدت الجنَّة والنَّار، ولأجله شرعت الشَّرَائِع، وَوضع البَيْت الحَرَام، وَوَجَب حجه علىٰ النَّاس إِقَامَة لذكره الَّذِي هُوَ من تَوَابِع محبته

والرِّضَا بِهِ وَعنهُ، ولأجل هَذَا أمْر بِالجِهَادِ، وَضرب أعناق من أباه وآثر غَيره عَلَيْهِ، وَجعل لَهُ فِي الآخرة دَار الهوان خَالِدًا مخلَّدًا، وعَلىٰ هَذَا الأمر العَظِيم أُسِّست الملَّة، ونُصبت القبْلَة، وَهُوَ قطب رحىٰ الخلق والأمر الَّذِي مدارهما عَلَيْهِ، ولا سبيل إِلَىٰ الدُّخُول إِلَىٰ ذَلِك إِلَّا من بَاب العلم، فَإِن محبَّة الشَّيْء فرع عَن الشُّعُور بِهِ، وأعرف الخلق بِالله أشدهم حبًّا لَهُ، فَكل من عرف الله أحبه، وَمن عرف الدُّنْيَا وأهلها زهد فيهم. فالعلم يفتح هَذَا البَاب العَظِيم الَّذِي هُوَ سر الخلق والأَمر»(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ٢٦﴾ [سبأ:٢٦]، وقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ٢٦﴾ إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّ حُكْمَهُ يَكُونُ مَعَ العِلْمِ لَا مِثْل حُكْمِ مَنْ يَحْكُمُ بِمَا يَتَّفِقُ لَهُ بِمُجَرَّدِ هواه.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ١﴾ [الفتح:١].

فِي الفَتْحِ وُجُوهٌ:

أَحَدُهَا: فَتْحُ مَكَّةَ، وَهُوَ ظَاهِرٌ.

وَثَانِيهَا: فَتْحُ الرُّومِ وَغَيْرِهَا.

وَثَالِثُهَا: المُرَادُ مِنَ الفَتْحِ صُلْحُ الحُدَيْبِيَةِ.

وَرَابِعُهَا: فَتْحُ الإِسْلَامِ بِالحُجَّةِ والبُرْهَانِ، والسَّيْفِ والسِّنَانِ.

---

(١) «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (١/ ٨٧).

وَخَامِسُهَا: المُرَادُ مِنْهُ الحُكْمُ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٨٩]، وقوله: ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [سبأ:٢٦].

والمُخْتَارُ مِنَ الكُلِّ وُجُوهٌ:

أَحَدُهَا: فَتْحُ مَكَّةَ.

والثَّانِي: فَتْحُ الحُدَيْبِيَةِ.

والثَّالِثُ: فَتْحُ الإِسْلَامِ بِالآيَةِ والبَيَانِ والحُجَّةِ والبُرْهَانِ.

والأظهر أنه يشمل جميع ما ذكر «ومما يناسب هذا قوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح:٢٧]، بين سبحانه حكمة ما كرهوه عام الحديبية من صد المشركين لهم حتىٰ رجعوا ولم يعتمروا، وبيَّن لهم أن مطلوبهم يحصل بعد هذا فحصل في العام القابل، وقال سبحانه: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح:٢٧]، وهو صلح الحديبية، وهو أول الفتح المذكور في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ [الفتح:١]، فإن بسببه حصل من مصالح الدين والدنيا والنصر وظهور الإسلام وبطلان الكفر ما لم يكونوا يرجونه قبل ذلك ودخل الناس بعضهم في بعض وتكلم المسلمون بكلمة الإسلام وبراهينه وأدلته جهرة لا يخافون، ودخل في ذلك الوقت في الإسلام قريب ممن دخل فيه إلىٰ ذلك الوقت، وظهر لكل أحد بغي المشركين وعداوتهم وعنادهم، وعلم الخاص والعام أن محمدًا وأصحابه أولىٰ الحق والهدىٰ، وأن أعداءهم ليس

بأيديهم إلا العدوان والعناد، فإن البيت الحرام لم يصد عنه حاج، ولا معتمر من زمن إبراهيم فتحققت العرب عناد قريش وعداوتهم، وكان ذلك داعية لبشر كثير إلىٰ الإسلام وزاد عناد القوم وطغيانهم، وذلك من أكبر العون علىٰ نفوسهم وزاد صبر المؤمنين واحتمالهم والتزامهم لحكم الله وطاعة رسوله، وذلك من أعظم أسباب نصرهم إلىٰ غير ذلك من الأمور التي علمها الله ولم يعلمها الصحابة، ولهذا سماه فتحًا، وسئل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أفتح هو؟ قال: «نعم»(١)(٢).

ومن أراد تيسير الأمور الدينية والدنيوية والفتح في العلوم فليتوسل إلىٰ الله باسمه الفتاح العليم.

❁ ❁ ❁

البر الرحيم

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨﴾ [الطور:٢٨].

وَأخرج ابْن جرير وَابْن الْمُنْذر وَابْن أبي حَاتِم عَن ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ﴾ [الطور:٢٨]، قَالَ: اللَّطِيف(٣).

وَأخرج عبد الرَّزَّاق وَابْن أبي شيبَة وَابْن الْمُنْذر وَابْن أبي حَاتِم والبَيْهَقِيُّ فِي «شعب الإِيمَان» عَن عَائِشَة أَنها قَرَأت هَذِه الآيَة: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ

(١) أخرجه أبو داود (٢٧٣٦) من حديث مُجَمِّع بن جارية الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» (ص: ٣٤).

(٣) «تفسير الطبري» (٢٢/ ٤٧٧).

ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور:٢٧-٢٨]، فَقَالَت: اللَّهُمَّ مُنَّ علينا وقنا عَذَاب السَّمُوم إِنَّك أَنْت البر الرَّحِيم. وَذَلِكَ فِي الصَّلَاة(١).

وأصله من البِرِّ أي: المكان الواسع، فبَرَّه خوَّله برًّا، أي: سَعَةً.

ويُقال للإنسان إذا أكرم من دونه وأكرمه من فوقه: برَّه.

قال الراغب: «البَر خلاف البحر، وتصور منه التوسع فاشتق منه البِرُّ، أي: التوسع في فعل الخير، وينسب ذلك تارة إلىٰ الله تعالىٰ، نحو: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور:٢٨]، وإلىٰ العبد تارة فيقال: برَّ العبدُ ربَّه، أي: توسع في طاعته، فمِن الله الثواب، ومِن العبد الطاعة، وذلك ضربان: ضرب في الاعتقاد، وضرب في الأعمال، الفرائض والنوافل، وبر الوالدين: التوسع في الإحسان إليهما، وضده العقوق»(٢).

«وأما قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور:٢٨]، فهذا دعاء العبادة المتضمن للسؤال رغبة ورهبة، والمعنىٰ إنا كنا من قبل نُخلِص له العبادة، وبهذا استحقوا أن وقاهم عذاب السموم، لا بمجرد السؤال المشترك بين الناجي وغيره، فإن الله سبحانه يسأله مَن في السموات ومَن في الأرض، والفوز والنجاة إنما هي بإخلاص العبادة لا بمجرد السؤال

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (١٨٦٨٦)، «شعب الإيمان» (١٩٢٤)، و«مصنف عبد الرزاق» (٤٠٤٨)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٦٠٣٦).

(٢) «المفردات في غريب القرآن» (ص: ١١٤).

والطلب، وكذلك قول الفتية أصحاب الكهف: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ﴾ [الكهف:١٤]، أي: لن نعبد غيره، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٢٥﴾ [الصافات:١٢٥]»(١).

«وَفِيهِ لَطِيفَةٌ: وَهُوَ أَنْ يَكُونَ إِشْفَاقُهُمْ عَلَىٰ فَوَاتِ الدُّنْيَا والخُرُوجِ مِنْهَا وَمُفَارَقَةِ الإِخْوَانِ، ثمَّ لَمَّا نزلوا الجنة علموا خطأهم»(٢).

فمن عرف أنه هو البر الرحيم رجع إليه بالرغبة في كل حقير وعظيم، فكفاه ما أهمه ببره ورحمته، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ﴾ [الطور:٢٨]، أنْ نَحضُرَ الآخرة ﴿نَدۡعُوهُۖ﴾ [الطور:٢٨]، ونعبده ولم نؤده حق عبادته ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾ [الطور:٢٨]، بعباده يحسن إليهم ويعطيهم أكثر مما يستحقون بمنه وفضله.

«وَمِنْهَا: أَنْ يَعْرِفَ بِرَّهُ سُبْحَانَهُ فِي سَتْرِهِ عَلَيْهِ حَالَ ارْتِكَابِ المَعْصِيَةِ، مَعَ كَمَالِ رُؤْيَتِهِ لَهُ، وَلَوْ شَاءَ لَفَضَحَهُ بَيْنَ خَلْقِهِ فَحَذِرُوهُ، وهذا مِنْ كَمَالِ بِرِّهِ، وَمِنْ أَسْمَائِهِ: البَرُّ، وهذا البِرُّ مِنْ سَيِّدِهِ كَانَ بِهِ كَمَالُ غِنَاهُ عَنْهُ، وَكَمَالُ فَقرِ العَبْدِ إِلَيْهِ، فَيَشْتَغِلُ بِمُطَالَعَةِ هَذِهِ المِنَّةِ، وَمُشَاهَدَةِ هَذَا البِرِّ والإِحْسَانِ والكَرَمِ، فَيَذْهَلُ عَنْ ذِكْرِ الخَطِيئَةِ، فَيَبْقَىٰ مَعَ اللهِ سُبْحَانَهُ، وَذَلِكَ أَنْفَعُ لَهُ مِنَ الِاشْتِغَالِ بِجِنَايَتِهِ، وَشُهُودِ ذُلِّ مَعْصِيَتِهِ، فَإِنَّ الِاشْتِغَالَ بِاللهِ والغَفْلَةَ عَمَّا سِوَاهُ هُوَ المَطْلَبُ الأَعْلَىٰ، والمَقْصِدُ الأَسْنَىٰ، ولَا يُوجِبُ هَذَا نِسْيَانَ الخَطِيئَةِ مُطْلَقًا، بَلْ فِي هَذِهِ الحَالِ،

---

(١) «بدائع الفوائد» (٣/ ٥).

(٢) «التفسير الكبير» (٢٨/ ٢١٢).

فَإِذَا فَقَدَهَا فَلْيَرْجِعْ إِلَىٰ مُطَالَعَةِ الخَطِيئَةِ، وَذِكْرِ الجِنَايَةِ، وَلِكُلِّ وَقْتٍ وَمَقَامٍ عُبُودِيَّةٌ تَلِيقُ بِهِ»(١).

فمتىٰ أعطاك أشهدك بره وإحسانه وفضله، ومتىٰ منعك أشهدك قهره وجلاله وعظمته، فهو في كل ذلك متعرف إليك تارة بجماله وأخرىٰ بجلاله ومقبل بوجود لطفه عليك؛ إذ وجَّه لك ما يوجب توجهك إليه، ولكن إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه؛ إذ لو فهمت عنه كنت تشكره علىٰ ما وجَّهك.

❁ ❁ ❁

اللطيف الخبير

قال تعالىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام:١٠٣].

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك:١٤].

«فإنه سبحانه لعظمته يتعالىٰ أن تدركه الأبصار وتحيط به وللطفه وخبرته يدرك الأبصار، فلا تخفي عليه، فهو العظيم في لطفه اللطيف في عظمته العالي في قربه القريب في علوه، الذي ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير»(٢).

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٢٣).

(٢) «حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح» (ص: ٢٩٥).

«ثم ختم الحجة باسمين مقتضيين لثبوتها، وهما اللطيف الذي لطف صنعه وحكمته ودق حتىٰ عجزت عنه الأفهام، والخبير الذي انتهىٰ علمه إلىٰ الإحاطة ببواطن الأشياء وخفاياها، كما أحاط بظواهرها، فكيف يخفىٰ علىٰ اللطيف الخبير ما تحويه الضمائر وتخفيه الصدور؟!»(١).

«ويشبه هذا قول يوسف الصدِّيق: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ [يوسف:١٠٠]، فأخبر أنه يلطف لما يريده فيأتي به بطرق خفية لا يعلمها الناس، واسمه اللطيف يتضمن علمه بالأشياء الدقيقة وإيصاله الرحمة بالطرق الخفية، ومنه التلطف، كما قال أهل الكهف: ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ١٩﴾ [الكهف:١٩]، فكان ظاهرُ ما امتحن به يوسف من مفارقة أبيه وإلقائه في السجن وبيعه رقيقًا، ثم مراودة التي هو في بيتها عن نفسه وكذبها عليه وسجنه - محنًا ومصائب وباطنها نعمًا وفتحًا جعلها الله سببًا لسعادته في الدنيا والآخرة، ومن هذا الباب ما يبتلي به عباده من المصائب ويأمرهم به من المكاره وينهاهم عنه من الشهوات هي طرق يوصلهم بها إلىٰ سعادتهم في العاجل والآجل، وقد حُفَّت الجنة بالمكاره وحُفَّت النار بالشهوات، وقد قال ﷺ: «**لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيرًا له، إن أصابته سرَّاءُ**

(١) «الصواعق المرسلة في الرد علىٰ الجهمية والمعطلة» (٢/ ٤٩٢).

شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاءُ صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن»[(١)].

فالقضاء كله خير لمن أعطي الشكر والصبر جالبًا ما جلب، وكذلك ما فعله بآدم وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد -صلىٰ الله عليهم وسلم- من الأمور التي هي في الظاهر محن وابتلاء وهي في الباطن طرق خفية أدخلهم بها إلىٰ غاية كمالهم وسعادتهم.

فتأمل قصة موسىٰ وما لطف له من إخراجه في وقت ذبح فرعون للأطفال ووحيه إلىٰ أمه أن تلقيه في اليم، وسوقه بلطفه إلىٰ دار عدوه الذي قدر هلاكه علىٰ يديه، وهو يذبح الأطفال في طلبه، فرماه في بيته وحجره علىٰ فراشه، ثم قدر له سببًا أخرجه من مصر وأوصله به إلىٰ موضع لا حكم لفرعون عليه، ثم قدر له سببًا أوصله به إلىٰ النكاح والغنىٰ بعد العزوبة والعيلة، ثم ساقه إلىٰ بلد عدوه فأقام عليه به حجته، ثم أخرجه وقومه في صورة الهاربين الفارين منه، وكان ذلك عين نصرتهم علىٰ أعدائهم وإهلاكهم وهم ينظرون، وهذا كله مما يبين أنه سبحانه يفعل ما يفعله لما يريده من العواقب الحميدة والحِكم العظيمة التي لا تدركها عقول الخلق مع ما في ضمنها من الرحمة التامة والنعمة السابغة والتعرف إلىٰ عباده بأسمائه وصفاته.

فكم في أكل آدم من الشجرة التي نُهي عنها وإخراجه بسببها من الجنة، مِن حكمة بالغة لا تهتدي العقول إلىٰ تفاصيلها! وكذلك ما قدره لسيد ولده مِن

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، بنحوه.

الأمور التي أوصله بها إلىٰ أشرف غاياته وأوصله بالطرق الخفية فيها إلىٰ أحمد العواقب، وكذلك فعله بعباده وأوليائه يوصل إليهم نعمة ويسوقهم إلىٰ كمالهم وسعادتهم في الطرق الخفية التي لا يهتدون إلىٰ معرفتها إلا إذا لاحت لهم عواقبها، وهذا أمر يضيق الجنان عن معرفة تفاصيله ويحصر اللسان عن التعبير عنه، وأعرف خلق الله به أنبياؤه ورسله، وأعرفهم به خاتمهم وأفضلهم، وأمته في العلم به علىٰ مراتبهم ودرجاتهم ومنازلهم من العلم بالله وبأسمائه وصفاته»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾ [الشورىٰ:١٩].

مناسبة هذه الآية لما قبلها، هي أن قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾ [الشورىٰ:١٧]، يشير إلىٰ ما لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ من لطف بعباده، ورحمة بهم، إذ بعث فيهم رسوله، وأنزل إليهم كتابه هدًىٰ ورحمة، وقوله تعالىٰ: ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ﴾ إشارة إلىٰ أن هذا الرزق الذي يسوقه الله سبحانه من لطفه ورحمته، هو رزق الإيمان، والهدىٰ، ففي هذا الرزق تزكية النفوس وطهارتها بالإيمان وتقبلها للهدىٰ، واتصالها بالملأ الأعلىٰ، واستعدادها لدخول هذا الملأ في جنات النعيم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾ إشارة إلىٰ أنه سبحانه هو صاحب السلطان، المتصرف في ملكه، كما يشاء، لا ينازعه أحد فيما يسوق من لطفه ورحمته إلىٰ من يشاء من عباده.

(١) «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» (ص: ٣٤).

«قَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى:١٩]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: حَفِيٌّ بِهِمْ. قَالَ عِكْرِمَةُ: بَارٌّ بِهِمْ. قَالَ السُّدِّيُّ: رَفِيقٌ. قَالَ مُقَاتِلٌ: لَطِيفٌ بِالبَرِّ والفَاجِرِ حَيْثُ لَمْ يُهْلِكْهُمْ جُوعًا بِمَعَاصِيهِمْ، يَدُلُّ عَلَيْهِ: قَوْلُهُ: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ [الشورى:١٩]، وَكُلُّ مَنْ رَزَقَهُ اللهُ مِنْ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ وَذِي رُوحٍ، فَهُوَ مِمَّنْ يَشَاءُ اللهُ أَنْ يَرْزُقَهُ. قَالَ جَعْفَرٌ الصَّادِقُ: اللُّطْفُ فِي الرِّزْقِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدِهِمَا: أَنَّهُ جَعَلَ رِزْقَكَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ.

والثَّانِي: أَنَّهُ لَمْ يَدْفَعْهُ إِلَيْكَ بِمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ»(١).

ومن لطفه بعباده: أنه جعلهم مظهر صفات لطفه، ومن لطفه بعباده أنه عرفهم أنه لطيف، ولولا لطفه ما عرفوه، واعلم أن لطفه سبحانه بعباده لا ينحصر، ولا ينفك عنه مخلوق، من ظن انفكاك لطف الله عن قدره فذلك لقصور نظره، فمِن لطفه سبحانه بخلقه: أنه أعطاهم فوق الكفاية، وكلَّفهم دون الطاقة.

ومِن لطفه سبحانه: تسهيله الأرزاق، وتيسير الارتفاق، فلو تفكَّر الإنسان في اللقمة التي توضع بين يديه، ماذا عمل فيها من العوالم العلوية والسفلية لتحقق بغاية عجزه، وتيقن بوجود لطفه، وكذا ما يحتاج إليه من مشروب، وملبوس، ومطعوم.

ومن لطفه سبحانه: توفيق الطاعات، وتسهيل العبادات، وتيسير الموافقات.

---

(١) «تفسير البغوي» - طيبة (٧/ ١٨٩).

ومن لطفه سبحانه: حفظ التوحيد في القلوب، وصيانة العقائد عن الارتياب، وسلامة القلوب عن الاضطراب.

ومن لطفه سبحانه: إبهام العاقبة لئلا يتكلوا أو ييأسوا.

ومن لطفه سبحانه بالعبد: إخفاء أجله عليه لئلا يستوحش إن كان قد دنا أجله. ومن لطفه سبحانه بخواصه: ستر عيوبهم، ومحو ذنوبهم، حتىٰ وصلهم بما منه إليهم، لا بما منهم إليه.

ومن لطفه: خلقه الجنين في بطن أمه في ظلمات ثلاث، وحفظه فيها وتغذيته بواسطة السُّرة إلىٰ أن ينفصل فيستقل بالتناول للغذاء بالفم، ثم إلهامه إياه عند الانفصال التقام الثدي وامتصاصه ولو في ظلمات الليل من غير تعليم ومشاهدة، بل تتفتق البيضة عن الفرخ، وقد ألهمه التقاط الحَبِّ في الحال، ثم تأخير خلق السِّنِّ من أول الخِلقة إلىٰ وقت إنباته للاستغناء باللبن عن السن، ثم إنباته السن بعد ذلك عند الحاجة إلىٰ طحن الطعام، ثم تقسيم الأسنان إلىٰ عريضة للطحن، وإلىٰ أنياب للكسر، وإلىٰ ثنايا حادة الأطراف للقطع، ثم استعمال اللسان الذي الغرض الأظهر منه النطق ورد الطعام إلىٰ المطحن كالمجرفة.

ومن لطفه: إخراج اللبن الصافي من بين فرث ودم، وإخراج الجواهر النفيسة من الأحجار الصلبة، وإخراج العسل من النحل والإبريسم من الدود والدر من الصدف إلىٰ غير ذلك، وحظ العبد من هذا الوصف الرفق بعباد الله والتلطف بهم في الدعوة إلىٰ الله والهداية إلىٰ سعادة الآخرة من غير إزراء، ولا تثريب.

«وجماع هذا أَنك إِذا كنت غير عالم بمصلحتك، ولا قادر عليها، ولا مريد لها، كما ينبغي فغيرك أَولىٰ أَن لا يكون عالمًا بمصلحتك، ولا قادرًا عليها، ولا مريدًا لها، والله سبحانه هو يعلم ولا تعلم، ويقدر ولا تقدر، ويعطيك من فضله لا لمعوضة، ولا لمنفعة يرجوها منك، ولا لتكثُّر بك، ولا لتعزُّز بك، ولا يخاف الفقر، ولا تنقص خزائنه علىٰ سعة الإِنفاق، ولا يحبس فضله عنك لحاجة منه إِليك واستغناه بحيث إِذا أَخرجه أَثَّر ذلك في غناه، وهو يحب الجود والبذل والعطاءَ والإِحسان أَعظم مما تحب أَنت الأَخذ والانتفاع بما سأَلته، فإِذا حبسه عنك فاعلم أَن هناك أمرين لا ثالث لهما:

أَحدهما: أن تكون أنت الواقف في طريق مصالحك وأنت المعوِّق لوصول فضله إِليك وأَنت حجر في طريق نفسك، وهذا هو الأَغلب علىٰ الخليقة، فإِن الله سبحانه فيما قضىٰ به أَن ما عنده لا يُنال إِلا بطاعته، وأَنه ما استجلبت نعم الله بغير طاعته، ولا استديمت بغير شكره، ولا عوقت وامتنعت بغير معصيته، وكذلك إِذا أَنعم عليك، ثم سلبك النعمة فإِنه لم يسلبها لبخل منه، ولا استئثار بها عليك وإِنما أَنت المسبب في سلبها عنك، فإِن الله لا يغير ما بقوم حتىٰ يغيروا ما بأَنفسهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝٥٣﴾ [الأنفال:٥٣]، فما أُزيلت نِعم الله بغير معصيته:

إِذا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا ... فَإِنَّ المعاصِي تُزِيلُ النِّعَم

فآفتك من نفسك، وبلاؤك من نفسك، وأَنت في الحقيقة الذي بالغت في عداوتك، وبلغت من معاداة نفسك ما لا يبلغ العدو منك، كما قيل:

مَـا يَبْلُـغُ الأَعْـدَاءُ مِـنْ جَاهِـلٍ مَـا يَبْلُـغُ الجَاهِـلُ مِـنْ نَفْسِـهِ»(١)

❁ ❁ ❁

الحليم الغفور

الحَلِيمُ، وَهُوَ الَّذِي لَا يُعَاجِلُ بِالعُقُوبَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يَمْتَنِعُ مِنْ إِيصَالِ الرَّحْمَةِ.

قال تعالىٰ: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ [البقرة:٢٢٥].

وقال تعالىٰ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء:٤٤].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر:٤١].

«فأخبر سبحانه أن حلمه ومغفرته يمنعان زوال السموات والأرض، فالحلم وإمساكهما أن تزولا هو الصبر، فبحلمه صبر عن معالجة أعدائه، وفي الآية إشعار بأن السموات والأرض تَهِمُّ وتستأذن بالزوال لعِظم ما يأتي به العباد فيمسكها بحلمه ومغفرته، وذلك حبس عقوبته عنهم، وهو حقيقة صبره تعالىٰ، فالذي عنه الإمساك هو صفة الحلم والإمساك هو الصبر، وهو حبس العقوبة ففرق بين حبس العقوبة وبين ما صدر عنه حبسها، فتأمله.

---

(١) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ٦٤).

وفي «مسند الإمام أحمد» مرفوعًا: «ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم»(١)، وهذا مقتضىٰ الطبيعة؛ لأن كرة الماء تعلو كرة التراب بالطبع، ولكن الله يمسكه بقدرته وحلمه وصبره، وكذلك خرور الجبال وتفطير السموات الربُّ تعالىٰ يحبسها عن ذلك بصبره وحلمه، فإن ما يأتي به الكفار والمشركون والفجار في مقابلة العظمة والجلال والإكرام يقتضي ذلك، فجعل سبحانه في مقابلة هذه الأسباب أسبابًا يحبها ويرضاها ويفرح بها أكمل فرح وأتمه تقابل تلك الأسباب التي هي سبب زوال العالم وخرابه، فدفعت تلك الأسباب وقاومتها، وكان هذا من آثار مدافعة رحمته لغضبه وغلبتها له وسبقها إياه، فغلب أثر الرحمة أثر الغضب، كما غلبت الرحمة الغضب»(٢).

«فتأمل ختم هذه الآية باسمين من أسمائه، وهما الحليم والغفور، كيف تجد تحت ذلك أنه لولا حلمه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرت السموات والأرض»(٣).

قلت: وقد يكون المراد مغفرته للموحدين وحلمه عن الكفرة والفجرة.

كما ختم الله آية الإسراء بذلك، قال تعالىٰ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا

---

(١) هذا اللفظ مذكور بالمعنىٰ، ولفظ الحديث عند أحمد (٣٠٣): «ليس مِن ليلة إلا والبحر يُشرِف فيها ثلاث مرات علىٰ الأرض يستأذن الله في أنَ ينفَضِخ عليهم، فيكفه الله عَزَّوَجَلَّ» من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) «عدة الصابرين» - العلمية (ص: ٢٣٧).

(٣) «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» - العلمية (ص: ٥٩).

غَفُورًا ﴿٤٤﴾ [الإسراء:٤٤]، أي: فمن حلمه أن أمهلكم، ولم يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وسوء جهلكم بهذا التسبيح بإشراككم به سواه، وعبادتكم معه غيره، ومن مغفرته لكم أنه لا يؤاخذ من تاب منكم.

وفي «شرح الأسماء للإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ»: «الحليم هو الذي يشاهد معصية العصاة ويرى مخالفة الأمر، ثم لا يستفزه غضب، ولا يعتريه غيظ، ولا يحمله على المسارعة إلى الانتقام مع غاية الاقتدار عجلة وطيش» انتهى[(١)].

«ولما كان اسم الحليم أدخل في الأوصاف واسم الصبور في الأفعال كان الحلم أصل الصبر، فوقع الاستغناء بذكره في القرآن عن اسم الصبور، والله أعلم»[(٢)].

قلت: ولهذا كانت دعوات المكروب «**لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله الله رب السماوات ورب الأرض رب العرش الكريم**»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ [الحج:٤٧].

«وأما صبره سبحانه فمتعلق بكفر العباد وشركهم، ومسبتهم له سبحانه، وأنواع معاصيهم وفجورهم، فلا يزعجه ذلك كله إلى تعجيل العقوبة، بل يصبر على عبده ويمهله، ويستصلحه ويرفق به، ويحلم عنه حتى إذا لم يبق فيه موضع

(١) «المقصد الأسنى» (١/ ١٠٣).

(٢) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» (ص: ٢٨٠).

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٤٦)، ومسلم (٢٧٣٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

للصنيعة، ولا يصلح علىٰ الإمهال والرفق والحلم، ولا ينيب إلىٰ ربه ويدخل عليه لا من باب الإحسان والنعم، ولا من باب البلاء والنقم - أخذه أخذ عزيز مقتدر بعد غاية الأعذار إليه وبذل النصيحة له ودعائه إليه من كل باب، وهذا كله من موجبات صفة حلمه، وهي صفة ذاتية له لا تزول، وأما الصبر، فإذا زال متعلقه كان كسائر الأفعال التي توجد لوجود الحكمة وتزول بزوالها، فتأمله، فإنه فرق لطيف ما عثرت الحذاق بعُشره، وقلَّ مَن تنبَّه له ونبَّه عليه، وأشكل علىٰ كثير منهم هذا الاسم، وقالوا: لم يأت في القرآن فأعرضوا عن الاشتغال به صفحًا، ثم اشتغلوا بالكلام في صبر العبد وأقسامه، ولو أنهم أعطوا هذا الاسم حقه لعلموا أن الرب تعالىٰ أحق به من جميع الخلق، كما هو أحق باسم العليم والرحيم والقدير والسميع والبصير والحي وسائر أسمائه الحسنىٰ من المخلوقين، وأن التفاوت الذي بين صبره سبحانه وصبرهم كالتفاوت الذي بين حياته وحياتهم، وعلمه وعلمهم، وسمعه وأسماعهم، وكذا سائر صفاته.

وإذا أردت معرفةَ صبر الرب تعالىٰ وحلمه والفرق بينهما فتأمل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر:٤١]، وقوله: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾﴾ [مريم:٨٨-٩١]، وقوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ [إبراهيم:٤٦]، علىٰ قراءة مَن فتح اللامَ(١)،

---

(١) يعني: (لَتَزُولُ) بفتح اللام الأولىٰ ورفع الثانية، وهي قراءة الكسائي، انظر: «إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر» (ص٣٤٤).

فأخبر سبحانه أن حلمه ومغفرته يمنعان زوال السموات والأرض، فالحلم وإمساكهما أن تزولا هو الصبر، فبحلمه صبر عن معالجة أعدائه»(١).

ومن حلمه استقصاره المُدد الطوال، وأنَّ يومًا واحدًا عنده كألف سنة مما تعدُّون.

وورد في السنة اقتران الحليم بالعظيم، فقد روىٰ الشيخان عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الكَرْبِ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ وَرَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ**»(٢).

«فَإِنَّ هَذِهِ الكَلِمَاتِ فِيهَا تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ وَتَأَلُّهُ العَبْدِ رَبَّهُ وَتَعَلُّقُ رَجَائِهِ بِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَهِيَ لَفْظُ خَبَرٍ يَتَضَمَّنُ الطَّلَبَ، والنَّاسُ وَإِنْ كَانُوا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَوْلُ العَبْدِ لَهَا مُخْلِصًا مِنْ قَلْبِهِ لَهُ حَقِيقَةٌ أُخْرَىٰ وَبِحَسَبِ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ تَكْمُلُ طَاعَةُ اللهِ»(٣).

«قَالَ الطَّبَرِيُّ: كَانَ السَّلَفُ يَدْعُونَ بِهَذَا الدُّعَاءِ وَيُسَمُّونَهُ دُعَاءَ الكَرْبِ. وَقَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ -وَقَدْ سُئِلَ عَنْ هَذَا فَقَالَ-: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: (إِذَا شَغَلَ عَبْدِي ثَنَاؤُهُ عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ)»(٤).

---

(١) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» (ص: ٢٧٦) باختصار.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٤٦)، ومسلم (٢٧٣٠).

(٣) «مجموع الفتاوىٰ» ت: الباز والجزار (١٠/ ٢٦٠).

(٤) «تفسير القرطبي» (٨/ ٣١٤).

شكور حليم

قال تعالىٰ: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [التغابن:١٧].

وأما تسميته سبحانه بالشكور، فهو في حديث أبي هريرة، وفي القرآن تسميته شاكرًا، قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء:١٤٧]، وتسميته -أيضًا- شكور، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [التغابن:١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان:٢٢]، فجمع لهم سبحانه بين الأمرين أن شكر سعيهم وأثابهم عليه، والله تعالىٰ يشكر عبده إذا أحسن طاعته ويغفر له إذا تاب إليه، فيجمع للعبد بين شكره لإحسانه ومغفرته لإساءته إنه غفور شكور.

«وأما شكر الرب تعالىٰ فله شأن آخر كشأن صبره، فهو أولىٰ بصفة الشكر من كل شكور، بل هو الشكور علىٰ الحقيقة، فإنه يعطي العبد ويوفقه لما يشكره عليه ويشكر القليل من العمل والعطاء، فلا يستقله أن يشكره ويشكر الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ أضعاف مضاعفة، ويشكر عبده بقوله بأن يثني عليه بين ملائكته وفي ملئه الأعلىٰ ويلقي له الشكر بين عباده ويشكره بفعله، فإذا ترك له شيئًا أعطاه أفضل منه، وإذا بذل له شيئًا رده عليه أضعافًا مضاعفة، وهو الذي وفقه للترك والبذل وشكره علىٰ هذا وذاك، ولما عقر نبيه سليمان الخيل غضبًا له إذ شغلته عن ذكره، فأراد ألا تشغله مرة أخرىٰ أعاضه عنها متن الريح. ولما ترك الصحابة ديارهم وخرجوا منها في مرضاته أعاضهم عنها أن ملكهم الدنيا

وفتحها عليهم. ولما احتمل يوسف الصديق ضيق السجن شكر له ذلك بأن مكَّن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء. ولما بذل الشهداء أبدانهم له حتىٰ مزقها أعداؤه شكر لهم ذلك بأن أعاضهم منها طيرًا خضرًا أقر أرواحهم فيها ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها إلىٰ يوم البعث، فيردها عليهم أكمل ما تكون وأجمله وأبهاه. ولما بذل رسله أعراضهم فيه لأعدائهم فنالوا منهم وسبوهم أعاضهم من ذلك بأن صلَّىٰ عليهم هو وملائكته وجعل لهم أطيب الثناء في سمواته وبين خلقه فأخلصهم بخالصة ذكرىٰ الدار.

ومن شكره سبحانه: أنه يجازي عدوه بما يفعله من الخير والمعروف في الدنيا ويخفف به عنه يوم القيامة، فلا يضيع عليه ما يعمله من الإحسان، وهو من أبغض خلقه إليه، ومن شكره أنه غفر للمرأة البغي بسقيها كلبًا كان قد جهده العطش حتىٰ أكل الثرىٰ، وغفر لآخر بتنحيته غصن شوك عن طريق المسلمين، فهو سبحانه يشكر العبد علىٰ إحسانه لنفسه، والمخلوق إنما يشكر من أحسن إليه، وأبلغ من ذلك أنه سبحانه هو الذي أعطىٰ العبد ما يحسن به إلىٰ نفسه، وشكَره علىٰ قليله بالأضعاف المضاعفة التي لا نسبة لإحسان العبد إليها، فهو المحسن بإعطاء الإحسان وإعطاء الشكر، فمَن أحق باسم الشكور منه سبحانه؟!

وتأمل قوله سبحانه: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء:١٤٧]، كيف تجد في ضمن هذا الخطاب أن شكره تعالىٰ يأبىٰ تعذيب عباده سُدىٰ بغير جرم، كما يأبىٰ إضاعة سعيهم باطلًا، فالشكور لا يضيع أجر محسن، ولا يعذب غير مسيء، وفي هذا رد لقول

من زعم أنه سبحانه يكلفه ما لا يطيقه، ثم يعذبه علىٰ ما لا يدخل تحت قدرته، تعالىٰ الله عن هذا الظن الكاذب والحسبان الباطل علوًّا كبيرًا. فشكره سبحانه اقتضىٰ أن لا يعذب المؤمن الشكور، ولا يضيع عمله، وذلك من لوازم هذه الصفة، فهو منزه عن خلاف ذلك، كما ينزه عن سائر العيوب والنقائص التي تنافي كماله وغناه وحمده.

ومن شكره سبحانه: أنه يخرج العبد من النار بأدنىٰ مثقال ذرة من خير، ولا يضيع عليه هذا القدر، ومن شكره سبحانه أن العبد من عباده يقوم له مقامًا يرضيه بين الناس فيشكره له وينوه بذكره ويخبر به ملائكته وعباده المؤمنين، كما شكر لمؤمن آل فرعون ذلك المقام وأثنىٰ به عليه ونوَّه بذكره بين عباده، وكذلك شكره لصاحب يس مقامه ودعوته إليه، فلا يهلك عليه بين شكره ومغفرته إلا هالك، فإنه سبحانه غفور شكور يغفر الكثير من الزلل ويشكر القليل من العمل.

ولما كان سبحانه هو الشكور علىٰ الحقيقة كان أحب خلقه إليه من اتصف بصفة الشكر، كما أن أبغض خلقه إليه من عطلها واتصف بضدها، وهذا شأن أسمائه الحسنىٰ، أحب خلقه إليه من اتصف بموجبها، وأبغضهم إليه من اتصف بأضدادها، ولهذا يبغض الكفور الظالم والجاهل والقاسي القلب والبخيل والجبان والمهين واللئيم، وهو سبحانه جميل يحب الجمال، عليم يحب العلماء، رحيم يحب الراحمين، محسن يحب المحسنين، شكور يحب الشاكرين، صبور يحب الصابرين، جواد يحب أهل الجود، ستَّار يحب أهل الستر، قادر يلوم علىٰ العجز، والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف،

عفوٌّ يحب العفو، وِتر يحب الوتر، وكل ما يحبه فهو من آثار أسمائه وصفاته وموجبها، وكل ما يبغضه فهو مما يضادها وينافيها»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة:١٧٢].

الحَمْدُ يُفَارِقُ الشُّكْرَ فِي مَعْنًىٰ، وَهُوَ أَنَّ الحَمْدَ أَعَمُّ فَيُحْمَدُ مَنْ فِيهِ صِفَاتٌ حَمِيدَةٌ، وَإِنْ لَمْ يُنْعِمْ عَلَىٰ الحَامِدِ أَصْلًا، فَإِنَّ الإِنْسَانَ يَحْسُنُ مِنْهُ أَنْ يَقُولَ فِي حَقِّ عَالِمٍ لَمْ يَجْتَمِعْ بِهِ أَصْلًا: إِنَّهُ عَالِمٌ عَامِلٌ بَارِعٌ كَامِلٌ، فَيُقَالُ لَهُ: إِنَّهُ يَحْمَدُ فُلَانًا، وَلَا يُقَالُ: إِنَّهُ يَشْكُرُهُ إِلَّا إِذَا ذَكَرَ نِعَمَهُ أَوْ ذَكَرَهُ عَلَىٰ نِعَمِهِ، فالله تعالىٰ محمود في الأزل لِاتِّصافه بِأَوْصَافِ الكَمَالِ وَنُعُوتِ الجَلَالِ، وَمَشْكُورٌ، وَلَا يَزَالُ عَلَىٰ مَا أَبْدَىٰ مِنَ الكَرَمِ وَأَسْدَىٰ مِنَ النِّعَمِ، فَلَا يَلْزَمُ ذِكْرُ النِّعْمَةِ لِلْحَمْدِ، بَلْ يَكْفِي ذِكْرُ العَظَمَةِ وَفِي كَوْنِهِ مَالِكَ مَا في السموات وَمَا فِي الأَرْضِ عَظَمَةٌ كَامِلَةٌ فَلَهُ الحَمْدُ.

❁ ❁ ❁

الغني الحميد

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر:١٥].

«الغني»: وقع مفردًا في قوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ﴾ [محمد:٣٨]، وهو هنا يجمع معنيي الغِنىٰ، وفي قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

(١) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» ت: زكريا علي يوسف (ص: ٢٣٩).

[آل عمران:٩٧]، ﴿غَنِيٌّ عَنكُمۡ﴾ [الزمر:٧]، ومقرونًا في قوله: ﴿ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤﴾ [الحج:٦٤]، و: ﴿غَنِيٌّ حَمِيدٌ ٢٦٧﴾ [البقرة:٢٦٧]، في نحو تسعة مواضع، ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ [الأنعام:١٣٣]، في موضع.

«بيَّن سبحانه في هذه الآية أَن فقر العباد إِليه أَمر ذاتي لهم لا ينفك عنهم، كما أَن كونه غنيًّا حميدًا أمر ذاتي له، فغناه وحمده ثابت له لذاته لا لأمر أَوجبه، وفقر مَن سواه إِليه ثابت لذاته لا لأَمر أَوجبه، فلا يعلل هذا الفقر بحدوث، ولا إِمكان، بل هو ذاتي للفقير: فحاجة العبد إِلىٰ ربه لذاته لا لعلة أَوجبت تلك الحاجة، كما أَن غنىٰ الرب سبحانه لذاته لا لأَمر أَوجب غناه، كما قال شيخ الإِسلام ابن تيمية:

والفقرُ لي وصفُ ذاتٍ لازم أبدًا كما الغنىٰ أبدًا وصفٌ له ذاتي

فالخلق فقير محتاج إِلىٰ ربه بالذات لا بعلة، وكل ما يذكر ويقرر من أَسباب الفقر والحاجة فهي أدلة علىٰ الفقر والحاجة لا علل لذلك، إِذ ما بالذات لا يعلل، فالفقير بذاته محتاج إِلىٰ الغني بذاته، فأخبر سبحانه عن حقيقة العباد وذواتهم بأَنها فقيرة إِليه عَزَّوَجَلَّ، كما أَخبر عن ذاته المقدسة، وحقيقته أَنه غني حميد، فالفقر المطلق من كل وجه ثابت لذواتهم وحقائقهم من حيث هي، والغِنىٰ المطلق من كل وجه ثابت لذاته تعالىٰ وحقيقته من حيث هي، فيستحيل أن يكون العبد إِلا فقيرًا، ويستحيل أَن يكون الرب سبحانه إِلا غنيًّا، كما أَنه يستحيل أَن يكون العبد إلا عبدًا والرب إِلا ربًّا.

إذا عُرف هذا فالفقر فقران:

- **فقر اضطراري**، وهو فقر عام لا خروج لبَرٍّ، ولا فاجر عنه، وهذا لا يقتضي مدحًا، ولا ذمًّا، ولا ثوابًا، ولا عقابًا، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقًا ومصنوعًا.

- **والفقر الثاني**: فقر اختياري، هو نتيجة عِلمين شريفين:

أَحدهما: معرفة العبد بربه.

والثاني: معرفته بنفسه.

فمتىٰ حصلت له هاتان المعرفتان أَنتجتا له فقرًا هو عين غناه وعنوان فلاحه وسعادته، وتفاوت الناس في هذا الفقر بحسب تفاوتهم في هاتين المعرفتين، فمن عرف ربه بالغنىٰ المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق، ومن عرف ربه بالقدرة التامة عرف نفسه بالعجز التام، ومن عرف ربه بالعز التام عرف نفسه بالمسكنة التامة، ومن عرف ربه بالعلم التامِّ والحكمة عرف نفسه بالجهل، فالله سبحانه أَخرج العبد من بطن أمه لا يعلم شيئًا، ولا يقدر علىٰ شيء، ولا يملك شيئًا، ولا يقدر علىٰ عطاءٍ، ولا منع، ولا ضر، ولا نفع، ولا شيء البتة، فكان فقره في تلك الحال إلىٰ ما به كماله أَمرًا مشهودًا محسوسًا لكل أَحد، ومعلوم أَن هذا له من لوازم ذاته، وما بالذات دائم بدوامها. وهو لم ينتقل من هذه الرتبة إِلىٰ رتبة الربوبية والغنىٰ، بل لم يزل عبدًا فقيرًا بذاته إِلىٰ بارئه وفاطره.

فلما أَسبغ عليه نعمته، وأَفاض عليه رحمته وساق إِليه أَسباب كمالِ وُجُودِهِ ظاهرًا وباطنًا، وخلع عليه ملابس إِنعامه، وجعل له السمع والبصر والفؤاد،

وعلمه وأَقدره وصرفه وحركه، ومكَّنه من استخدام بني جنسه، وسخَّر له الخيل والإِبل، وسلَّطه علىٰ دواب الماءِ، واستنزال الطير من الهواء وقهر الوحش العادية، وحفر الأَنهار، وغرس الأَشجار، وشق الأَرض، وتعلية البناءِ، والتحيل علىٰ مصالحه، والتحرز والتحفظ لما يؤذيه، ظن المسكين أَن له نصيبًا من الملك، وادعىٰ لنفسه ملكًا مع الله سبحانه، ورأىٰ نفسه بغير تلك العين الأُولىٰ، ونسي ما كان فيه من حالة الإِعدام والفقر والحاجة، حتىٰ كأَنه لم يكن هو ذلك الفقير المحتاج، بل كأَن ذلك شخصًا آخر غيره، كما روىٰ الإِمام أَحمد في «مسنده» من حديث بسر بن جحاش القرشي، أَن رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصق يومًا في كفه فوضع عليها إِصبعه، ثم قال: «**قال اللهُ تعالىٰ: يَا ابن آدمَ، أَنَّىٰ تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مثْلِ هَذِهِ، حتىٰ إذا سويتك وعدلتك مشيتَ بين بردين وللأَرض منك وَئيد، فجمعتَ ومنعتَ، حتىٰ إذا بلغت التراقي قلتَ: أتصدق، وأَنَّىٰ أوان الصدقة**»(١).

ومن ههنا خُذل مَن خُذل، ووُفِّق مَن وُفِّق، فحُجب المخذول عن حقيقته ونسي نفسه فنسي فقره وحاجته وضرورته إلىٰ ربه، فطغىٰ وعتا فحقت عليه الشقوة، قال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق:٦-٧]، وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل:٥-١٠]، فأكمل الخلق أكملهم عبودية وأعظمهم شهودًا لفقره وضرورته وحاجته إلىٰ ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين، ولهذا كان من دعائه: «**أصلح لي شأني كله، ولا تكلني**

(١) أخرجه أحمد (١٧٨٧٦)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٠٩٩).

إلىٰ نفسي طرفة عين، ولا إلىٰ أحد من خلقك»(١)، وكان يدعو: «**يا مقلبَ القلوب ثبِّت قلبي علىٰ دينك**»(٢). يعلم أن قلبه بيد الرحمن عَزَّوَجَلَّ، لا يملك منه شيئًا، وأن الله سبحانه يصرفه، كما يشاء كيف، وهو يتلو قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء:٧٤]، فضرورته إلىٰ ربه وفاقته إليه بحسب معرفته به، وحسب قربه منه ومنزلته عنده، وهذا أمر إنما بدا منه لمن بعده ما يرشح من ظاهر الوعاء، ولهذا كان أقرب الخلق إلىٰ الله وسيلة وأعظمهم عنده جاهًا وأرفعهم عنده منزلة لتكميله مقام العبودية والفقر إلىٰ ربه، وكان يقول لهم: «**أيها الناس، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي، إنما أنا عبد**»(٣)، وكان يقول: «**لا تطروني كما أطرت النصارىٰ المسيح بن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**»(٤)»(٥).

«ولما كان الفقر إِلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ هو عين الغنىٰ به -فأَفقر الناس إِلىٰ الله أَغناهم به، وأَذلهم له أَعزهم، وأَضعفهم بين يديه أَقواهم، وأَجهلهم عند نفسه أَعلمهم بالله، وأَمقتهم لنفسه أَقربهم إِلىٰ مرضاة الله- كأن ذكر الغِنىٰ بالله مع الفقر إِليه متلازمين متناسبين، فنذكر فصلًا نافعًا في الغنىٰ العالي.

(١) أخرجه النسائي في «الكبرىٰ» (١٠٣٣٠)، والطبراني في «الصغير» (٤٤٤) من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وحسنه الألباني، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٦٦١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٤٠) من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أحمد (١٢٥٧٣)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١٠٠٠٦) من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٠٩٧).

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٤٥) من حديث عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٥) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ٨).

واعلم أَن الغنىٰ علىٰ الحقيقة لا يكون إِلا لله الغني بذاته عن كل ما سواه، وكل ما سواه فموسوم بسمة الفقر، كما هو موسوم بسمة الخلق والصُّنع، وكما أَن كونه مخلوقًا أَمر ذاتي له، فكونه فقيرًا أَمر ذاتي له، كما تقدم بيانه، وغناه أَمر نسبي إِضافي عارض له، فإِنه إِنما استغنىٰ بأَمر خارج عن ذاته، فهو غني به فقير إِليه، ولا يوصف بالغنىٰ علىٰ الإِطلاق إِلا مَن غِناه مِن لوازم ذاته، فهو الغني بذاته عما سواه، وهو الأَحد الصمد الغني الحميد.

والغنىٰ قسمان: غنىٰ سافل، وغنىٰ عالٍ.

فالغنىٰ السافل: الغنىٰ بالعَواري المستردة من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأَنعام والحرث، وهذا أَضعف الغنىٰ، فإِنه غنىٰ بظل زائل، وعارية ترجع عن قريب إِلىٰ أَربابها، فإِذا الفقر بأَجمعه بعد ذهابها، وكَأَن الغِنىٰ بها كان حلمًا فانقضىٰ، ولا همة أَضعف من همة من رضىٰ بهذا الغنىٰ الذي هو ظل زائل. وهذا غنىٰ أَرباب الدنيا الذي فيه يتنافسون، وإِياه يطلبون، وحوله يحومون، ولا أَحب إِلىٰ الشيطان وأَبعد عن الرحمن من قلب ملآن بحب هذا الغنىٰ والخوف من فقده.

قال بعض السَلَف: إِذا اجتمع إِبليس وجنوده لم يفرحوا بشيء كفرحهم بثلاثة أَشياءَ: مؤمن قتل مؤمنًا، ورجل يموت علىٰ الكفر، وقلب فيه خوف الفقر.

وهذا الغنىٰ محفوف بفقرين: فقر قبله، وفقر بعده، وهو كالغفوة بينهما. فحقيق بمن نصح نفسه أن لا يغتر به، ولا يجعله نهاية مطلبه، بل إذا حصل له

جعله سببًا لغناه الأَكبر ووسيلة إِليه، ويجعله خادمًا من خدمه لا مخدومًا له، وتكون نفسه أَعز عليه من أَن يعبِّدها لغير مولاه الحق، أَو يجعلها خادمة لغيره»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣﴾ [الأنعام:١٣٣].

وَرَبُّكَ الغَنِيُّ عن العباد والعبادة، والغني هو الذي لا يحتاج إلىٰ شيء فيكون وجود كل شيء عنده وعدمه سواء، وَاعْلَمْ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ﴾ يُفِيدُ الحَصْرَ، مَعْنَاهُ: أَنَّهُ لَا غَنِيَّ إِلَّا هُوَ، والأَمْرُ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّ وَاجِبَ الوُجُودِ لِذَاتِهِ وَاحِدٌ وَمَا سِوَاهُ مُمْكِنٌ لِذَاتِهِ، والمُمْكِنُ لِذَاتِهِ مُحْتَاجٌ، بِمَعْنَىٰ أَنَّهُ لَا غَنِيَّ، وَلَا رَحِيمَ إِلَّا هُوَ، فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّهُ غَنِيٌّ عَنِ الكُلِّ ثَبَتَ أَنَّهُ لَا يَسْتَكْمِلُ بِطَاعَاتِ المُطِيعِينَ، وَلَا يَنْتَقِصُ بِمَعَاصِي المُذْنِبِينَ، وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّهُ ذُو الرَّحْمَةِ ثَبَتَ أَنَّهُ مَا رَتَّبَ العَذَابَ عَلَىٰ الذُّنُوبِ، وَلَا الثَّوَابَ عَلَىٰ الطَّاعَاتِ إِلَّا لِأَجْلِ الرَّحْمَةِ والفَضْلِ والكَرَمِ والجُودِ والإِحْسَانِ كَمَا ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ﴾ [الإسراء:٧].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ [الأنعام:١٣٣]، والمَعْنَىٰ أَنَّهُ تعالَىٰ لَمَّا وَصفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ ذُو الرَّحْمَةِ، فَقَدْ كَانَ يَجُوزُ أَنْ يَظُنَّ ظَانٌّ أَنَّهُ وَإِنْ كَانَ ذَا الرَّحْمَةِ إِلَّا أَنَّ لِرَحْمَتِهِ مَعْدِنًا مَخْصُوصًا وَمَوْضِعًا

(١) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ٣٣).

مُعَيَّنًا، فَبَيَّنَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ وَضْعِ الرَّحْمَةِ فِي هَذَا الخَلْقِ وَقَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ قَوْمًا آخَرِينَ وَيَضَعَ رَحْمَتَهُ فِيهِمْ، وَعَلَىٰ هَذَا الوَجْهِ يَكُونُ الِاسْتِغْنَاءُ عَنِ العَالَمِينَ أَكْمَلَ وَأَتَمَّ، والمَقْصُودُ التَّنْبِيهُ عَلَىٰ أَنَّ تَخْصِيصَ الرَّحْمَةِ بِهَؤُلَاءِ لَيْسَ لِأَجْلِ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُهُ إِظْهَارُ رَحْمَتِهِ إِلَّا بِخَلْقِ هَؤُلَاءِ.

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾ [لقمان:٢٦]، فِيهِ مَعَانٍ لَطِيفَةٌ:

أَحَدُهَا: أَنَّ الكُلَّ لِلَّهِ، وَهُوَ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَيْهِ غَيْرُ مُنْتَفِعٍ بِهِ، وَفِيهَا مَنَافِعُ فَهِيَ لَكُمْ خَلَقَهَا، فَهُوَ غَنِيٌّ لِعَدَمِ حَاجَتِهِ، حُمَيْدٌ مَشْكُورٌ لِدَفْعِهِ حَوَائِجَكُمْ بِهَا.

وَثَانِيهَا: أَنَّ بَعْدَ ذِكْرِ الدَّلَائِلِ عَلَىٰ أَنَّ الحَمْدَ كُلَّهُ لِلَّهِ، وَلَا تَصْلُحُ العِبَادَةُ إِلَّا لِلَّهِ افْتَرَقَ المُكَلَّفُونَ فَرِيقَيْنِ مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ، والكَافِرُ لَمْ يَحْمَدِ اللهَ، والمُؤْمِنُ حَمِدَهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ غَنِيٌّ عَنْ حَمْدِ الحَامِدِينَ، فَلَا يَلْحَقُهُ نَقْصٌ بِسَبَبِ كُفْرِ الكَافِرِينَ، وَحَمِيدٌ فِي نَفْسِهِ، فَيَتَبَيَّنُ بِهِ إِصَابَةُ المُؤْمِنِينَ وتكمل بحمده الحامدون.

وثالثها: هو أن السموات وَمَا فِيهَا والأَرْضَ وَمَا فِيهَا إِذَا كَانَتْ لِلَّهِ وَمَخْلُوقَةً لَهُ فَالكُلُّ مُحْتَاجُونَ، فَلَا غَنِيَّ إِلَّا اللهُ، فَهُوَ الغَنِيُّ المُطْلَقُ وَكُلٌّ مُحْتَاجٌ، فَهُوَ حَامِدٌ، لِاحْتِيَاجِهِ إِلَىٰ مَنْ يَدْفَعُ حَاجَتَهُ، فَلَا يَكُونُ الحَمِيدُ المُطْلَقُ إِلَّا الغَنِيَّ المُطْلَقَ، فَهُوَ الحَمِيدُ، وَعَلَىٰ هَذَا يَكُونُ الحَمِيدُ بِمَعْنَىٰ المَحْمُودِ، واللهُ إِذَا قِيلَ لَهُ: الحَمِيدُ لَا يَكُونُ مَعْنَاهُ إِلَّا الوَاصِفَ، أَيْ: وَصَفَ نَفْسَهُ أَوْ عِبَادَهُ بِأَوْصَافٍ حَمِيدَةٍ، والعَبْدُ إِذَا قِيلَ لَهُ: حَامِدٌ يَحْتَمِلُ ذَلِكَ المَعْنَىٰ، وَيَحْتَمِلُ كَوْنُهُ عابدًا شاكرًا له.

«فمَن اتسع قلبه لمشهد الإِلهية وقام بحقه من التعبد الذي هو كمال الحب بكمال الذل والتعظيم والقيام بوظائف العبودية، فقد تم له غناه بالإِله الحق، وصار من أَغنىٰ العباد، ولسان حال مثل هذا يقول:

غنيت بلا مال عن الناس كلهم … وإِن الغنىٰ العالي عن الشيء لا به

فيا له من غنىٰ ما أَعظم خطره وأَجل قدره! تضاءَلت دونه الممالك فما دونها، وصارت بالنسبة إِليه كالظل من الحامل له، والطيف الموافي في المنام الذي يأتي به حديث النفس ويطرده الانتباه من النوم»(١).

«ومن وصل إِلىٰ هذا الغنىٰ قرَّت به كل عين؛ لأنه قد قرَّت عينه بالله والفوز بوجوده، ومن لم يصل إِليه تقطعت نفسه علىٰ الدنيا حسرات، وقد قال ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ والدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمِّهِ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَشَتَّتَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلا مَا قُدِّرَ لَهُ، ومَنْ أَصْبَحَ والآخِرَةُ أَكْبَرُ هَمِّهِ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِي رَاغِمَةٌ، وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ خَيْرٍ إِليهِ أَسْرَعُ»(٢)، فهذا هو الفقر الحقيقي والغنىٰ الحقيقي، وإِذا كان هذا غنىٰ من كانت الآخرة أَكبر همه فكيف من كان الله عَزَّوَجَلَّ أكبر همه؟! فهذا من باب التنبيه والأَولىٰ»(٣).

ومن أراد غنىٰ قلبه توسل إِلىٰ الله باسمه الغني الحميد.

---

(١) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ٤٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٦٥) من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، مرفوعًا، بتقديم الشطر الثاني علىٰ الأول، دون: «وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ خَيْرٍ إِليهِ أَسْرَعُ»، وصححه الألباني.

(٣) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ٤٧).

الولي الحميد

قال تعالىٰ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٩﴾ [الشورىٰ:٩].

وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝٢٨﴾ [الشورىٰ:٢٨].

الوَلِيُّ الَّذِي يتولىٰ عباده بإحسانه، والحميد المَحْمُودُ عَلَىٰ مَا يُوَصِّلُ لِلْخَلْقِ مِنْ أَقْسَامِ الرَّحْمَةِ.

وقال تعالىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ۝١١١﴾ [الإسراء:١١١].

«فَلم ينفِ الوَلِيَّ نفيًا عَامًّا مُطلقًا، بل نفىٰ أن يكون لَهُ ولي من الذل، وأثبت فِي مَوضِع آخر أن لَهُ أولياء بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢﴾ [يونس:٦٢]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة:٢٥٧]، فَهَذَا مُوالَاة رَحْمَة وإحسان وجبر، والموالاة المنفية مُوالَاة حَاجَة وذل»(١).

«فهو سبحانه لا يوالي مَن يواليه مِن الذل، كما يوالي المخلوقُ المخلوقَ، وإنما يوالي أولياءه إحسانًا ورحمة ومحبة لهم»(٢).

(١) «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (١/ ١٦٣).

(٢) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ٤١).

«فِي «المسند» و«صحيح أبي حاتم» من حَدِيث عبد الله بن مَسْعُود قَالَ: قَالَ رَسُول الله: «**مَا أَصَاب عبدًا همٌّ، وَلَا حزنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبدك، وَابْن عَبدك، ابْن أمتك، ناصيتي بِيَدِك، مَاضٍ فِيَّ حكمك، عدل فِي قضاؤك، أَسأَلك بِكُل اسْم هُوَ لَك، سميتَ بِهِ نَفسك، أَو أنزلته فِي كتابك، أَو علَّمته أحدًا من خلقك، أَو استأثرت بِهِ فِي علم الغَيْب عنْدك، أَن تجْعَل القُرْآن ربيع قلبِي، وَنور صَدْرِي، وجِلاء حزني وَذَهَاب همِّي وغمِّي، إِلَّا أذهبَ الله همَّه وغمَّه وأبدله مَكَانَهُ فرحًا**»، قَالُوا: يَا رَسُول الله، أَفلا نتعلَّمهن؟ قَالَ: «**بلَىٰ، يَنْبَغِي لمن سمعهن أَن يتعلَّمهن**»(١).

فتضمَّن هَذَا الحَدِيث العَظِيم أمورًا من المعرفَة والتوحيد والعبوديَّة، مِنْهَا أَن الدَّاعِي بِهِ صدَّر سُؤَاله بقوله: «**إِنِّي عَبدك ابْن عَبدك ابْن أمتك**»، وهذا يتَنَاوَل مَن فَوْقه من آبَائِهِ وأمهاته إِلَىٰ أَبَوَيْهِ آدم وحوَّاء، وَفِي ذَلِك تملُّق لَهُ واستخذاء بَين يَدَيْهِ واعتراف بِأَنَّهُ مَمْلُوكه وآباؤه مماليكه، وَأَن العَبْد لَيْسَ لَهُ غير بَاب سيِّده وفضله وإحسانه، وَأَن سيِّده إِن أهمله وتخلَّىٰ عَنهُ هلك وَلم يُؤوه أحد وَلم يعْطف عَلَيْهِ، بل يضيع أعظم ضَيْعَة، فتَحْتَ هَذَا الِاعْتِرَاف أَنِّي لَا غنىٰ بِي عَنْك طرفَة عين، وَلَيْسَ لي مَن أعوذ بِهِ وألوذ بِهِ غير سيِّدي الَّذِي أَنا عَبده.

وَفِي ضمن ذَلِك الِاعْتِرَاف بِأَنَّهُ مربوب مدبَّر مَأْمُور مَنْهِيٌّ، إِنَّمَا يتصرَّف بِحُكم العبوديَّة لَا بِحكم الِاخْتِيَار لنَفسِهِ، فَلَيْسَ هَذَا شَأْن العَبْد، بل شَأْن المُلُوك والأحرار، وَأما العبيد فتعرفهم علىٰ مَحْض العبوديَّة، فَهَؤُلَاءِ عبيد الطَّاعَة

(١) سبق تخريجه.

المضافون إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فِي قَوْله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر:٤٢]، وقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]، وَمن عداهم عبيد القَهْر والربوبية، فأضافتهم إِلَيْهِ كإضافة سَائِر البيُوت إِلَىٰ ملكه، وَإِضَافَة أُولَئِكَ كإضافة البَيْت الحَرَام إِلَيْهِ وإضافة نَاقَته إِلَيْهِ وداره الَّتِي هِيَ الجنَّة إِلَيْهِ وَإِضَافَة عبودية رَسُوله إِلَيْهِ بقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣]: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١]: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن:١٩].

وَفِي التَّحْقِيق بِمَعْنىٰ قَوْله: أَنِّي عَبدك التِزَام عبوديته من الذل والخضوع والإنابة وامتثال أَمر سيِّده وَاجْتنَاب نَهْيه ودوام الافتقار إليه واللجأ إِلَيْهِ والاستعانة بِهِ والتوكُّل عَلَيْهِ، وعياذ العَبْد بِهِ ولياذه بِهِ، وألَّا يتعلَّق قلبه بِغَيْرِهِ محبَّة وخوفًا ورجاء.

وَفِيه -أَيْضًا- أَنِّي عبد من جَمِيع الوُجُوه صَغِيرًا وكبيرًا حيًّا وميِّتًا، ومطيعًا وعاصيًا، معافىٰ ومبتلىٰ، بِالروحِ والقلب واللِّسَان والجوارح. وَفِيه -أَيْضًا- أَن مَالِي وَنَفْسِي مِلك لَك، فَإِن العَبْد وَمَا يملك لسيِّده. وَفِيه -أَيْضًا- أَنَّك أَنْت الَّذِي مننتَ عليَّ بِكُل ما أَنا فِيهِ من نعْمَة، فَذَلِك كلُّه من إنعامك علىٰ عَبدك. وَفِيه -أَيْضًا- أَنِّي لَا أتصرَّف فِيمَا خوَّلتني من مَالِي وَنَفْسِي إِلَّا بِأَمْرك كَمَا لَا يتصرَّف العَبْد إِلَّا بِإِذن سيِّده، وَأَنِّي لَا أملك لنَفْسِي ضرًّا، وَلَا نفعًا، وَلَا موتًا، وَلَا حَيَاة، وَلَا نشورًا، فَإِن صحَّ لَهُ شُهُود ذَلِك فقد قَالَ: إِنِّي عَبدك حَقِيقَة، ثمَّ قَالَ: ناصيتي بِيَدِك، أَي: أَنْت المتصرِّف فِيَّ تُصرِّفني كَيفَ تشَاء، لستُ أَنا المتصرِّف فِي نَفسِي، وَكَيف يكون لَهُ فِي نَفسه تصرُّف مَنْ نَفسُه بِيَدِ ربِّه وسيده،

وناصيته بِيَدِهِ، وَقَلبه بَين أصبعين من أَصَابِعه، وَمَوته وحياته وسعادته وشقاوته وعافيته وبلاؤه كُله إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ لَيْسَ إِلَىٰ العَبْد مِنْهُ شَيْء، بل هُوَ فِي قَبْضَة سَيِّده أَضْعَف من مَمْلُوك ضَعِيف حقير ناصيته بيد سُلْطَان قاهر مَالك لَهُ تَحت تصرُّفه وقهره، بل الأَمر فَوق ذَلِك.

وَمَتىٰ شهد العَبْد أَن ناصيته ونواصي العباد كلهَا بيد الله وَحده يصرفهم كَيفَ يَشَاء لم يَخفهم بعد ذَلِك وَلم يَرجُهم وَلم ينزلهم منزلَة المالكين، بل منزلَة عبيد مقهورين مربوبين المتصرِّف فيهم سواهُم والمدبِّر لَهُم غيرهم، فَمن شهد نَفسه بِهَذَا المشهد صَار فقره وضرورته إِلَىٰ ربه وَصفًا لَازِمًا لَهُ، وَمَتىٰ شهد النَّاس كَذَلِك لم يفْتَقر إِلَيْهِم وَلم يعلِّق أمله ورجاءه بهم، فاستقام توحيده وتوكُّله وعبوديته، وَلذَا قَالَ هود لِقَوْمِهِ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٦﴾ [هود:٥٦].

وقوله: «**مَاضٍ فِيَّ حكمك، عدل فِي قضاؤك**» تضمَّن هَذَا الكَلَام أمريْن:

أَحدهمَا: مضاء حكمه فِي عَبده.

والثَّانِي: يتضمَّن حَمده وعدله.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَهُ الملك وَله الحَمد، وهذا معنىٰ قَول نبيِّه هود: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ [هود:٥٦]، ثمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٦﴾ [هود:٥٦]، أَي: مَعَ كَونه مَالِكًا قاهرًا متصرِّفًا فِي عباده نواصيهم بِيَدِهِ، فَهُوَ علىٰ صِرَاط مُسْتَقِيم، وَهُوَ العدْل الَّذِي يتصرَّف بِهِ فيهم، فَهُوَ علىٰ صِرَاط مُسْتَقِيم فِي قَوْله وَفعله وقضائه وَقدره وَأمره وَنَهْيه وثوابه وعقابه، فخبره كُله صدق،

وقضاؤه كلُّه عدل، وَأمره كُله مصلحَة، والَّذِي نهىٰ عَنهُ كُله مفسدة، وثوابه لمن يسْتَحق الثَّوَاب بفضله وَرَحمته، وعقابه لمن يسْتَحق العقَاب بعدله وحكمته، وَفرق بَين الحكم والقَضَاء، وَجعل المضاء للْحكم والعدْل للقَضَاء، فَإِن حكمه سُبْحَانَهُ يتنَاوَل حكمه الديني الشَّرْعِيَّ وَحكمه الكوني القدري، والنوعان نافذان فِي العَبْد ماضيان فِيهِ، وَهُوَ مقهور تَحت الحُكمَيْنِ قد مَضيا فِيهِ ونفَذَا فِيهِ شَاءَ أم أَبىٰ، لَكِن الحكم الكوني لَا يُمكنهُ مُخَالفَته، وَأما الديني الشَّرْعِيُّ فقد يُخَالِفهُ.

قَوله: (أَسأَلك بِكُل اسْم... إِلَىٰ آخِره) توسل إِلَيْهِ بأسمائه كلهَا مَا علم العَبْد مِنْهَا وَمَا لم يعلم، وَهَذِه أحب الوَسَائِل إِلَيْهِ، فَإِنَّهَا وَسِيلَة بصفاته وأفعاله الَّتِي هِيَ مَدْلُول أَسْمَائِهِ، وقوله: «**أَن تجْعَل القُرْآن ربيع قلبِي وَنور صَدْرِي**» الرَّبيع المَطَر الَّذِي يحيي الأَرْض، شبَّه القُرْآن بِهِ لحياة القُلُوب بِهِ، وَكَذَلِكَ شبهه الله بالمطر، وَجمع بَين المَاء الَّذِي تحصل بِهِ الحَيَاة والنور الَّذِي تحصل بِهِ الإضاءة والإِشْرَاق، كَمَا جمع بَينهمَا سُبْحَانَهُ فِي قَوْله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ [الرعد:١٧]، وفي قَوْله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة:١٧]، ثمَّ قَالَ: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:١٩]، وَفِي قَوْله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ [النور:٣٥]، الآيات، ثمَّ قَالَ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ [النور:٤٣]، الآيَة.

فتضمَّن الدُّعَاء أَن يحيي قلبه بربيع القُرْآن، وَأَن ينوِّر بِهِ صَدره، فتجتمع لَهُ الحَيَاة والنور، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَاۚ﴾ [الأنعام:١٢٢].

وَلمَّا كَانَ الصَّدْر أوسعَ من القلب كَانَ النُّور الحَاصِل لَهُ يسري مِنْهُ إِلَىٰ القلب؛ لِأَنَّهُ قد حصل لما هُوَ أوسع مِنْهُ، وَلمَّا كَانَت حَيَاة البدن والجوارح كلهَا بحياة القلب تسري الحَيَاة مِنْهُ إِلَىٰ الصَّدْر ثمَّ إِلَىٰ الجَوَارِح سَأَلَ الحَيَاة لَهُ بِالربيعِ الَّذِي هُوَ مادَّتها، وَلما كَانَ الحزن والهم والغَم يضاد حَيَاة القلب واستنارته سَأَلَ أَن يكون ذهابها بِالقُرْآنِ، فَإِنَّهَا أَحْرَىٰ أَن لَا تعود، وَأما إِذا ذهبت بِغَيْر القُرْآن من صِحَة أَو دنيا أَو جاه أَو زَوْجَة أَو ولد، فَإِنَّهَا تعود بذهاب ذَلِك، والمَكْرُوه الوَارِد علىٰ القلب إِن كَانَ من أَمر مَاضٍ أحدث الحزن، وإن كَانَ من مُسْتَقْبل أحدث الهَمَّ، وَإِن كَانَ من أَمر حَاضر أحدث الغم، والله أعلم»[(١)].

«وفي «صحيح البخاري» عن أبي هريرة عن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: **«يقول الله تعالىٰ: مَن عَادَىٰ لي وليًّا فقد بارزني بالمُحاربة، وما تقرَّب إليَّ عبدي بمثل أداءِ ما افترضتُ عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتىٰ أحِبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سَمْعَه الذي يَسمع به، وبَصَرَه الذي يُبصِر به، ويَدَه التي يَبطِش بها، ورِجْلَه التي يَمشي بها، فبِي يَسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي. لَئِن سألني لأُعطِينَّه، ولئن استعاذ بي لأُعِيذَنَّه. وما تردَّدتُ عن شيء أنا فاعلُه تردُّدِي عن قبض عبدي المؤمن، يَكرهُ الموتَ وأَكرَهُ مساءتَه، ولابدَّ له منه»**[(٢)].

فبيَّن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما ذكَر أولياءَ الله أنه ما يَقرُب العبادُ إليه بمثلِ أداء الفرائض، ثمَّ ذكر أنه لا يزال العبدُ يتقرب إليه بالنوافل بعد الفرائض، حتىٰ

---

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص: ٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

يحبَّه، فيصير العبد يَسمع بالله، ويبصر بالله، ويبطش بالله، ويمشي بالله، فيصير سمعُه وبصره ومشيُه وبطشُه بيده لرضا الله ومحبته، فإنَّه لِمَا في قلبه من محبة الله وموالاتِه وعبادته وطاعتِه، يصير قلبُه منيبًا إلىٰ الله، ويصيرُ ممن هداه الله واجتباه، فيَجْتبي قلبَه إليه، ويَقذِفُ من نورِه في قلبِه، كما قال تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد:٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ [النور:٣٥]، قال محمد بن كعب: مثل نُوْرِه في قلب المؤمن، وقال تعالىٰ: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورىٰ:٥٢]، فإذا جعل الله في قلبِه من نورِه صار بذلك النور يسمع ويبصر ويبطش ويمشي»[1].

قلت: ويحتمل أن يكون هذا الحديث تفسيرًا لقوله تعالىٰ: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ﴾ [الكهف:٢٦]، أي: بالله تبصر وتسمع.

«وَأَصْلُ التَّوَلِّي الحُبُّ؛ فَكُلُّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا دُونَ اللهِ وَلَّاهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مَا تَوَلَّاهُ؛ وَأَصْلَاهُ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا؛ فَمَنْ أَحَبَّ شَيْئًا لِغَيْرِ اللهِ فَالضَّرَرُ حَاصِلٌ لَهُ إنْ وُجِدَ؛ أَوْ فُقِدَ؛ فَإِنْ فُقِدَ عُذِّبَ بِالفِرَاقِ وَتَأَلَّمَ؛ وَإِنْ وُجِدَ، فَإِنَّهُ يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الأَلَمِ أَكْثَرُ مِمَّا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ اللَّذَّةِ؛ وهذا أَمْرٌ مَعْلُومٌ بِالِاعْتِبَارِ والِاسْتِقْرَاءِ؛ وَكُلُّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا دُونَ اللهِ لِغَيْرِ اللهِ، فَإِنَّ مَضَرَّتَهُ أَكْثَرُ مِنْ مَنْفَعَتِهِ؛ فَصَارَتِ

(١) «جامع المسائل» لابن تيمية - عزير شمس (١/ ٦٩).

المَخْلُوقَاتُ وَبَالًا عَلَيْهِ إِلَّا مَا كَانَ لِلَّهِ وَفِي اللهِ؛ فَإِنَّهُ كَمَالٌ وَجَمَالٌ لِلْعَبْدِ؛ وهذا مَعْنَىٰ مَا يُرْوَىٰ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا؛ إِلَّا ذِكْرَ اللهِ وَمَا وَالَاهُ**»، رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ؛ وَغَيْرُهُ(١)»(٢).

«فَإِذَا رَأَيْنَا شَخْصًا يُحِبُّ مَا يَكْرَهُهُ الرَّبُّ تَعَالَىٰ وَيَكْرَهُ مَا يُحِبُّهُ، عَلِمْنَا أَنَّ فِيهِ مِنْ مُعَادَاتِهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ، وَإِذَا رَأَيْنَا الشَّخْصَ يُحِبُّ مَا يُحِبُّهُ الرَّبُّ وَيَكْرَهُ مَا يَكْرَهُهُ، وَكُلَّمَا كَانَ الشَّيْءُ أَحَبَّ إِلَىٰ الرَّبِّ كَانَ أَحَبَّ إِلَيْهِ وَآثَرَهُ عِنْدَهُ، وَكُلَّمَا كَانَ أَبْغَضَ إِلَيْهِ كَانَ أَبْغَضَ إِلَيْهِ وَأَبْعَدَ مِنْهُ، عَلِمْنَا أَنَّ فِيهِ مِنْ مُوَالَاةِ الرَّبِّ بِحَسَبِ ذَلِكَ.

فَتَمَسَّكْ بِهَذَا الأَصْلِ فِي نَفْسِكَ وَفِي غَيْرِكَ، فَالوِلَايَةُ عِبَارَةٌ عَنْ مُوَافَقَةِ الوَلِيِّ الحَمِيدِ فِي مَحَابِّهِ وَمَسَاخِطِهِ، وَلَيْسَتْ بِكَثْرَةِ صَوْمٍ، وَلَا صَلَاةٍ، وَلَا تَمَزُّقٍ، وَلَا رِيَاضَةٍ»(٣).

وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورىٰ:٢٨].

يَعْنِي أَنَّهُ عَالِمٌ بِأَحْوَالِ النَّاسِ وَبِطِبَاعِهِمْ وَبِعَوَاقِبِ أُمُورِهِمْ فَيُقَدِّرُ أَرْزَاقَهُمْ عَلَىٰ وَفْقِ مَصَالِحِهِمْ، وَلَمَّا بَيَّنَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ لَا يُعْطِيهِمْ مَا زَادَ عَلَىٰ قَدْرِ حَاجَتِهِمْ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني.

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» ت: الباز والجزار (١/ ٢٨).

(٣) «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» = «الداء والدواء» (ص: ١٩٤).

لِأَجْلِ أَنَّهُ عَلِمَ أَنَّ تِلْكَ الزِّيَادَةَ تَضُرُّهُمْ فِي دِينِهِمْ بَيَّنَ أَنَّهُمْ إِذَا احْتَاجُوا إِلَىٰ الرِّزْقِ، فَإِنَّهُ لَا يَمْنَعُهُمْ مِنْهُ فَقَالَ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾ [الشورىٰ:٢٨]، وَإِنْزَالُ الغَيْثِ بَعْدَ القُنُوطِ أَدْعَىٰ إِلَىٰ الشُّكْرِ؛ لِأَنَّ الفَرَحَ بِحُصُولِ النِّعْمَةِ بَعْدَ البَلِيَّةِ أَتَمُّ، فَكَانَ إِقْدَامُ صَاحِبِهِ عَلَىٰ الشُّكْرِ أَكْثَرَ ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورىٰ:٢٨]، أَيْ: بَرَكَاتِ الغَيْثِ وَمَنَافِعَهُ وَمَا يَحْصُلُ بِهِ مِنَ الخِصْبِ، وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: «اشْتَدَّ القَحْطُ وَقَنِطَ النَّاسُ، فَقَالَ: إِذَنْ مُطِرُوا» أَرَادَ هَذِهِ الآيَةَ، والتعبير بقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورىٰ:٢٨]، يشعر بقرب الله تعالىٰ من عباده، وبوجوب شكره علىٰ ما أعطىٰ بعد المنع، وعلىٰ ما فرج بعد الضيق.

❁ ❁ ❁

الرءوف الرحيم

قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة:١٤٣].

فَالمَعْنَىٰ أَنَّ المُنْعِمَ بِهَذِهِ النِّعَمِ الجَامِعَةِ لِمَنَافِعِ الدُّنْيَا والدِّينِ قَدْ بَلَغَ الغَايَةَ فِي الإحسان والإنعام، فلا ريب إذن أنه رءوف رَحِيمٌ.

وقال تعالىٰ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة:١١٧].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر:١٠].

وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران:٣٠].

وَفِيهِ وُجُوهٌ:

الأَوَّلُ: أَنَّهُ رَءُوفٌ بِهِمْ حَيْثُ حَذَّرَهُمْ مِنْ نَفْسِهِ، وَعَرَّفَهُمْ كَمَالَ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَأَنَّهُ يُمْهِلُ، وَلَا يُهْمِلُ، وَرَغَّبَهُمْ فِي اسْتِيجَابِ رَحْمَتِهِ، وَحَذَّرَهُمْ مِنِ اسْتِحْقَاقِ غَضَبِهِ، قَالَ الحَسَنُ: وَمِنْ رَأْفَتِهِ بِهِمْ أَنْ حَذَّرَهُمْ نَفْسَهُ.

الثَّانِي: أَنَّهُ رَءُوفٌ بِالعِبَادِ حَيْثُ أَمْهَلَهُمْ لِلتَّوْبَةِ والتَّدَارُكِ والتَّلَافِي.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ لَمَّا قَالَ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ﴾ [آل عمران:٣٠]، وَهُوَ لِلْوَعِيدِ، أَتْبَعَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران:٣٠]، وَهُوَ المَوْعِدُ، لِيَعْلَمَ العَبْدُ أَنَّ وَعْدَهُ وَرَحْمَتَهُ غَالِبٌ عَلَىٰ وَعِيدِهِ وَسَخَطِهِ.

والرَّابِعُ: وَهُوَ أَنَّ لَفظَ العِبَادِ فِي القُرْآنِ مُخْتَصٌّ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾

[الإنسان:٦]، فَكَانَ المَعْنَىٰ أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ وَعِيدَ الكُفَّارِ والفُسَّاقِ ذَكَرَ وَعْدَ أَهْلِ الطاعة فقال: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝٣٠﴾ [آل عمران:٣٠]، أَيْ: كَمَا هُوَ مُنْتَقِمٌ مِنَ الفُسَّاقِ، فهو رءوف بالمطيعين والمحسنين.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝٢٠٧﴾ [البقرة:٢٠٧].

﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝٢٠٧﴾: فَمِنْ رَأْفَتِهِ أَنَّهُ جَعَلَ النَّعِيمَ الدَّائِمَ جَزَاءً عَلَىٰ العَمَلِ القَلِيلِ المُنْقَطِعِ، وَمِنْ رَأْفَتِهِ جَوَّزَ لَهُمْ كَلِمَةَ الكُفْرِ إِبْقَاءً عَلَىٰ النَّفْسِ، وَمِنْ رَأْفَتِهِ أَنَّهُ لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، وَمِنْ رَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ أَنَّ المُصِرَّ عَلَىٰ الكُفْرِ مِائَةَ سَنَةٍ إِذَا تَابَ أَسْقَطَ كُلَّ ذَلِكَ العِقَابِ، وَأَعْطَاهُ الثَّوَابَ الدَّائِمَ، وَمِنْ رَأْفَتِهِ أَنَّ النَّفْسَ لَهُ والمَالَ، ثُمَّ إِنَّهُ يَشْتَرِي مُلْكَهُ بِمُلْكِهِ فَضْلًا مِنْهُ ورحمة وإحسانًا.

وفي ختمه جَلَّجَلَالُهُ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر:١٠].

التنبيه إلىٰ أن التوسل بهذين الاسمين (الرءوف الرحيم) يذهب غلَّ القلب وأدرانه، ويجلب رقة القلب والرحمة للمخلوقين.

❁ ❁ ❁

الخبير البصير

الخَبِيرُ هُوَ الَّذِي يَعْلَمُ عَوَاقِبَ الأُمُورِ وَبَوَاطِنَهَا، هو الذي لا تعزب عنه الأخبار الباطنة، ولا يجري في الملك والملكوت شيء، ولا تتحرك ذرة، ولا تسكن، ولا تضطرب نفس، ولا تطمئن إلا ويكون عنده خبرها، وهو بمعنىٰ العليم لكن العلم إذا أضيف إلىٰ الخفايا الباطنة سمي خبرة وسمي صاحبه خبيرًا، فهو الخبير الذي انتهىٰ علمه إلىٰ الإحاطة ببواطن الأشياء وخفاياها، كما أحاط بظواهرها.

قال تعالىٰ: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف:٦٨].

فيه وجهان:

أحدهما: لم تجد له سببًا.

الثاني: لم تعرف له علمًا، لأن الخضر علم أن موسىٰ لا يصبر إذا رأىٰ ما ينكر ظاهره»[1].

أي: والأَنْبِيَاءُ لَا يُقِرُّونَ عَلَىٰ منكر، لا يَجُوزُ لَهُمُ التَّقْرِيرُ، أَيْ: لَا يَسَعُكَ السُّكُوتُ جَرْيًا عَلَىٰ عَادَتِكَ وَحُكْمِكَ.

(١) «تفسير الماوردي» = «النكت والعيون» (٣/ ٣٢٦).

والبصير هو المدرك لكل موجود برؤيته، والبصير: يراد به -أيضًا- العالم عِلمَ انكشاف لا يقبل الخفاء، فهو كعلم المشاهدة، وهذا إطلاق شائع في القرآن لا سيما إذا أفردت صفة بصير بالذِّكر ولم تذكر معها صفة سميع.

وَأخرج عبد بن حميد وَابْن جرير وَابْن الْمُنْذر وَأَبُو الشَّيْخ عَن قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ [الأنعام:٥٠]، قَالَ: ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ الكَافِر الَّذِي عمي عَن حق الله وَأمره ونعمه عَلَيْهِ: ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾ العَبْد الْمُؤمن الَّذِي أبْصر بصرًا نَافِعًا فَوحد الله وَحده وَعمل بِطَاعَة ربه وانتفع بِمَا آتَاهُ الله.

قال تعالىٰ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ۝١٧﴾ [الإسراء:١٧].

أَنَّهُ تَعَالَىٰ عَالِمٌ بِجَمِيعِ المَعْلُومَاتِ، رَاءٍ لِجَمِيعِ المَرْئِيَّاتِ، فَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِ الخَلْقِ، وَثَبَتَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ كُلِّ المُمْكِنَاتِ فَكَانَ قَادِرًا عَلَىٰ إِيصَالِ الجَزَاءِ إِلَىٰ كُلِّ أَحَدٍ بِقَدْرِ اسْتِحْقَاقِهِ، وَأَيْضًا أَنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنِ العَبَثِ والظُّلْمِ، وَمَجْمُوعُ هَذِهِ الصِّفَاتِ الثَّلَاثِ -أَعْنِي العِلْمَ التَّامَّ، والقُدْرَةَ الكَامِلَةَ، والبَرَاءَةَ عَنِ الظُّلْمِ- بِشَارَةٌ عَظِيمَةٌ لِأَهْلِ الطَّاعَةِ وَخَوْفٌ عَظِيمٌ لِأَهْلِ الكُفْرِ والمَعْصِيَةِ، وتقديم الخبير مع أنه مضاف إلىٰ الغيب والأمور الباطنة، والبصير مضاف إلىٰ الأمور الظاهرة كالشهيد، لتقدم متعلقه من الاعتقادات والنيات التي هي مبادئ الأعمال الظاهرة. وفيه إشارة إلىٰ أن البعث والأمر وما يتلوهما من فسقهم ليس لتحصيل العلم بما صدر عنهم من الذنوب، فان ذلك حاصل قبل ذلك، وإنما هو لقطع الأعذار وإلزام الحجة من كل وجه، وفي الآية تهديد لهذه الأمة لا سيما مشركي مكة لكي يطيعوا الله ورسوله، ولا يعصوه فيصيبهم مثل ما أصابهم.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ٣٠﴾ [الإسراء:٣٠].

يَعْنِي أَنَّهُ تَعَالَىٰ عَالِمٌ بِأَنَّ مَصْلَحَةَ كُلِّ إِنْسَانٍ فِي أَنْ لَا يُعْطِيَهُ إِلَّا ذَلِكَ القَدْرَ، فَالتَّفَاوُتُ فِي أَرْزَاقِ العِبَادِ لَيْسَ لِأَجْلِ المنع، بل لأجل رعاية المصالح.

وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ٩٦﴾ [الإسراء:٩٦].

يَعْنِي يَعْلَمُ ظَوَاهِرَهُمْ وَبَوَاطِنَهُمْ وَيَعْلَمُ مِنْ قُلُوبِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَذْكُرُونَ هَذِهِ الشُّبَهَاتِ إِلَّا لِمَحْضِ الحَسَدِ وَحُبِّ الرِّيَاسَةِ والِاسْتِنْكَافِ مِنَ الِانْقِيَادِ لِلْحَقِّ.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا ١٥﴾ [الإنشقاق:١٥].

كان بصيرًا به إذ خلقه لماذا خلقه، ولأي شيء أوجده، وما قدر عليه من السعادة أو الشقاوة وما كتب له وعليه من أجله ورزقه، فيجازيهم عند ذلك بأعمالهم إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ٣٥﴾ [طه:٣٥].

فَفِيهِ وُجُوهٌ:

أَحَدُهَا: إِنَّكَ عَالِمٌ بِأَنَّا لَا نُرِيدُ بِهَذِهِ الطَّاعَاتِ إِلَّا وَجْهَكَ وَرِضَاكَ، وَلَا نُرِيدُ بِهَا أَحَدًا سِوَاكَ.

وَثَانِيهَا: كُنْتَ بِنا بَصِيرًا؛ لِأَنَّ هَذِهِ الِاسْتِعَانَةَ بِهَذِهِ الأَشْيَاءِ لِأَجْلِ حَاجَتِي فِي النُّبُوَّةِ إِلَيْهَا.

وَثَالِثُهَا: إِنَّكَ بَصِيرٌ بِوُجُوهِ مَصَالِحِنَا فَأَعْطِنَا مَا هُوَ أَصْلَحُ لَنَا، وَإِنَّمَا قَيَّدَ الدُّعَاءَ بِهَذَا إِجْلَالًا لِرَبِّهِ عَنْ أَنْ يتحكم عليه وتفويضًا للأمر بالكلية إليه، ومن عرف أنه البصير راقبه في الحركات والسكنات حتىٰ لا يراه حيث نهاه أو يفقده حيث أمره.

وقال تعالىٰ: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ [غافر:٤٤].

فلَمَّا بَالَغَ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ فِي هَذِهِ البَيَانَاتِ خَتَمَ كَلَامَهُ بِخَاتِمَةٍ لَطِيفَةٍ فَقَالَ: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ﴾، وهذا كَلَامٌ مُبْهَمٌ يُوجِبُ التَّخْوِيفَ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ المُرَادُ أَنَّ هَذَا الذِّكْرَ يَحْصُلُ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ وَقْتُ المَوْتِ، وَأَنْ يَكُونَ فِي القِيَامَةِ وَقْتَ مُشَاهَدَةِ الأَهْوَالِ، وَبِالجُمْلَةِ، فَهُوَ تَحْذِيرٌ شَدِيدٌ، ثم قَالَ: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾، وهذا كَلَامُ مَنْ هُدِّدَ بِأَمْرٍ يَخَافُهُ فَكَأَنَّهُمْ خَوَّفُوهُ بِالقَتْلِ، وَهُوَ -أَيْضًا- خَوَّفَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ﴾، ثُمَّ عَوَّلَ فِي دَفْعِ تَخْوِيفِهِمْ وَكَيْدِهِمْ وَمَكْرِهِمْ عَلَىٰ فَضْلِ اللهِ تَعَالَىٰ فَقَالَ: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ أَيْ: عَالِمٌ، يعلم المُحقّ من المبطل، فينجي من يلوذ به من المكاره ويتوكل عليه.

«فإذا شهد معنىٰ اسمه البصير جَلَّجَلَالُهُ الذي يرىٰ دبيب النملة السوداء علىٰ الصخرة الصماء في حندس الظلماء، ويرىٰ تفاصيل خلق الذرة الصغيرة ومخها وعروقها ولحمها وحركتها ويرىٰ مد البعوضة جناحها في ظلمة الليل، وأعطىٰ

هذا المشهد حقه من العبودية بحرس حركاتها وسكناتها، وتيقن أنها بمرأىٰ منه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ومشاهدة لا يغيب عنه منها شيء»(١).

وفي قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾ [سبأ:١].

الحِكْمَةُ هِيَ العِلْمُ الَّذِي يَتَّصِلُ بِهِ الفِعْلُ، فَإِنَّ مَنْ يَعْلَمُ أَمْرًا وَلَمْ يَأْتِ بِمَا يُنَاسِبُ عِلْمَهُ لَا يُقَالُ لَهُ: حَكِيمٌ، فَالفَاعِلُ الَّذِي فِعْلُهُ عَلَىٰ وَفْقِ العِلْمِ هُوَ الحَكِيمُ، والخَبِيرُ هُوَ الَّذِي يَعْلَمُ عَوَاقِبَ الأُمُورِ وَبَوَاطِنَهَا فَقَوْلُهُ: (حَكِيمٌ) أَيْ: فِي الِابْتِدَاءِ يَخْلُقُ كَمَا يَنْبَغِي، وَخَبِيرٌ أَيْ: بِالِانْتِهَاءِ يَعْلَمُ مَاذَا يَصْدُرُ مِنَ المَخْلُوقِ وَمَا لَا يَصْدُرُ إِلَىٰ مَاذَا يَكُونُ مَصِيرُ كُلِّ أَحَدٍ، فَهُوَ حَكِيمٌ في الابتداء خبير في الانتهاء، ثمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَىٰ ذلك بِقَوْلِهِ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [سبأ:٢]، مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ مِنَ الحَبَّةِ والأَمْوَاتِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا مِنَ السَّنَابِلِ والأَحْيَاءِ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ أَنْوَاعِ رَحْمَتِهِ مِنْهَا المَطَرُ وَمِنْهَا المَلَائِكَةُ وَمِنْهَا القُرْآنُ، وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا مِنْهَا الكَلِمُ الطَّيِّبُ، لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠]، وَمِنْهَا الأَرْوَاحُ، وَمِنْهَا الأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ لِقَوْلِهِ: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠].

فقَدَّمَ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ عَلَىٰ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، لِأَنَّ الحَبَّةَ تُبْذَرُ أَوَّلًا، ثمَّ تُسْقَىٰ ثَانِيًا، ثم قَالَ: ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [الحديد:٤]، وَلَمْ يَقُلْ: يَعْرُجُ إِلَيْهَا، إِشَارَةً إِلَىٰ قَبُولِ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وهذا لِأَنَّ كَلِمَةَ (إِلَىٰ) لِلْغَايَةِ، فَلَوْ قَالَ: وَمَا يعرج إليها

(١) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ٤٤).

لفهم الوقوف عند السموات، فَقَالَ: ﴿وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ﴾ [الحديد:٤]، لِيُفْهَمَ نُفُوذُهَا فِيهَا وَصُعُودُهَا مِنْهَا، ولهذا قَالَ فِي الكَلِمِ الطَّيِّبِ: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠]؛ لِأَنَّ اللهَ هُوَ الْمُنْتَهَىٰ، وَلَا مَرْتَبَةَ فَوْقَ الوُصُولِ إِلَيْهِ، وَأَمَّا السَّمَاءُ فَهِيَ دُنْيَا وَفَوْقَهَا الْمُنْتَهَىٰ، ثم قَالَ: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢﴾ [سبأ:٢]، رَحِيمٌ بِالإِنْزَالِ حَيْثُ يُنْزِلُ الرِّزْقَ مِنَ السَّمَاءِ، غَفُورٌ عندما تَعْرُجُ إِلَيْهِ الأَرْوَاحُ والأَعْمَالُ، فَرَحِمَ أَوَّلًا بِالإِنْزَالِ وغفر ثانيًا عند العروج.

❁ ❁ ❁

العفو الغفور

قال تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرًا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٨٦﴾ [البقرة:٢٨٦].

أي لا تكلفنا ما يشق علينا الدوامُ عليه، ولم يرد به عدم الطاقة أصلًا، فإنه لا يكون، فلا يسأل، ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا﴾ أي: آثار ذنوبنا ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ واستر عيوبنا، ولا تفضحنا علىٰ رءوس الأشهاد، وليس بتكرار، فإن الأول تركه حتىٰ لا يؤاخذ به ومحوه حتىٰ لا يبقىٰ، والثاني ستره حتىٰ لا يظهر، وقد يتجاوز عن الشيء، فلا يؤاخذ بجزائه لكن يذكر ذلك ويظهر، والمؤمنون أمروا أن يسألوا التجاوز عنها

وإخفاءها حتىٰ لا يظهر حالهم لأحد، فلا يفتضحوا به، ﴿وَٱرۡحَمۡنَآ﴾ وتعطف بنا وتفضل علينا، فيَصِيرَ العَبْدُ مُقْبِلًا بِكُلِّيَّتِهِ عَلَىٰ اللهِ تعالىٰ، وتقديم طلب العفو والمغفرة علىٰ طلب الرحمة؛ لأن التخلية سابقة علىٰ التحلية.

﴿أَنتَ مَوۡلَىٰنَا﴾ سيدنا، ونحن عبيدك، أو ناصرنا أو متولِّي أمورنا ﴿فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾ أي: أعنا عليهم وادفع عنا شرهم، فإن مِن حق المولىٰ أن ينصر عبيده ومن يتولىٰ أمره علىٰ الأعداء، والنصرة علىٰ الكفار تكون بالظفر وتكون بالحجة وتكون بالدفع، وهو سؤال العصمة من الشياطين -أيضًا- لأنهم منهم.

«ثُمَّ سَأَلُوهُ العَفْوَ والمَغْفِرَةَ والرَّحْمَةَ والنَّصْرَ عَلَىٰ الأَعْدَاءِ؛ فَإِنَّ بِهَذِهِ الأَرْبَعَةِ تَتِمُّ لَهُمُ النِّعْمَةُ المُطْلَقَةُ، وَلَا يَصْفُو عَيْشٌ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ إِلَّا بِهَا، وَعَلَيْهَا مَدَارُ السَّعَادَةِ والفَلَاحِ، فَالعَفْوُ مُتَضَمِّنٌ لِإِسْقَاطِ حَقِّهِ قِبَلِهِمْ وَمُسَامَحَتِهِمْ بِهِ، والمَغْفِرَةُ مُتَضَمِّنَةٌ لِوِقَايَتِهِمْ شَرَّ ذُنُوبِهِمْ وَإِقْبَالِهِ عَلَيْهِمْ وَرِضَاهُ عَنْهُمْ؛ بِخِلَافِ العَفْوِ المُجَرَّدِ؛ فَإِنَّ العَافِيَ قَدْ يَعْفُو وَلَا يُقْبِلُ عَلَىٰ مَنْ عَفَا عَنْهُ، وَلَا يَرْضَىٰ عَنْهُ، فَالعَفْوُ تَرْكٌ مَحْضٌ، والمَغْفِرَةُ إِحْسَانٌ وَفَضْلٌ وَجُودٌ، والرَّحْمَةُ مُتَضَمِّنَةٌ لِلْأَمْرَيْنِ مَعَ زِيَادَةِ الإِحْسَانِ والعَطْفِ والبِرِّ، فَالثَّلَاثَةُ تَتَضَمَّنُ النَّجَاةَ مِنَ الشَّرِّ والفَوْزَ بِالخَيْرِ والنُّصْرَةُ تَتَضَمَّنُ التَّمْكِينَ مِنْ إِعْلَانِ عِبَادَتِهِ وَإِظْهَارِ دِينِهِ وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ وَقَهْرِ أَعْدَائِهِ وَشِفَاءِ صُدُورِهِمْ مِنْهُمْ وَإِذْهَابِ غَيْظِ قُلُوبِهِمْ وحزازات نُفُوسِهِمْ، وَتَوَسَّلُوا فِي خِلَالِ هَذَا الدُّعَاءِ إِلَيْهِ بِاعْتِرَافِهِمْ أَنَّهُ مَوْلَاهُمُ الحَقُّ الَّذِي لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ سِوَاهُ، فَهُوَ نَاصِرُهُمْ وَهَادِيهِمْ وَكَافِيهِمْ وَمُعِينُهُمْ وَمُجِيبُ دَعَوَاتِهِمْ وَمَعْبُودُهُمْ. فَلَمَّا تَحَقَّقَتْ قُلُوبُهُمْ بِهَذِهِ المَعَارِفِ وَانْقَادَتْ وَذَلَّتْ لِعِزَّةِ رَبِّهَا

وَمَوْلَاهَا، وَأَجَابَتْهَا جَوَارِحُهُمْ أُعْطُوا كُلَّمَا سَأَلُوهُ مِنْ ذَلِكَ، فَلَمْ يَسْأَلُوا شَيْئًا مِنْهُ إِلَّا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: «قَدْ فَعَلْتُ»[(١)]، كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ» عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ»[(٢)].

«وَأَمَّا هَذَا الدُّعَاءُ الرَّابِعُ، فَقَدْ حُذِفَ مِنْهُ لَفْظُ: (رَبَّنا) وَظَاهِرُهُ يَدُلُّ عَلَىٰ طَلَبِ الفِعْلِ، فَفِيهِ سُؤَالَانِ:

السُّؤَالُ الأَوَّلُ: لِمَ لَمْ يُذْكَرْ هَاهُنَا لَفْظُ (رَبَّنَا)؟

الجَوَابُ: النِّدَاءُ إِنَّمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ عِنْدَ البُعْدِ، أَمَّا عِنْدَ القُرْبِ، فَلَا، وَإِنَّمَا حُذِفَ النِّدَاءُ إِشْعَارًا بِأَنَّ العَبْدَ إِذَا وَاظَبَ عَلَىٰ التَّضَرُّعِ نَالَ القُرْبَ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، وهذا سِرٌّ عَظِيمٌ يَطَّلِعُ مِنْهُ عَلَىٰ أَسْرَارٍ أُخَرَ»[(٣)].

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ٤٣﴾ [النساء:٤٣].

خَتَمَ تَعَالَىٰ الآيَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ٤٣﴾، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ التَّرْخِيصِ، والتَّيْسِيرِ، لِأَنَّ مَنْ كَانَ مِنْ عَادَتِهِ أَنَّهُ يَعْفُو عَنِ المُذْنِبِينَ، فبأن يرخص للعاجزين كان أولىٰ.

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٦) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (١٤/ ١٤٠).

(٣) «التفسير الكبير» (٧/ ١٢٤).

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٠١﴾﴾ [المائدة:١٠١].

فَقَوْلُهُ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ﴾ أَيْ: أَمْسَكَ عَنْهَا وَكَفَّ عَنْ ذِكْرِهَا وَلَمْ يُكَلِّفْ فِيهَا بِشَيْءٍ، وهذا كَقَوْلِهِ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**عَفَوْتُ لَكُمْ عَنْ صَدَقَةِ الخَيْلِ والرَّقِيقِ**»[(١)]؛ أَيْ: خَفَّفْتُ عَنْكُمْ بِإِسْقَاطِهَا.

«قلت: ومراد ابن عباس بقوله: «ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة» المسائل التي حكاها الله في القرآن عنهم، وإلا فالمسائل التي سألوه عنها وبيَّن لهم أحكامها بالسنة لا تكاد تحصىٰ، ولكن إنما كانوا يسألونه عما ينفعهم من الواقعات ولم يكونوا يسألونه عن المقدرات والأغلوطات وعضْل المسائل، ولم يكونوا يشتغلون بتفريع المسائل وتوليدها، بل كانت هممهم مقصورة علىٰ تنفيذ ما أمرهم به، فإذا وقع بهم أمر سألوا عنه فأجابهم، وقد قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [المائدة:١٠١-١٠٢]»[(٢)].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٧٩٠) من حديث علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، وحسنه الألباني.

(٢) «إعلام الموقعين عن رب العالمين» - ت: طه عبد الرءوف (١/ ٧١).

«وَكَانَ مِنْ دُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سُخْطِكَ، وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ**»(١).

فَتَأَمَّلْ ذِكْرَ اسْتِعَاذَتِهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بِصِفَةِ الرِّضَا مِنْ صِفَةِ السُّخْطِ، وَبِفِعْلِ المُعَافَاةِ مِنْ فِعْلِ العُقُوبَةِ، فَالأَوَّلُ لِلصِّفَةِ، والثَّانِي لِأَثَرِهَا المُتَرَتِّبِ عَلَيْهَا، ثمَّ رَبَطَ ذَلِكَ كُلَّهُ بِذَاتِهِ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ رَاجِعٌ إِلَيْهِ وَحْدَهُ، لَا إِلَىٰ غَيْرِهِ، فَمَا أَعُوذُ مِنْهُ وَاقِعٌ بِمَشِيئَتِكَ وَإِرَادَتِكَ، وَمَا أَعُوذُ بِهِ مِنْ رِضَاكَ وَمُعَافَاتِكَ هُوَ بِمَشِيئَتِكَ وَإِرَادَتِكَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ تَرْضَىٰ عَنْ عَبْدِكَ وَتُعَافِيَهُ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَغْضَبَ عَلَيْهِ وَتُعَاقِبَهُ، فَإِعَاذَتِي مِمَّا أَكْرَهُ وَأَحْذَرُ، وَمَنْعُهُ أَنْ يَحِلَّ بِي هُوَ بِمَشِيئَتِكَ أَيْضًا، فَالمَحْبُوبُ والمَكْرُوهُ كُلُّهُ بِقَضَائِكَ وَمَشِيئَتِكَ، فَعِيَاذِي بِكَ مِنْكَ عِيَاذِي بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ وَقُدْرَتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَإِحْسَانِكَ مِمَّا يَكُونُ بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ وَقُدْرَتِكَ وَعَدْلِكَ وَحِكْمَتِكَ، فَلَا أَسْتَعِيذُ بِغَيْرِكَ مِنْ غَيْرِكَ، وَلَا أَسْتَعِيذُ إِلَّا بِكَ مِنْ شَيْءٍ هُوَ صَادِرٌ عَنْ مَشِيئَتِكَ وَخَلْقِكَ، بَلْ هُوَ مِنْكَ، وَلَا أَسْتَعِيذُ بِغَيْرِكَ مِنْ شَيْءٍ هُوَ صَادِرٌ عَنْ مَشِيئَتِكَ وَقَضَائِكَ، بَلْ أَنْتَ الَّذِي تُعِيذُنِي بِمَشِيئَتِكَ مِمَّا هُوَ كَائِنٌ بِمَشِيئَتِكَ، فَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ»(٢).

«وحقيقة الأمر: أن العبد فقير إلىٰ الله من كل وجه وبكل اعتبار، فهو فقير إليه من جهة ربوبيته له وإحسانه إليه وقيامه بمصالحه وتدبيره له، وفقير إليه من جهة إلهيته وكونه معبوده وإلهه ومحبوبه الأعظم الذي لا صلاح له، ولا فلاح،

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٦) من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

(٢) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (١/ ٢٦٧).

ولا نعيم، ولا سرور إلا بأن يكون أحب شيء إليه فيكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله ووالده وولده، ومن الخلق كلهم، وفقير إليه من جهة معافاته له من أنواع البلاء، فإنه إن لم يعافيه منها هلك ببعضها، وفقير إليه من جهة عفوه عنه ومغفرته له، فإن لم يعف عن العبد ويغفر له، فلا سبيل إلىٰ النجاة، فما نجىٰ أحد إلا بعفو الله، ولا دَخل الجنة إلا برحمة الله، وكثير من الناس ينظر إلىٰ نفس ما يتاب منه فيراه نقصًا، ولا ينظر إلىٰ كمال الغاية الحاصلة بالتوبة وأن العبد بعد التوبة النصوح خير منه قبل الذنب، ولا ينظر إلىٰ كمال الربوبية وتفرد الرب بالكمال وحده، وأن لوازم البشرية لا ينفك منها البشر، وأن التوبة غاية كل أحد من ولد آدم وكماله، كما كانت هي غايته وكماله، فليس للعبد كمال بدون التوبة البتة، كما أنه ليس له انفكاك عن سببها، فإنه سبحانه هو المتفرد المستأثر بالغنىٰ والحمد من كل وجه وبكل اعتبار، والعبد هو الفقير المحتاج إليه المضطر إليه بكل وجه وبكل اعتبار، فرحمته للعبد خير له من عمله، فإن عمله لا يستقل بنجاته، ولا سعادته، ولو وكل إلىٰ عمله لم ينج به البتة.

«وقوله: «**وعافني فيمن عافيت**» إنما يسأل ربه العافية المطلقة وهي العافية من الكفر والفسوق والعصيان والغفلة والإعراض وفعل ما لا يحبه وترك ما يحبه، فهذا حقيقة العافية، ولهذا ما سئل الرب شيئًا أحب إليه من العافية؛ لأنها كلمة جامعة للتخلص من الشر كله وأسبابه»(١).

(١) «شفاء العليل» - دار الفكر (ص: ١١١).

«وفي «مسند الإمام أحمد» أن النبي قال للعباس: «**يا عباس، يا عم رسول الله، سل الله العافية في الدنيا والآخرة**»(١). وفيه عن أبي بكر الصديق قال: سمعت رسول الله يقول: «**سلوا الله اليقين والمعافاة، فما أوتي أحد بعد اليقين خيرًا من العافية**»(٢)، فجمع بين عافيتي الدين والدنيا، ولا يتم صلاح العبد في الدارين إلا باليقين والعافية، فاليقين يدفع عنه عقوبات الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا في قلبه وبدنه.

وفي «سنن النسائي» من حديث أبي هريرة يرفعه: «**سلوا الله العفو والعافية والمعافاة، فما أوتي أحد بعد يقين خيرًا من العافية**»(٣)، وهذه الثلاثة تتضمن إزالة الشرور الماضية بالعفو والحاضرة بالعافية والمستقبلة بالمعافاة، فإنها تتضمن المداومة والاستمرار علىٰ العافية.

وفي «الترمذي» مرفوعًا: «**ما سئل الله شيئًا أحبَّ إليه من العافية**»(٤).

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ عن أبي الدرداء: قلت: يا رسول الله؛ لأن أعافىٰ فأشكر أحب إلي من أن أبتلىٰ فأصبر، فقال رسول الله: «ورسول الله يحب معك العافية»(٥).

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٨٣)، والترمذي (٣٥١٤)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٥) (١٧)، والترمذي (٣٥٥٨)، وابن ماجه (٣٨٤٩)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه النسائي في «الكبرىٰ» (١٠٦٥٦) من حديث أبي هريرة عن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، مرفوعًا، بلفظ: «**إِنَّ النَّاسَ لَمْ يُعْطَوْا شَيْئًا هُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْعَفْوِ وَالْعَافِيَةِ، فَسَلُوهُمَا اللهَ**».

(٤) أخرجه الترمذي (٣٥٤٨) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) أخرجه الطبراني في «الصغير» (٣٠٤)، و«الأوسط» (٣١٠٢).

ويذكر عن ابن عباس أن أعرابيًّا جاء إلىٰ رسول الله فقال له: ما أسأل الله بعد الصلوات الخمس؟ فقال: «سل الله العافية» فأعاد عليه فقال له في الثالثة: «سل الله العافية في الدنيا والآخرة»[(١)]»[(٢)].

«والعَفْوَ اسْمٌ لِإِسْقَاطِ العِقَابِ المُسْتَحَقِّ، فَأَمَّا إِسْقَاطُ مَا يَجِبُ إِسْقَاطُهُ فَذَاكَ لَا يُسَمَّىٰ عَفْوًا، أَلَا تَرَىٰ أَنَّ الظَّالِمَ لَمَّا لَمْ يَجُزْ لَهُ تَعْذِيبُ المَظْلُومِ، فَإِذَا تُرِكَ ذَلِكَ العَذَابُ لَا يُسَمَّىٰ ذَلِكَ التَّرْكُ عَفْوًا»[(٣)].

«السادس -وهي من أعظم الفوائد-: أن يشهد أن الجزاء من جنس العمل، وأنه نفسه ظالم مذنب، وأن من عفىٰ عن الناس عفىٰ الله عنه، ومن غفر غفر الله له، فإذا شهد أن عفوه عنهم وصفحه وإحسانه مع إساءتهم إليه، سبب لأن يجزيه الله كذلك من جنس عمله فيعفو عنه ويصفح ويحسن إليه علىٰ ذنوبه، ويسهل عليه عفوه وصبره، ويكفي العاقل هذه الفائدة»[(٤)].

❁ ❁ ❁

السلام المؤمن المهيمن

قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر:٢٣].

---

(١) لم أقف عليه.
(٢) «الطب النبوي» لابن القيم - الفكر (ص: ١٦٩).
(٣) «التفسير الكبير» (٣/ ٥١٣).
(٤) «قاعدة في الصبر» (ص: ٩٧).

وَفِي «الصحيحين» عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: كُنَّا نَقُولُ فِي الصَّلَاةِ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: السَّلَامُ عَلَىٰ اللهِ، السَّلَامُ عَلَىٰ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ، السَّلَامُ عَلَىٰ فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ: «**إِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ**» الحديث(١).

ومعنىٰ السلام في حقه تعالىٰ أنه سَلِم ذاته من العيب وصفاته من النقص وأفعاله من الشر، المتضمن لبراءته من كل نقص يضاد كماله، هو الذي يملك السلام الذي هو تخليص من المكروه.

قال الراغب: السلام والسلامة: التعري من الآفات الظاهرة والباطنة، قيل: وصف الله بالسلام من حيث لا تلحقه العيوب والآفات التي تلحق الخلق. انتهىٰ(٢).

«فهو السلام الحق بكل اعتبار والمخلوق سلام بالإضافة، فهو سبحانه سلام في ذاته عن كل عيب ونقص يتخيله وهم، وسلام في صفاته من كل عيب ونقص، وسلام في أفعاله من كل عيب ونقص وشر وظلم وفعل واقع علىٰ غير وجه الحكمة، بل هو السلام الحق من كل وجه وبكل اعتبار، فعلم أن استحقاقه تعالىٰ لهذا الاسم أكمل من استحقاق كل ما يطلق عليه، وهذا هو حقيقة التنزيه الذي نزه به نفسه ونزهه به رسوله، فهو السلام من الصاحبة والولد، والسلام من النظير والكفء والسمي والمماثل، والسلام من الشريك، ولذلك إذا نظرت إلىٰ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٢٨)، ومسلم (٤٠٢).

(٢) «المفردات» (ص٤٢١).

أفراد صفات كماله وجدت كل صفة سلامًا مما يضاد كمالها، فحياته سلام من الموت، ومن السِّنة والنوم، وكذلك قيوميته وقدرته سلام من التعب واللغوب، وعلمه سلام من عزوب شيء عنه أو عروض نسيان أو حاجة إلىٰ تذكر وتفكر، وإرادته سلام من خروجها عن الحكمة والمصلحة، وكلماته سلام من الكذب والظلم، بل تمت كلماته صدقًا وعدلًا.

وغناه سلام من الحاجة إلىٰ غيره بوجه ما، بل كل ما سواه محتاج إليه، وهو غني عن كل ما سواه، وملكه سلام من منازع فيه أو مشارك أو معاون مظاهر أو شافع عنده بدون إذنه، وإلهيته سلام من مشارك له فيها، بل هو الله الذي لا إله إلا هو، وحلمه وعفوه وصفحه ومغفرته وتجاوزه سلام من أن تكون عن حاجة منه أو ذلٍّ أو مصانعة، كما يكون من غيره، بل هو محض جوده وإحسانه وكرمه، وكذلك عذابه وانتقامه وشدة بطشه وسرعة عقابه سلام من أن يكون ظلمًا أو تشفيًا أو غلظة أو قسوة، بل هو محض حكمته وعدله ووضعه الأشياء مواضعها، وهو مما يستحق عليه الحمد والثناء، كما يستحقه علي إحسانه وثوابه ونعمه، بل لو وضع الثواب موضع العقوبة لكان مناقضًا لحكمته ولعزته، فوضعه العقوبة موضعها هو من عدله وحكمته وعزته، فهو سلام مما يتوهم أعداؤه والجاهلون به من خلاف حكمته.

وقضاؤه وقدره سلام من العبث والجور والظلم، ومِن توهم وقوعه علىٰ خلاف الحكمة البالغة، وشرعه ودينه سلام من التناقض والاختلاف والاضطراب وخلاف مصلحة العباد ورحمتهم والإحسان إليهم وخلاف حكمته، بل شرعه كله حكمة ورحمة ومصلحة وعدل، وكذلك عطاؤه سلام من

كونه معاوضة أو لحاجة إلىٰ المعطىٰ، ومنعه سلام من البخل وخوف الإملاق، بل عطاؤه إحسان محض لا لمعاوضة، ولا لحاجة، ومنعه عدل محض وحكمة لا يشوبه بخل، ولا عجز، واستواؤه وعلوه علىٰ عرشه سلام من أن يكون محتاجًا إلىٰ ما يحمله أو يستوي عليه، بل العرش محتاج إليه وحملته محتاجون إليه، فهو الغني عن العرش وعن حملته وعن كل ما سواه، فهو استواء وعلو لا يشوبه حصر، ولا حاجة إلىٰ عرش، ولا غيره، ولا إحاطة شيء به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بل كان سبحانه ولا عرش ولم يكن به حاجة إليه، وهو الغني الحميد، بل استواؤه علىٰ عرشه واستيلاؤه علىٰ خلقه من موجبات ملكه وقهره من غير حاجة إلىٰ عرش ولا غيره بوجه ما.

ونزوله كل ليلة إلىٰ سماء الدنيا سلام مما يضاد علوه، وسلام مما يضاد غناه، وكماله سلام من كل ما يتوهم معطل أو مشبه، وسلام من أن يصير تحت شيء أو محصورًا في شيء، تعالىٰ الله ربنا عن كل ما يضاد كماله وغناه، وسمعه وبصره سلام من كل ما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل، وموالاته لأوليائه سلام من أن تكون عن ذلك كما يوالي المخلوق المخلوق، بل هي موالاة رحمة وخير وإحسان وبر، كما قال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء:١١١]، فلم ينف أن يكون له ولي مطلقًا، بل نفي أن يكون له ولي من الذل.

وكذلك محبته لمحبيه وأوليائه سلام من عوارض محبة المخلوق للمخلوق من كونها محبة حاجة إليه أو تملق له أو انتفاع بقربه، وسلام مما يتقوله المعطلون فيها، وكذلك ما أضافه إلىٰ نفسه من اليد والوجه، فإنه سلامٌ

عما يتخيله مشبِّه أو يتقوَّله معطِّل، فتأمل كيف تضمن اسمه السلام كل ما نزه عنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وكم ممن حفظ هذا الاسم لا يدري ما تضمنه من هذه الأسرار والمعاني»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ۝٥٨﴾ [يس:٥٨].

وفي «سنن ابن ماجه» و«مسند أحمد» من حديث الفضل الرقاشي عن محمد بن المنكدر عن جابر قال: قال رسول الله: «**بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطَع لهم نور، فرَفعوا رءوسهم، فإذا الربُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قد أشرف عليهم من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، قال: وذلك قوله:** ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ۝٥٨﴾ [يس:٥٨]، **قال: فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلىٰ شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتىٰ يحتجب عنهم ويبقىٰ نوره وبركته عليهم في ديارهم**»(٢).

وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء:٦٩].

قوله تعالىٰ: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا﴾ المَعْنَىٰ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ النَّارَ بَرْدًا وَسَلَامًا، فأَزَالَ عَنْهَا مَا فِيهَا مِنَ الحَرِّ والإِحْرَاقِ، وَأَبْقَىٰ مَا فِيهَا مِنَ الإِضَاءَةِ والإِشْرَاقِ والله عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وقوله تعالىٰ: ﴿كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ فَالمَعْنَىٰ أَنَّ البَرْدَ إِذَا أَفْرَطَ أَهْلَكَ كَالحَرِّ، بَلْ لَا بُدَّ مِنَ الِاعْتِدَالِ،

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ١٣٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٨٤).

وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا فِي رِوَايَةِ مُجَاهِدٍ: وَلَوْ لَمْ يُتْبِعْ بَرْدًا سَلَامًا لَمَاتَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ بَرْدِهَا، قَالَ: وَلَمْ يَبْقَ يَوْمَئِذٍ فِي الدُّنْيَا نَارٌ إِلَّا طُفِئَتْ.

واعلم -سلَّمك الله- أن «مقصود العبد من الحياة إنما يحصل بشيئين: بسلامته من الشر، وحصول الخير كله، والسلامة من الشر مقدمة علىٰ حصول الخير وهي الأصل، ولهذا إنما يهتم الإنسان، بل كل حيوان بسلامته أولًا، ثم غنيمته ثانيًا، علىٰ أن السلامة المطلقة تتضمن حصول الخير، فإنه لو فاته حصل له الهلاك والعطب أو النقص والضعف، ففوات الخير يمنع حصول السلامة المطلقة، فتضمنت السلامة نجاته من كل شر، وفوزه بالخير، فانتظمت الأصلين اللذين لا تتم الحياة إلا بهما، مع كونها مشتقة من اسمه السلام ومتضمنة له، وحذفت التاء منها لما ذكرنا من إرادة الجنس، لا السلامة الواحدة.

ولما كانت الجنة دار السلامة من كل عيب وشر وآفة، بل قد سَلِمت من كل ما ينغص العيش والحياة - كانت تحية أهلها فيها سلام، والرب يحييهم فيها بالسلام: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد:٢٣-٢٤]، فهذا سر التحية بالسلام عند اللقاء، وأما عند المكاتبة: فلما كان المراسلان كل منهما غائب عن الآخر، ورسوله إليه كتابه يقوم مقام خطابه له، استعمل في مكاتبه له من السلام ما يستعمله معه لو خاطبه؛ لقيام الكتاب مقام الخطاب»(١).

---

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ١٤٥).

وقال تعالىٰ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾ [مريم:١٥].

مِنَ الدَّلَائِلِ القُرْآنِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ فَضِيلَةِ السَّلَامِ: أَنَّ أَشَدَّ الأَوْقَاتِ حَاجَةً إِلَىٰ السَّلَامَةِ والكَرَامَةِ ثَلَاثَةُ أَوْقَاتٍ: وَقْتُ الِابْتِدَاءِ، وَوَقْتُ المَوْتِ، وَوَقْتُ البَعْثِ، والله تَعَالَىٰ لَمَّا أَكْرَمَ يَحْيَىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فَإِنَّمَا أَكْرَمَهُ بِأَنْ وَعَدَهُ السَّلَامَ فِي هَذِهِ الأَوْقَاتِ الثَّلَاثَةِ فَقَالَ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾ [مريم:١٥]، وَعِيسَىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ذَكَرَ -أَيْضًا- ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣﴾ [مريم:٣٣].

وقال ابن عُيينة: أوحش ما يكون الإنسان في هذه الأحوال: يوم ولد فيخرج مما كان، ويوم يموت فيرىٰ قومًا لم يكن عاينهم، ويوم يبعث فيرىٰ نفسه في محشر لم ير مثله، فخص يحيىٰ بالسلام في هذه المواطن.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١﴾ [الصافات:١٨١].

«﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١﴾ أي: الذين بلغوا عن الله تعالىٰ التوحيد والرسالة، وقيل: معنىٰ ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١﴾ أي: أَمْنٌ لهم مِن الله -جلَّ وعزَّ- يوم الفزع الأكبر ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٢﴾ [الصافات:١٨٢]، أي: علىٰ إرسال المرسلين مبشرين ومنذرين، وقيل: أي: علىٰ جميع ما أنعم الله به علىٰ الخلق أجمعين»(١).

❁ ❁ ❁

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٤٢).

رب العزة

قال تعالىٰ: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠﴾ [الصافات:١٨٠].

أضيف الرب إلىٰ العزة لاختصاصه بها، كأنه قيل: ذو العزة، كما تقول: صاحب صدق، لاختصاصه بالصدق. ويجوز أن يراد أنه ما من عزة لأحد من الملوك وغيرهم إلا وهو ربها ومالكها، كقوله تعالىٰ: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران:٢٦]. اشتملت السورة علىٰ ذكر ما قاله المشركون في الله ونسبوا إليه مما هو منزه عنه، وما عاناه المرسلون من جهتهم، وما خوَّلوه في العاقبة من النصرة عليهم، فختمها بجوامع ذلك من تنزيه ذاته عما وصفه به المشركون، والتسليم علىٰ المرسلين ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٢﴾ [الصافات:١٨٢]، علىٰ ما قيض لهم من حسن العواقب، والغرض تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك، ولا يخلوا به، ولا يغفلوا عن مضمنات كتابه الكريم ومودعات قرآنه المجيد.

وَأَقْصَىٰ مَا يُمْكِنُ عِرْفَانُهُ مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ ثَلَاثَةُ أنواع:

أحدها: تنزيهه وتقديسه عن كل ما لا يليق بِصِفَاتِ الإِلَهِيَّةِ، وَهُوَ لَفْظَةُ ﴿سُبۡحَٰنَ﴾.

وَثَانِيهَا: وَصْفُهُ بِكُلِّ مَا يَلِيقُ بِصِفَاتِ الإِلَهِيَّةِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ﴾، فَإِنَّ الرُّبُوبِيَّةَ إِشَارَةٌ إِلَىٰ التَّرْبِيَةِ وَهِيَ دَالَّةٌ عَلَىٰ كَمَالِ الحِكْمَةِ، والرَّحْمَةُ والعِزَّةُ إِشَارَةٌ إِلَىٰ كَمَالِ القُدْرَةِ.

وَثَالِثُهَا: كَوْنُهُ مُنَزَّهًا فِي الإِلَهِيَّةِ عَنِ الشَّرِيكِ والنَّظِيرِ، وقوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ﴾ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ القَادِرُ عَلَىٰ جَمِيعِ الحَوَادِثِ، لِأَنَّ الأَلِفَ واللَّامَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱلۡعِزَّةِ﴾ تُفِيدُ الِاسْتِغْرَاقَ، وَإِذَا كَانَ الكُلُّ مُلْكًا لَهُ وَمِلْكًا لَهُ لَمْ يَبْقَ لِغَيْرِهِ شَيْءٌ، فَثَبَتَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠﴾ [الصافات:١٨٠]، كَلِمَةٌ مُحْتَوِيَةٌ عَلَىٰ أَقْصَىٰ الدَّرَجَاتِ وَأَكْمَلِ النِّهَايَاتِ فِي مَعْرِفَةِ إِلَهِ العَالَمِ.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١﴾ [الصافات:١٨١]، أي: الذين بلغوا عن الله عَزَّوَجَلَّ التوحيد والشرائع؛ لأن أعلىٰ مراتب البشر أن يكون كاملًا في نفسه مكملًا لغيره وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فلا جرم يجب علىٰ كل أحد الاقتداء بهم والاهتداء بهداهم.

﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٢﴾ [الصافات:١٨٢]، أي: علىٰ هلاك الأعداء ونصرة الأنبياء، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٥﴾ [الأنعام:٤٥].

وروىٰ ابن أبي حاتم في «تفسيره» بسند صحيح إلىٰ الشَعْبِي مرسلًا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من سرَّه أن يَكتال بالمكيال الأوفىٰ من الأجر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه، أو حين يريد أن يقوم: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٢﴾ [الصافات:١٨٠-١٨٢]»[(١)].

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» برقم (١٨٣٢٤).

ولابن السني في «اليوم والليلة»، وعبد بن حميد في «المسند»، والبيهقي في «الدعوات»، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا فرغ من صلاته لا أدري قبل أن يسلم أو بعده، يقول.

ولفظ البيهقي قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غير مرة، ولا مرتين يقول في آخر صلاته أو حين ينصرف.

ولفظ عبد بن حميد: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول دبر الصلاة، لا أدري قبل التسليم، أو بعد التسليم.

وفي روايته: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا سلم من صلاة قال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٢﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢]، وإسناده ضعيف(١).

«فإن العزة تتضمن القوة، ولله القوة جميعًا، يقال: عز يعَز -بفتح العين- إذا اشتد وقوي، ومنه الأرض العزاز: الصلبة الشديدة، وعز يعِز -بكسر العين- إذا امتنع ممن يرومه، وعز يعُز -بضم العين- إذا غلب وقهر، فأعطوا أقوىٰ الحركات -وهي الضمة- لأقوىٰ المعاني، وهو الغلبة والقهر للغير، وأضعفها -وهي الفتحة- لأَضعف هذه المعاني، وهو كون الشيء في نفسه صلبًا، ولا يلزم من ذلك أَن يمتنع عمن يرومه، والحركة المتوسطة -وهي الكسرة- للمعنىٰ

---

(١) رواه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (١١٩)، وعبد ابن حميد كما في «المنتخب» (٩٥٤)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (١٢٨)، وفيه أبو هارون العبدي عمارة بن جوين وهو متروك، ومنهم من كذبه.

المتوسط، وهو القوي الممتنع عن غيره، ولا يلزم منه أن يقهر غيره ويغلبه، فأعطوا الأقوىٰ للأقوىٰ والأضعف للأضعف والمتوسط للمتوسط.

ولا ريب أن قهر المريد عما يريده من أقوىٰ أوصاف القادر، فإِن قهره عن إرادته وجعله مريدًا كان أَقوىٰ أنواع القهر، والعز ضد الذل، والذل أصله الضعف والعجز، فالعز يقتضي كمال القدرة والعزة، ولهذا يوصف به المؤمن، ولا يكون ذمًّا له بخلاف الكبر. قال رجل للحسن البصري: إنك متكبر، فقال: «لست متكبِّرًا، ولكني عزز».

وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، وقال ابن مسعود: «ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر»(١). وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم أعز الإسلام بأحبِّ هذيْنِ الرَّجُلَيْنِ: عُمَرَ بْنِ الخَطَّاب، أَو أَبِي جَهْل بْن هِشَام**»(٢)، وفي بعض الآثار: «إِن الناس يطلبون العزة في أبواب الملوك، ولا يجدونها إِلا في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ»(٣).

وفي الحديث: «اللَّهُمَّ أَعِزَّنَا بِطَاعَتِكَ وَلا تُذِلَّنَا بِمعْصِيتكَ»(٤)، وقال بعضهم: من أَراد عزًّا بلا سلطان، وكثرة بلا عشيرة، وغنىٰ بلا مال، فلينتقل من ذل المعصية إلىٰ عز الطاعة، فالعزة من جنس القدرة والقوة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٦٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٨١) من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الألباني.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) لم أقف عليه، وروىٰ نحوه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١١٣) من قول الفضيل بن عياض قال: «أَعِزَّنَا بِعِزِّ الطَّاعَةِ، وَلَا تُذِلَّنَا بِذُلِ الْمَعْصِيَةِ».

وقد ثبت في «الصحيح» عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِي خَيْر وَأَحَبُّ إِلَىٰ اللهُ مَنَ الْمُؤْمِنِ الضعيف، وفي كل خير**»(١). فالقدرة إن لم يكن معها حكمة، بل كان القادر يفعل ما يريده بلا نظر في العاقبة، ولا حكمة محمودة يطلبها بإرادته ويقصدها بفعله - كان فعلة فسادًا، كصاحب شهوات الغي والظلم، الذي يفعل بقوته ما يريده من شهوات الغي في بطنه وفرجه، ومن ظلم الناس، فإن هذا وإن كان له قوة وعزة لكن لمَّا لم يقترن بها حكمة كان ذلك معونة علىٰ شره وفساده»(٢).

❁ ❁ ❁

الرحيم الودود

قال تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠﴾ [هود: ٩٠].

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الأَنْبَارِيُّ: الوَدُودُ فِي أَسْمَاءِ الله تَعَالَىٰ المُحِبُّ لِعِبَادِهِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: وَدِدْتُ الرَّجُلَ أَوَدُّهُ، وَقَالَ الأَزْهَرِيُّ فِي كِتَابِ «شَرْحِ أَسْمَاءِ الله تَعَالَىٰ»: وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ودود فعولًا بِمَعْنَىٰ مَفْعُولٍ كَرَكُوبٍ وَحَلُوبٍ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ عِبَادَهُ الصَّالِحِينَ يَوَدُّونَهُ وَيُحِبُّونَهُ لِكَثْرَةِ إِفْضَالِهِ وَإِحْسَانِهِ عَلَىٰ الخَلْقِ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ١٠٨).

قَالَ الأَزْهَرِيُّ: قَالَ بَعْضُ أَهْلِ اللُّغَةِ: يَجُوزُ أن يكون ودود فعولًا بِمَعْنَىٰ مَفْعُولٍ كَرَكُوبٍ وَحَلُوبٍ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ عِبَادَهُ الصَّالِحِينَ يَوَدُّونَهُ وَيُحِبُّونَهُ لِمَا عَرَفُوا مِنْ كَمَالِهِ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، قَالَ: وَكِلْتَا الصِّفَتَيْنِ مَدْحٌ؛ لِأَنَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ إِذَا أَحَبَّ عِبَادَهُ المُطِيعِينَ، فَهُوَ فَضْلٌ مِنْهُ، وَإِنْ أَحَبَّهُ عِبَادُهُ العَارِفُونَ فَلِمَا تَقَرَّرَ عِنْدَهُمْ مِنْ كَرِيمِ إِحْسَانِهِ.

وَرَابِعُهَا: قَالَ القَفَّالُ: قِيلَ: الوَدُودُ قَدْ يَكُونُ بِمَعْنَىٰ الحَلِيمِ مِنْ قَوْلِهِمْ: دَابَّةٌ وَدُودٌ، وَهِيَ المُطِيعَةُ القِيَادِ الَّتِي كَيْفَ عَطَفْتَهَا انْعَطَفَتْ، وَأَنْشَدَ قُطْرُبٌ:

وَأَعْــدَدْتُ لِلْحَــرْبِ خَيْفَانَــةً ... ذَلُــولَ القِيَــادِ وَقَاحًــا وَدُودًا

«وَأما الوَدُود فَفِيهِ قَولَانِ:

أَحدهمَا: أَنه بِمَعْنىٰ فَاعل، وَهُوَ الَّذِي يحب أنبياءه وَرُسُله وأولياءه وعباده المُؤمنينَ.

وَالثَّانِي: أَنه بِمَعْنىٰ مودود، وَهُوَ المحبوب الَّذِي يسْتَحق أَن يحب الحبَّ كُله، وَأَن يكون أحب إِلَىٰ العَبْد من سَمعه وبصره وَجَمِيع محبوباته»(١).

«وهو مع ذلك الغفور الودود يغفر لمن تاب إليه ويوده ويحبه، فهو سبحانه الموصوف بشدة البطش ومع ذلك هو الغفور الودود المتودد إلىٰ عباده بنعمه الذي يود من تاب إليه وأقبل عليه، وهو الودود -أيضًا- أي: المحبوب، قال البخاري في «صحيحه»(٢): الودود الحبيب. والتحقيق أن اللفظ يدل علىٰ

(١) «جلاء الأفهام» (ص: ٣١٥).
(٢) (٩/ ١٢٤).

الأمرين؛ علىٰ كونه وادًّا لأوليائه وموودًا لهم، فأحدهما بالوضع والآخر باللزوم، فهو الحبيب المحب لأوليائه يحبهم ويحبونه، وقال شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠﴾ [هود:٩٠].

وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور! فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه، وكذلك قد يرحم من لا يحب، والرب تعالىٰ يغفر لعبده إذا تاب إليه ويرحمه ويحبه مع ذلك، فإنه يحب التوابين، وإذا تاب إليه عبده أحبه ولو كان منه ما كان»(١).

«فالمحبة شجرة في القلب عروقها الذل للمحبوب، وساقها معرفته، وأغصانها خشيته، وورقها الحياء منه، وثمرتها طاعته، ومادتها التي تسقيها ذِكرُه، فمتىٰ خلا الحب عن شيء من ذلك كان ناقصًا.

وقد وصف الله سبحانه نفسه بأنه يحب عباده المؤمنين ويحبونه، فأخبر أنهم أشد حبًّا لله، ووصف نفسه بأنه الودود، وهو الحبيب، قاله البخاري. والود خالص الحب، فهو يود عباده المؤمنين ويودونه.

وقد روىٰ البخاري في «صحيحه» من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يروىٰ عن ربه عَزَّ وَجَلَّ أنه قال: «**مَن أهانَ لي وليًّا فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضتُ عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع**

---

(١) «التبيان في أقسام القرآن» (ص: ٩٣).

وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه»(١)، وفي لفظ في غير البخاري: «**فإذا أحببته كنتُ له سمعًا وبصرًا ويدًا ومؤيِّدًا**».

فتأمل كمال الموافقة في الكراهة كيف اقتضىٰ كراهة الرب تعالىٰ لمساءة عبده بالموت لما كره العبد مساخط ربه، وكمال الموافقة في الإرادة كيف اقتضىٰ موافقته في قضاء حوائجه وإجابة طلباته وإعاذته مما استعاذ به، كما قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا للنبي: «**ما أرىٰ ربك إلا يسارع في هواك**»(٢)، وقال له عمه أبو طالب: يا ابن أخي، ما أرىٰ ربك إلا يطيعك، فقال له: «وأنت يا عم لو أطعته أطاعك»(٣).

وفي «تفسير ابن أبي نجيح» عن مجاهد في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء:١٢٥]، قال: حبيبًا قريبًا، إذا سأله أعطاه، وإذا دعاه أجابه. وأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «يا موسىٰ، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد»(٤).

وتأمل هذه الباء في قوله: «**فبي يسمع وبي يبصر، وبي يبطش وبي يمشي**»، كيف تجدها مبيِّنة لمعنىٰ قوله: «**كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به**»

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٨٨)، ومسلم (١٤٦٤).

(٣) لم أقف عليه.

(٤) لم أقف عليه.

إلىٰ آخره، فإنْ سَمِعَ سَمِعَ بالله، وإن أبصر أبصر به، وإن بطش بطش به، وإن مشىٰ مشىٰ به، وهذا تحقيق قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [النحل:١٢٨]، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت:٦٩]، وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٩﴾ [الأنفال:١٩]، وقوله فيما رواه عنه رسوله من قوله: «**أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه**»[(١)]، وهذا ضد قوله: ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ٤٣﴾ [الأنبياء:٤٣]، فالصحبة التي نفاها ها هنا هي التي أثبتها لأحبابه وأوليائه.

فتأمل كيف جعل محبته لعبده متعلقة بأداء فرائضه وبالتقرب إليه بالنوافل بعدها لا غير، وفي هذا تعزية لمدعي محبته بدون ذلك أنه ليس من أهلها، وإنما معه الأماني الباطلة والدعاوي الكاذبة.

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا أحب الله العبد نادىٰ جبريل: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض**»[(٢)]، وفي لفظ لمسلم: «**إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانًا فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء. قال: ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلانًا فأبغضه،**

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٧٩٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال: فيُبغضه جبريل، ثم ينادي في السماء: إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه، ثم يوضع له البغضاء في الأرض»[١]. وفي لفظ آخر لمسلم عن سهيل بن أبي صالح قال: كنا بعرفة فمر عمر بن عبد العزيز، وهو علىٰ الموسم، فقام الناس ينظرون إليه، فقلت لأبي: يا أبت، إني أرىٰ الله يحب عمر بن عبد العزيز، قال: وما ذاك؟ قلت: لِمَا له من الحُبِّ في قلوب الناس، فقال: إني سمعتُ أبا هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يحدث عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ثم ذكر الحديث[٢].

وأخرجه الترمذي[٣]، ثم زاد في آخره: فذلك قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾ [مريم:٩٦]. انتهىٰ، وقال بعض السلف في تفسيرها: يحبهم ويحببهم إلىٰ عباده»[٤].

«فَلَيْسَ الشَّأْنُ فِي أَنْ تُحِبَّ اللهَ، بَلِ الشَّأْنُ فِي أَنْ يُحِبَّكَ اللهُ. وَلَا يُحِبُّكَ اللهُ إِلَّا إِذَا اتَّبَعْتَ حَبِيبَهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَصَدَّقْتَهُ خَبَرًا، وَأَطَعْتَهُ أَمْرًا، وَأَجَبْتَهُ دَعْوَةً، وَآثَرْتَهُ طَوْعًا. وَفَنِيتَ عَنْ حُكْمِ غَيْرِهِ بِحُكْمِهِ، وَعَنْ مَحَبَّةِ غَيْرِهِ مِنَ الخَلْقِ بِمَحَبَّتِهِ، وَعَنْ طَاعَةِ غَيْرِهِ بِطَاعَتِهِ. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ، فَلَا تَتَعَنَّ. وَارْجِعْ مِنْ حَيْثُ شِئْتَ فَالتَمِسْ نُورًا. فَلَسْتَ عَلَىٰ شَيْءٍ.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٣٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٣٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٣١٦١) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وصححه الألباني.

(٤) «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» (ص: ٤٠٩).

وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، أَي: الشَّأْنُ فِي أَنَّ اللهَ يُحِبُّكُمْ. لَا فِي أَنَّكُمْ تُحِبُّونَهُ، وهذا لَا تَنَالُونَهُ إِلَّا بِاتِّبَاعِ الحَبِيبِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(١).

«فالرب سبحانه إذا علم من محل أهلية لفضله ومحبته ومعرفته وتوحيده حبب إليه ذلك ووضعه فيه وكتبه في قلبه ووفقه له وأعانه عليه ويسر له طرقه وأغلق دونه الأبواب التي تحول بينه وبين ذلك، ثم تولاه بلطفه وتدبيره وتيسيره وتربيته أعظم من تربية الوالد الشفيق الرحيم المحسن لولده الذي هو أحب شيء إليه، فلا يزال يعامله بلطفه ويختصه بفضله ويؤثره برحمته ويمده بمعونته ويؤيده بتوفيقه ويريه مواقع إحسانه إليه وبره به، فيزداد العبد به معرفة وله محبته وإليه إنابة وعليه توكلًا، ولا يتولىٰ معه غيره، ولا يعبد معه سواه، وهذا هو الذي عرف قدر النعمة وعرف المنعم وأقر بنعمته وصرفها في مرضاته.

واقتضت حكمة الرب تعالىٰ وَجُودُه وكرمُه وإحسانُه أن بذر في هذا القلب بذر الإيمان والمعرفة، وسقاه ماء العلم النافع والعمل الصالح، وأطلع عليه من نوره شمس الهداية، وصرف عنه الآفات المانعة من حصول الثمرة، فأنبتت أرضه الزاكية من كل زوج كريم، كما في «الصحيح» من حديث أبيٰ موسىٰ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ مِنَ الهُدَىٰ والعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ منها طَائِفَة طَيِّبَة قَبِلَت المَاء فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا طَائِفَةٌ أَجَادِبُ أَمْسَكَت الماءِ فَسُقِي النَّاسُ وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةً**

(١) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (٣/ ٣٩).

أُخْرَىٰ إِنَّمَا هي قِيعَانٌ لا تَمْسِكَ مَاءً وَلا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ الله وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَل هُدَىٰ اللهُ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»(١).

فمثَّل القلوب بالأرض التي هي محل النبات والثمار، ومثَّل الوحيَ الذي وصل إليها من بارئها وفاطرها بالماءِ الذي ينزله علىٰ الأرض، فمن الأَرض أرض طيبة قابلة للماءِ والنبات، فلما أصابها الماءُ أنبتت ما انتفع به الآدميون والبهائم وأَقوات المكلفين وغيرهم، وهذه بمنزلة القلب القابل لِهُدىٰ الله ووحيه المستعد لزكائه فيه وثمرته ونمائه، وهذا خير قلوب العالمين.

ومن الأرض أرض صلبة منخفضة غير مرتفعة، ولا رابية، قابلة لحفظ الماءِ واستقراره فيها، ففيها قوة الحفظ وليس فيها قوة النبات، فلما حصل فيها الماءُ أَمسكته وحفظته فورده الناس لشربهم وشرب مواشيهم وسقوا منه زروعهم، وهذا بمنزلة القلب الذي حفظ الوحي وضبطه وأَداه إلىٰ من هو أفهم له منه وأَفقه منه وأَعرف بمراده، وهذا في الدرجة الثانية.

ومن الأرض أرض قيعان-وهي المستوية التي لا تنبت إما لكونها سبخة أو رمالًا، ولا يستقر فيها الماء-، فإذا وقع عليها الماءُ ذهب ضائعًا لم تمسكه لشرب الناس ولم تنبت به كلأً؛ لأنها غير قابلة لحفظ الماءِ، ولا لنبات الكلإِ والعشب، وهذا حال أَكثر الخلق وهم الأَشقياءُ الذين لم يقبلوا هدىٰ الله ولم يرفعوا به رأْسًا، ومن كان بهذه المثابة فليس من المسلمين، بل لا بد لكل مسلم

---

(١) أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

أن يزكو الوحي في قلبه فينبت من العمل الصالح والكلم الطيب ونفع نفسه وغيره بحسب قدرته، فمن لم ينبت قلبه شيئًا من الخير البتة، فهذا من أشقىٰ الأشقياءِ. فصلوات الله وسلامه علىٰ مَن الهُدىٰ والبيان والشفاءُ والعصمة في كلامه وفي أمثاله»(١).

❁ ❁ ❁

القابض الباسط

قال تعالىٰ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة:٢٤٥].

وعن أنس قال: غلا السعر علىٰ عهد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: يا رسول الله، لو سعَّرتَ لنا، فقال: «**إن الله هو القابض الرازق الباسط المسعر، وإني لأرجو أن ألقىٰ الله، ولا يطلبني أحد بمظلمة ظلمتها إياه في دم، ولا مال**»، رواه أبو داود والترمذي وصححه(٢).

لمَّا حثهم علىٰ الإخراج سهَّل عليهم الإقراض، وأخبر أنهم لا يمكنهم ذلك إلا بتوفيقه، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ﴾ [البقرة:٢٤٥]، يقتر علىٰ بعض ﴿وَيَبْصُۜطُ﴾ [البقرة:٢٤٥]، يوسع علىٰ بعض أو يقتر تارة ويوسع أخرىٰ حسبما تقتضيه مشيئته

---

(١) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ٩٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٤٥١)، والترمذي (١٣١٤)، وصححه الألباني.

المبنية على الحِكم والمصالح، وإذا علم العبد ذلك هان عليه الإعطاء، لأن الله تعالىٰ هو الرزاق، وهو الذي وسع عليه، فهو يسأل منه ما أعطاه، ولأنه يخلفه عليه في الدنيا ويثيبه عليه في العقبىٰ، فكأن الله تعالىٰ يقول: إذا علمتم أن الله هو القابض والباسط وأن ما عندكم إنما هو من بسطه وإعطائه، فلا تبخلوا عليه فأقرضوه وأنفقوا مما وسَّع عليكم وأعطاكم، ولا تعكسوا بأن تبخلوا لئلا يعاملكم مثل معاملتكم في التعكيس بأن يقبض بعد ما بسط.

وقال تعالىٰ: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٢﴾ [الشورىٰ:١٢].

لَمَّا حكَمَ عَلَىٰ مَنْ نَقَضَ عَهْدَ اللهِ فِي قَبُولِ التَّوْحِيدِ والنُّبُوَّةِ بِأَنَّهُمْ مَلْعُونُونَ فِي الدُّنْيَا وَمُعَذَّبُونَ فِي الآخِرَةِ فَكَأَنَّهُ قِيلَ: لَوْ كَانُوا أَعْدَاءَ اللهِ لَمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ النِّعَمِ واللَّذَّاتِ فِي الدُّنْيَا، فَأَجَابَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ بِهَذِهِ الآيَةِ، وَهُوَ أَنَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ عَلَىٰ البَعْضِ وَيُضَيِّقُهُ عَلَىٰ البَعْضِ، وَلَا تَعَلُّقَ لَهُ بِالكُفْرِ والإِيمَانِ، فَقَدْ يُوجَدُ الكَافِرُ مُوَسَّعًا عَلَيْهِ دُونَ المُؤْمِنِ، وَيُوجَدُ المُؤْمِنُ مُضَيَّقًا عَلَيْهِ دُونَ الكَافِرِ، فَالدُّنْيَا دَارُ امْتِحَانٍ. قَالَ الوَاحِدِيُّ: مَعْنَىٰ القَدْرِ فِي اللُّغَةِ قَطْعُ الشَّيْءِ عَلَىٰ مُسَاوَاةِ غَيْرِهِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ، وَلَا نُقْصَانٍ. وَقَالَ المُفَسِّرُونَ: مَعْنَىٰ (يَقْدِرُ) هَاهُنَا يُضَيِّقُ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾ [الطلاق:٧]، أَيْ: ضُيِّقَ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ يُعْطِيهِ بِقَدْرِ كِفَايَتِهِ لَا يَفْضُلُ عَنْهُ شَيْءٌ.

واعلم -رحمك الله- أن التوحيد والعمل الصالح أعظم أسباب بسط الله الرزق للعباد، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة:٦٦].

«وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَا احْتَاجَ تَقِيٌّ قَطُّ، يَقُولُ: إِنَّ اللهَ ضَمِنَ لِلْمُتَّقِينَ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ مَخْرَجًا مِمَّا يَضِيقُ عَلَىٰ النَّاسِ وَأَنْ يَرْزُقَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ فَيَدْفَعُ عَنْهُمْ مَا يَضُرُّهُمْ وَيَجْلِبُ لَهُمْ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ. فَإِذَا لَمْ يَحْصُلْ ذَلِكَ دَلَّ عَلَىٰ أَنَّ فِي التَّقْوَىٰ خَلَلًا فَلْيَسْتَغْفِرِ اللهَ وَلْيَتُبْ إِلَيْهِ، ولهذا جَاءَ فِي الحَدِيثِ المَرْفُوعِ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ أَكْثَرَ الِاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ»(١)»(٢).

واعْلَمْ أَنَّ الِاشْتِغَالَ بِالطَّاعَةِ سَبَبٌ لِانْفِتَاحِ أَبْوَابِ الخَيْرَاتِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ وُجُوهٌ:

أَحَدُهَا: أَنَّ الكُفْرَ سَبَبٌ لِخَرَابِ العَالَمِ، عَلَىٰ مَا قَالَ فِي كُفْرِ النَّصَارَىٰ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ [مريم:٩٠-٩١]، فَلَمَّا كَانَ الكُفْرُ سَبَبًا لِخَرَابِ العَالَمِ، وَجَبَ أَنْ يَكُونَ الإِيمَانُ سَبَبًا لِعِمَارَةِ العَالَمِ.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥١٨)، وابن ماجه (٣٨١٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (٨/ ٥٢٦).

وَثَانِيهَا: الآيَاتُ مِنْهَا هَذِهِ الآيَةُ وَمِنْهَا قَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ﴾ [الأعراف:٩٦]، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [المائدة:٦٦]، ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن:١٦]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣]، ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ [طه:١٣٢].

وَثَالِثُهَا: أَنَّهُ تَعَالَىٰ قَالَ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦]، فَإِذَا اشْتَغَلُوا بِتَحْصِيلِ المَقْصُودِ حَصَلَ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ سَبِيلِ التَّبَعِيَّةِ.

واعلم -رحمك الله- أن أعظم بسط من الله هو في طِيبِ النَّفْسِ، وَسُرُورِ القَلْبِ، وَفَرَحِه وَلَذَّتِه وَابْتِهَاجِه وَطُمَأْنِينَتِه وَانْشِرَاحِه وَنُورِه وَسَعَتِه وَعَافِيَته، وذلك يكون في معرفة الله ومحبته وإيثاره علىٰ مَا سواهُ.

«وقد علم أن الكمال الإنساني في ثلاثة أمور علوم يعرفها وأعمال يعمل بها وأحوال ترتب له علىٰ علومه وأعماله، وأفضل العلم والعمل والحال العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، والعمل بمرضاته وانجذاب القلب إليه بالحب والخوف والرجاء، فهذا أشرف ما في الدنيا، وجزاؤه أشرف ما في الآخرة، وأجل المقاصد معرفة الله ومحبته والأنس بقربه والشوق إلىٰ لقائه والتنعم بذكره، وهذا أجل سعادة الدنيا والآخرة، وهذا هو الغاية التي تطلب لذاتها، وانما يشعر العبد تمام الشعور بأن ذلك عين السعادة إذا انكشف له الغطاء وفارق الدنيا ودخل الآخرة، وإلا فهو في الدنيا، وإن شعر بذلك بعض الشعور فليس شعوره

به كاملًا للمعارضات التي عليه، والمحن التي امتحن بها، وإلا فليست السعادة في الحقيقة سوىٰ ذلك، وكل العلوم والمعارف تبع لهذه المعرفة مرادة لأجلها، وتفاوت العلوم في فضلها بحسب إفضائها إلىٰ هذه المعرفة وبُعدها.

فكل علم كان أقرب إفضاء إلىٰ العلم بالله وأسمائه وصفاته، فهو أعلىٰ مما دونه، وكذلك حال القلب، فكل حال كان أقرب إلىٰ المقصود الذي خلق له، فهو أشرف مما دونه، وكذلك الأعمال، فكل عمل كان أقرب إلىٰ تحصيل هذا المقصود كان أفضل من غيره، ولهذا كانت الصلاة والجهاد من أفضل الأعمال وأفضلها لقرب إفضائها إلىٰ المقصود، وهكذا يجب أن يكون، فإن كل ما كان الشيء أقرب إلىٰ الغاية كان أفضل من البعيد عنها»(١).

«وَقَدْ جَعَلَ اللهُ الحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ لِأَهْلِ مَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩٧]، وَقَدْ فُسِّرَتِ الحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ بِالقَنَاعَةِ والرِّضَا، والرِّزْقِ الحَسَنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، والصَّوَابُ: أَنَّهَا حَيَاةُ القَلْبِ وَنَعِيمُهُ، وَبَهْجَتُهُ وَسُرُورُهُ بِالإِيمَانِ وَمَعْرِفَةُ اللهِ، وَمَحَبَّتُهُ، والإِنَابَةُ إِلَيْهِ، والتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَا حَيَاةَ أَطْيَبُ مِنْ حَيَاةِ صَاحِبِهَا، وَلَا نَعِيمَ فَوْقَ نَعِيمِهِ إِلَّا نَعِيمَ الجَنَّةِ، كَمَا كَانَ بَعْضُ العَارِفِينَ يَقُولُ: إِنَّهُ لَتَمُرُّ بِي أَوْقَاتٌ أَقُولُ فِيهَا: إِنْ كَانَ أَهْلُ الجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذَا إِنَّهُمْ لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ، وَقَالَ غَيْرُهُ: إِنَّهُ لَيَمُرُّ بِالقَلْبِ أَوْقَاتٌ يَرْقُصُ فِيهَا طَرَبًا»(٢).

---

(١) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» (ص: ١١٣).

(٢) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (٣/ ٢٤٣).

«ولهذا جعل سبحانه وحيه الذي يلقيه إلىٰ الأنبياء رُوحًا، كما قال تعالىٰ: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر:١٥]. في موضعين من كتابه، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورىٰ:٥٢]؛ لأن حياة الأرواح والقلوب به، وهذه الحياة الطيبة هي التي خص بها سبحانه مَن قَبِلَ وحيَه، وعمل به، فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩٧].

فخصهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالحياة الطيبة في الدارين، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ﴾ [هود:٣]. ومثله قوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [النحل:٣٠]، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ﴾ [الزمر:١٠].

فبين سبحانه أنه يسعد المحسن بإحسانه في الدنيا وفي الآخرة، كما أخبر أنه يشقىٰ المسيء بإساءته في الدنيا والآخرة. قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه:١٢٤].

وقال تعالىٰ، وقد جمع بين النوعين: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام:١٢٥].

فأهل الهدىٰ والإيمان لهم شرح الصدر واتساعه وانفساحه، وأهل الضلال لهم ضيق الصدر والحرج.

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزمر:٢٢].

فأهل الإيمان في النور وانشراح الصدور، وأهل الضلال في الظلمة وضيق الصدور»[١].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**مَثَلُ البَخِيلِ والمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ ثُدِيِّهِمَا إِلَىٰ تَرَاقِيهِمَا، فَأَمَّا المُنْفِقُ، فَلَا يُنْفِقُ إِلَّا سَبَغَتْ أَوْ وَفَرَتْ عَلَىٰ جِلْدِهِ، حَتَّىٰ تُخْفِيَ بَنَانَهُ وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ، وَأَمَّا البَخِيلُ، فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا، فَهُوَ يُوَسِّعُهَا، وَلَا تَتَّسِعُ**»، متفق عليه[٢].

«لما كان البخيل محبوسًا عن الإحسان ممنوعًا عن البر والخير وكان جزاؤه من جنس عمله، فهو ضيق الصدر ممنوع من الانشراح ضيق العطن صغير النفس قليل الفرح كثير الهم والغم والحزن لا يكاد تقضىٰ له حاجة، ولا يُعان علىٰ مطلوب، فهو كرجل عليه جبَّة من حديد قد جُمعت يداه إلىٰ عنقه بحيث لا يتمكن من إخراجها، ولا حركتها، وكلما أراد إخراجها أو توسيع تلك الجبة لزمت كل حلقة من حلقها موضعها، وهكذا البخيل كلما أراد أن يتصدق منعه بخله فبقي قلبه في سجنه كما هو، والمتصدق كلما تصدق بصدقة انشرح لها قلبه وانفسح بها صدره، فهو بمنزلة اتساع تلك الجُبَّة عليه، فكلما تصدق

(١) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٤٣)، ومسلم (١٠٢١).

اتسع وانفسح وانشرح وقوي فرحه وعظم سروره، ولو لم يكن في الصدقة إلا هذه الفائدة وحدها لكان العبد حقيقًا بالاستكثار منها والمبادرة إليها»(١).

❁❁❁

السميع العليم

قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة:١٣٧].

وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف:٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة:١٢٧].

وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران:٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت:٣٦].

فهو سبحانه «السميع الذي قد استوىٰ في سمعه سر القول وجهره، وسع سمعه الأَصوات، فلا تختلف عليه أَصوات الخلق، ولا تشتبه عليه، ولا يشغله

---

(١) «الوابل الصيب من الكلم الطيب» ط: دار الكتاب العربي (ص: ٤٩).

منها سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل، ولا يبرمه كثرة السائلين، قالت عائشة: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادِلة تشكو إلىٰ رسول الله ﷺ وأنه ليخفىٰ عليَّ بعضُ كلامها، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة:١](١)»(٢).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٢٧﴾ [البقرة:١٢٧].

عَقَّبَ هَذَا الدُّعَاءَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٢٧﴾ كَأَنَّهُ يَقُولُ: تَسْمَعُ دُعَاءَنَا وَتَضَرُّعَنَا، وَتَعْلَمُ مَا فِي قَلْبِنَا مِنَ الإِخْلَاصِ وَتَرْكِ الِالتِفَاتِ إِلَىٰ أَحَدٍ سِوَاكَ، وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٢٧﴾ يُفِيدُ الحَصْرَ، فهو سُبْحَانَهُ لِكَمَالِهِ فِي هَذِهِ الصِّفَةِ يَكُونُ كَأَنَّهُ هُوَ المُخْتَصُّ بِهَا دُونَ غَيْرِهِ.

«ونظير ذلك قوله في سورة فصلت: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤﴾ [فصلت:٣٤].

فهذا لدفع شر شياطين الإنس، ثم قال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٦﴾ [فصلت:٣٦]، وقال هاهنا: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٦﴾ [فصلت:٣٦]، فأكد بـ«إن» وبضمير الفصل، وأتىٰ باللام في:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ١٢٧).

﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٦﴾ [فصلت:٣٦]. وقال في الأعراف: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠﴾ [الأعراف:٢٠٠].

وسر ذلك -والله أعلم-: أنه حيث اقتصر علىٰ مجرد الاسم ولم يؤكده أريد إثبات مجرد الوصف الكافي في الاستعاذة، والإخبار بأنه سبحانه يسمع ويعلم، فيسمع استعاذتك فيجيبك، ويعلم ما تستعيذ منه فيدفعه عنك، فالسمع لكلام المستعيذ والعلم بالفعل المستعاذ منه، وبذلك يحصل مقصود الاستعاذة، وهذا المعنىٰ شامل للموضعين، وامتاز المذكور في سورة فصلت بمزيد التأكيد والتعريف والتخصيص؛ لأن سياق ذلك بعد إنكاره سبحانه علىٰ الذين شكُّوا في سمعه لقولهم وعلمهم به، كما جاء في «الصحيحين» من حديث ابن مسعود قال: «اجتمع عند البيت ثلاثة نفر: قرشيان وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، فقالوا: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال أحدهم: يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إن أخفينا، فقال الآخر: إن سمع بعضه سمع كله، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٢﴾ [فصلت:٢٢]، إلىٰ قوله: ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾ [فصلت:٢٣]»(١).

فجاء التوكيد في قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٦﴾ [فصلت:٣٦]. في سياق هذا الإنكار: أي: هو وحده الذي له كمال قوة السمع وإحاطة العلم، لا كما يظن به أعداؤه الجاهلون: أنه لا يسمع إن أخفوا وأنه لا يعلم كثيرًا مما يعملون،

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٦)، ومسلم (٢٧٧٥).

وحسن ذلك أيضًا: أن المأمور به في سورة فصلت دفع إساءتهم إليه بإحسانه إليهم، وذلك أشق علىٰ النفوس من مجرد الإعراض عنهم، ولهذا عقبه بقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ٣٥﴾ [فصلت:٣٥]. فحسُن التأكيد لحاجة المستعيذ.

وأيضًا، فإن السياق هاهنا لإثبات صفات كماله وأدلة ثبوتها وآيات ربوبيته وشواهد توحيده، ولهذا عقب ذلك بقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ [فصلت:٣٧]، وبقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ [فصلت:٣٩].

فأتىٰ بأداة التعريف الدالة علىٰ أن من أسمائه «السميع العليم»، كما جاءت الأسماء الحسنىٰ كلها معرَّفة، والذي في الأعراف في سياق وعيد المشركين وإخوانهم من الشياطين، ووعد المستعيذ بأن له ربًّا يسمع ويعلم، وآلهة المشركين التي عبدوها من دونه ليس لهم أعين يبصرون بها، ولا آذان يسمعون بها، فإنه سميع عليم، وآلهتهم لا تسمع، ولا تبصر، ولا تعلم، فكيف تُسَوُّونها به في العبادة، فعلمت أنه لا يليق بهذا السياق غير التنكير، كما لا يليق بذلك غير التعريف، والله أعلم بأسرار كلامه.

«وكذلك إذا أشعر قلبه صفة سمعه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لأصوات عباده علىٰ اختلافها وجهرها وخفائها، وسواء عنده مَن أسرَّ القول ومَن جهر به، لا يشغله جهرُ من جهرَ عن سمعه لصوت من أَسرَّ، ولا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه

الأصوات علىٰ كثرتها واختلافها واجتماعها، بل هي عنده كلها كصوت واحد، كما أن خلق الخلق جميعهم وبعثهم عنده بمنزلة نفس واحدة»(١).

ولما كان المستعاذ منه في سورة «حم المؤمن» هو شر مجادلة الكفار في آياته وما ترتب عليها من أفعالهم المرئية بالبصر قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾ [غافر:٥٦].

فإنه لما كان المستعاذ منه كلامه وأفعالهم المشاهدة عيانًا قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾ [غافر:٥٦]، وهناك المستعاذ منه غير مشاهد لنا، فإنه يرانا هو وقبيله من حيث لا نراه، بل هو معلوم بالإيمان وإخبار الله ورسوله»(٢).

قلت: يأتي اسم السميع العليم ضمن الآيات الدالة علىٰ التحصين، مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧﴾ [البقرة:١٣٧].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٤﴾ [يوسف:٣٤].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥﴾ [آل عمران:٣٥].

---

(١) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ٤٤).

(٢) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ٩٦).

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٦﴾ [فصلت:٣٦].

وقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ فِي صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ، وَمَسَاءِ كُلِّ لَيْلَةٍ: بِاسْمِ اللهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ، وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَيَضُرُّهُ شَيْءٌ**»، رواه أهل السنن بإسناد صحيح(١).

«وفي قوله: ﴿سَمِيعٞ قَرِيبٞ ٥٠﴾ [سبأ:٥٠]، وبالبصير في نحو تسعة مواضع، ومضافًا في قوله: ﴿سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨﴾ [آل عمران:٣٨]، في قصة زكريا وإبراهيم»(٢).

قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ٥٠﴾ [سبأ:٥٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٞ﴾ أَيْ: يَسْمَعُ إِذَا نَادَيْتُهُ وَاسْتَعْدَيْتُ بِهِ عَلَيْكُمْ ﴿قَرِيبٞ﴾ يَأْتِيكُمْ مِنْ غَيْرِ تَأْخِيرٍ، لَيْسَ يَسْمَعُ عَنْ بُعْدٍ، وَلَا يلحق الداعي.

«وهو سبحانه سميع الدعاء، أي: يجيب الدعاء، كما يقول المصلي في الصلاة: سمع الله لمن حمده، أي: استجاب الله دعاء مَن حمده، وقد ثبت في «الصحيح» أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**إِذَا قَالَ الإِمَامُ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ،**

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٨٨)، والترمذي (٣٣٨٨)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١٠١٠٦)، وابن ماجه (٣٨٦٩) من حديث عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وصححه الألباني.

(٢) «المستدرك علىٰ مجموع الفتاوىٰ» (١/ ٥٣).

فَقُولُوا: اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ، يَسْمَعِ اللهُ لَكُمْ»(١)، فإن الله قال علىٰ لسان نبيه: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ»(٢).

ومن أراد إجابة الدعاء توسل إلىٰ الله باسمه السميع العليم.

❁ ❁ ❁

العليم الحكيم

قال تعالىٰ: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ٣٢﴾ [البقرة:٣٢].

العَلِيمُ مِنْ صِفَاتِ المُبَالَغَةِ التَّامَّةِ فِي العِلْمِ، والمُبَالَغَةُ التَّامَّةُ لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا عِنْدَ الإِحَاطَةِ بِكُلِّ المَعْلُومَاتِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فَلَا جَرَمَ لَيْسَ العَلِيمُ المُطْلَقُ إِلَّا هُوَ، فَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ٣٢﴾ عَلَىٰ سَبِيلِ الحَصْرِ.

والحَكِيمُ يُسْتَعْمَلُ عَلَىٰ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: بِمَعْنَىٰ العَلِيمِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الذَّاتِ.

والآخَرُ: أَنَّهُ الَّذِي يَكُونُ فَاعِلًا لِمَا لَا اعْتِرَاضَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الفِعْلِ.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٠٤) من حديث أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) «قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشرك والنفاق» (ص: ١٣٣).

وكَأَنَّ المَلَائِكَةَ قَالَتْ: أَنْتَ العَالِمُ بِكُلِّ المَعْلُومَاتِ فَأَمْكَنَكَ تَعْلِيمُ آدَمَ، وَأَنْتَ الحَكِيمُ فِي هَذَا الفِعْلِ المُصِيبُ فِيهِ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ مُرَادَ المَلَائِكَةِ مِنَ الحَكِيمِ، أَنَّهُ هُوَ الَّذِي حَكَمَ بِجَعْلِ آدَمَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ [يوسف:٨٣].

أي: إِنَّهُ هُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ يَعْنِي هُوَ العَالِمُ بِحَقَائِقِ الأُمُورِ الحَكِيمُ فِيهَا عَلَىٰ الوَجْهِ المطابق للفضل والإحسان والرحمة والمصلحة.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف:١٠٠].

أي: إِنَّهُ هُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ، أَعْنِي أَنَّ كَوْنَهُ لَطِيفًا فِي أَفْعَالِهِ إِنَّمَا كَانَ لِأَجْلِ أَنَّهُ عَلِيمٌ بِجَمِيعِ الِاعْتِبَارَاتِ المُمْكِنَةِ الَّتِي لَا نِهَايَةَ لَهَا، فَيَكُونُ عَالِمًا بِالوَجْهِ الَّذِي يُسَهِّلُ تَحْصِيلَ ذَلِكَ الصَّعْبِ، وَحَكِيمٌ أَيْ: مُحْكِمٌ فِي فِعْلِهِ، حَاكِمٌ فِي قَضَائِهِ، حَكِيمٌ فِي أَفْعَالِهِ مُبَرَّأٌ عن العبث والباطل.

«فهو سبحانه كما هو العليم الحكيم في اختياره من يختاره من خلقه وإضلاله من يضله منهم، فهو العليم الحكيم بما في أمره وشرعه من العواقب الحميدة والغايات العظيمة، قال تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة:٢١٦].

بيَّن سبحانه أن ما أمرهم به يعلم ما فيه من المصلحة والمنفعة لهم التي اقتضت أن يختاره ويأمرهم به، وهم قد يكرهونه إما لعدم العلم وإما لنفور الطبع، فهذا علمه بما في عواقب أمره مما لا يعلمونه، وذلك علمه بما في اختياره من خلقه بما لا يعلمونه، فهذه الآية تضمنت الحضَّ علىٰ التزام أمر الله، وإن شق علىٰ النفوس، وعلىٰ الرضا بقضائه، وإن كرهته النفوس وفي حديث الاستخارة: «**اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم، ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنتَ تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فَاقْدُرْهُ لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلمه شرًّا لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه، وَاقْدُرْ لي الخير حيث كان، ثم رضني به**»(١).

ولما كان العبد يحتاج في فعل ما ينفعه في معاشه ومعاده إلىٰ علم ما فيه من المصلحة، وقدرة عليه وتيسره له وليس له من نفسه شيء من ذلك، بل علمه ممن علم الإنسان ما لم يعلم وقدرته منه، فإن لم يقدره عليه وإلا فهو عاجز وتيسيره منه، فإن لم ييسره عليه وإلا فهو متعسر عليه بعد إقداره - أرشده النبي -صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم- إلىٰ محض العبودية، وهو جلب الخيرة من العالِم بعواقب الأمور وتفاصيلها وخيرها وشرها وطلب القدرة منه، فإنه إن لم

(١) أخرجه البخاري (٦٣٨٢) من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

يقدره وإلا فهو عاجز، وطلب فضله منه، فإن لم ييسره له ويهيئه له وإلا فهو متعذر عليه، ثم إذا اختاره له بعلمه وأعانه عليه بقدرته ويسره له من فضله، فهو يحتاج إلىٰ أن يبقيه عليه ويديمه بالبركة التي يضعها فيه والبركة تتضمن ثبوته ونموه، وهذا قدر زائد علىٰ إقداره عليه وتيسيره له، ثم إذا فعل ذلك كله، فهو محتاج إلىٰ أن يرضيه به، فإنه قد يهيئ له ما يكرهه فيظل ساخطًا ويكون قد خار الله له فيه. قال عبد الله بن عمر: «إن الرجل ليستخير الله فيختار له فيسخط علىٰ ربه، فلا يلبث أن ينظر في العاقبة، فإذا هو قد خار له»(١).

وفي «المسند» من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مِن سعادة ابن آدم استخارته الله تعالىٰ، ومن سعادة ابن آدم رضاه بما قضاه الله، ومن شقوة ابن آدم تركة استخارة الله عَزَّوَجَلَّ، ومن شقوة ابن آدم سخطه بما قضىٰ الله»(٢)، فالمقدور يكتنفه أمران: الاستخارة قبله، والرضا بعده، فمن توفيق الله لعبده وإسعاده إياه أن يختار قبل وقوعه ويرضىٰ بعد وقوعه، ومن خذلانه له أن لا يستخيره قبل وقوعه، ولا يرضىٰ به بعد وقوعه، وقال عمر بن الخطاب: «لا أبالي أصبحت علىٰ ما أحب أو علىٰ ما أكره؛ لأني لا أدري الخير فيما أحب أو فيما أكره»(٣).

---

(١) «تفسير القرطبي» (٥/ ٩٨).

(٢) أخرجه أحمد (١٤٤٤)، والترمذي (٢١٥١).

(٣) رواه أبو نعيم (٢٧١).

وقال الحسن: «لا تكرهوا النقمات الواقعة والبلايا الحادثة، فلرُبَّ أمر تكرهه فيه نجاتك، ولرُبَّ أمر تؤثره فيه عَطَبك»(١).

ومما يناسب هذا قوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح:٢٧]، بيَّن سبحانه حكمة ما كرهوه عام الحديبية من صد المشركين لهم حتىٰ رجعوا ولم يعتمروا وبيَّن لهم أن مطلوبهم يحصل بعد هذا فحصل في العام القابل، وقال سبحانه: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح:٢٧]، وهو صلح الحديبية، وهو أول الفتح المذكور في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ [الفتح:١]، فإن بسببه حصل من مصالح الدين والدنيا والنصر وظهور الإسلام وبطلان الكفر ما لم يكونوا يرجونه قبل ذلك، ودخل الناس بعضهم في بعض، وتكلم المسلمون بكلمة الإسلام وبراهينه وأدلته جهرة لا يخافون، ودخل في ذلك الوقت في الإسلام قريب ممن دخل فيه إلىٰ ذلك الوقت، وظهر لكل أحد بغيُ المشركين وعداوتهم وعنادهم، وعلِمَ الخاصُّ والعامُّ أن محمدًا وأصحابه أولىٰ الحق والهدىٰ، وأن أعداءهم ليس بأيديهم إلا العدوان والعناد، فإن البيت الحرام لم يصد عنه حاج ولا معتمر من زمن إبراهيم، فتحققت العرب عناد قريش وعداوتهم، وكان ذلك داعية لبشر كثير إلىٰ الإسلام وزاد عناد القوم وطغيانهم، وذلك من أكبر العون علىٰ نفوسهم، وزاد صبر المؤمنين

---

(١) «تفسير القرطبي» (٢/ ٣٩).

واحتمالهم والتزامهم لحكم الله وطاعة رسوله، وذلك من أعظم أسباب نصرهم، إلىٰ غير ذلك من الأمور التي علمها الله ولم يعلمها الصحابة، ولهذا سماه فتحًا، وسئل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أفتح هو؟ قال: «نعم»(١).

ومن هذا الباب ما يبتلي به عباده من المصائب ويأمرهم به من المكاره وينهاهم عنه من الشهوات هي طرق يوصلهم بها إلىٰ سعادتهم في العاجل والآجل، وقد حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات، وقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن**»(٢)، فالقضاء كله خير لمن أعطي الشكر والصبر جالبًا ما جلب.

وكذلك ما فعله بآدم وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد -صلىٰ الله عليهم وسلم- من الأمور التي هي في الظاهر محن وابتلاء وهي في الباطن طرق خفية أدخلهم بها إلىٰ غاية كمالهم وسعادتهم.

فتأمل قصة موسىٰ وما لطف له من إخراجه في وقت ذبح فرعون للأطفال، ووحيه إلىٰ أمه أن تلقيه في اليم، وسَوقه بلطفه إلىٰ دار عدوه الذي قدر هلاكه علىٰ يديه، وهو يذبح الأطفال في طلبه، فرماه في بيته وحجره علىٰ فراشه، ثم قدر له سببًا أخرجه من مصر وأوصله به إلىٰ موضع لا حكم لفرعون عليه، ثم قدر له سببًا أوصله به إلىٰ النكاح والغنىٰ بعد العزوبة والعَيلة، ثم ساقه إلىٰ بلد عدوه

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

فأقام عليه به حجته، ثم أخرجه وقومه في صورة الهاربين الفارين منه وكان ذلك عين نصرتهم علىٰ أعدائهم وإهلاكهم وهم ينظرون.

وهذا كله مما يبين أنه سبحانه يفعل ما يفعله لما يريده من العواقب الحميدة والحِكم العظيمة التي لا تدركها عقول الخلق، مع ما في ضمنها من الرحمة التامة والنعمة السابغة والتعرف إلىٰ عباده بأسمائه وصفاته، فكم في أكل آدم من الشجرة التي نهي عنها وإخراجه بسببها من الجنة مِن حِكمة بالغة لا تهتدي العقول إلىٰ تفاصيلها! وكذلك ما قدره لسيد ولده من الأمور التي أوصله بها إلىٰ أشرف غاياته وأوصله بالطرق الخفية فيها إلىٰ أحمد العواقب، وكذلك فعله بعباده وأوليائه يوصل إليهم نعمة ويسوقهم إلىٰ كمالهم وسعادتهم في الطرق الخفية التي لا يهتدون إلىٰ معرفتها إلا إذا لاحت لهم عواقبها، وهذا أمر يضيق الجنان عن معرفة تفاصيله ويحصر اللسان عن التعبير عنه، وأعرف خلق الله به أنبياؤه ورسله، وأعرفهم به خاتمهم وأفضلهم، وأمته في العلم به علىٰ مراتبهم ودرجاتهم ومنازلهم من العلم بالله وبأسمائه وصفاته.

وهو سبحانه قد أحاط علمًا بذلك كله قبل السماوات والأرض وقدره وكتبه عنده، ثم يأمر ملائكته بكتابه ذلك من الكتاب الأول قبل خلق العبد فيطابق حاله وشأنه لما كتب في الكتاب ولما كتبته الملائكة لا يزيد شيئًا، ولا ينقص مما كتبه سبحانه وأثبته عنده، كان في علمه قبل أن يكتبه، ثم كتبه كما في علمه، ثم وجد، كما كتبه قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج:٧٠].

والله سبحانه قد علم قبل أن يوجِد عباده أحوالَهم وما هم عاملون وما هم إليه صائرون، ثم أخرجهم إلىٰ هذه الدار ليظهر معلومه الذي علمه فيهم، كما علمه وابتلاهم من الأمر والنهي والخير والشر بما أظهر معلومه، فاستحقوا المدح والذم والثواب والعقاب بما قام بهم من الأفعال والصفات المطابقة للعلم السابق، ولم يكونوا يستحقون ذلك وهي في علمه قبل أن يعملوها، فأرسل رسله وأنزل كتبه وشرع شرائعه إعذارًا إليهم وإقامة للحجة عليهم لئلا يقولوا: كيف تعاقبنا علىٰ علمك فينا، وهذا لا يدخل تحت كسبنا وقدرتنا؟ فلما ظهر علمه فيهم بأفعالهم حصل العقاب علىٰ معلومه الذي أظهره الابتلاء والاختبار، وكما ابتلاهم بأمره ونهيه ابتلاهم بما زيَّن لهم من الدنيا وبما ركب فيهم من الشهوات، فذلك ابتلاء بشرعه وأمره، وهذا ابتلاء بقضائه وقدره.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف:٧]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧]، فأخبر في هذه الآية أنه خلق السماوات والأرض ليبتلي عباده بأمره ونهيه، وهذا من الحق الذي خلق به خلقه، وأخبر في الآية التي قبلها أنه خلق الموت والحياة ليبتليهم -أيضًا- فأحياهم ليبتليهم بأمره ونهيه، وقدر عليهم الموت الذي ينالون به عاقبة ذلك الابتلاء من الثواب والعقاب، وأخبر في الآية الأولىٰ أنه زيَّن لهم ما علىٰ الأرض ليبتليهم به أيهم يؤثر ما عنده، وابتلىٰ بعضهم ببعض، وابتلاهم بالنعم والمصائب، فأظهر هذا الابتلاء علمه السابق فيهم موجودًا عيانًا بعد أن كان غيبًا في علمه، فابتلىٰ أبوي

الإنس والجن كل منهما بالآخر، فأظهر ابتلاء آدم ما علمه منه وأظهر ابتلاء إبليس ما علمه منه، فلهذا قال للملائكة: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة:٣٠].

واستمر هذا الابتلاء في الذرية إلىٰ يوم القيامة، فابتلىٰ الأنبياء بأممهم وابتلىٰ أممهم بهم، وقال لعبده ورسوله وخليله: إني مبتليك ومُبتلٍ بك، وقال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء:٣٥]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ [الفرقان:٢٠]»(١).

«والمقصود أن الله سبحانه أَعلم بمواقع فضله ورحمته وتوفيقه، ومن يصلح لها، ومن لا يصلح، وأَن حكمته تأْبىٰ أَن يضع ذلك عند غير أَهله، كما تأْبىٰ أن يمنعه من يصلح له. وهو سبحانه الذي جعل المحل صالحًا وجعله أَهلًا وقابلًا، فمنه الإعداد والإمداد، ومنه السبب والمسبب. ومن اعترض بقوله: فهلَّا جعل المحالَّ كلها كذلك، وجعل القلوب علىٰ قلب واحد، فهو من أَجهل الناس وأَضلهم وأسفههم، وهو بمنزلة من يقول: لِم خلق الأَضداد، وهلَّا جعلها كلها شيئًا واحدًا، فلِمَ خلق الليل والنهار، والفوق والتحت، والحر والبرد، والدواءَ والداءَ، والشياطين والملائكة، والروائح الطيبة والكريهة، والحلو والمر، والحسن والقبيح؟ وهل يسمح خاطر من له أَدنىٰ مُسكة من عقل بمثل هذا السؤال الدَّالِّ علىٰ حمق سائله وفساد عقله؟ وهل ذلك إلا موجب ربوبيته وإلهيته وملكه وقدرته ومشيئته وحكمته، ويستحيل أن يتخلف موجب صفات كماله عنها؟ وهل حقيقة الملك إلا بإكرام الأولياءِ وإهانة الأَعداءِ؟

---

(١) «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» (ص: ٣٣).

وهل تمام الحكمة وكمال القدرة إِلا بخلق المتضادات والمختلفات وترتيب آثارها عليها وإِيصال ما يليق بكل منها إِليه؟ وهل ظهور آثار أَسمائه وصفاته في العالم إلا من لوازم ربوبيته وملكه؟ فهل يكون رزَّاقًا وغفارًا وعفوًّا ورحيمًا وحليمًا ولم يوجد من يرزقه، ولا من يغفر له ويعفو عنه ويحلم عنه ويرحمه؟ وهل انتقامه إلا من لوازم ربوبيته وملكه؟ فممن ينتقم إن لم يكن له أعداء ينتقم منهم؟ ويُري أولياءه كمال نعمته عليهم واختصاصه إياهم دون غيرهم بكرامته وثوابه؟

وهل في الحكمة الإلهية تعطيل الخير الكثير لأجل شر جزئي يكون من لوازمه؟ فهذا الغيث الذي يُحيي به الله البلادَ والعباد والشجر والدواب، كم يحبس من مسافر، ويمنع من قصاد، ويهدم من بناءٍ، ويعوق عن مصلحة؟ ولكن أين هذا مما يحصل به من المصالح؟ وهل هذه المفاسد في جنب مصالحه إلا كتفلة في بحر؟ وهل تعطيله لئلا تحصل به هذه المفاسد إلا موجبًا لأعظم المفاسد والهلاك؟ وهذه الشمس التي سخرها الله لمنافع عباده وإنضاج ثمارهم وأقواتهم وتربية أبدانهم وأبدان الحيوانات والطير، وفيها من المنافع والمصالح ما فيها كم تؤذي مسافرًا وغيره بحرِّها، وكم تجفف رطوبة، وكم تعطش حيوانًا، وكم تحبس عن مصلحة، وكم تنشف من مورد وتحرق من زرع؟! ولكن أين يقع هذا في جنب ما فيها من المنافع والمصالح الضرورية المكملة؟ فتعطيل الخير الكثير لأجل الشر اليسير شر كثير، وهو خلاف موجب الحكمة الذي تنزه الله سبحانه عنه»[(١)].

---

(١) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ١٠٠).

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢﴾ [البقرة:٣٢].

وما حكىٰ الله عن الملائكة وآدم دليل عَلَىٰ فَضْلِ العِلْمِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ مَا أَظْهَرَ كَمَالَ حِكْمَتِهِ فِي خَلقِهِ آدَمَ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ إِلَّا بِأَنْ أَظْهَرَ عِلْمَهُ، فَلَوْ كان في الإمكان وجود شيء من العلم أَشْرَف مِنَ العِلْمِ لَكَانَ مِنَ الوَاجِبِ إِظْهَارُ فَضْلِهِ بِذَلِكَ الشَّيْءِ، لَا بِالعِلْمِ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ يَدُلُّ عَلَىٰ فَضِيلَةِ العِلم وُجُوهٌ:

الأَوَّلُ: أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ سَمَّىٰ العِلْمَ بِالحِكْمَةِ، ثمَّ إِنَّهُ تَعالَىٰ عَظَّمَ أَمْرَ الحِكْمَةِ وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَىٰ عِظَمِ شَأْنِ العِلْمِ، بَيَانُ أَنَّهُ تَعَالَىٰ سَمَّىٰ العِلْمَ بِالحِكْمَةِ مَا يُرْوَىٰ عَنْ مُقَاتِلٍ: أَنَّهُ قَالَ: تَفْسِيرُ الحِكْمَةِ فِي القُرْآنِ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ:

أَحَدُهَا: مَوَاعِظُ القُرْآنِ، قَالَ فِي البَقَرَةِ: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ [البقرة:٢٣١]، يَعْنِي مَوَاعِظَ القُرْآنِ، وَفِي النِّسَاءِ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [النساء:١١٣]، يَعْنِي المَوَاعِظَ، وَمِثْلُهَا فِي آلِ عِمْرَانَ.

وَثَانِيهَا: الحِكْمَةُ بِمَعْنَىٰ الفَهْمِ والعِلْمِ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾ [مريم:١٢]، وَفِي لُقْمَانَ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [لقمان:١٢]، يَعْنِي الفَهم والعِلم.

وَثَالِثُهَا: الحِكْمَةُ بِمَعْنَىٰ النُّبُوَّةِ، فِي [النِّسَاءِ: ٥٤]: ﴿فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ يعني النبوة، وفي [ص: ٢٠]: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ يَعْنِي النُّبُوَّةَ، وَفِي [البَقَرَةِ: ٢٥١]: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾.

وَرَابِعُهَا: القُرْآنُ، فِي النَّحْلِ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾ [النحل:١٢٥]، وَفِي البَقَرَةِ: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩].

وَجَمِيعُ هَذِهِ الوُجُوهِ عِنْدَ التَّحْقِيقِ تَرْجِعُ إِلَىٰ العِلْمِ.

وقال تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ وَصَفَ العُلَمَاءَ فِي كِتَابِهِ بِخَمْسِ مَنَاقِبَ:

أَحَدُهَا: الإِيمَانُ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران:٧].

وَثَانِيهَا: التَّوْحِيدُ والشهادة: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:١٨]، إلىٰ قوله: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:١٨].

وَثَالِثُهَا: البُكَاءُ: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ [الإسراء:١٠٩].

وَرَابِعُهَا: الخُشُوعُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ [الإسراء:١٠٧]، الآيَةَ.

وَخَامِسُهَا: الخَشْيَةُ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ [التين:٨].

«الشَّرَائِع كلهَا فِي أُصُولهَا وَإِن تباينت متفقة مركوز حسنها فِي العُقُول، وَلَو وَقعت علىٰ غير مَا هِيَ عَلَيْهِ لَخَرجت عَن الحِكْمَة والمصلحة والرَّحْمَة، بل من المحَال أَن تَأتي بِخِلَاف مَا أَتَت بِهِ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون:٧١]، وَكَيف يجوز ذُو العقل أَن ترِدَ شَرِيعَة أحكم الحَاكِمين بضد مَا وَردت بِهِ، فَالصَّلَاة قد وُضعت علىٰ أكمل الوُجُوه وأحسنها الَّتِي تعبَّد بهَا الخَالِقُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عباده من تضمنها للتعظيم لَهُ بأنواع الجَوَارِح من

نطق اللِّسَان وَعمل اليَدَيْنِ والرِّجلَيْنِ والرَّأْس وحواسه وَسَائِر أَجزَاء البدن، كل يَأْخُذ لحظه من الحِكْمَة فِي هَذِه العِبَادَة العَظِيمَة المِقْدَار مَعَ أَخذ الحَواس البَاطِنَة بحظها مِنْهَا وَقيام القلب بِوَاجِب عبوديته فِيهَا، فَهِيَ مُشْتَمِلَة علىٰ الثَّنَاء والحَمْد والتمجيد والتَّسْبِيح والتَّكْبِير وَشَهَادَة الحق والقِيَام بَين يَدي الرب مقَام العَبْد الذَّلِيل الخاضع المُدبر المربوب، ثمَّ التذلل لَهُ فِي هَذَا المقَام والتضرع والتقرب إِلَيْهِ بِكَلَامِهِ، ثمَّ انحناء الظَّهْر ذلًّا لَهُ وخشوعًا واستكانة، ثمَّ استواؤه قَائِمًا ليستعد لخضوع أكمل لَهُ من الخضوع الأول، وَهُوَ السُّجُود من قيام فَيَضَع أشرف شَيْء فِيهِ وَهُوَ وَجهه علىٰ التُّرَاب خشوعًا لرَبه واستكانة وخضوعًا لعظمته وذلًّا لعزته، قد انْكَسَرَ لَهُ قلبه وذل لَهُ جِسْمه وخشعت لَهُ جوارحه، ثمَّ يَسْتَوِي قَاعِدًا يتَضَرَّع لَهُ ويتذلل بَين يَدَيْهِ ويسأله من فَضله، ثمَّ يعود إِلَىٰ حَاله من الذل والخشوع والاستكانة.

فَلَا يزَال هَذَا دأبه حَتَّىٰ يقْضِي صلَاته فيجلس عِنْد إِرَادَة الِانْصِرَاف مِنْهَا مثنيًا علىٰ ربه مُسلِّمًا علىٰ نبيه وعَلىٰ عباده، ثمَّ يصلي علىٰ رَسُوله، ثمَّ يسْأَل ربه من خَيره وبره وفضله، فَأَي شَيْء بعد هَذِه العِبَادَة من الحُسن؟! وَأي كَمَال وَرَاء هَذَا الكَمَال؟! وَأي عبودية أشرف من هَذِه العُبُودِيَّة؟! فَمن جوَّز عقلُه أَن ترِدَ الشَّرِيعَة بضدها من كل وَجه فِي القَوْل والعَمَل، وَأَنه لَا فرق فِي نفس الأَمر بَين هَذِه العِبَادَة وَبَين ضدها من السخرية والسب والبطر وكشف العَوْرَة والبَوْل علىٰ السَّاقَيْن والضحك والصفير وأنواع المجون وأمثال ذَلِك، فليعزِّ عقله، وليسأل اللهَ أَن يَهبهُ عقلًا سواهُ.

وَأما حُسن الزَّكَاة وَمَا تضمنته من مواساة ذَوي الحَاجَات والمسكنة والخلة من عباد الله الَّذين يعجزون عَن إِقَامَة نُفُوسهم وَيخَاف عَلَيْهِم التَّلف إِذا خلَّاهم الأَغْنِيَاء وأنفسَهم، وَمَا فِيهَا من الرَّحْمَة والإِحْسَان والبر والطهرة وإيثار أهل الإيثار، والاتصاف بِصفة الكَرم والجود والفضل والخُرُوج من سمات أهل الشُّح والبخل والدناءة - فَأمر لَا يستريب عَاقل فِي حسنه ومصلحته، وَأَن الآمِر بِهِ أحكم الحَاكِمين، وَلَيْسَ يجوز فِي العقل، وَلَا فِي الفطْرَة البَتَّةَ أَن ترد شَرِيعَة من الحَكِيم العَلِيم بضد ذَلِك أبدًا.

وَأما الصَّوْم فناهيك بِهِ من عبَادَة تكف النَّفس عَن شهواتها وتخرجها عَن شبه البَهَائِم إِلَىٰ شبه المَلَائِكَة المقربين، فَإِن النَّفس إِذا خليت ودواعي شهواتها التحقت بعالم البَهَائِم، فَإِذا كفت شهواتها لله ضيقت مجاري الشَّيْطَان وَصَارَت قريبَة من الله بترك عَادَتِهَا وشهواتها محبَّة لَهُ وإيثارًا لمرضاته وتقربًا إِلَيْهِ، فيدع الصَّائِم أحب الأَشْيَاء إِلَيْهِ وَأَعْظَمهَا لصوقًا بِنَفسِهِ من الطَّعَام والشَرَاب والجِمَاع من أجل ربه، فَهُوَ عبَادَة، وَلَا تتَصَوَّر حَقِيقَتهَا إِلَّا بترك الشَّهْوَة لله، فالصائم يدع طَعَامه وَشَرَابه وشهواته من أجل ربه، وهذا معنىٰ كَون الصَّوْم لَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَبِهَذَا فسر النَّبِي هَذِه الإِضَافَة فِي الحَدِيث فَقَالَ: «**يَقُول الله تَعَالَىٰ: كل عمل ابْن آدم يُضَاعف الحَسَنَة بِعشْرَة أَمْثَالهَا، قَالَ الله: إِلَّا الصَّوْمَ، فَأَنَّهُ لي وَأَنا أجزي بِهِ، يدع طَعَامه وَشَرَابه من أجلىٰ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٢٧)، ومسلم (١١٥١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حَتَّىٰ إن الصَّائِم ليتصور بِصُورَة مَن لَا حَاجَة لَهُ فِي الدُّنْيَا إِلَّا فِي تَحْصِيل رضىٰ الله، وَأَيُّ حُسن يزِيد علىٰ حُسن هَذِه العِبَادَة الَّتِي تكسر الشَّهْوَة وتقمع النَّفس وتحيي القلب وتفرحه وتزهد فِي الدُّنْيَا وشهواتها وترغب فِيمَا عِنْد الله وتذكر الأَغْنِيَاء بشأن المَسَاكِين وأحوالهم، وَأَنَّهُمْ قد أخذُوا بِنَصِيب من عيشهم فتعطف قُلُوبهم عَلَيْهِم ويعلمون مَا هم فِيهِ من نعم الله فيزدادوا لَهُ شكرًا؟!

وَبِالجُمْلَةِ فعون الصَّوْم علىٰ تقوىٰ الله أَمر مَشْهُور، فَمَا اسْتَعَانَ أحد علىٰ تقوىٰ الله وَحفظ حُدُوده وَاجْتنَاب مَحَارمه بِمثل الصَّوْم، فَهُوَ شَاهد لمن شَرعه وَأمر بِهِ بِأَنَّهُ أحكم الحَاكِمين وأرحم الرَّاحِمينَ، وَأَنه إِنَّمَا شَرعه إحسانًا إِلَىٰ عباده وَرَحْمَة بهم ولطفًا بهم لَا بخلًا عَلَيْهِم برزقه، وَلَا مُجَرَّد تَكْلِيف وتعذيب خَالٍ من الحِكْمَة والمصلحة، بل هُوَ غَايَة الحِكْمَة والرَّحْمَة والمصلحة، وَإِن شرع هَذِه العِبَادَات لَهُم من تَمام نعْمَته عَلَيْهِم وَرَحمته بهم.

وَأما الحَج فشأن آخر لَا يُدْرِكهُ إِلَّا الحنفاء الَّذين ضربوا فِي المحبَّة بِسَهْم، وشأنه أجل من أَن تحيط بِهِ العبارَة، وَهُوَ خَاصَّة هَذَا الدِّين الحنيف، حَتَّىٰ قيل فِي قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ﴾ [الحج:٣١]: أَي حُجَّاجًا. وَجعل الله بَيته الحَرَام قيَامًا للنَّاس، فَهُوَ عَمُود العَالَم الَّذِي عَلَيْهِ بِنَاؤُه، فَلَو ترك النَّاس كلهم الحَج سنةً لخرَّت السَّمَاء علىٰ الأَرْض، هَكَذَا قَالَ ترجمان القُرْآن ابْنُ عَبَّاس، فالبيت الحَرَام قيام العَالَم، فَلَا يزَال قيَامًا مَا زَالَ هَذَا البَيْت محجوجًا، فالحج هُوَ خَاصَّة الحنيفة ومعونة الصَّلَاة وسر قَول العَبْد: لَا إِلَه إِلَّا الله، فَإِنَّهُ مؤسس علىٰ التَّوْحِيد المَحْض والمحبة الخَالِصَة، وَهُوَ استزارة المحبوب لأحبابه ودعوتهم إِلَىٰ بَيته وَمحل كرامته، ولهذا إِذا دخلُوا فِي هَذِه العِبَادَة فشعارهم

«لبيْك اللَّهُمَّ لبيْك» إِجَابَة محب لدَعْوَة حَبِيبه، ولهذا كَانَ لِلتَّلْبِيَةِ موقع عِنْد الله، وَكلما أَكثر العَبْد مِنْهَا كَانَ أحب إِلَىٰ ربه وأحظىٰ، فَهُوَ لَا يملك نَفسه أَن يَقُول: لبيْك لبيْك حَتَّىٰ يَنْقَطِع نَفَسُه.

وَأما أسرار مَا فِي هَذِه العِبَادَة من الإِحْرَام وَاجْتنَاب العوائد وكشف الرَّأْس وَنزع الثِّيَاب المُعْتَادَة والطَّواف والوُقُوف بِعَرَفَة وَرمي الجمار وَسَائِر شَعَائِر الحَج فمما شهِدت بحسنه العُقُول السليمة والفطر المستقيمة وَعلمت بِأَن الَّذِي شرع هَذِه لَا حِكْمَة فَوق حكمته»(١).

«إخباره عن صدور الخلق والأمر عن حكمته وعلمه، فيذكر هذين الاسمين عند ذكر مصدر خلقه وشرعه تنبيهًا علىٰ أنهما إنما صدرا عن حكمة مقصودة مقارنة للعلم المحيط التام، لقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النمل:٦]، وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [الزمر:١]، فذكر العزة المتضمنة لكمال القدرة والتصرف والحكمة المتضمنة لكمال الحمد والعلم، وقوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٣٨﴾ [المائدة:٣٨]، وسمع بعض الأعراب قارئًا يقرؤها: (والله غفور رحيم) فقال: ليس هذا كلام الله، فقال: أتكذب بالقرآن؟! فقال: لا، ولكن لا يَحسُن هذا. فرجع القارئ إلىٰ خطئه فقال: ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٣٨﴾ [المائدة:٣٨]، فقال: صدقت.

(١) «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (٢/ ٢).

وإذا تأملت ختم الآيات بالأسماء والصفات وجدت كلامه مختتمًا بذكر الصفة التي يقتضيها ذلك المقام، حتىٰ كأنها ذكرت دليلًا عليه وموجبة له، وهذا كقوله: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨﴾ [المائدة:١١٨]، أي: فإن مغفرتك لهم مصدر عن عزة، هي كمال القدرة لا عن عجز وجهل، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ١٢﴾ [فصلت:١٢]، في عدة مواضع من القرآن، يذكر ذلك عقيب ذكره الأجرام العلوية وما تضمنه من فلق الإصباح وجعل الليل مسكنًا، وإجراء الشمس والقمر بحساب لا يعدوانه، وتزيين السماء الدنيا بالنجوم وحراستها.

وأخبر أن هذا التقدير المحكم المتقن صادر عن عزته وعلمه ليس أمرًا اتفاقيًّا لا يُمدح به فاعله، ولا يُثنىٰ عليه به كسائر الأمور الاتفاقية، ومن هذا خَتمُه سبحانه قصص الأنبياء وأممهم في سورة الشعراء عَقيب كل قصة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٩﴾ [الشعراء:٩]، فإن ما حكم به لرسله وأتباعهم ولأعدائهم صادر عن عزة ورحمة، فوضع الرحمة في محلها وانتقم من أعدائه بعزته ونجىٰ رسله وأتباعهم برحمته، والحكمة الحاصلة من ذلك أمر مطلوب مقصود، وهي غاية الفعل لا أنها أمر اتفاقي»(١).

❁ ❁ ❁

(١) «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» ت: النعساني (ص: ٢٠٠).

المبدئ المعيد

المُبدئ المُعيد معناه المُوجِد، لكن الإيجاد إذا لم يكن مسبوقًا بمثله يسمىٰ إبداءً، وإن كان مسبوقًا بمثله يسمىٰ إعادة، والله تعالىٰ بدأ خلق الإنسان، ثم هو الذي يعيدهم أي: يحشرهم، فالأشياء كلها منه بدت وإليه تعود، وبه بدت وبه تعود.

قال تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ [يونس:٤].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [يونس:٣٤].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ [البروج:١٣].

«وأما إقسامُه سبحانه بـ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾﴾ [المدثر:٣٣]، فلِمَا في أدباره وإقبال النهار مِن أبين الدلالات الظاهرة علىٰ المبدأ والمعاد، فإنه مبدأ ومعاد يومي مشهود بالعيان، بينما الحيوان في سكون الليل قد هدأت حركاتهم وسكنت أصواتهم ونامت عيونهم وصاروا إخوان الأموات إذ أقبل من النهار داعيه وأسمع الخلائق مناديه، فانتشرت منهم الحركات وارتفعت منهم الأصوات حتىٰ كأنهم قاموا أحياء من القبور، يقول قائلهم: الحمد لله الذي أحيانًا بعدما

أماتنا وإليه النشور. فهو معاد جديد بدأه وأعاده الذي يبدئ ويعيد، فمَن ذهب بالليل وجاء بالنهار سوىٰ الواحد القهار»(١).

ومِنَ الدَّلَائِلِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ إِمْكَانِ الحَشْرِ: هُوَ أَنَّهُ تَعَالَىٰ يَقُولُ: لَمَّا كُنْتُ قَادِرًا عَلَىٰ الإِيجَادِ أَوَّلًا فَلَأَنْ أَكُونُ قَادِرًا عَلَىٰ الإِعَادَةِ أَوْلَىٰ. وَهَذِهِ الدَّلَالَةُ تَقْرِيرُهَا فِي العقل ظاهر، وأنه تعالىٰ ذكرها فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ، مِنْهَا فِي البَقَرَةِ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة:٢٨]، ومنها قوله في (سبحان الذي): ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً﴾ [الإسراء:٤٩-٥٠]، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾ [الإسراء:٥١]، وَمِنْهَا فِي العَنْكَبُوتِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ﴾ [العنكبوت:١٩]، وَمِنْهَا قوله في الروم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم:٢٧]، وَمِنْهَا فِي يس: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ﴾ [يس:٧٩].

النَّوْعُ الثالث: الاستدلال باقتداره علىٰ السموات عَلَىٰ اقْتِدَارِهِ عَلَىٰ الحَشْرِ. وَذَلِكَ فِي آيَاتٍ مِنْهَا فِي سُورَةِ (سُبْحَانَ): ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الإسراء:٩٩]، وَقَالَ فِي يس: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس:٨١]، وَقَالَ فِي الأَحْقَافِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾

(١) «التبيان في أقسام القرآن» - الفكر (ص: ١٠٥).

[الأحقاف:٣٣]، ومنها في سورة ق: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ [ق:٣]، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق:١١]، ثمَّ قَالَ: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق:١٥].

النَّوْعُ الرَّابِعُ: الِاسْتِدْلَالُ عَلَىٰ وُقُوعِ الحَشْرِ بِأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ إِثَابَةِ المُحْسِنِ وَتَعْذِيبِ العَاصِي وَتَمْيِيزِ أَحَدِهِمَا مِنَ الآخَرِ بِآيَاتٍ، مِنْهَا فِي يُونُسَ: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ [يونس:٤]، وَمِنْهَا فِي طَهَ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [طه:١٥]، وَمِنْهَا فِي ص: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص:٢٧-٢٨].

النَّوْعُ الخَامِسُ: الِاسْتِدْلَالُ بِإِحْيَاءِ المَوْتَىٰ فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ صِحَّةِ الحَشْرِ والنَّشْرِ، فَمِنْهَا خَلْقُهُ آدَمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ابْتِدَاءً، وَمِنْهَا قِصَّةُ البَقَرَةِ، وهي قوله: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة:٧٣]، وَمِنْهَا قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٠]، وَمِنْهَا قَوْلُهُ: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩]، وَمِنْهَا قِصَّةُ يَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، فَإِنَّهُ تَعَالَىٰ اسْتَدَلَّ عَلَىٰ إِمْكَانِهِمَا بِعَيْنِ مَا اسْتَدَلَّ بِهِ عَلَىٰ جَوَازِ الحَشْرِ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾﴾ [مريم:٩]، وَمِنْهَا فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ الكَهْفِ، وَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ [الكهف:٢١].

وَمِنْهَا قِصَّةُ أَيُّوب عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ﴾ [الأنبياء:٨٤]، يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ تَعَالَىٰ أَحْيَاهُمْ بَعْدَ أَنْ مَاتُوا، وَمِنْهَا مَا أَظْهَرَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ يَدِ عِيسَىٰ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ مِنْ إِحْيَاءِ الموتىٰ حيث قال: ﴿يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [الحج:٦]، وَقَالَ: ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ﴾ [المائدة:١١٠]، وَمِنْهَا قَوْلُهُ: ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ٦٧﴾ [مريم:٦٧]، فَهَذَا هُوَ الإِشَارَةُ إِلَىٰ أُصُولِ الدَّلَائِلِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ عَلَىٰ الحشر.

ومنها الِاسْتِدْلَالُ بِحُصُولِ اليَقَظَةِ بَعْدَ النَّوْمِ عَلَىٰ جَوَازِ الحَشْرِ والنَّشْرِ، فَإِنَّ النَّوْمَ أَخُو المَوْتِ، واليَقَظَةُ شَبِيهَةٌ بِالحَيَاةِ بَعْدَ المَوْتِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام:٦٠]، ثُمَّ ذَكَرَ عَقِيبَهُ أَمْرَ المَوْتِ والبَعْثِ، فَقَالَ: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأنعام:٦١-٦٢]، وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ﴾ [الزمر:٤٢]، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٤٢﴾ [الزمر:٤٢]، والمُرَادُ مِنْهُ الِاسْتِدْلَالُ بِحُصُولِ هَذِهِ الأَحْوَالِ عَلَىٰ صِحَّةِ البَعْثِ والحَشْرِ والنَّشْرِ.

ومنها أَنَّ الإِحْيَاءَ بَعْدَ المَوْتِ لَا يُسْتَنْكَرُ إِلَّا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يَحْصُلُ الضِّدُّ بَعْدَ حُصُولِ الضِّدِّ، إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُسْتَنْكَرٍ فِي قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، لِأَنَّهُ لَمَّا جَازَ حُصُولُ المَوْتِ عَقِيبَ الحَيَاةِ فَكَيْفَ يُسْتَبْعَدُ حُصُولُ الحَيَاةِ مَرَّةً أُخْرَىٰ بَعْدَ المَوْتِ؟! فَإِنَّ حُكْمَ الضِّدَّيْنِ وَاحِدٌ، قَالَ تَعَالَىٰ مُقَرِّرًا لِهَذَا المَعْنَىٰ: ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ

وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الواقعة:٦٠]، وَأَيْضًا نَجِدُ النَّارَ مَعَ حَرِّهَا وَيُبْسِهَا تَتَوَلَّدُ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ مَعَ بَرْدِهِ وَرُطُوبَتِهِ فَقَالَ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس:٨٠]، فَكَذَا هَاهُنَا.

«وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦]، فهذه الغاية هي المرادة من العباد، وهي أن يعرفوا ربهم ويعبدوه وحده، وأما الغاية المرادة بهم فهي الجزاء بالعدل والفضل والثواب والعقاب، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم:٣١]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [طه:١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [النحل:٣٩]، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ [يونس:٣-٤].

فتأمل الآن كيف اشتمل خلق السموات والأرض وما بينهما علىٰ الحق أولًا وآخرًا ووسطًا، وأنها خلقت بالحق وللحق وشاهدة بالحق، وقد أنكر تعالىٰ علىٰ من زعم خلاف ذلك فقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا

تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون:١١٥]، ثم نزه نفسه عن هذا الحسبان المضاد لحكمته وعلمه وحمده فقال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ [طه:١١٤]»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف:٢٩-٣٠].

وعن عَبْد اللهِ بن مسعود: حدثنا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثم يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثم يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثم يَبْعَثُ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكًا بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُكْتَبُ عَمَلُهُ، وَأَجَلُهُ، وَرِزْقُهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثم يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُ الجَنَّةَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُ النَّارَ» متفق عليه(٢).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَىٰ لِلْغُرَبَاءِ»، رواه مسلم(٣).

---

(١) «بدائع الفوائد» (٤/ ٩٧١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

(٣) أخرجه مسلم (١٤٥).

«فَهَؤُلَاءِ هُمُ الغُرَبَاءُ المَمْدُوحُونَ المَغْبُوطُونَ، وَلِقِلَّتِهِمْ فِي النَّاسِ جِدًّا؛ سُمُّوا غُرَبَاءَ، فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ عَلَىٰ غَيْرِ هَذِهِ الصِّفَاتِ، فَأَهْلُ الإِسْلَامِ فِي النَّاسِ غُرَبَاءُ، والمُؤْمِنُونَ فِي أَهْلِ الإِسْلَامِ غُرَبَاءُ، وَأَهْلُ العِلْمِ فِي المُؤْمِنِينَ غُرَبَاءُ. وَأَهْلُ السُّنَّةِ الَّذِينَ يُمَيِّزُونَهَا مِنَ الأَهْوَاءِ والبِدَعِ فَهُمْ غُرَبَاءُ، والدَّاعُونَ إِلَيْهَا الصَّابِرُونَ عَلَىٰ أَذَىٰ المُخَالِفِينَ هُمْ أَشَدُّ هَؤُلَاءِ غُرْبَةً، وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ هُمْ أَهْلُ اللهِ حَقًّا، فَلَا غُرْبَةَ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّمَا غُرْبَتُهُمْ بَيْنَ الأَكْثَرِينَ، الَّذِينَ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِيهِمْ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦]، فَأُولَئِكَ هُمُ الغُرَبَاءُ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَدِينِهِ، وَغُرْبَتُهُمْ هِيَ الغُرْبَةُ المُوحِشَةُ، وَإِنْ كَانُوا هُمُ المَعْرُوفِينَ المُشَارَ إِلَيْهِمْ، كَمَا قِيلَ:

فَلَيْسَ غَرِيبًا مَنْ تَنَاءَتْ دِيَارُهُ ... وَلَكِنَّ مَنْ تَنْأَيْنَ عَنْهُ غَرِيبُ

فَإِذَا أَرَادَ المُؤْمِنُ الَّذِي قَدْ رَزَقَهُ اللهُ بَصِيرَةً فِي دِينِهِ، وَفِقْهًا فِي سُنَّةِ رَسُولِهِ، وَفَهْمًا فِي كِتَابِهِ، وَأَرَاهُ مَا النَّاسُ فِيهِ مِنَ الأَهْوَاءِ والبِدَعِ والضَّلَالَاتِ وَتَنَكُّبِهِمْ عَنِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَسْلُكَ هَذَا الصِّرَاطَ فَلْيُوَطِّنْ نَفْسَهُ عَلَىٰ قَدْحِ الجُهَّالِ وَأَهْلِ البِدَعِ فِيهِ، وَطَعْنِهِمْ عَلَيْهِ، وَإِزْرَائِهِمْ بِهِ وَتَنْفِيرِ النَّاسِ عَنْهُ وَتَحْذِيرِهِمْ مِنْهُ، كَمَا كَانَ سَلَفُهُمْ مِنَ الكُفَّارِ يَفْعَلُونَ مَعَ مَتْبُوعِهِ وَإِمَامِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَّا إِنْ دَعَاهُمْ إِلَىٰ ذَلِكَ، وَقَدَحَ فِيمَا هُمْ عَلَيْهِ: فَهُنَالِكَ تَقُومُ قِيَامَتُهُمْ وَيَبْغُونَ لَهُ الغَوَائِلَ وَيَنْصِبُونَ لَهُ الحَبَائِلَ وَيَجْلِبُونَ عَلَيْهِ بِخَيْلِ كَبِيرِهِمْ وَرَجِلِهِ.

فَهُوَ غَرِيبٌ فِي دِينِهِ لِفَسَادِ أَدْيَانِهِمْ، غَرِيبٌ فِي تَمَسُّكِهِ بِالسُّنَّةِ لِتَمَسُّكِهِمْ بِالبِدَعِ، غَرِيبٌ فِي اعْتِقَادِهِ لِفَسَادِ عَقَائِدِهِمْ، غَرِيبٌ فِي صَلَاتِهِ لِسُوءِ صَلَاتِهِمْ،

غَرِيبٌ فِي طَرِيقِهِ لِضَلَالِ وَفَسَادِ طُرُقِهِمْ، غَرِيبٌ فِي نِسْبَتِهِ لِمُخَالَفَةِ نَسَبِهِمْ، غَرِيبٌ فِي مُعَاشَرَتِهِ لَهُمْ؛ لِأَنَّهُ يُعَاشِرُهُمْ عَلَىٰ مَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ.

وَبِالجُمْلَةِ: فَهُوَ غَرِيبٌ فِي أُمُورِ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ، لَا يَجِدُ مِنَ العَامَّةِ مُسَاعِدًا، وَلَا مُعِينًا، فَهُوَ عَالِمٌ بَيْنَ جُهَّالٍ، صَاحِبُ سُنَّةٍ بَيْنَ أَهْلِ بِدَعٍ، دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ بَيْنَ دُعَاةٍ إِلَىٰ الأَهْوَاءِ والبِدَعِ، آمِرٌ بِالمَعْرُوفِ نَاهٍ عَنِ المُنْكَرِ بَيْنَ قَوْمٍ المَعْرُوفُ لَدَيْهِمْ مُنْكَرٌ والمُنْكَرُ مَعْرُوفٌ»(١).

❁ ❁ ❁

الكبير المتعال

قال تعالىٰ: ﴿عَـٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ٩﴾ [الرعد:٩].

يدل علىٰ عُلُوِّهُ عَلَىٰ المَخْلُوقَاتِ وَعَظَمَتُهُ، والعُلُوُّ رِفْعَتُهُ، والعَظَمَةُ قَدْرُهُ ذَاتًا وَوَصْفًا، فَكُلُّ شَيْءٍ تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ وَعَظْمَتِهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ؛ لِأَنَّهُ العَظِيمُ الَّذِي لَا أَعْظَمَ مِنْهُ، العَلِيُّ الَّذِي لَا أَعْلَىٰ مِنْهُ، الكَبِيرُ الَّذِي لَا أَكْبَرَ مِنْهُ، رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقُهُ وَمَلِيكُهُ، لَا رَبَّ غَيْرُهُ؛ وَلَا خَالِقَ سِوَاهُ، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ؛ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ؛ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ؛ وَلَا مَلْجَأَ مِنْهُ إِلَّا إِلَيْهِ؛ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

---

(١) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (٣/ ١٨٦) باختصار.

فَجَمِيعُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ: مِنَ الأَعْيَانِ وَصِفَاتِهَا؛ وَحَرَكَاتِهَا؛ فَهِيَ مَخْلُوقَةٌ لَهُ؛ مَقْدُورَةٌ لَهُ؛ مُصَرَّفَةٌ بِمَشِيئَتِهِ، لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ مِنْهَا عَنْ قُدْرَتِهِ وَمُلْكِهِ؛ وَلَا يُشْرِكُهُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ غَيْرُهُ؛ بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ؛ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَالعَبْدُ فَقِيرٌ إِلَىٰ اللهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ لَا يَسْتَغْنِي عَنِ اللهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، تَعَالَىٰ وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عن الشبيه والمثال.

«ومنزه عما يضاد صفات كماله: فمنزَّه عن الموت المضاد للحياة، وعن السِّنة والنوم والسهو والغفلة المضاد للقيومية، وموصوف بالعلم منزه عن أضداده كلها من النسيان والذهول وعزوب شيء عن علمه، موصوف بالقدرة التامة منزه عن ضدها من العجز واللغوب والإعياء، موصوف بالعدل منزه عن الظلم، موصوف بالحكمة منزه عن العبث، موصوف بالسمع والبصر منزه عن أضدادهما من الصمم والبكم، موصوف بالعلو والفوقية منزه عن أضداد ذلك، موصوف بالغنىٰ التام منزه عما يضاده بوجه من الوجوه، ومستحق للحمد كله فيستحيل أن يكون غير محمود، كما يستحيل أن يكون غير قادر، ولا خالق، ولا حي، وله الحمد كله واجب لذاته، فلا يكون إلا محمودًا، كما لا يكون إلا إلهًا وربًّا وقادرًا، وَأَنَّ بِيَدِهِ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ يُجِيرُ، وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ»(١).

عَنْ سُهَيْلٍ، قَالَ: كَانَ أَبُو صَالِحٍ يَأْمُرُنَا، إِذَا أَرَادَ أَحَدُنَا أَنْ يَنَامَ، أَنْ يَضْطَجِعَ عَلَىٰ شِقِّهِ الأَيْمَنِ، ثُمَّ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الأَرْضِ وَرَبَّ العَرْشِ**

---

(١) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ١١٥) بتصرف يسير.

العَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الحَبِّ والنَّوَىٰ، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ والإِنْجِيلِ والفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الفَقْرِ». وَكَانَ يَرْوِي ذَلِكَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، رواه مسلم(١).

❁ ❁ ❁

الحكيم الحميد

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت:٤١-٤٢].

وُصِفَ بِالعِزَّةِ؛ لِأَنَّهُ لِصِحَّةِ مَعَانِيهِ مُمْتَنِعٌ الطَّعْنُ فِيهِ والإِزْرَاءُ عَلَيْهِ. وعزيز لأنه لا يبلغ حد حقيقية حقه لعزه في نفسه وعز من أنزل عليه وعز من خوطب به من أوليائه وأهل صفوته، استعارة تمثيلية شبَّه الكتاب في عدم تطرق الباطل إليه بوجه من الوجوه بمن هو محمي بحماية غالب قاهر يمنع جاره من أن يتعرض له العدو من جهة من جهاته، ثم أخرجه مخرج الاستعارة بأن عبر عن المشبه بما عبر به عن المشبه به، فقال: ﴿لَّا يَأْتِيهِ﴾ إلخ، أو لا يأتيه الباطل فيما أخبر عما مضىٰ، ولا فيما أخبر عن الأمور الآتية، أو الباطل هو الشيطان لا يستطيع أن يغيره بأن يزيد

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣).

فيه أو ينقص منه، أو لا يأتيه التكذيب من الكتب التي قبله، ولا يجيء بعده كتاب يبطله أو ينسخه.

وَقَالَ قَتَادَةُ: البَاطِلُ الشَّيْطَانُ، واللَّفْظُ لَا يَخُصُّ الشَّيْطَانَ. وَقَالَ ابْنُ جُبَيْرٍ والضَّحَّاكُ: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾: أَيْ كِتَابٌ مِنْ قَبْلِهِ فَيُبْطِلُهُ، وَلَا مِنْ بَعْدِهِ فَيَكُونُ عَلَىٰ هَذَا البَاطِلُ فِي مَعْنَىٰ المُبْطِلِ أَوْ يَكُونُ البَاطِلُ بِمَعْنَىٰ المُبْطَلِ مَصْدَرًا، فَيَكُونُ كَالعَافِيَةِ، وَقِيلَ: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾: أَيْ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ نُزُولُهُ، ﴿وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾: مِنْ بَعْدِ نُزُولِهِ. وَقِيلَ عَكْسُ هَذَا.

وَقِيلَ: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾: قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ، لِأَنَّ الأَنْبِيَاءَ بَشَّرَتْ بِهِ، فَلَمْ يَقْدِرِ الشَّيْطَانُ أَنْ يُدْحِضَ ذَلِكَ، ﴿وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾: بَعْدَ أَنْ أُنْزِلَ. وَقَالَ الطَّبَرِيُّ: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾: لَا يَقْدِرُ ذُو بَاطِلٍ أَنْ يَكِيدَهُ بِتَغْيِيرٍ وَلَا تَبْدِيلٍ، ﴿وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾: لَا يَسْتَطِيعُ ذُو بَاطِلٍ أَنْ يُلْحِدَ فِيهِ.

﴿تَنزِيلٌ﴾: أَيْ هُوَ تَنْزِيلٌ، ﴿مِّنۡ حَكِيمٍ﴾: أَيْ حَاكِمٍ أَوْ مُحْكِمٍ لِمَعَانِيهِ، ﴿حَمِيدٍ﴾: مَحْمُودٍ عَلَىٰ مَا أَسْدَىٰ لِعِبَادِهِ مِنْ تَنْزِيلِ هَذَا الكِتَابِ وَغَيْرِهِ مِنَ النِّعَمِ.

وحَمِيد بِمَعْنَىٰ مَحْمُود، أَيْ فِي جَمِيعِ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَىٰ عَنْهُ الجَمِيع مَحْمُودَة عَوَاقِبه وَغَايَاته، والحَمِيدُ قَدْ يَكُونُ بِمَعْنَىٰ الحَامِدِ، وَبِمَعْنَىٰ المَحْمُودِ، فَالمَحْمُودُ أَيْ يَسْتَحِقُّ الحَمْدَ مِنْ خَلْقِهِ بِمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، والحَامِدُ أَيْ يَحْمَدُ الخَلْقَ، وَيَشْكُرُهُمْ حَيْثُ يَجْزِيهِمْ بِالكَثِيرِ مِنَ الثَّوَابِ عَنِ القَلِيلِ مِنَ الأَعْمَالِ.

«فالحميد فعيل من الحَمد، وَهُوَ بِمَعْنىٰ مَحْمُود، وَأكْثر مَا يَأْتِي فعيلًا فِي أَسْمَائِهِ تَعَالَىٰ بِمَعْنىٰ فَاعل؛ كسميع وبصير وَعَلِيم وقدير وَعليٍّ وَحَكِيم وحليم، وَهُوَ كثير، وَكَذَلِكَ فعول كغفور وشكور وصبور»(١).

فالحميد هُوَ الَّذِي لَهُ من الصِّفَات وَأَسْبَاب الحَمد مَا يَقْتَضِي أَن يكون مَحْمُودًا وَإِن لم يحمده غَيره، فَهُوَ حميد فِي نَفسه، والمحمود من تعلق بِهِ حمد الحامدين، فَإِن الحَمد يسْتَلْزم الثَّنَاء والمحبة للمحمود، فَمن أحببته وَلم تُثنِ عَلَيْهِ لم تكن حامدًا لَهُ حَتَّىٰ تكون مثنيًا عَلَيْهِ محبًّا لَهُ، وهذا الثَّنَاء والحب تبع للأسباب المُقْتَضِيَة لَهُ، وَهُوَ مَا عَلَيْهِ المَحْمُود من صِفَات الكَمَال ونعوت الجلَال والإِحْسَان إِلَىٰ الغَيْر، فَإِن هَذِه هِيَ أَسبَاب المحبَّة، وَكلما كَانَت هَذِه الصِّفَات أجمع وأكمل كَانَ الحَمد والحب أتمَّ وَأعظم، والله سُبْحَانَهُ لَهُ الكَمَال المُطلق الَّذِي لَا نقص فِيهِ بِوَجْه مَا، والإِحْسَان كُله لَهُ وَمِنْه، فَهُوَ أَحَق بِكُل حمد وَبِكُل حب من كل جِهَة، فَهُوَ أهل أَن يُحَبَّ لذاته ولصفاته ولأفعاله ولأسمائه ولإحسانه وَلكُل مَا صدر مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٢٨﴾ [الشورىٰ:٢٨].

﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٢٨﴾ الوَلِيُّ الَّذِي يتولىٰ عباده بإحسانه، والحميد المَحْمُودُ عَلَىٰ مَا يُوَصِّلُ لِلْخَلْقِ مِنْ أَقْسَامِ الرَّحْمَةِ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤].

---

(١) «جلاء الأفهام» (ص: ٣١٥).

فالحَمِيدُ، وَهُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الحَمْدَ والثَّنَاءَ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ وَإِنْ كَانَ بَعْضُ الأَشْيَاءِ لَا يَحْمَدُهُ بِلِسَانِهِ فَنَفْسُهُ شَاهِدَةٌ عَلَىٰ أَنَّ المَحْمُودَ فِي الحَقِيقَةِ هُوَ.

❁❁❁

الغني الكريم

قال تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل:٤٠].

الكَرِيمُ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحْمَدُ وَيُسْتَحْسَنُ، والكَرِيمُ المَحْمُودُ فِيمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، والله تَعَالَىٰ مَوْصُوفٌ بِأَنَّهُ كَرِيمٌ، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ غَنِيٌّ عَنْ شُكْرِهِ لَا يَضُرُّهُ كُفْرَانُهُ، كَرِيمٌ لَا يَقْطَعُ عنه نعمه بسبب إعراضه عن الشكر.

«وَاعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَىٰ سَمَّىٰ سَبْعَةَ أَشْيَاءَ بِالكَرِيم: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾ [الانفطار:٦]؛ إِذْ لَا جَوَادَ أَجْوَدُ مِنْهُ، والقُرْآنُ بِالكَرِيم، لِأَنَّهُ لَا يُسْتَفَادُ مِنْ كِتَابٍ مِنَ الحِكَمِ والعُلُومِ مَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ، وَسَمَّىٰ مُوسَىٰ كَرِيمًا: ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [الدخان:١٧]، وَسَمَّىٰ ثَوَابَ الأَعْمَالِ كَرِيمًا: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [يس:١١]، وَسَمَّىٰ عرشه كريمًا: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل:٢٦]؛ لِأَنَّهُ مَنْزِلُ الرَّحْمَةِ، وَسَمَّىٰ جِبْرِيلَ كَرِيمًا: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾

[التكوير:١٩]، وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ عَزِيزٌ، وَسَمَّىٰ كِتَابَ سُلَيْمَانَ كَرِيمًا: ﴿إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ٢٩﴾ [النمل:٢٩]، فَهُوَ كِتَابٌ كَرِيمٌ مِنْ رَبٍّ كَرِيمٍ نَزَلَ بِهِ مَلَكٌ كَرِيمٌ عَلَىٰ نَبِيٍّ كَرِيمٍ لِأَجْلِ أُمَّةٍ كَرِيمَةٍ، فَإِذَا تَمَسَّكُوا بِهِ نَالُوا ثَوَابًا كَرِيمًا»(١).

عن سَلْمَانَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ العَبْدُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا حَتَّىٰ يَضَعَ فِيهِمَا خَيْرًا**»(٢).

وَاعْلَمْ أَنَّ عَيْشَ المُؤْمِنِ فِي الدَّنْيَا أَطْيَبُ مِنْ عَيْشِ الكَافِرِ لِوُجُوهٍ:

الأَوَّلُ: أَنَّهُ لَمَّا عَرَفَ أَنَّ رِزْقَهُ إِنَّمَا حَصَلَ بِتَدْبِيرِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَعَرَفَ أَنَّهُ تَعَالَىٰ مُحْسِنٌ كَرِيمٌ لَا يَفْعَلُ إِلَّا الصَّوَابَ كَانَ رَاضِيًا بِكُلِّ مَا قَضَاهُ وَقَدَّرَهُ، وَعَلِمَ أَنَّ مَصْلَحَتَهُ فِي ذَلِكَ، أَمَّا الجَاهِلُ، فَلَا يَعْرِفُ هَذِهِ الأُصُولَ فَكَانَ أَبَدًا فِي الحُزْنِ والشَّقَاءِ.

وَثَانِيهَا: أَنَّ المُؤْمِنَ أَبَدًا يَسْتَحْضِرُ فِي عَقْلِهِ أَنْوَاعَ المَصَائِبِ والمِحَنِ وَيُقَدِّرُ وُقُوعَهَا، وَعَلَىٰ تَقْدِيرِ وُقُوعِهَا يَرْضَىٰ بِهَا، لِأَنَّ الرِّضَا بِقَضَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ وَاجِبٌ، فَعِنْدَ وُقُوعِهَا لَا يَسْتَعْظِمُهَا بِخِلَافِ الجَاهِلِ، فَإِنَّهُ يَكُونُ غَافِلًا عَنْ تِلْكَ المَعَارِفِ، فَعِنْدَ وُقُوعِ المَصَائِبِ يَعْظُمُ تَأْثِيرُهَا فِي قَلْبِهِ.

وَثَالِثُهَا: أَنَّ قَلْبَ المُؤْمِنِ مُنْشَرِحٌ بِنُورِ مَعْرِفَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، والقَلْبُ إِذَا كَانَ مَمْلُوءًا مِنْ هَذِهِ المَعَارِفِ لَمْ يَتَّسِعْ لِلْأَحْزَانِ الوَاقِعَةِ بِسَبَبِ أَحْوَالِ الدُّنْيَا، أَمَّا قَلْبُ

---

(١) «التفسير الكبير» (٢/ ٢٦٤).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٨٨)، والترمذي (٣٥٥٦)، وصححه الألباني.

الجَاهِلِ، فَإِنَّهُ خَالٍ عَنْ مَعْرِفَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَلَا جَرَمَ يَصِيرُ مَمْلُوءًا مِنَ الأَحْزَانِ الوَاقِعَةِ بِسَبَبِ مَصَائِبِ الدُّنْيَا.

وَرَابِعُهَا: أَنَّ المُؤْمِنَ عَارِفٌ بِأَنَّ خَيْرَاتِ الحَيَاةِ الجُسْمَانِيَّةِ خَسِيسَةٌ، فَلَا يَعْظُمُ فَرَحُهُ بِوِجْدَانِهَا وَغَمُّهُ بِفُقْدَانِهَا، أَمَّا الجَاهِلُ، فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ سَعَادَةً أُخْرَىٰ تُغَايِرُهَا، فَلَا جَرَمَ يَعْظُمُ فَرَحُهُ بِوِجْدَانِهَا وَغَمُّهُ بِفُقْدَانِهَا.

وَخَامِسُهَا: أَنَّ المُؤْمِنَ يَعْلَمُ أَنَّ خَيْرَاتِ الدُّنْيَا وَاجِبَةُ التَّغَيُّرِ سَرِيعَةُ التَّقَلُّبِ، فَلَوْلَا تَغَيُّرُهَا وَانْقِلَابُهَا لَمْ تَصِلْ مِنْ غَيْرِهِ إِلَيْهِ.

واعلم أن الكَرَمَ إِفَادَةُ مَا يَنْبَغِي لَا لِعِوَضٍ، فَمَنْ يَهَبُ السِّكِّينَ مِمَّنْ يَقْتُلُ بِهِ نَفْسَهُ، فَهُوَ لَيْسَ بِكَرِيمٍ، وَمَنْ أَعْطَىٰ، ثمَّ طَلَبَ عِوَضًا، فَهُوَ لَيْسَ بِكَرِيمٍ، وَلَيْسَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ العِوَضُ عَيْنًا، بَلِ المَدْحُ وَالثَّوَابُ وَالتَّخَلُّصُ عَنِ المَذَمَّةِ كُلُّهُ عِوَض.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾ [العلق:٣].

ذَكَرُوا فِي بَيَانِ أَكْرَمِيَّتِهِ تَعَالَىٰ وُجُوهًا:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ كَمْ مِنْ كَرِيمٍ يَحْلُمُ وَقْتَ الجِنَايَةِ، لَكِنَّهُ لَا يَبْقَىٰ إِحْسَانُهُ عَلَىٰ الوَجْهِ الَّذِي كَانَ قَبْلَ الجِنَايَةِ، وَهُوَ تَعَالَىٰ أَكْرَمُ؛ لِأَنَّهُ يَزِيدُ بِإِحْسَانِهِ بَعْدَ الجِنَايَةِ، وَمِنْهُ قَوْلُ القَائِلِ:

مَتَىٰ زِدْتُ تَقْصِيرًا تَـزِدْ لِي تَفَضُّلَا ... كَـأَنِّيَ بِالتَّقْصِـيرِ أَسْـتَوْجِبُ الفَضْـلَا

وَثَانِيهَا: إِنَّكَ كَرِيمٌ لَكِنَّ رَبَّكَ أَكْرَمُ، وَكَيْفَ لَا وَكُلُّ كَرِيمٍ يَنَالُ بِكَرَمِهِ نَفْعًا إِمَّا مَدْحًا أَوْ ثَوَابًا أَوْ يَدْفَعُ ضَرَرًا، أَمَّا أَنَا فَالأَكْرَمُ؛ إِذْ لَا أَفْعَلُهُ إِلَّا لِمَحْضِ الكَرَمِ.

وَثَالِثُهَا: أَنَّهُ الأَكْرَمُ؛ لِأَنَّ لَهُ الِابْتِدَاءَ فِي كُلِّ كَرَمٍ وَإِحْسَانٍ، وَكَرَمُهُ غَيْرُ مَشُوبٍ بِالتَّقْصِيرِ.

وَرَابِعُهَا: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا حَثًّا عَلَىٰ القِرَاءَةِ، أَيْ: هَذَا الأَكْرَمُ؛ لِأَنَّهُ يُجَازِيكَ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرًا، أَوْ حَثًّا عَلَىٰ الإِخْلَاصِ، أَيْ: لَا تَقْرَأْ لِطَمَعٍ وَلَكِنْ لِأَجْلِي، وَدَعْ عَلَيَّ أَمْرَكَ فَأَنَا أَكْرَمُ مِنْ أَنْ لَا أُعْطِيَكَ مَا لَا يُخْطَرُ بِبَالِكَ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّ المَعْنَىٰ تَجَرَّدْ لِدَعْوَةِ الخَلْقِ، وَلَا تَخَفْ أَحَدًا فَأَنَا أَكْرَمُ مِنْ أَنْ آمُرَكَ بِهَذَا التَّكْلِيفِ الشَّاقِّ، ثُمَّ لَا أَنْصُرُكَ.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧﴾ [الواقعة:٧٧].

«قَوْلُهُ: ﴿كَرِيمٞ﴾ فِيهِ لَطِيفَةٌ: وَهِيَ أَنَّ الكَلَامَ إِذَا قُرِئَ كَثِيرًا يَهُونُ فِي الأَعْيُنِ والآذَانِ، ولهذا تَرَىٰ مَنْ قَالَ شَيْئًا فِي مَجْلِسِ المُلُوكِ لَا يَذْكُرُهُ ثَانِيًا، وَلَوْ قِيلَ فِيهِ يُقَالُ لِقَائِلِهِ: لِمَ تُكَرِّرُ هَذَا؟ ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَىٰ لَمَّا قَالَ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ﴾ أَيْ مَقْرُوءٌ قُرِئَ وَيُقْرَأُ، قَالَ: ﴿كَرِيمٞ﴾ أَيْ لَا يَهُونُ بِكَثْرَةِ التِّلَاوَةِ وَيَبْقَىٰ أَبَدَ الدَّهْرِ كَالكَلَامِ الغَضِّ والحَدِيثِ الطَّرِيِّ»(١).

❁❁❁

(١) «التفسير الكبير» (٢٩/ ٤٢٩).

خير الرازقين

قال تعالىٰ: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١٤﴾ [المائدة:١١٤].

قَوْلُهُ: ﴿عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ أَيْ: نَتَّخِذُ اليَوْمَ الَّذِي تَنْزِلُ فِيهِ المَائِدَةُ عِيدًا نُعَظِّمُهُ نَحْنُ وَمَنْ يَأْتِي بَعْدَنَا، وَنَزَلَتْ يَوْمَ الأَحَدِ فَاتَّخَذَهُ النَّصَارىٰ عِيدًا، والعِيدُ فِي اللُّغَةِ اسْمٌ لِمَا عَادَ إِلَيْكَ فِي وَقْتٍ مَعْلُومٍ، وَاشْتِقَاقُهُ مِنْ عَادَ يَعُودُ، فَأَصْلُهُ هُوَ العَوْدُ، فَسُمِّيَ العِيدُ عِيدًا؛ لِأَنَّهُ يَعُودُ كُلَّ سَنَةٍ بِفَرَحٍ جَدِيدٍ، وفي ذلك التنبيه إلىٰ بدعية ما أحدثه الناس من الأعياد، وقوله: ﴿وَءَايَةً مِّنكَۖ﴾ أَيْ: دَلَالَةً عَلَىٰ تَوْحِيدِكَ وَصِحَّةِ نُبُوَّةِ رَسُولِكَ، ﴿وَٱرۡزُقۡنَا﴾ أَيْ: وَارْزُقْنَا طَعَامًا نَأْكُلُهُ ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

لَمَّا ذَكَرَ الرِّزْقَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱرۡزُقۡنَا﴾ لَمْ يَقِفْ عَلَيْهِ، بَلِ انْتَقَلَ مِنَ الرزق إلىٰ الرازق فَقَالَ: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

وَخَيْرِيَّةُ الرَّازِقِ فِي أُمُورٍ:

أَحَدُهَا: أَنْ لَا يُؤَخِّرَ عَنْ وَقْتِ الحَاجَةِ.

والثَّانِي: أَنْ لَا يَنْقُصَ عَنْ قَدَرِ الحَاجَةِ.

والثَّالِثُ: أَنْ لَا يُنَكِّدَهُ بِالحِسَابِ.

والرَّابِعُ: أَنْ لَا يُكَدِّرَهُ بِطَلَبِ الثَّوَابِ. والله تَعَالَىٰ كَذَلِكَ.

أَمَّا الأَوَّلُ: فَلِأَنَّهُ عَالِمٌ وَقَادِرٌ، والثَّانِي: فَلِأَنَّهُ غَنِيٌّ وَاسِعٌ، والثَّالِثُ: فَلِأَنَّهُ كَرِيمٌ، وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ [البقرة:٢١٢]، أَيْ يَرْزُقُهُ حَلَالًا لَا يُحَاسِبُهُ عَلَيْهِ. والرَّابِعُ: فَلِأَنَّهُ عَلِيٌّ كَبِيرٌ، والثَّوَابُ يَطْلُبُهُ الأَدْنَىٰ مِنَ الأَعْلَىٰ، أَلَا تَرَىٰ أَنَّ هِبَةَ الأَعْلَىٰ مِنَ الأَدْنَىٰ لَا تَقْتَضِي ثَوَابًا.

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الحج:٥٨].

لَا شُبْهَةَ فِي أَنَّ الرِّزْقَ الحَسَنَ هُوَ نَعِيمُ الجَنَّةِ، وَقَالَ الأَصَمُّ: إِنَّهُ العِلْمُ والفَهْمُ، كَقَوْلِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ﴾ [هود:٨٨]، فَهَذَا فِي الدُّنْيَا، وَفِي الآخِرَةِ الجَنَّةُ.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الحج:٥٨]، وذلك أَنَّ غَيْرَهُ إِذَا رَزَقَ، فَإِنَّمَا يَرْزُقُ لِانْتِفَاعِهِ بِهِ، إِمَّا لِأَجْلِ أَنْ يَخْرُجَ عَنِ الوَاجِبِ، وَإِمَّا لِأَجْلِ أَنْ يَسْتَحِقَّ بِهِ حَمْدًا أَوْ ثَنَاءً، وَإِمَّا لِأَجْلِ دَفْعِ الرِّقَّةِ الجِنْسِيَّةِ، فَكَانَ الوَاحِدُ مِنَّا إِذَا رَزَقَ فَقَدْ طَلَبَ العِوَضَ، أَمَّا الحَقُّ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّ كَمَالَهُ صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ لَهُ، فَلَا يَسْتَفِيدُ مِنْ شَيْءٍ كَمَالًا زَائِدًا، فَكَانَ الرِّزْقُ الصَّادِرُ مِنْهُ لِمَحْضِ الإِحْسَانِ، وأَنَّ غَيْرَهُ إِنَّمَا يَرْزُقُ لَوْ حَصَلَ فِي قَلْبِهِ إِرَادَةُ ذَلِكَ الفِعْلِ، وَتِلْكَ الإِرَادَةُ مِنَ الله، فَالرَّازِقُ فِي الحَقِيقَةِ هُوَ الله تَعَالَىٰ.

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [الجمعة:١١]، هُوَ مِنْ قَبِيلِ ﴿أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هود:٤٥]، وَ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون:١٤]، والمَعْنَىٰ إِنْ أَمْكَنَ وُجُودُ الرَّازِقِينَ، فَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ، وَقِيلَ: لَفْظُ الرَّازِقِ لَا يُطْلَقُ عَلَىٰ غَيْرِهِ إِلَّا بِطَرِيقِ المَجَازِ.

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ:٣٩].

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [الجمعة:١١]: يقول: والله خير رازق، فإليه فارغبوا في طلب أرزاقكم، وإيَّاه فاسألوا أن يوسِّع عليكم من فضله دون غيره»(١).

❁ ❁ ❁

العزيز الغفار

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾﴾ [ص:٦٥]: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾ [ص:٦٦].

وقال تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾﴾ [الزمر:٥].

العزيز الغفار أي أنه غالب علىٰ من أشرك به، غفور لمن تاب عن كفره، والغفار المكرِّر ستره لما يشاء من الذنوب حلمًا إلىٰ وقت، الماحي لها بالكلية بالنسبة إلىٰ من يشاء من العباد، كما فعل مع الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ حيث غفر لهم ما اقترفوه قبل الإسلام.

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٨٩).

«فَنَقُولُ: إِنَّهُ تَعَالَىٰ ذَكَرَ مِنْ صِفَاتِهِ فِي هَذَا المَوْضِعِ خمسة: الوَاحِدَ والقَهَّارَ والرَّبَّ والعَزِيزَ والغَفَّارَ، أَمَّا كَوْنُهُ وَاحِدًا في إلاهيته، فَهُوَ الَّذِي وَقَعَ الخِلَافُ فِيهِ بَيْنَ أَهْلِ الحَقِّ وَبَيْنَ المُشْرِكِينَ، وَاسْتَدَلَّ تَعَالَىٰ عَلَىٰ كَوْنِهِ إلهًا وَاحِدًا بِكَوْنِهِ قَهَّارًا، إِلَّا أَنَّ كَوْنَهُ قَهَّارًا وَإِنْ دَلَّ عَلَىٰ إِثْبَاتِ الوَحْدَانِيَّةِ إِلَّا أَنَّهُ يُوجِبُ الخوفَ الشديد فأردفه تعالىٰ بذكر صفات ثلاثة دَالَّةٍ عَلَىٰ الرَّحْمَةِ والفَضْلِ والكَرَمِ:

أَوَّلُهَا: كَوْنُهُ ربًّا للسموات والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وهذا إِنَّمَا تَتِمُّ مَعْرِفَتُهُ بِالنَّظَرِ فِي آثَارِ حِكْمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ فِي خلق السموات والأَرْضِ وما فيهما، وَذَلِكَ بَحْرٌ لَا سَاحِلَ لَهُ، فَإِذَا تَأَمَّلْتَ فِي آثَارِ حِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ فِي خَلْقِ هَذِهِ الأَشْيَاءِ عَرَفْتَ حِينَئِذٍ تَرْبِيَتَهُ لِلْكُلِّ، وَذَلِكَ يُفِيدُ الرَّجَاءَ العَظِيمَ.

وَثَانِيهَا: كَوْنُهُ عَزِيزًا، والفَائِدَةُ فِي ذِكْرِهِ أَنَّ لقائلٍ أن يقول: هبْ أنه ربٌّ ومُرَبِّي وَكَرِيمٌ إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَىٰ كُلِّ المَقْدُورَاتِ، فَأَجَابَ عَنْهُ بِأَنَّهُ عَزِيزٌ أَيْ قَادِرٌ عَلَىٰ كُلِّ المُمْكِنَاتِ، فَهُوَ يَغْلِبُ الكُلَّ، وَلَا يَغْلِبُهُ شَيْءٌ.

وَثَالِثُهَا: كَوْنُهُ غَفَّارًا، والفَائِدَةُ فِي ذِكْرِهِ أَنَّ لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ: هَبْ أَنَّهُ رَبٌّ وَمُحْسِنٌ وَلَكِنَّهُ يَكُونُ كَذَلِكَ فِي حَقِّ المُطِيعِينَ المُخْلِصِينَ فِي العِبَادَةِ، فَأَجَابَ عَنْهُ بِأَنَّ مَنْ بَقِيَ عَلَىٰ الكُفْرِ سَبْعِينَ سَنَةً، ثمَّ تَابَ، فَإِنِّي أُزِيلُ اسْمَهُ عَنْ دِيوَانِ المُذْنِبِينَ وَأَسْتُرُ عَلَيْهِ بِفَضْلِي وَرَحْمَتِي جَمِيعَ ذُنُوبِهِ وَأُوصِلُهُ إِلَىٰ دَرَجَاتِ الأَبْرَارِ»(١).

---

(١) «التفسير الكبير» (٢٦/ ٤٠٧).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا تَضوَّر من الليل قال: «**لا إله إلا الله الواحد القهار، رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار**»، رواه ابن حبان في «صحيحه»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ [غافر:٤٢].

لَمَّا بَيَّنَ أَنَّهُمْ يَدْعُونَهُ إِلَىٰ الكُفْرِ والشِّرْكِ بَيَّنَ أَنَّهُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الإِيمَانِ بِالعَزِيزِ الغَفَّارِ، فَقَوْلُهُ: ﴿الْعَزِيزِ﴾ إِشَارَةٌ إِلَىٰ كَوْنِهِ كَامِلَ القُدْرَةِ، وَفِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَىٰ أَنَّ الإِلَهَ هُوَ الَّذِي يَكُونُ كَامِلَ القُدْرَةِ، وَأَمَّا فِرْعَوْنُ، فَهُوَ فِي غَايَةِ العَجْزِ فَكَيْفَ يَكُونُ إِلَهًا؟! وَأَمَّا الأَصْنَامُ، فَإِنَّهَا أَحْجَارٌ مَنْحُوتَةٌ، فَكَيْفَ يُعْقَلُ القَوْلُ بِكَوْنِهَا آلِهَةً؟! وقوله: ﴿الْغَفَّارِ﴾ إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّهُ لَا يَجِبُ أَنْ يَكُونُوا آيِسِينَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ بِسَبَبِ إِصْرَارِهِمْ عَلَىٰ الكُفْرِ مُدَّةً مَدِيدَةً، فَإِنَّ إِلَهَ العَالَمِ وَإِنْ كَانَ عَزِيزًا لَا يُغْلَبُ قَادِرًا لَا يُغَالَبُ، لَكِنَّهُ غَفَّارٌ يَغْفِرُ كُفْرَ سَبْعِينَ سَنَةً بِإِيمَانِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ إن شاء.

❁ ❁ ❁

رفيع الدرجات ذو العرش

قال تعالىٰ: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ [غافر:١٥].

---

(١) سبق تخريجه.

«قوله تعالىٰ: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ قال ابن عباس: يعني رافع السموات، وحكىٰ الماوردي عن بعض المفسِّرين قال: معناه: عظيم الصِّفات»[(١)].

«﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ [غافر:١٥]، وهذا يحتمل أن يكون المراد منه الرافع، وأن يكون المراد منه المرتفع، فإن حملناه علىٰ الأول ففيه وجهان:

أولهما: أنه تعالىٰ يرفع درجات الأنبياء والأولياء.

ثانيهما: يرفع درجات الخلق في العلوم والأخلاق الفاضلة فجعل لكل أحد من الملائكة درجة معينة، كما قال تعالىٰ عنهم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ ١٦٤﴾ [الصافات:١٦٤].

وجعل لكل واحد من العلماء درجة معينة، فقال تعالىٰ: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [المجادلة:١١].

وعين لكل جسم درجة معينة، فجعل بعضها سفلية كدرة وبعضها فلكية وبعضها من جواهر العرش والكرسي، وأيضًا جعل لكل واحد مزية معينة في الخلق والخلق والرزق والأجل، فقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ [الأنعام:١٦٥].

وجعل لكل واحد من السعداء والأشقياء في الدنيا درجة معينة من موجبات السعادة وموجبات الشقاوة، وفي الآخرة تظهر تلك الآثار، وإن حملنا الرفيع

---

(١) «زاد المسير في علم التفسير» (٤/ ٣٢).

علىٰ المرتفع، فهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أرفع الموجودات في جميع صفات الكمال والجلال»[(١)].

وَذَلِكَ يَقْتَضِي عُلُوَّ شَأْنِهِ وَعِظَمَ سُلْطَانِهِ، «فهو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استوىٰ علىٰ العرش، يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه، حي له الحياة، قدير له صفة القدرة، مريد له صفة الإرادة، كلَّم موسىٰ تكليمًا، وتجلىٰ للجبل فجعله دكًّا هشيمًا، فوق سماواته مستوٍ علىٰ عرشه بائن من خلقه، يرىٰ من فوق سبع سماوات، ويسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات علىٰ تفنن الحاجات، ويرىٰ دبيب النملة السوداء علىٰ الصخرة الصماء في غياهب الظلمات، لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض والسموات، ترفع إليه الحاجات وتصعد إليه الكلمات الطيبات وينزل من عنده الأمر بتدبير المخلوقات.

له القوة كلها والعز كله والجمال كله والعلم كله والكمال كله، وهو الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة، ولا نوم موصوف بكل جمال منزه عن كل نقص وعيب لا تضرب له الأمثال، ولا يشبه بالمخلوقات، فعَّال لما يريد، لوجهه سبحات الجلال، وهو الجميل الذي له كل الجمال، إحدىٰ يديه للجود والفضل والأخرىٰ للقسط والعدل، يقبض سماواته السبع بإحدىٰ يديه

---

(١) «السراج المنير في الإعانة علىٰ معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير» (٣/ ٤٧٤).

والأرضين السبع باليد الأخرىٰ، ثم يهزهن، ثم يقول: أنا الملك. لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه، قريب مجيد رحيم ودود لطيف خبير»(١).

وقوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أَيْ صَاحِب العَرْش العَظِيم العَالِي عَلَىٰ جَمِيع الخَلَائِق»(٢).

«وذكر نفسه بأنه ذو العرش في غير موضع، كقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [البروج:١٤-١٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء:٤٢]، وقوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر:١٥]، فهذا كله يبين أن العرش له شأن آخر.

كما أن الروح خصه من بين الملائكة في مثل قوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج:٤]، وفي قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبأ:٣٨]، وفي قوله تعالىٰ: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾

(١) «الصواعق المرسلة في الرد علىٰ الجهمية والمعطلة» (٣/ ١١١٤).
(٢) «تفسير ابن كثير» (١٤/ ٣١٣).

سَلَٰمٌ﴾ [القدر:٤-٥]، مع العلم أن ذلك جميعه مخلوق لله مملوك له، وأنه رب ذلك كله، وهم عباده»[(١)].

❁❁❁

ذو المعارج

قال تعالىٰ: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾ [المعارج:٣].

وَأخرج ابْن الْمُنْذر وَابْن أبي حَاتِم عَن ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾ [المعارج:٣]، قَالَ: ذِي الْعُلُوّ والفواضل[(٢)].

وَأخرج عبد بن حميد وَابْن الْمُنْذر وَأَبُو الشَّيْخ فِي «العظمة» عَن مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾ [المعارج:٣]، قَالَ: معارج السَّمَاء[(٣)].

وَأخرج عبد بن حميد عَن قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾ [المعارج:٣]، قَالَ: ذِي الفَضَائِل والنعَم[(٤)].

وَقَوْلُهُ: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾ المَعَارِجُ جَمْعُ مِعْرَجٍ، وَهُوَ المَصْعَدُ، وَسَمَّاهَا مَعَارِجَ؛ لِأَنَّ المَلَائِكَةَ يَعْرُجُونَ فِيهَا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾

---

(١) «بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية» (١/ ٤٧٢).

(٢) «تفسير الطبري» (٢٣/ ٦٠٠).

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

[الزخرف:٣٣]، وذِي المَعارِجِ صفة لله؛ لأنه من الأسماء المضافة مثل: فالق الإصباح، وجاعل الليل سكنًا، ونحوهما.

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كَانَ أَبُو ذَرٍّ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «فُرِجَ عَنْ سَقْفِ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَفَرَجَ صَدْرِي، ثمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَفْرَغَهُ فِي صَدْرِي، ثمَّ أَطْبَقَهُ، ثمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَعَرَجَ بِي إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَلَمَّا جِئْتُ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، قَالَ جِبْرِيلُ لِخَازِنِ السَّمَاءِ: افْتَحْ، قَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا جِبْرِيلُ، قَالَ: هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ؟ قَالَ: نَعَمْ مَعِي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَلَمَّا فَتَحَ عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَإِذَا رَجُلٌ قَاعِدٌ عَلَىٰ يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ، وَعَلَىٰ يَسَارِهِ أَسْوِدَةٌ، إِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَسَارِهِ بَكَىٰ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ والِابْنِ الصَّالِحِ، قُلْتُ لِجِبْرِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا آدَمُ، وَهَذِهِ الأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ اليَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الجَنَّةِ، والأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَىٰ، حَتَّىٰ عَرَجَ بِي إِلَىٰ السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ» الحديثَ، متفق عليه(١).

وقال تعالىٰ: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ [المعارج:٤].

«قال قتادة: ﴿تَعْرُجُ﴾ [المعارج:٤]، تصعد، وأما الروح فيحتمل أَنْ يَكُونَ المُرَادُ بِهِ جِبْرِيلَ، وَيَكُونَ مِنْ بَابِ عَطْفِ الخَاصِّ عَلَىٰ العَامِّ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣).

اسْمَ جِنْسٍ لِأَرْوَاحِ بَنِي آدَمَ، فَإِنَّهَا إِذَا قُبِضَتْ يُصْعَدُ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ، كَمَا دل عليه حديث البراء، في قبض الروح الطيبة وفيه: «**فَلَا يَزَالُ يُصْعَدُ بِهَا مِنْ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ، حَتَّىٰ يَنْتَهِيَ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا الله**»(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ۝٤﴾ [المعارج:٤]، فيه أربعة أقوال:

أحدها: أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ مَسَافَةُ مَا بَيْنَ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ إِلَىٰ أَسْفَلِ السَّافِلِينَ، وَهُوَ قَرَارُ الْأَرْضِ السابعة، وذلك مسيرة خمسين ألف سنة. عن ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ۝٤﴾ [المعارج:٤]، قَالَ: مُنْتَهَىٰ أَمْرِهِ مِنْ أَسْفَلِ الْأَرَضِينَ، إِلَىٰ منتهىٰ أمره مِن فوق السماوات خمسين ألف سنة. (رواه ابن أبي حاتم).

الْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ مُدَّةُ بَقَاءِ الدُّنْيَا مُنْذُ خَلَقَ اللهُ هَذَا الْعَالَمَ إِلَىٰ قيام الساعة، قَالَ: الدُّنْيَا عُمْرُهَا خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَذَلِكَ عمرها يوم سماها الله عَزَّوَجَلَّ يومًا. وعن عِكْرِمَةَ: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ۝٤﴾ [المعارج:٤]، قَالَ: الدُّنْيَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَىٰ آخِرِهَا مِقْدَارُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ لَا يَدْرِي أَحَدٌ كَمْ مَضَىٰ، وَلَا كَمْ بَقِيَ إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ. (أخرجه عبد الرزاق عن عكرمة).

الْقَوْلُ الثَّالِثُ: أَنَّهُ الْيَوْمُ الْفَاصِلُ بَيْنَ الدُّنْيَا والآخرة، وهو قول غريب جدًّا، روي عن محمد بن كعب قَالَ: هُوَ يَوْمُ الْفَصْلِ بَيْنَ الدُّنْيَا والآخِرَةِ. (رواه ابن أبي حاتم).

(١) سبق تخريجه.

القَوْلُ الرَّابِعُ: أَنَّ المُرَادَ بِذَلِكَ يَوْمُ القِيَامَةِ، وبه قال الضحَّاك وابن زيد وعكرمة، وروي عن ابن عباس في قوله تعالىٰ: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ [المعارج:٤]، قَالَ: هُوَ يَوْمَ القِيَامَةِ جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الكَافِرِينَ مِقْدَارَ خمسين ألف سنة.

رَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ [المعارج:٤]، مَا أَطْوَلَ هَذَا اليَوْمَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَىٰ المُؤْمِنِ حَتَّىٰ يَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مكتوبة يصليها في الدنيا». (أخرجه أحمد وابن جرير)[(١)].

وقال الإمام أحمد: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنْ صَاحِبِ كَنْزٍ لَا يُؤَدِّي حَقَّهُ إِلَّا جُعِلَ صَفَائِحَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جهنم، فَتُكْوَىٰ بِهَا جَبْهَتُهُ وَجَنْبُهُ وَظَهْرُهُ، حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تُعِدُّونَ، ثُمَّ يُرَىٰ سَبِيلُهُ إِمَّا إِلَىٰ الجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَىٰ النَّارِ**» (أخرجه الإمام أحمد)[(٢)]»[(٣)].

وقوله تعالىٰ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السجدة:٥].

---

(١) أخرجه أحمد (١١٧٣٥)، وابن جرير في «التفسير» (٢٣/ ٦٠٢)، وابن حبان (٧٣٣٤).

(٢) أخرجه أحمد (٧٥٥٣)، ومسلم (٩٨٧)، وأبو داود (١٦٥٨).

(٣) مختصر «تفسير ابن كثير» (٢/ ٥٤٧).

«أَيْ: يَتَنَزَّلُ أَمْرُهُ مِنْ أَعْلَىٰ السَّمَاوَاتِ إِلَىٰ أَقْصَىٰ تُخُومِ الأَرْضِ السابعة، كما قال تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، الآية، وَتُرْفَعُ الأَعْمَالُ إِلَىٰ دِيوَانِهَا فَوْقَ سَمَاءِ الدُّنْيَا، وَمَسَافَةُ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الأَرْضِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَسُمْكُ السَّمَاءِ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ والضَّحَّاكُ: النُّزُولُ مِنَ المَلَكِ فِي مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَصُعُودُهُ فِي مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَلَكِنَّهُ يَقْطَعُهَا فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ، ولهذا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [السجدة:٥-٦]، أَيِ: المُدَبِّرُ لِهَذِهِ الأُمُورِ الَّذِي هُوَ شَهِيدٌ عَلَىٰ أَعْمَالِ عِبَادِهِ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ جَلِيلُهَا وَحَقِيرُهَا وَصَغِيرُهَا وَكَبِيرُهَا، هُوَ العَزِيزُ الَّذِي قَدْ عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ فَقَهَرَهُ وَغَلَبَهُ، وَدَانَتْ لَهُ العِبَادُ والرِّقَابُ، الرَّحِيمُ بعباده المؤمنين»(١).

وَفِي «الصحيحين» عَنِ الأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ العَصْرِ وَصَلَاةِ الفَجْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ -وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ- فَيَقُولُ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ**»(٢).

«فإذا تحقق العبد علوَّه المطلق علىٰ كل شيء بذاته، وأنه ليس فوقه شيء البتة، وأنه قاهر فوق عباده يدبر الأمر من السماءِ إلىٰ الأرض، ثم يعرج إليه:

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» (٢/ ٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢).

﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر:١٠]، صار لقلبه أَملًا يقصده، وربًّا يعبده، وإِلهًا يتوجه إِليه. بخلاف من لا يدري أَين ربه؟ فإِنه ضائع مشتت القلب ليس لقلبه قِبلة يتوجَّه نحوها، ولا معبود يتوجه إِليه قصده.

فمن شهد مشهد علو الله علىٰ خلقه وفوقيته لعباده واستوائه علىٰ عرشه، كما أَخبر به أَعرف الخلق وأَعلمهم به الصادق المصدوق وتعبد بمقتضىٰ هذه الصفة بحيث يصير لقلبه صمد يعرج القلب إِليه مناجيًا له مطرقًا واقفًا بين يديه وقوف العبد الذليل بين يدي الملك العزيز. فيشعر بأن كلمه وعمله صاعد إِليه معروض عليه مع أَوفىٰ خاصته وأَوليائه، فيستحي أَن يصعد إِليه من كلمه ما يخزيه ويفضحه هناك، ويشهد نزول الأَمر والمراسيم الإِلهية إِلىٰ أَقطار العوالم كل وقت بأَنواع التدبير والمصرف -من الإِماتة والإِحياءِ والتولية والعزل والخفض والرفع والعطاءِ والمنع وكشف البلاءِ وإِرساله وتقلب الدول ومداولة الأَيام بين الناس- إِلىٰ غير ذلك من التصرف في المملكة التي لا يتصرف فيها سواه، فمراسمه نافذة، كما يشاءُ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السجدة:٥]، فمن أعطىٰ هذا المشهد حقه معرفة وعبودية استغنىٰ به»(١).

❖ ❖ ❖

(١) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ٤٣).

ذو الطول

قال تعالىٰ: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣﴾ [غافر:٣].

وَأخرج ابْن الْمُنْذر وَابْن أبي حَاتِم والبَيْهَقِيُّ فِي «الأَسْمَاء والصِّفَات» عَن ابْن عَبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِۖ﴾ [غافر:٣]، السعَة والغنىٰ(١).

وَأخرج عبد بن حميد عَن مُجَاهِد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِۖ﴾ [غافر:٣]، قَالَ: ذِي الغنىٰ(٢).

وَأخرج عبد بن حميد عَن قَتَادَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِۖ﴾ [غافر:٣]، قَالَ: ذِي النعم(٣).

وَأخرج عبد بن حميد وَابْن الْمُنْذر عَن عِكْرِمَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِۖ﴾ [غافر:٣]، قَالَ: ذِي المَنِّ(٤).

الطَّوْل بالفتح الفَضْل، يقال: لفلان علىٰ فلان طَوْل، أي: زيادة وفضل، وأصل هذه الكلمة من الطُّول الذي هو خلاف القِصَر؛ لأنه إذا كان طويلًا ففيه كمال وزيادة، كما أنه إذا كان قصيرًا ففيه قصور ونقصان، وسمي الغِنىٰ -أيضًا-

(١) «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٥١)، و«الأسماء والصفات» (٦٩).

(٢) «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٥١).

(٣) «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٥١).

(٤) «الدر المنثور» (٧/ ٢٧٢).

طَولًا؛ لأنه ينال به من المرادات ما لا ينال عند الفقر، كما أنه بالطول ينال ما لا ينال بالقصر، والمراد هاهنا الفضل بترك العقاب المستحق، وإيراد صفة واحدة في جانب الغضب بين صفات الرحمة دليل سبقها ورجحانها، وأصل الطول الإنعام الذي تطول مدته علىٰ صاحبه.

﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [غافر:٣]، ذِي المَنِّ، قَالَ الجَوْهَرِيُّ: والطَّوْلُ بِالفَتْحِ المَنُّ، يُقَالُ مِنْهُ: طَالَ عَلَيْهِ وَتَطَوَّلَ عَلَيْهِ إِذَا امْتَنَّ عَلَيْهِ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [غافر:٣]، ذِي التَّفَضُّل، قَالَ المَاوَرْدِيُّ: والفَرْقُ بَيْنَ المَنِّ والتَّفَضُّل أَنَّ المَنَّ عَفْوٌ عَنْ ذَنْبٍ، والتَّفَضُّلُ إِحْسَانٌ غَيْرُ مُسْتَحَقٍّ، والطَّوْلُ مَأْخُوذٌ مِنَ الطَّوَلِ كَأَنَّهُ طَالَ بِإِنْعَامِهِ عَلَىٰ غَيْرِهِ، وَقِيلَ: لِأَنَّهُ طَالَتْ مُدَّةُ إِنْعَامِهِ»(١).

«فاعلم أن هذه الجملة مشتملة علىٰ ستة أسماء كل اثنين منها قسم، فابتدأها بالعزيز العليم، وهما اسمان مطلقان وصفتان من صفات ذاته، وهما مجردان عن العطف، ثم ذكر بعدهما اسمين من صفات أفعاله فأدخل بينهما العاطف، ثم ذكر اسمين آخرين بعدهما وجردهما من العاطف، فأما الأولان فتجردهما من العاطف لكونهما مفردين صفتين جاريتين علىٰ اسم الله، وهما متلازمان، فتجريدهما عن العطف هو الأصل، وهو موافق لبيان ما في الكتاب العزيز من ذلك كالعزيز العليم، والسميع البصير، والغفور الرحيم.

وأما: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر:٣]، فدخل العاطف بينهما؛ لأنهما في معنىٰ الجملتين، وإن كانا مفردين لفظًا فهما يعطيان معنىٰ يغفر الذنب ويقبل

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٥/ ٢٩٢).

التوب، أي: هذا شأنه ووصفه في كل وقت، فأتىٰ بالاسم الدال علىٰ أن هذا وصفه ونعته المتضمن لمعنىٰ الفعل الدال علىٰ أنه لا يزال يفعل ذلك، فعطف أحدهما علىٰ الآخر علىٰ نحو عطف الجُمل بعضها علىٰ بعض، ولا كذلك الاسمان الأولان، ولمَّا لم يكن الفعل ملحوظًا في قوله: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾ [غافر:٣]؛ إذ لا يحسن وقوع الفعل فيهما وليس في لفظ: ﴿ذِي﴾ ما يصاغ منه فعل جرىٰ مجرىٰ المفردين من كل وجه ولم يعطف أحدهما علىٰ الآخر، كما لم يعطف في العزيز العليم، فتأمله، فإنه واضح.

وأما العطف في قوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلىٰ:٢-٣]، فلما كان المقصود الثناء عليه بهذه الأفعال وهي جملة دخلت الواو عاطفة جملة علىٰ جملة، وإن كانت الجملة مع الموصول في تقدير المفرد فالفعل مراد مقصود، والعطف يصير كلًّا منها جملة مستقلة مقصودة بالذكر بخلاف ما لو أتىٰ بها في خبر موصول واحد فقيل: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ۝٦﴾ [النبأ:٦]، ﴿نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ [العنكبوت:٦٣]، ﴿خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا﴾ [يس:٣٦]، كانت كلها في حكم جملة واحدة، فلما غاير بين الجمل بذكر الاسم الموصول مع كل جملة دل علىٰ أن المقصود وصفه بكل من هذه الجمل علىٰ حدتها، وهذا قريب من باب قطع النعوت، والفائدة هنا كالفائدة في (ثم).

وتأمل كيف وقع الوصف بشديد العقاب بين صفة رحمة قبله وصفة رحمة بعده، فقبله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [غافر:٣]، وبعده: ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾ [غافر:٣]، ففي هذا تصديق الحديث الصحيح وشاهد له، وهو قوله ﷺ: «**إن الله كتب كتابًا، فهو موضوع عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي**»، رواه

البخاري ومسلم[(١)]، وفي لفظ: «**سبقت غضبي**»[(٢)]، وقد سبقت صفة الرحمة هنا وغلبت»[(٣)].

وأخرج ابن أبي شيبة في «المصنف»، وابن أبي الدنيا في «الدعاء» عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وكذلك عن ابن عمر قال: ما دعا عبد قط بهذه الدعوات إلا وسَّع الله في معيشته: (يا ذا المن، ولا يُمَنُّ عليه، يا ذا الجلال والإكرام، يا ذا الطَّول والإنعام، لا إله إلا أنت، ظهرُ اللاجئين، وجارُ المستجيرين، وأمانُ الخائفين، إن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب شقيًّا فامحُ عني اسمَ الشقاء وأثبتني عندك سعيدًا، وإن كنتَ كتبتني عندك في أم الكتاب محرومًا مقترًا عليَّ في الرزق فامحُ حرماني ويسِّر رزقي وأثبتني عندك سعيدًا موفَّقًا للخيرات، فإنك تقول في كتابك الذي أنزلت: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد:٣٩])[(٤)].

وأخرجه ابن جرير وابن المنذر والطبراني عن ابن مسعود بلفظ: (اللهم إن كنتَ كتبتني في السعداء فأثبتني في السعداء، وإن كنتَ كتبتني في الأشقياء فامحُني من الأشقياء وأثبتني في السعداء، فإنك تمحو ما تشاء وتُثبت وعندك أم الكتاب)[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٤)، ومسلم (٢٧٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٢٢، ٧٤٥٣، ٧٥٥٤).

(٣) «بدائع الفوائد» (١/ ١٩٢) باختصار.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٥٣٠)، والبيهقي في «القضاء والقدر» (٢٥٧).

(٥) «تفسير الطبري» (١٦/ ٤٨٣) (٢٠٤٨٢)، و«المعجم الكبير» (٩/ ١٧١) (٨٨٤٧).

وَأخرج ابْن أبي شيبَة وَابْن أبي حَاتِم عَن ثَابت الْبُنَانِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ قَالَ: كنت مَعَ مُصعب بن الزبير رَضِيَٱللَّهُعَنهُ فِي سَواد الْكُوفَة، فَدخلتُ حَائِطًا أُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، فافتتحت: ﴿حمٓ ۝١﴾ [غافر:١] الْمُؤمن، حَتَّىٰ بلغتُ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر:٣]، فَإِذا خَلْفي رجل علىٰ بغلة شهباء عَلَيْهِ مقطنات يمنيَّة فَقَالَ: إِذا قلت: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [غافر:٣]، فَقل: يَا قَابلَ التوبِ اقبل تَوْبَتِي، وَإِذا قلت: ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝١٩٦﴾ [البقرة:١٩٦]، فَقل: يَا شَدِيد الْعقَاب لَا تعاقبني. وَلَفظ ابْن أبي شيبَة: اعْفُ عني. وَإِذ قلت: ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾ [غافر:٣]، فَقل: يَا ذَا الطول طُلَّ عَليَّ بِخَير، قَالَ: فقلتها، ثمَّ التفت فَلم أر أحدًا، فَخرجت إِلَىٰ الْبَاب فَقلت: مر بكم رجل عَلَيْهِ مقطنات يمينة قَالُوا: ما رأينا أحدًا(١).

«وأما منَّةُ الخالق علىٰ المخلوق فبها تمام النعمة ولذتها وطيبها، فإنها منة حقيقية، قال تعالىٰ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝١٧﴾ [الحجرات:١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١١٤ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ۝١١٥﴾ [الصافات:١١٤-١١٥]، فتكون منة عليهما بنعمة الدنيا دون نعمة الآخرة، وقال لموسىٰ: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ۝٣٧﴾ [طه:٣٧]، وقال أهل الجنة: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾ [الطور:٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [آل عمران:١٦٤]، الآية، وقال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص:٥]، الآية.

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (١٨٤١٧، ١٨٤٢٠).

وفي «الصحيح» أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال للأنصار: «**ألم أجدكم ضُلَّالًا فهداكم الله بي؟ ألم أجدكم عالةً فأغناكم الله بي؟**» فجعلوا يقولون له: الله ورسولُه أمنُّ[(١)]. فهذا جواب العارفين بالله ورسوله، وهل المنة كل المنة إلا لله المانِّ بفضله الذي جميع الخلق في منته، وإنما قبحت منَّة المخلوق؛ لأنها منة بما ليس منه، وهي منة يتأذىٰ بها الممنون عليه، وأما منة المنان بفضله التي ما طاب العيش إلا بمنته وكل نعمة منه في الدنيا والآخرة فهي منة يمن بها علىٰ من أنعم عليه»[(٢)].

وفي «السنن» و«صحيح أبي حاتم بن حبان» -أيضًا- من حديث أنس بن مالك، أنه كان مع رسول الله جالسًا ورجل يصلي، ثم دعا فقال: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم. فقال النبي: «**لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطىٰ**»[(٣)].

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) «التبيان في أقسام القرآن» - الفكر (ص: ٣٠).

(٣) سبق تخريجه.

الخافض الرافع

وقال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام:٨٣].

وقال تعالىٰ: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف:٧٦].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف:١٧٦].

وَأخرج أَحْمد والبُخَارِيُّ وَمُسلم والتِّرْمِذِيُّ وَابْن ماجة والبَيْهَقِيُّ فِي «الأَسْمَاء والصِّفَات» عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ: قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِن يَمِين الله ملأىٰ لَا يغيضها نَفَقَة، سحَّاء اللَّيْل والنَّهَار، أَرَأَيْتُم مَا أنْفق مُنْذُ خلق السَّمَوَات والأَرْض، فَإِنَّهُ لم يغض مَا فِي يَمِينه. قَالَ: وعرشه علىٰ المَاء، وَفِي يَده الأُخْرَىٰ القَبْض يرفع ويخفض**»(١).

(١) أخرجه أحمد (٨١٢٥)، والبخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣)، والترمذي (٣٠٤٥)، وابن ماجه (١٩٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٧١٩).

«الخَافِضُ، الرَّافِعُ؛ وَهُوَ الَّذِي يَحُطُّ دَرَجَةَ أَعْدَائِهِ، وَيُعْلِي مَنَازِلَ أَوْلِيَائِهِ وَمَقَادِيرَهُمْ دُنْيَا وَآخِرَةً؛ جَاهًا وَمَالًا، عَمَلًا وَاعْتِقَادًا»(١).

«ومن هذا الباب أسماء الله المقترنة كالمعطي المانع، والضار النافع، المعز والمذل، الخافض الرافع، فلا يفرد الاسم (المانع) عن قرينه، ولا (الضار) عن قرينه؛ لأن اقترانها يدل علىٰ العموم، وكل ما في الوجود من رحمة ونفع ومصلحة، فهو من فضله تعالىٰ، وما في الوجود من غير ذلك فمن عدله، فكل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، كما في «الصحيحين» عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**يمين الله ملأىٰ لا يَغيضها نفقة، سحَّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يغض ما في يمينه، والقسط بيده الأخرىٰ يخفض ويرفع**»(٢)، فأخبر أن يده اليمنىٰ فيها الإحسان إلىٰ الخلق، ويده الأخرىٰ فيها العدل والميزان الذي به يخفض ويرفع، فخفضه ورفعه من عدله، وإحسانه إلىٰ خلقه من فضله»(٣).

وَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَىٰ عَنْ رَفْعِهِ دَرَجَاتِ أَهْلِ العِلْمِ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ:

أَحَدُهَا: قَوْلُهُ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام:٨٣]، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ يَشَاءُ بِعِلْمِ الحُجَّةِ.

---

(١) «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٣٤٩).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «مجموعة الرسائل والمسائل» لابن تيمية - رشيد رضا (٥/ ١٢٤).

وَقَالَ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ [يوسف:٧٦]، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَرْفَعُ دَرَجَاتِ مَنْ يَشَاءُ بِالعِلْمِ الخَفِيِّ الَّذِي يَتَوَصَّلُ بِهِ صَاحِبُهُ إِلَىٰ المَقَاصِدِ المَحْمُودَةِ.

وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [المجادلة:١١]، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَرْفَعُ دَرَجَاتِ أَهْلِ العِلْمِ والإِيمَانِ.

وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ [يوسف:٧٦]، فَإِنَّ فِيهَا تَنْبِيهًا عَلَىٰ أَنَّ العِلْمَ الدَّقِيقَ المُوَصِّلَ إِلَىٰ المَقْصُودِ الشَّرْعِيِّ صِفَةُ مَدْحٍ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ [الأعراف:١٧٦]،

«ومنها أنه سبحانه قال: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾ فأخبر سبحانه أن الرفعة عنده ليست بمجرد العلم، فإن هذا كان من العلماء، وإنما هي باتباع الحق وإيثاره وقصد مرضاة الله تعالىٰ، فإن هذا كان من أعلم أهل زمانه ولم يرفعه الله بعلمه ولم ينفعه به، فنعوذ بالله من علم لا ينفع. وأخبر سبحانه أنه هو الذي يرفع عبده إذا شاء بما آتاه الله من العلم، وإن لم يرفعه الله، فهو موضوع لا يرفع أحد به رأسًا، فإن الخافض الرافع الله سبحانه خفضه ولم يرفعه، والمعنىٰ: ولو شئنا فضلناه وشرفناه ورفعنا قدره ومنزلته بالآيات التي آتيناه.

قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: ولو شئنا لرفعناه بعلمه بها، وقالت طائفة: الضمير في قوله: ﴿لَرَفَعْنَٰهُ﴾ عائد علىٰ الكفر، والمعنىٰ: ولو شئنا لرفعناه عن الكفر بما معه من آياتنا. قال مجاهد وعطاء: لرفعنا عنه الكفر بالإيمان وعصمناه، وهذا المعنىٰ حق، والأول مراد الآية، وهذا من لوازم المراد، وقد تقدم أن السلف كثيرًا ما ينبهون علىٰ لازم معنىٰ الآية، فيظن الظان أن ذلك هو المراد منها، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٧٦]، قال سعيد بن جُبير: ركَن إلىٰ الأرض، وقال مجاهد: سكن، وقال مقاتل: رضي بالدنيا»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة:٢٥٣].

«الْمُرَادَ مِنْهُ بَيَانُ أَنَّ مَرَاتِبَ الرُّسُلِ مُتَفَاوِتَةٌ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ تَعَالَىٰ اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِثْلَهُ هَذِهِ الفَضِيلَةَ، وَجَمَعَ لِدَاوُدَ المُلْكَ والنُّبُوَّةَ وَلَمْ يَحْصُلْ هَذَا لِغَيْرِهِ، وَسَخَّرَ لِسُلَيْمَانَ الإِنْسَ والجِنَّ والطَّيْرَ والرِّيحَ، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا حَاصِلًا لِأَبِيهِ دَاوُدَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وَمُحَمَّدٌ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ مَخْصُوصٌ بِأَنَّهُ مَبْعُوثٌ إِلَىٰ الجِنِّ والإِنْسِ وَبِأَنَّ شَرْعَهُ نَاسِخٌ لِكُلِّ الشَّرَائِعِ، وهذا إِنْ حَمَلْنَا الدَّرَجَاتِ عَلَىٰ

(١) «الأمثال في القرآن الكريم» (ص: ٣١).

المَنَاصِبِ والمَرَاتِبِ، أَمَّا إِذَا حَمَلْنَاهَا عَلَىٰ المُعْجِزَاتِ فَفِيهِ -أَيْضًا- وَجْهٌ، لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الأَنْبِيَاءِ أُوتِيَ نَوْعًا آخَرَ مِنَ المُعْجِزَةِ لَائِقًا بِزَمَانِهِ؛ فَمُعْجِزَاتُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهِيَ قَلْبُ العَصَا حَيَّةً، واليَدُ البَيْضَاءُ، وَفَلْقُ البَحْرِ، كَانَ كَالشَّبِيهِ بِمَا كَانَ أَهْلُ ذَلِكَ العَصْرِ مُتَقَدِّمِينَ فِيهِ، وَهُوَ السِّحْرُ، وَمُعْجِزَاتُ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهِيَ إِبْرَاءُ الأَكْمَهِ والأَبْرَصِ، وَإِحْيَاءُ المَوْتَىٰ، كَانَتْ كَالشَّبِيهِ بِمَا كَانَ أَهْلُ ذَلِكَ العَصْرِ مُتَقَدِّمِينَ فِيهِ، وَهُوَ الطِّبُّ، وَمُعْجِزَةُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهِيَ القُرْآنُ، كَانَتْ مِنْ جِنْسِ البَلَاغَةِ والفَصَاحَةِ والخُطَبِ والأَشْعَارِ.

وَبِالجُمْلَةِ، فَالمُعْجِزَاتُ مُتَفَاوِتَةٌ بِالقِلَّةِ والكَثْرَةِ، وَبِالبَقَاءِ وَعَدَمِ البَقَاءِ، وَبِالقُوَّةِ وَعَدَمِ القُوَّةِ، وَفِيهِ وَجْهٌ ثَالِثٌ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ المُرَادُ بِتَفَاوُتِ الدَّرَجَاتِ مَا يَتَعَلَّقُ بِالدُّنْيَا، وَهُوَ كَثْرَةُ الأُمَّةِ والصَّحَابَةِ وَقُوَّةُ الدَّوْلَةِ، فَإِذَا تَأَمَّلْتَ الوُجُوهَ الثَّلَاثَةَ عَلِمْتَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مُسْتَجْمِعًا لِلْكُلِّ، فَمَنْصِبُهُ أَعْلَىٰ وَمُعْجِزَاتُهُ أَبْقَىٰ وَأَقْوَىٰ، وَقَوْمُهُ أَكْثَرُ، وَدَوْلَتُهُ أَعْظَمُ وَأَوْفَرُ»(١).

وفي «صحيح مسلم» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«فُضِّلْتُ عَلَىٰ الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَىٰ الخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ»**(٢).

❁ ❁ ❁

(١) «التفسير الكبير» (٦/ ٥٢٧).

(٢) أخرجه مسلم (٥٢٣).

ذو الفضل العظيم

قال تعالىٰ: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ١٠٥﴾ [البقرة:١٠٥] علىٰ خلقه، ومن أعظم فضله عليهم إرسال محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهدايتهم وإنقاذهم من الظُّلمات إلىٰ النُّور، وأعظم فضله علىٰ أنبيائه أن خصهم برسالته، وجعلهم هداة لخلقه.

واعلم أن مطلق الفضل يمنُّ به الله علىٰ مَن يشاء مِن عباده، وقد قال أعلم الخلق بالله: «**لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمَّدني اللهُ برحمةٍ منه وفضْل**»(١). فأخبر أن دخول الجنة برحمة الله وفضله، وذلك محض منته عليه، وعلىٰ سائر عباده، وكما أنه سبحانه المانُّ بإرسال رسله وبالتوفيق لطاعته وبالإعانة عليها، فهو المانُّ بإعطاء الجزاء، وذلك كله محض منته وفضله وجوده لا حق لأحد عليه.

«فِي «المسند» و«صحيح أبي حاتم» من حَدِيث عبد الله بن مَسْعُود قَالَ: قَالَ رَسُول الله: «**مَا أَصَاب عبدًا همٌّ، وَلَا حزنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبدُك وَابْنُ عَبدك ابْنُ أمتك، ناصيتي بِيَدِك، مَاضٍ فِيَّ حكمُك، عدل فِي قضاؤك، أَسأَلك بِكُل اسْم هُوَ لَك سميت بِهِ نَفسك أَو أنزلته فِي كتابك أَو علَّمته أحدًا من خلقك أَو استأثرت بِهِ فِي علم الغَيْب عنْدك، أَن تجْعَل القُرْآن ربيع قلبِي، وَنور صَدْرِي،**

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وجِلاء حزني، وَذَهَاب همِّي وغمِّي، إِلَّا أذهب الله همه وغمه وأبدله مَكَانَهُ فَرحًا» قَالُوا: يَا رَسُول الله، أَفلا نتعلَّمهن؟ قَالَ: «**بلَىٰ، يَنْبَغِي لمن سمعهن أَن يتعلَّمهن**»(١).

فتضمَّن هَذَا الحَدِيث العَظِيم أمورًا من المعرفَة والتوحيد والعبوديَّة، مِنْهَا أَن الدَّاعِي بِهِ صدَّر سُؤَاله بقوله: «**إِنِّي عَبدك ابْن عَبدك ابْن أمتك**»، وهذا يتَنَاوَل مَن فَوْقه من آبَائِهِ وأمهاته إِلَىٰ أَبَوَيْهِ آدم وحوَّاء، وَفِي ذَلِك تملُّق لَهُ واستخذاء بَين يَدَيْهِ واعتراف بِأَنَّهُ مَمْلُوكه وآباؤه مماليكه، وَأَن العَبْد لَيْسَ لَهُ غير بَاب سيِّده وفضله وإحسانه، وَأَن سيِّده إِن أهمله وتخلَّىٰ عَنهُ هلك وَلم يُؤوه أحد وَلم يعْطف عَلَيْهِ، بل يضيع أعظم ضَيْعَة، فَتَحْتَ هَذَا الِاعْتِرَاف أَنِّي لَا غِنىٰ بِي عَنْك طرفَة عين، وَلَيْسَ لي من أعوذ بِهِ وألوذ بِهِ غير سيِّدي الَّذِي أَنا عَبده.

وَفِي ضمن ذَلِك الِاعْتِرَاف بِأَنَّهُ مربوب مدبَّر مَأْمُور مَنْهِيٌّ إِنَّمَا يتصرَّف بِحكم العبوديَّة لَا بِحكم الِاخْتِيَار لنَفسِهِ فَلَيْسَ هَذَا شَأْن العَبْد، بل شَأْن المُلُوك والأحرار، وَأما العبيد فتعرفهم علىٰ مَحْض العبوديَّة، فَهَؤُلَاءِ عبيد الطَّاعَة المضافون إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فِي قَوْله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر:٤٢]، وقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنًا﴾ [الفرقان:٦٣]، وَمن عداهم عبيد القَهْر والربوبية، فأضافتهم إِلَيْهِ كإضافة سَائِر البيُوت إِلَىٰ ملكه وَإِضَافَة أُولَئِكَ كإضافة البَيْت الحَرَام إِلَيْهِ، وإضافة نَاقَته إِلَيْهِ، وداره الَّتِي هِيَ الجنَّة إِلَيْهِ، وَإِضَافَة عبودية رَسُوله إِلَيْهِ بقوله: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِى رَيۡبٍ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ

---

(١) سبق تخريجه.

﴿عَبۡدِنَا﴾ [البقرة:٢٣]، ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء:١]، ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ [الجن:١٩].

وَفِي التَّحْقِيق بِمَعْنَىٰ قَوْله: أَنِّي عَبدك التِزَام عبوديته من الذل والخضوع والإنابة وامتثال أَمر سيِّده وَاجْتنَاب نَهْيه، ودوام الافتقار إليه واللجأ إِلَيْهِ والاستعانة بِهِ والتوكُّل عَلَيْهِ، وعياذ العَبْد بِهِ ولياذه بِهِ، وَأَلَّا يتعلَّق قلبه بِغَيْرِهِ محبَّة وخوفًا ورجاء، وَفِيه -أَيْضًا- أَنِّي عبد من جَمِيع الوُجُوه صَغِيرًا وكبيرًا، حيًّا وميِّتًا، ومطيعًا وعاصيًا، معافىٰ ومبتلىٰ، بِالروحِ والقلب واللِّسَان والجوارح، وَفِيه -أَيْضًا- أَن مَالِي وَنَفْسِي ملك لَك، فَإِن العَبْد وَمَا يملك لسيِّده.

وَفِيه -أَيْضًا- أَنَّك أَنْت الَّذِي مننت عليَّ بِكُل ما أَنا فِيهِ من نعْمَة، فَذَلِك كلُّه من إنعامك علىٰ عَبدك. وَفِيه -أَيْضًا- أَنِّي لَا أتصرَّف فِيمَا خوَّلتني من مَالِي وَنَفْسِي إِلَّا بِأَمْرك كَمَا لَا يتصرَّف العَبْد إِلَّا بِإِذن سيِّده، وَأَنِّي لَا أملك لنَفْسي ضرًّا، وَلَا نفعًا، وَلَا موتًا، وَلَا حَيَاة، وَلَا نشورًا، فَإِن صحَّ لَهُ شُهُود ذَلِك فقد قَالَ: إنِّي عَبدك حَقِيقَة، ثمَّ قَالَ: ناصيتي بِيَدِك، أَي أَنْت المتصرِّف فِيَّ تُصرِّفني كَيفَ تشَاء، لستُ أَنا المتصرِّف فِي نَفسِي، وَكَيف يكون لَهُ فِي نَفسه تصرُّف مَنْ نَفسُه بيد ربه وسيده، وناصيته بِيَدِهِ، وَقَلبه بَين أصبعين من أَصَابِعه، وَمَوته وحياته وسعادته وشقاوته وعافيته وبلاؤه كُله إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ لَيْسَ إِلَىٰ العَبْد مِنْهُ شَيْء، بل هُوَ فِي قَبْضَة سَيِّده أَضْعَف من مَمْلُوك ضَعِيف حقير ناصيته بيد سُلْطَان قاهر مَالك لَهُ تَحت تصرُّفه وقهره، بل الأَمر فَوق ذَلِك.

وَمَتىٰ شهد العَبْد أَن ناصيته ونواصي العباد كلهَا بيد الله وَحده يصرفهم كَيفَ يَشَاء لم يخفهم بعد ذَلِك وَلم يَرجُهم وَلم ينزلهم منزلَة المالكين، بل منزلَة

عبيد مقهورين مربوبين المتصرِّف فيهم سواهُم والمدبِّر لَهُم غَيرهم، فَمن شهد نَفسه بِهَذَا المشهد صَار فقره وضرورته إِلَىٰ ربه وَصفًا لَازِمًا لَهُ، وَمَتىٰ شهد النَّاس كَذَلِك لم يفْتَقر إِلَيْهِم وَلم يعلِّق أمله ورجاءه بهم، فاستقام توحيده وتوكُّله وعبوديته، وَلذَا قَالَ هود لِقَوْمِهِ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٦﴾ [هود:٥٦].

وقوله: «**مَاضٍ فِيَّ حُكمُك، عَدْل فِيَّ قضاؤك**» تضمَّن هَذَا الكَلَام أَمريْن:

أَحدهمَا: مضاء حكمه فِي عَبده.

والثَّانِي: يتضمَّن حَمده وعدله.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَهُ الملك وَله الحَمد، وهذا معنىٰ قَول نبيِّه هود: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ [هود:٥٦]، ثمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٦﴾ [هود:٥٦]، أَي مَعَ كَونه مَالِكًا قاهرًا متصرِّفًا فِي عباده نواصيهم بِيَدِهِ، فَهُوَ علىٰ صِرَاط مُسْتَقِيم، وَهُوَ العدْل الَّذِي يتصرَّف بِهِ فيهم، فَهُوَ علىٰ صِرَاط مُسْتَقِيم فِي قَوْله وَفعله وقضائه وَقدره وَأمره وَنَهْيه وثوابه وعقابه، فخبره كُله صدق وقضاؤه كلُّه عدل وَأمره كُله مصلحَة، والَّذِي نهىٰ عَنهُ كُله مفسدة، وثوابه لمن يسْتَحق الثَّوَاب بفضله وَرَحمته وعقابه لمن يسْتَحق العقَاب بعدله وحكمته، وَفرَّق بَين الحكم والقَضَاء، وَجعل المضاء للْحكم والعدْل لقَضَاء، فَإِن حكمه سُبْحَانَهُ يتَنَاوَل حكمه الديني الشَّرْعِي وَحكمه الكوني القدري، والنوعان نافذان فِي العَبْد ماضيان فِيهِ، وَهُوَ مقهور تَحت الحكمَيْنِ قد مَضيَا فِيهِ ونفَذَا فِيهِ شَاءَ أم أَبىٰ، لَكِن الحكم الكوني لَا يُمكنهُ مُخَالفَته، وَأما الديني الشَّرْعِي فقد يُخَالِفهُ.

وَلمَّا كَانَ القَضَاء هُوَ الإِتْمَام والإكمال، وَذَلِكَ إِنَّمَا يكون بعد مضيه ونفوذه قَالَ: «**عدل فِيَّ قضاؤك**» أَي الحكم الَّذِي أكملته وأتممته ونفَّذته فِي عَبدك عدل مِنْك فِيهِ، وَأما الحكم، فَهُوَ مَا يحكم بِهِ سُبْحَانَهُ، وَقد يَشَاء تنفيذه وَقد لَا ينفذهُ، فَإِن كَانَ حكمًا دينيًّا، فَهُوَ مَاضٍ فِي العَبْد، وَإِن كَانَ كونيًّا، فَإِن نفذه سُبْحَانَهُ مضىٰ فِيهِ وَإِن لم ينفِّذْه انْدفع عَنهُ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ يقْضِي مَا يقْضِي بِهِ، وَغَيره قد يقْضِي بِقَضَاء وَيقدر أَمرًا، وَلَا يَسْتَطِيع تنفيذه، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يقْضِي ويمضي فَلهُ القَضَاء والإمضاء.

وقوله: «**عدل فِيَّ قضاؤك**» يتَضَمَّن جَمِيع أقضيته فِي عَبده من كل الوُجُوه من صِحَة وسقم، وغنىٰ وفقر، ولذَّة وألم، وحياة وَمَوْت، وعقوبة وَتجَاوز، وَغير ذَلِك، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورىٰ:٣٠]، وَقَالَ: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ٤٨﴾ [الشورىٰ:٤٨]، فَكل مَا يقْضي علىٰ العَبْد، فَهُوَ عدل فِيهِ.

وقوله: «**أَسأَلك بِكُل اسْم**» إِلَىٰ آخِره، توسل إِلَيْهِ بأسمائه كلهَا مَا علم العَبْد مِنْهَا وَمَا لم يعلم، وَهَذِه أحب الوَسَائِل إِلَيْهِ، فَإِنَّهَا وَسِيلَة بصفاته وأفعاله الَّتِي هِيَ مَدْلُول أَسْمَائِهِ، وقوله: «**أَن تجْعَل القُرْآن ربيع قلبِي، وَنور صَدْرِي**» الرَّبيع: المَطَر الَّذِي يحيي الأَرْض، شبَّه القُرْآن بِهِ لحياة القُلُوب بِهِ، وَكَذَلِكَ شبهه الله بالمطر، وَجمع بَين المَاء الَّذِي تحصل بِهِ الحَيَاة والنور الَّذِي تحصل بِهِ الإضاءة والإِشْرَاق، كَمَا جمع بَينهمَا سُبْحَانَهُ فِي قَوْله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ﴾ [الرعد:١٧]، وفي قَوْله: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ [البقرة:١٧]، ثمَّ

قَالَ: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:١٩]، وَفِي قَوْله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ [النور:٣٥]، الآيَات، ثمَّ قَالَ: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ﴾ [النور:٤٣]، الآيَة.

فتضمَّن الدُّعَاء أَن يحيي قلبه بربيع الْقُرْآن وَأَن ينوِّر بِهِ صَدره فتجتمع لَهُ الحَيَاة والنور، قَالَ تَعالَىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾ [الأنعام:١٢٢].

وَلما كَانَ الصَّدْر أوسع من القلب كَانَ النُّور الحَاصِل لَهُ يَسري مِنْهُ إِلَىٰ القلب؛ لِأَنَّهُ قد حصل لما هُوَ أوسع مِنْهُ، وَلما كَانَت حَيَاة البدن والجوارح كلهَا بحياة القلب تسري الحَيَاة مِنْهُ إِلَىٰ الصَّدْر، ثمَّ إِلَىٰ الجَوَارِح سَأَلَ الحَيَاة لَهُ بِالربيعِ الَّذِي هُوَ مادَّتها، وَلما كَانَ الحزن والهم والغَم يضاد حَيَاة القلب واستنارته سَأَلَ أَن يكون ذهابها بِالقُرْآنِ، فَإِنَّهَا أَحْرَىٰ أَن لَا تعود، وَأما إِذا ذهبت بِغَيْر القُرْآن من صِحَة أَو دنيا أَو جاه أَو زَوْجَة أَو ولد، فَإِنَّهَا تعود بذهاب ذَلِك، والمَكْرُوه الوَارِد علىٰ القلب إِن كَانَ من أَمر مَاضٍ أحدث الحزن، وإِن كَانَ من مُسْتَقْبل أحدَث الهمَّ، وَإِن كَانَ من أَمر حَاضر أحدث الغم، والله أعلم»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [النمل:٧٣]. أَيْ: بِإِعْطَاءِ العَقْلِ وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِنْزَالِ الكُتُبِ، وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ، فلا يستعملون العقل فِي التَّأَمُّلِ فِي دَلَائِلِ الله تَعالَىٰ، وَلَا يَقْبَلُونَ دَعْوَةَ أَنْبِيَاءِ الله، وَلَا يَنْتَفِعُونَ بِاسْتِمَاعِ كُتُبِ الله.

---

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص: ٢١).

الأعز الأكرم

﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾ [العلق:٣].

قال ابن أبي شيبة: حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ الفُضَيْلِ، عَنِ العَلَاءِ بْنِ المُسَيِّبِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ عُمَرُ إِذَا مَرَّ بِالوَادِي بَيْنَ الصَّفَا والمَرْوَةِ يَسْعَىٰ فِيهِ يَقُولُ: «رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ، وَأَنْتَ الأَعَزُّ الأَكْرَمُ»(١).

أَبُو بَكْرٍ قَالَ: نا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ شَقِيقٍ قَالَ: كَانَ عَبْدُ اللهِ إِذَا سَعَىٰ فِي بَطْنِ الوَادِي قَالَ: «رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ، إِنَّكَ أَنْتَ الأَعَزُّ الأَكْرَمُ»(٢).

وهَذَا التَّكْرِيمُ مَعْنَاهُ أَنَّهُ تَعَالَىٰ خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ وَخَلَقَ غَيْرَهُ بِطَرِيقِ كُنْ فَيَكُونُ، وَمَنْ كَانَ مَخْلُوقًا بِيَدِ اللهِ كَانَتِ العِنَايَةُ بِهِ أَتَمَّ وَأَكْمَلَ، وَكَانَ أَكْرَمَ وَأَكْمَلَ، وَلَمَّا جَعَلَنَا مِنْ أَوْلَادِهِ وَجَبَ كَوْنُ بَنِي آدَمَ أَكْرَمَ وَأَكْمَلَ.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ۝٧٠﴾ [الإسراء:٧٠].

«ذَكَرُوا فِي بَيَانِ أَكْرَمِيَّتِهِ تَعَالَىٰ وُجُوهًا:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ كَمْ مِنْ كَرِيمٍ يَحْلُمُ وَقْتَ الجِنَايَةِ، لَكِنَّهُ لَا يَبْقَىٰ إِحْسَانُهُ عَلَىٰ الوَجْهِ الَّذِي كَانَ قَبْلَ الجِنَايَةِ، وَهُوَ تَعَالَىٰ أَكْرَمُ؛ لِأَنَّهُ يَزِيدُ بِإِحْسَانِهِ بَعْدَ الجِنَايَةِ، وَمِنْهُ قَوْلُ القَائِلِ:

---

(١) «مصنف ابن أبي شيبة» (٦/ ٨٣).

(٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (٣/ ٤٢٠) وإسناده صحيح.

مَتَىٰ زِدْتُ تَقْصِيرًا تَـزِدْ لِـي تَفَضُّـلَا كَـأَنِّيَ بِالتَّقْصِـيرِ أَسْـتَوْجِبُ الفَضْـلَا

وَثَانِيهَا: إِنَّكَ كَرِيمٌ لَكِنَّ رَبَّكَ أَكْرَمُ، وَكَيْفَ لَا وَكُلُّ كَرِيمٍ يَنَالُ بِكَرَمِهِ نَفْعًا إِمَّا مَدْحًا أَوْ ثَوَابًا أَوْ يَدْفَعُ ضَرَرًا، أَمَّا أَنَا فَالأَكْرَمُ؛ إِذْ لَا أَفْعَلُهُ إِلَّا لِمَحْضِ الكَرَمِ.

وَثَالِثُهَا: أَنَّهُ الأَكْرَمُ؛ لِأَنَّ لَهُ الِابْتِدَاءَ فِي كُلِّ كَرَمٍ وَإِحْسَانٍ وَكَرَمُهُ غَيْرُ مَشُوبٍ بِالتَّقْصِيرِ.

وَرَابِعُهَا: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا حَثًّا عَلَىٰ القِرَاءَةِ، أَيْ هَذَا الأَكْرَمُ؛ لِأَنَّهُ يُجَازِيكَ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرًا، أَوْ حَثًّا عَلَىٰ الإِخْلَاصِ، أَيْ لَا تَقْرَأْ لِطَمَعٍ وَلَكِنْ لِأَجْلِي وَدَعْ عَلَيَّ أَمْرَكَ فَأَنَا أَكْرَمُ مِنْ أَنْ لَا أُعْطِيَكَ مَا لَا يُخْطَرُ بِبَالِكَ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّ المَعْنَىٰ تَجَرَّدْ لِدَعْوَةِ الخَلْقِ، وَلَا تَخَفْ أَحَدًا فَأَنَا أَكْرَمُ مِنْ أَنْ آمُرَكَ بِهَذَا التَّكْلِيفِ الشَّاقِّ، ثُمَّ لَا أَنْصُرُكَ»(١).

«الأكرم الَّذِي لَهُ الكَمَال فِي زِيَادَة كرمه علىٰ كل كرم، ينعم علىٰ عباده النعم الَّتِي لَا تحصىٰ، ويحلم عَنْهُم، فَلَا يعاجلهم بالعقوبة مَعَ كفرهم وجحودهم لنعمه وركوبهم المناهي واطراحهم الأَوَامِر، وَيقبل تَوْبَتهمْ ويتجاوز عَنْهُم بعد اقتراف العظائم، فَمَا لكرمه غَايَة، وَلَا أمد، وَكَأَنَّهُ لَيْسَ وَرَاء التكرم بإفادة الفَوَائِد العلمية تكرم حَيْثُ قَالَ: ﴿ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق:٣-٥]، فَدلَّ علىٰ كَمَال كرمه بِأَنَّهُ علم عباده مَا لم يعلمُوا، ونقلهم من ظلمَة الجَهْل إِلَىٰ نور العلم، وَنبهَ علىٰ فضل علم الكِتَابَة لما فِيهِ من المَنَافِع العَظِيمَة الَّتِي لَا يُحِيط بهَا إِلَّا هُوَ، وَمَا دونت العُلُوم، وَلَا قيدت الحكم،

(١) «التفسير الكبير» (٣٢/ ٢١٨).

وَلَا ضبطت أَخْبَار الأَوَّلين ومقالاتهم، وَلَا كتب الله المنزلَة إِلَّا بِالكِتَابَة، وَلَوْلَا هِيَ لما استقامت أُمُور الدّين والدُّنْيَا، وَلَو لم يكن علىٰ دَقِيق حِكْمَة الله ولطيف تَدْبيره دَلِيل إِلَّا أَمر القَلَم والخط لكفىٰ بِهِ»(١).

«ثمَّ تَأمل نعْمَة الله علىٰ الإنسان بالبيانين: البَيَان النطقي والبَيَان الخطي، وَقد اعْتد بهما سُبْحَانَهُ فِي جملَة من اعْتد بِهِ من نعمه علىٰ العَبْد فَقَالَ فِي أول سُورَة أنزلت علىٰ رَسُول الله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق:١-٥]، فَتَأمل كَيفَ جمع فِي هَذِه الكَلِمَات مَرَاتِب الخلق كلهَا، وَكَيف تَضَمَّنت مَرَاتِب الوجودات الأربعة بأوجز لفظ وأوضحه وأحسنه، فَذكر أَولًا عُمُوم الخلق، وَهُوَ إعطاء الوجود الخَارِجِي، ثمَّ ذكر ثَانِيًا خُصُوص خلق الإنسان لأنه مَوضِع العبْرَة والآية فِيهِ عَظِيمَة، وَمن شُهُوده عَمَّا فِيهِ مَحْض تعدد النعم، وَذكر مَادَّة خلقه هَا هُنَا من العلقَة، وَفِي سَائِر المَوَاضِع يذكر مَا هُوَ سَابق عَلَيْهَا إِمَّا مَادَّة الأصل، وَهُوَ التُّرَاب والطين أو الصلصال الَّذِي كالفخار، أو مَادَّة الفَرْع، وَهُوَ المَاء المهين.

وَذكر فِي هَذَا الموضع أول مبادئ تعلق التخليق، وَهُوَ العلقَة، فَإِنَّهُ كَانَ قبلهَا نُطْفَة، فَأول انتقالها إِنَّمَا هُوَ إلىٰ العلقَة، ثمَّ ذكر ثَالِثًا التَّعْلِيم بالقلم الَّذِي هُوَ من أعظم نعمه علىٰ عباده؛ إِذْ بِهِ تخلد العُلُوم وَتثبت الحُقُوق وَتعلم الوَصَايَا وَتحفظ الشَّهَادَات ويضبط حِسَاب المُعَامَلَات الوَاقِعَة بَين النَّاس، وَبِه تقيد

(١) «شرح الحديث المقتفىٰ في مبعث النبي المصطفىٰ» (ص: ١٢٦).

أخبار الماضين للباقين اللاحقين، وَلَوْلَا الكِتَابَة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عَن بعض، ودرست السُّنَن وتخبطت الأحكام، وَلم يعرف الخلف مَذَاهِب السَّلف، وَكَانَ مُعظم الخلَل الدَّاخِل علىٰ النَّاس فِي دينهم ودنياهم إنما يعتريهم من النسْيَان الَّذِي يمحو صور العلم من قُلُوبهم، فَجعل لَهُم الكتاب وعَاءً حَافِظًا للْعلم من الضَّيَاع كالأوعية الَّتِي تحفظ الأمتعة من الذَّهاب والبطلان.

فنعمة الله عَزَّوَجَلَّ بتعليم القَلَم بعد القُرْآن من أجلِّ النعم، والتعليم بِهِ وَإِن كَانَ مِمَّا يخلص إليه الإنسان بالفطنة والحِيلَة، فَإِنَّهُ الَّذِي بلغ بِهِ ذَلِك وأوصله إليه عَطِيَّة وَهبهَا الله مِنْهُ، وَفضل أعطاه الله إِيَّاه وَزِيَادَة فِي خلقه وفضله، فَهُوَ الَّذِي علمه الكِتَابَة، وَإِن كَانَ هُوَ المتعلم فَفعله فعل مُطَاوع لتعليم الَّذِي علم بالقلم، فَإِنه علمه فتعلم كَمَا أنه علمه الكَلَام فَتكلم، هَذَا وَمن أعطاه الذِّهْن الَّذِي يعي بِهِ، واللِّسَانَ الَّذِي يترجم بِهِ، والبَنانَ الَّذِي يخطُّ بِهِ، وَمَن هيَّأ ذهنه لقبُول هَذَا التَّعْلِيم دون سَائِر الحَيَوَانَات، وَمن الَّذِي أنطق لِسَانه وحرك بنانه، وَمن الَّذِي دعم البنان بالكف ودعم الكَفَّ بالساعد؟! فكم لله من آيَة نَحن غافلون عَنْهَا فِي التَّعَلُّم بالقلم!

فقف وَقْفَة فِي حَال الكِتَابَة، وَتَأمل حالك وَقد أمسكت القَلَم، وَهُوَ جماد وَضعته علىٰ القرطاس، وَهُوَ جماد فتولد من بَينهمَا أنواع الحِكَم وأصناف العُلُوم وفنون المراسلات والخُطب والنَّظم والنثر وجوابات المسَائِل، فَمن الَّذِي أجرىٰ تلك المعَانِي علىٰ قَلْبك ورسمها فِي ذهنك، ثمَّ أجرىٰ العبارَات الدَّالَّة عَلَيْهَا علىٰ لسَانك، ثمَّ حرك بهَا بنانك حَتَّىٰ صَارَت نقشًا عجيبًا مَعْنَاهُ أعْجَبْ من صورته، فتقضىٰ بِهِ مآربك، وتبلغ بِهِ حَاجَة فِي صدرك وترسله إلىٰ

الأقطار النائية والجهات المتباعدة، فَيقوم مقامك ويترجم عَنْك وَيتكَلَّم علىٰ لسَانك وَيقوم مقَام رَسُولك ويجدي عَلَيْك مَا لا يجدي من ترسله سوىٰ مَن علَّم بالقلم علم الإنسان مَا لم يعلم»(١).

❁ ❁ ❁

المعطي المانع

عن مُعَاوِيَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ**» متفق عليه(٢).

فقوله: «**لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت**»: توحيد الربوبية الذي يقتضي أنه سبحانه هو الذي يسأل ويُدعىٰ، ويتوكل عليه، وهو سبب لتوحيد الإلهية.

«بَيَّنَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَنَّهُ مَنْ كَانَ لَهُ فِي الدُّنْيَا رِيَاسَةٌ وَمَالٌ، لَمْ يُنْجِهِ ذَلِكَ وَلَمْ يُخَلِّصْهُ مِنَ اللهِ، وَإِنَّمَا يُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِهِ إِيمَانُهُ وَتَقْوَاهُ، فَإِنَّهُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «**اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ**».

(١) «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (١/ ٢٧٨).
(٢) أخرجه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣).

فَبَيَّنَ فِي هَذَا الحَدِيثِ أَصْلَيْنِ عَظِيمَيْنِ: أَحَدُهُمَا: تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، وَهُوَ أَنْ لَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ اللهُ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَاهُ، وَلَا يُتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ، وَلَا يُسْأَلُ إِلَّا هُوَ»(١).

«وبعد السلام: اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد. وليس في الوجود من يعطي شيئًا إلا وله مانع غيره، ولا يمنع شيئًا إلا وله معطٍ غيره، فهو في إعطائه غير مستقل، بل لابد له من شريك ومعاون، وهذا لأنه ليس في المخلوقات ما هو مؤثر تام، فلا شيء يؤثر وحده، ولا شيء إذا أثَّر يكون الأثر واجبًا معه مطلقًا، بل قد يكون له من المعارضات ما يمنع أثره»(٢).

«ومنها ما لا يطلق عليه بمفرده، بل مقرونًا بمقابله كالمانع والضار والمنتقم، فلا يجوز أن يفرد هذا عن مقابله، فإنه مقرون بالمعطي والنافع والعفو، فهو المعطي المانع الضار النافع المنتقم العفو المعز المذل؛ لأن الكمال في اقتران كل اسم من هذه بما يقابله؛ لأنه يراد به أنه المنفرد بالربوبية وتدبير الخلق والتصرف فيهم عطاء ومنعًا ونفعًا وضرًّا وعفوًا وانتقامًا، وأما أن يثنىٰ عليه بمجرد المنع والانتقام والإضرار، فلا يسوغ، فهذه الأسماء المزدوجة تجري الأسماء منها مجرىٰ الاسم الواحد الذي يمتنع فصل بعض حروفه عن

(١) «الفتاوىٰ الكبرىٰ» لابن تيمية (٢/ ٤٢٠).

(٢) «بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية» (٥/ ٢٣٥).

بعض فهي، وإن تعددت جارية مجرىٰ الاسم الواحد، ولذلك لم تجئ مفردة ولم تطلق عليه إلا مقترنة فاعلمه»(١).

❁ ❁ ❁

المعز المذل

قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران:٢٦].

«فصدَّر الآية سبحانه بتفرده بالملك كله وأنه هو سبحانه هو الذي يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء لا غيره، فالأول تفرده بالملك، والثاني تفرده بالتصرف فيه وأنه سبحانه هو الذي يعز من يشاء بما يشاء من أنواع العز، ويذل من يشاء بسلب ذلك العز عنه، وأن الخير كله بيديه ليس لأحد معه منه شيء، ثم ختمها بقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران:٢٦]، فتناولت الآية ملكه وحده وتصرفه وعموم قدرته، وتضمنت أن هذه التصرفات كلها بيده وأنها كلها خير، فسلْبُه المُلك عمن يشاء وإذلاله من يشاء خير، وإن كان شرًّا بالنسبة إلىٰ المسلوب الذليل، فإن هذا التصرف دائر بين العدل والفضل والحكمة والمصلحة لا تخرج عن ذلك، وهذا كله خير يحمد عليه الرب ويثنىٰ عليه به»(٢).

---

(١) «بدائع الفوائد» - نزار الباز (١/ ١٧٧).

(٢) «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» (ص: ١٧٨).

«ومَا يُسَمَّىٰ مُلْكًا فِي العُرْفِ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ مَجْمُوعِ أَشْيَاءَ:

أَحَدُهَا: تَكْثِيرُ المَالِ والجَاهِ، أَمَّا تَكْثِيرُ المَالِ فَيَدْخُلُ فِيهِ مُلْكُ الصَّامِتِ والنَّاطِقِ والدُّورِ والضِّيَاعِ، والحَرْثُ، والنَّسْلُ، وَأَمَّا تَكْثِيرُ الجاه، فهو أن يكون مهيبا عند النَّاسِ، مَقْبُولَ القَوْلِ، مُطَاعًا فِي الخَلْقِ.

والثَّانِي: أَنْ يَكُونَ بِحَيْثُ يَجِبُ عَلَىٰ غَيْرِهِ أَنْ يَكُونَ فِي طَاعَتِهِ، وَتَحْتَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ.

والثَّالِثُ: أَنْ يَكُونَ بِحَيْثُ لَوْ نَازَعَهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ، قَدَرَ عَلَىٰ قَهْرِ ذَلِكَ المُنَازِعِ، وَعَلَىٰ غَلَبَتِهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ»(١).

وَأخرج ابْن أبي حَاتِم عَن ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران:٢٦]، قَالَ: النُّبُوَّة(٢).

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المائدة:٢٠].

أخرج ابْن جرير عَن ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة:٢٠]، قَالَ: كَانَ الرجل من بني إِسْرَائِيل إِذا كَانَت لَهُ الزَّوْجَة والخَادِم والدَّار يُسمىٰ مَلِكًا(٣).

---

(١) «التفسير الكبير» (٨/ ١٨٨).

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» (٣٣٥١).

(٣) «تفسير الطبري» (١٠/ ١٦٣).

وروىٰ مسلم عن أبي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الحُبُلِيِّ، يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ العَاصِ وَسَأَلَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: أَلَسْنَا مِنْ فُقَرَاءِ المُهَاجِرِينَ؟ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ: أَلَكَ امْرَأَةٌ تَأْوِي إِلَيْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَلَكَ مَسْكَنٌ تَسْكُنُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَأَنْتَ مِنَ الأَغْنِيَاءِ، قَالَ: فَإِنَّ لِي خَادِمًا، قَالَ: فَأَنْتَ مِنَ المُلُوكِ»(١).

وَأخرج الطَّبَرَانِيُّ فِي «الصَّغِير» بِسَنَد جيد عَن أنس بن مَالك قَالَ: قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمعَاذ: «أَلا أعلمك دُعَاء تَدْعُو بِهِ لَو كَانَ عَلَيْك مثل جبل أُحد دَينًا لأَدَّاه الله عَنْك؟ قل يَا معَاذ: ﴿ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾ [آل عمران:٢٦]، رَحْمَنَ الدُّنْيَا والآخِرَة ورحيمهما تعطيهما من تشَاء وتمنع مِنْهُمَا من تشَاء، ارْحَمْنِي رَحْمَة تغنيني بهَا عَن رَحْمَة من سواك»(٢).

«كما في الأثر: إنَّ الذي يُخَالِفُ هَوَاهُ يَفْرَقُ الشَّيْطَانُ مِنْ ظِلِّهِ، ولهذا يوجد في المتبع هواه من ذل النفس وضعفها ومهانتها ما جعله الله لمن عصاه، فإنه سبحانه جعل العز لمن أطاعه والذل لمن عصاه، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ [آل عمران:١٣٩]، وقال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ [فاطر:١٠]، أي: من كان يطلب العزة فليطلبها بطاعة الله: بالكلم الطيب، والعمل الصالح، وقال بعض السلف: «الناس يطلبون العز بأبواب

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٧٩).

(٢) أخرجه الطبراني في «الصغير» (١/ ٣٣٦) (٥٥٨)، قال المنذري (٢/ ٣٨١): إسناده جيد. وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٨٢١).

الملوك، ولا يجدونه إلا في طاعة الله»، وقال الحسن: «وإن هَمْلَجَتْ بهم البراذين، وطقطقت بهم البغال إن ذل المعصية لفي قلوبهم، أبىٰ الله عَزَّوَجَلَّ إلا أن يُذِلَّ من عصاه، وذلك أن من أطاع الله تعالىٰ فقد والاه، ولا يذل من والاه الله، كما في دعاء القنوت: «إِنَّهُ لا يَذِلُّ مَنْ والَيْتَ وَلا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ»(١)»(٢).

❁❁❁

المحيي المميت

قال تعالىٰ: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٥٠﴾ [الروم:٥٠].

وقال تعالىٰ: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٢٨﴾ [البقرة:٢٨].

أخرج الفرْيَابِيُّ وَعبد بن حميد وَابْن جرير وَابْن الْمُنْذر وَابْن أبي حَاتِم والطَّبَرَانِيُّ والحَاكِم وَصَححهُ، عَن ابْن مَسْعُود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فِي قَوْله: ﴿أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ [غافر:١١]، قَالَ: هِيَ مثل الَّتِي فِي البَقَرَة: ﴿وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ [البقرة:٢٨]، كَانُوا أمواتًا فِي أصلاب آبَائِهِم، ثمَّ أخرجهم فأحياهم، ثمَّ يميتهم، ثمَّ يحييهم بعد المَوْت»(٣).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ٤٨).

(٣) «تفسير الطبري» (١/ ٤١٩)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٣٠١، ٣٠٢).

وهَذِهِ الآيَةُ دَالَّةٌ عَلَىٰ أُمُورٍ:

الأَوَّلُ: أَنَّهَا دَالَّةٌ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ الإِحْيَاءِ والإِمَاتَةِ إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ.

الثَّانِي: أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَىٰ صِحَّةِ الحَشْرِ والنَّشْرِ مَعَ التَّنْبِيهِ عَلَىٰ الدَّلِيلِ العَقْلِيِّ الدَّالِّ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ تَعَالَىٰ بَيَّنَ أَنَّهُ أَحْيَا هَذِهِ الأَشْيَاءَ بَعْدَ مَوْتِهَا فِي المَرَّةِ الأُولَىٰ فَوَجَبَ أَنْ يَصِحَّ ذَلِكَ فِي المَرَّةِ الثَّانِيَةِ.

الثَّالِثُ: أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَىٰ التَّكْلِيفِ والتَّرْغِيبِ والتَّرْهِيبِ.

الرَّابِعُ: أَنَّهَا دَالَّةٌ عَلَىٰ وُجُوبِ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:٢٨]، فَبَيَّنَ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ المَوْتِ، ثمَّ بَيَّنَ أَنَّهُ لَا يُتْرَكُ عَلَىٰ هَذَا المَوْتِ، بَلْ لَا بُدَّ مِنَ الرُّجُوعِ إِلَيْهِ. أَمَّا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ المَوْتِ، فَقَدْ بَيَّنَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أنه بعد ما كَانَ نُطْفَةً، فَإِنَّ اللهَ أَحْيَاهُ وَصَوَّرَهُ أَحْسَنَ صُورَةٍ وَجَعَلَهُ بَشَرًا سَوِيًّا وَأَكْمَلَ عَقْلَهُ وَصَيَّرَهُ بَصِيرًا بِأَنْوَاعِ المَنَافِعِ والمَضَارِّ وَمَلَّكَهُ الأَمْوَالَ والأَوْلَادَ والدُّورَ والقُصُورَ، ثمَّ إِنَّهُ تَعَالَىٰ يُزِيلُ كُلَّ ذَلِكَ عَنْهُ بِأَنْ يُمِيتَهُ وَيُصَيِّرَهُ بِحَيْثُ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا، وَلَا يَبْقَىٰ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا خَبَرٌ، وَلَا أَثَرٌ وَيَبْقَىٰ مُدَّةً طَوِيلَةً فِي اللُّحُودِ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ [المؤمنون:١٠٠]، يُنَادَىٰ، فَلَا يُجِيبُ وَيُسْتَنْطَقُ، فَلَا يَتَكَلَّمُ، ثمَّ لَا يَزُورُهُ الأَقْرَبُونَ، بَلْ يَنْسَاهُ الأَهْلُ والبَنُونَ. كَمَا قَالَ يَحْيَىٰ بْنُ مُعَاذٍ الرَّازِيُّ:

يَمُرُّ أَقَارِبِي بِحِذَاءِ قَبْرِي ... كَأَنَّ أَقَارِبِي لَمْ يَعْرِفُونِي

وحقيقة الإحياء والإماتة ترجع إلىٰ الإيجاد، ولكن الوجود إذا كان هو الحياة سمي فعله إحياء، وإذا كان هو الموت سمي فعله إماتة، ولا خالق

للموت والحياة إلا الله، ولا مميت ولا محيي إلا الله تعالىٰ، فهو خالق الحياة ومعطيها لكل من شاء حياته علىٰ وجه يريده ومديمها لمن أراد دوامها له، كما شاء، وكذا خالق الموت ومسلطه علىٰ من شاء من الأحياء متىٰ شاء، وكيف شاء، ومن عرف أنه المحيي المميت لم يهتم بحياة، ولا موت، بل يكون مفوضًا مستسلمًا في جميع أحواله لمن بيده الحياة والموت، كما قال ابراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ [الشعراء:٨١].

«ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج:٥-٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت:٣٩]، جعل الله سبحانه إحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات، وإخراج النبات منها نظير إخراجهم من القبور، ودل بالنظير علىٰ نظيره، وجعل ذلك آية ودليلًا علىٰ خمسة مطالب:

أحدها: وجود الصانع وأنه الحق المبين، وذلك يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته وإرادته وحياته وعلمه وحكمته ورحمته وأفعاله.

الثاني: أنه يحيي الموتىٰ.

الثالث: عموم قدرته علىٰ كل شيء.

الرابع: إتيان الساعة وأنه لا ريب فيها.

الخامس: أنه يخرج الموتىٰ من القبور، كما أخرج النبات من الأرض»[(١)].

وقال تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٢٢﴾ [الأنعام:١٢٢].

وقَدْ وَصَفَ اللهُ الكُفَّارَ بِأَنَّهُمْ أَمْوَاتٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٢١﴾ [النحل:٢١]، وَأَيْضًا فِي قَوْلِهِ: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس:٧٠]، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل:٨٠]، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩﴾ [فاطر:١٩]، ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ﴾ [فاطر:٢٢]، فَلَمَّا جُعِلَ الكُفْرُ مَوْتًا والكَافِرُ مَيِّتًا جُعِلَ الهُدَىٰ حَيَاةً والمُهْتَدِي حَيًّا، وَإِنَّمَا جُعِلَ الكُفْرُ مَوْتًا؛ لِأَنَّهُ جَهْلٌ، والجَهْلُ يُوجِبُ الحَيْرَةَ والوَقْفَةَ، فَهُوَ كَالمَوْتِ الَّذِي يُوجِبُ السُّكُونَ، وَأَيْضًا المَيِّتُ لَا يَهْتَدِي إِلَىٰ شَيْءٍ والجَاهِلُ كَذَلِكَ والهُدَىٰ عِلْمٌ وَبَصَرٌ والعِلْمُ والبَصَرُ سَبَبٌ لِحُصُولِ الرُّشْدِ والفَوْزِ بِالنَّجَاةِ.

«أصل كل خير وسعادة للعبد، بل لكل حي ناطق: كمال حياته ونوره. فالحياة والنور مادة الخير كله، قال الله تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَاۚ﴾ [الأنعام:١٢٢].

فجمع بين الأصلين: الحياة، والنور، فبالحياة تكون قوته، وسمعه وبصره، وحياؤه وعفته، وشجاعته وصبره، وسائر أخلاقه الفاضلة، ومحبته للحسن،

---

(١) «إعلام الموقعين عن رب العالمين» (١/ ١٤٤).

وبغضه للقبيح. فكلما قويت حياته قويت فيه هذه الصفات، وإذا ضعفت حياته ضعفت فيه هذه الصفات، وحياؤه من القبائح هو بحسب حياته في نفسه، فالقلب الصحيح الحي إذا عرضت عليه القبائح نفر منها بطبعه وأبغضها ولم يلتفت إليها، بخلاف القلب الميت، فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح، كما قال عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه-: «هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف وينكر به المنكر»، وكذلك القلب المريض بالشهوة، فإنه لضعفه يميل إلىٰ ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه.

وكذلك إذا قوي نوره وإشراقه انكشفت له صور المعلومات وحقائقها علىٰ ما هي عليه، فاستبان حُسْنَ الحسن بنوره، وآثره بحياته، وكذلك قبح القبيح، وقد ذكر سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هذين الأصلين في مواضع من كتابه. فقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورىٰ:٥٢].

فجمع بين الروح الذي يحصل به الحياة، والنور الذي يحصل به الإضاءة والإشراق، وأخبر أن كتابه الذي أنزله علىٰ رسوله -صلىٰ الله عليه وآله وسلم- متضمن للأمرين، فهو روح تحيا به القلوب، ونور تستضيء وتشرق به، كما قال تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَاۚ﴾ [الأنعام:١٢٢].

أي: أوَمَن كان كافرًا ميت القلب، مغمورًا في ظلمة الجهل: فهديناه لرشده، ووفقناه للإيمان، وجعلنا قلبه حيًّا بعد موته، مشرقًا مستنيرًا بعد ظلمته؟ فجعل الكافر لانصرافه عن طاعته، وجهله بمعرفته، وتوحيده وشرائع دينه، وترك

الأخذ بنصيبه من رضاه، والعمل بما يؤديه إلىٰ نجاته وسعادته: بمنزلة الميت الذي لا ينفع نفسه بنافعة، ولا يدفع عنها من مكروه، فهديناه للإسلام وأنعشناه به، فصار يعرف مضار نفسه ومنافعها، ويعمل في خلاصها من سخط الله تعالىٰ وعقابه، فأبصر الحق بعد عماه عنه، وعرفه بعد جهله به، واتبعه بعد إعراضه عنه، وحصل له نور وضياء يستضيء به، فيمشي بنوره بين الناس، وهم في سدف الظلام»(١).

❁ ❁ ❁

نور السموات والأرض

قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور:٣٥].

أخرج البُخَارِيُّ وَمُسلم عَن ابْن عَبَّاس قَالَ: كَانَ رَسُول الله ﷺ إِذا تهجد فِي اللَّيْل يَدْعُو: «**اللَّهُمَّ لَك الحَمد أَنْت رب السَّمَوَات والأَرْض وَمن فِيهِنَّ، وَلَك الحَمد أَنْت نور السَّمَوَات والأَرْض وَمن فِيهِنَّ، وَلَك الحَمد أَنْت قيام السَّمَوَات والأَرْض وَمن فِيهِنَّ، أَنْت الحق، وقولك حق، وَوَعدك حق،**

(١) «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ٢٠).

ولقاؤك حق، والجنَّة حق، والنَّار حق، والساعة حق، اللهم لَك أسلمت وَبِك آمَنت وَعَلَيْك توكلت وَإِلَيْك أنبت وَبِك خَاصَمت وَإِلَيْك حاكمت، فَاغْفِر لي مَا قدمت وَمَا أخرت وَمَا أسررت وَمَا أعلنت أَنْت إلهي لَا إِلَه إِلَّا أَنْت»[(١)].

وَأخرج الطَّبَرَانِيُّ عَن سعيد بن جُبَير قَالَ: كَانَ ابْن عَبَّاس يَقُول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلك بِنور وَجهك الَّذِي أشرقت لَهُ السَّمَوَات والأَرْض أَن تجعلني فِي حرزك وحفظك وجوارك وَتَحْت كنفك»[(٢)].

«وَاللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ سَمَّىٰ نَفْسَهُ نُورًا، وَجَعَلَ كِتَابَهُ نُورًا، وَرَسُولَهُ صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ نُورًا، وَدِينَهُ نُورًا، وَاحْتَجَبَ عَنْ خَلْقِهِ بِالنُّورِ، وَجَعَلَ دَارَ أَوْلِيَائِهِ نُورًا تَتَلَأْلَأُ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور:٣٥]، وَقَدْ فُسِّرَ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ [النور:٣٥]، الآيَةَ، بِكَوْنِهِ: مُنَوِّرُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ، وَهَادِي أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، فَبِنُورِهِ اهْتَدَىٰ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، وهذا إِنَّمَا هُوَ فِعْلُهُ، وَإِلَّا فَالنُّورُ الَّذِي هُوَ مِنْ أَوْصَافِهِ، قَائِمٌ بِهِ، وَمِنْهُ اشْتُقَّ لَهُ اسْمُ النُّورُ الَّذِي هُوَ أَحَدُ الأَسْمَاءِ الحُسْنَىٰ.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩).

(٢) أخرجه الطبراني (١٠٦٠٠)، وابن أبي شيبة (٢٩٥٣٩).

وَالنُّورُ يُضَافُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ أَحَدِ وَجْهَيْنِ: إِضَافَةُ صِفَةٍ إِلَىٰ مَوْصُوفِهَا، وَإِضَافَةُ مَفْعُولٍ إِلَىٰ فَاعِلِهِ. فَالأَوَّلُ: كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:٦٩]، الآيَةَ، فَهَذَا إِشْرَاقُهَا يَوْمَ القِيَامَةِ بِنُورِهِ تَعَالَىٰ إِذَا جَاءَ لِفَصْلِ القَضَاءِ. وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الدُّعَاءِ المَشْهُورِ: «أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الكَرِيمِ أَنْ تُضِلَّنِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»(١). وَفِي الأَثَرِ الآخَرِ: «أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ»(٢)، فَأَخْبَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الظُّلُمَاتِ أَشْرَقَتْ لِنُورِ وَجْهِهِ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَىٰ: أَنَّ الأَرْضَ تُشْرِقُ يَوْمَ القِيَامَةِ بِنُورِهِ.

وَفِي «مُعْجَمِ الطَّبَرَانِيِّ» و«السُّنَّةِ» لَهُ، وَكِتَابِ عُثْمَانَ الدَّارِمِيِّ، وَغَيْرِهَا، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَيْسَ عِنْدَ رَبِّكُمْ لَيْلٌ، وَلَا نَهَارٌ، نُورُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ مِنْ نُورِ وَجْهِهِ»(٣)، وهذا الَّذِي قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَقْرَبُ إِلَىٰ تَفْسِيرِ الآيَةِ مِنْ قَوْلِ مَنْ فَسَّرَهَا بِأَنَّهُ هَادِي أَهْلِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، «وَأَمَّا مَنْ فَسَّرَهَا بِأَنَّهُ مُنَوِّرُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ»، فَلَا تَنَافِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ، والحَقُّ أَنَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ بِهَذِهِ الِاعْتِبَارَاتِ كُلِّهَا.

وَفِي «صحيح مسلم» وَغَيْرِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ القِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ**

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٨٣)، ومسلم (٢٧١٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بلفظ: «اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْ تُضِلَّنِي».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الطبراني (٨٨٨٦)، وأبو نعيم (١/ ١٣٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٦٧٤).

النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»(١).

وَفِي «صحيح مسلم» عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «**نُورٌ أَنَّىٰ أَرَاهُ**»(٢)، فَسَمِعْتُ شَيْخَ الإِسْلَام ابْنَ تَيْمِيَّةَ يَقُولُ: مَعْنَاهُ كَانَ ثَمَّ نُورٌ، أَوْ حَالَ دُونَ رُؤْيَتِهِ نُورٌ فَأَنَّىٰ أَرَاهُ. قَالَ: وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ فِي بَعْضِ أَلْفَاظِ «الصَّحِيحِ»: «**هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ: رَأَيْتُ نُورًا**»(٣)، وَقَدْ أُعْضِلَ أَمْرُ هَذَا الحَدِيثِ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ حَتَّىٰ صَحَّفَهُ بَعْضُهُمْ فَقَالَ: «**نُورَانِيٌّ أَرَاهُ**»، عَلَىٰ أَنَّهَا يَاءُ النَّسَبِ، والكَلِمَةُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ، وهذا خَطَأٌ لَفْظًا وَمَعْنًىٰ، وَإِنَّمَا أَوْجَبَ لَهُمْ هَذَا الإِشْكَالَ والخَطَأَ أَنَّهُمْ لَمَّا اعْتَقَدُوا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رَأَىٰ رَبَّهُ وَكَانَ قَوْلُهُ: «**أَنَّىٰ أَرَاهُ**»، كَالإِنْكَارِ لِلرُّؤْيَةِ حَارُوا فِي الحَدِيثِ، وَرَدَّهُ بَعْضُهُمْ بِاضْطِرَابِ لَفْظِهِ، وَكُلُّ هَذَا عُدُولٌ عَنْ مُوجَبِ الدَّلِيلِ.

وَقَدْ حَكَىٰ عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ الدَّارِمِيُّ، فِي كِتَابِ «الرَّدِّ» لَهُ، إِجْمَاعَ الصَّحَابَةِ عَلَىٰ أَنَّهُ لَمْ يَرَ رَبَّهُ لَيْلَةَ المِعْرَاجِ، وَبَعْضُهُمُ اسْتَثْنَىٰ ابْنَ عَبَّاسٍ مِنْ ذَلِكَ، وَشَيْخُنَا يَقُولُ: لَيْسَ ذَلِكَ بِخِلَافٍ فِي الحَقِيقَةِ. فَإِنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ لَمْ يَقُلْ: رَآهُ بِعَيْنَيْ رَأْسِهِ، وَعَلَيْهِ اعْتَمَدَ أَحْمَدُ فِي إِحْدَىٰ الرِّوَايَتَيْنِ حَيْثُ قَالَ: إِنَّهُ رَآهُ عَزَّوَجَلَّ، وَلَمْ يَقُلْ: بِعَيْنَيْ رَأْسِهِ، وَلَفْظُ أَحْمَد كَلَفْظِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وَيَدُلُّ عَلَىٰ صِحَّةِ مَا قَالَهُ شَيْخُنَا فِي مَعْنَىٰ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَوْلُهُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فِي الحَدِيثِ الآخَرِ:

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٨).

(٣) أخرجه مسلم (١٧٨).

«**حِجَابُهُ النُّورُ**». فَهَذَا النُّورُ هُوَ -واللهُ أَعْلَمُ- النُّورُ المَذْكُورُ فِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**رَأَيْتُ نُورًا**»(١).

«وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور:٣٥]، الآيَةَ، هَذَا مَثَلٌ لِنُورِهِ فِي قَلْبِ عَبْدِهِ المُؤْمِنِ، كَمَا قَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَغَيْرُهُ، وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي تَفْسِيرِ الضَّمِيرِ فِي ﴿نُورِهِۦ﴾، فَقِيلَ: هُوَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَيْ: مَثَلُ نُورِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقِيلَ: تَفْسِيرُهُ المُؤْمِنُ، أَيْ: مَثَلُ نُورِ المُؤْمِنِ، والصَّحِيحُ أَنَّهُ يَعُودُ عَلَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والمَعْنَىٰ: مَثَلُ نُورِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي قَلْبِ عَبْدِهِ، وَأَعْظَمُ عِبَادِهِ نَصِيبًا مِنْ هَذَا النُّورِ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهَذَا مَعَ مَا تَضَمَّنَهُ عَوْدُ الضَّمِيرِ إِلَىٰ المَذْكُورِ، وَهُوَ وَجْهُ الكَلَامِ يَتَضَمَّنُ التَّقَادِيرَ الثَّلَاثَةَ، وَهُوَ أَتَمُّ مَعْنًىٰ وَلَفْظًا، وهذا النُّورُ يُضَافُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ؛ إِذْ هُوَ مُعْطِيهِ لِعَبْدِهِ وَوَاهِبُهُ إِيَّاهُ، وَيُضَافُ إِلَىٰ العَبْدِ؛ إِذْ هُوَ مَحَلُّهُ وَقَابِلُهُ، فَيُضَافُ إِلَىٰ الفَاعِلِ والقَابِلِ، ولهذا النُّورِ فَاعِلٌ وَقَابِلٌ، وَمَحَلٌّ وَحَامِلٌ، وَمَادَّةٌ، وَقَدْ تَضَمَّنَتِ الآيَةُ ذِكْرَ هَذِهِ الأُمُورِ كُلِّهَا عَلَىٰ وَجْهِ التَّفْصِيلِ.

فَالفَاعِلُ: هُوَ اللهُ تَعَالَىٰ مُفِيضُ الأَنْوَارِ الهَادِي لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ، والقَابِلُ: العَبْدُ المُؤْمِنُ، والمَحَلُّ قَلْبُهُ، والحَامِلُ: هِمَّتُهُ وَعَزِيمَتُهُ وَإِرَادَتُهُ، والمَادَّةُ: قَوْلُهُ وَعَمَلُهُ، وهذا التَّشْبِيهُ العَجِيبُ الَّذِي تَضَمَّنَتْهُ الآيَةُ فِيهِ مِنَ الأَسْرَارِ والمَعَانِي وَإِظْهَارِ تَمَامِ نِعْمَتِهِ عَلَىٰ عَبْدِهِ المُؤْمِنِ بِمَا أَنَالَهُ مِنْ نُورِهِ مَا تَقَرُّ بِهِ عُيُونُ أَهْلِهِ وَتَبْتَهِجُ بِهِ قُلُوبُهُمْ.

(١) «اجتماع الجيوش الإسلامية» (٢/ ٤٨).

وَالمِصْبَاحُ هُوَ نُورُ الإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ، والشَّجَرَةُ المُبَارَكَةُ هِيَ شَجَرَةُ الوَحْيِ المُتَضَمِّنَةُ لِلْهُدَىٰ، وَدِينُ الحَقِّ وَهِيَ مَادَّةُ المِصْبَاحِ الَّتِي يَتَّقِدُ مِنْهَا، والنُّورُ عَلَىٰ النُّورِ: نُورُ الفِطْرَةِ الصَّحِيحَةِ والإِدْرَاكِ الصَّحِيحِ، وَنُورُ الوَحْيِ والكِتَابِ، فَيَنْضَافُ أَحَدُ النُّورَيْنِ إِلَىٰ الآخَرِ فَيَزْدَادُ العَبْدُ نُورًا عَلَىٰ نُورٍ، ولهذا يَكَادُ يَنْطِقُ بِالحَقِّ والحِكْمَةِ قَبْلَ أَنْ يَسْمَعَ مَا فِيهِ بِالأَثَرِ، ثُمَّ يَبْلُغُهُ الأَثَرُ بِمِثْلِ مَا وَقَعَ فِي قَلْبِهِ وَنَطَقَ بِهِ فَيَتَّفِقُ عِنْدَهُ شَاهِدُ العَقْلِ والشَّرْعِ والفِطْرَةُ والوَحْيُ فَيُرِيَهُ عَقْلُهُ وَفِطْرَتُهُ وَذَوْقُهُ أَنَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الحَقُّ لَا يَتَعَارَضُ عِنْدَهُ العَقْلُ والنَّقْلُ البَتَّةَ، بَلْ يَتَصَادَقَانِ وَيَتَوَافَقَانِ فَهَذَا عَلَامَةُ النُّورِ عَلَىٰ النُّورِ، عَكْسُ مَنْ تَلَاطَمَتْ فِي قَلْبِهِ أَمْوَاجُ الشُّبَهِ البَاطِلَةِ، والخَيَالَاتِ الفَاسِدَةِ مِنَ الظُّنُونِ الجَهْلِيَّاتِ الَّتِي يُسَمِّيهَا أَهْلُهَا القَوَاطِعَ العَقْلِيَّاتِ، فَهِيَ فِي صَدْرِهِ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝٤٠﴾ [النور:٤٠]، فَانْظُرْ كَيْفَ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الآيَاتُ طَرَائِفَ بَنِي آدَمَ كُلِّهِمْ أَتَمَّ انْتِظَامٍ، وَاشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَكْمَلَ اشْتِمَالٍ»(١).

قلت: وتفسير الآية من السُّنة حديث حُذَيْفَةُ مرفوعًا: «**أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ نَزَلَ القُرْآنُ، فَعَلِمُوا مِنَ القُرْآنِ، وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ، ثُمَّ، حدثنا عَنْ رَفْعِ الأَمَانَةِ قَالَ: يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الوَكْتِ**»، متفق عليه(٢).

---

(١) «اجتماع الجيوش الإسلامية» (٢/ ٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٧)، ومسلم (١٤٣).

«﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام:١٢٥].

فَالهُدَىٰ والتَّوْحِيدُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ شَرْحِ الصّدْرِ، والشِّرْكُ والضَّلَالُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ ضِيقِ الصَّدْرِ وَانْحِرَاجِهِ، وَمِنْهَا: النُّورُ الَّذِي يَقْذِفُهُ اللهُ فِي قَلْبِ العَبْدِ، وَهُوَ نُورُ الإِيمَانِ، فَإِنَّهُ يَشْرَحُ الصَّدْرَ وَيُوَسِّعُهُ وَيُفْرِحُ القَلْبَ. فَإِذَا فُقِدَ هَذَا النُّورُ مِنْ قَلْبِ العَبْدِ ضَاقَ وَحَرِجَ، وَصَارَ فِي أَضْيَقِ سِجْنٍ وَأَصْعَبِهِ.

وَقَدْ رَوَىٰ الترمذي فِي «جَامِعِهِ» عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ النُّورُ القَلْبَ انْفَسَحَ وَانْشَرَحَ. قَالُوا: وَمَا عَلَامَةُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الإِنَابَةُ إِلَىٰ دَارِ الخُلُودِ، والتَّجَافِي عَنْ دَارِ الغُرُورِ، والِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ»(١). فَيُصِيبُ العَبْدَ مِنِ انْشِرَاحِ صَدْرِهِ بِحَسَبِ نَصِيبِهِ مِنْ هَذَا النُّورِ، وَكَذَلِكَ النُّورُ الحِسِّيُّ، والظُّلْمَةُ الحِسِّيَّةُ، هَذِهِ تَشْرَحُ الصَّدْرَ، وَهَذِهِ تُضَيِّقُهُ.

وَمِنْهَا: العِلْمُ، فَإِنَّهُ يَشْرَحُ الصَّدْرَ، وَيُوَسِّعُهُ حَتَّىٰ يَكُونَ أَوْسَعَ مِنَ الدُّنْيَا، والجَهْلُ يُورِثُهُ الضِّيقَ والحَصْرَ والحَبْسَ، فَكُلَّمَا اتَّسَعَ عِلْمُ العَبْدِ انْشَرَحَ صَدْرُهُ وَاتَّسَعَ، وَلَيْسَ هَذَا لِكُلِّ عِلْمٍ، بَلْ لِلْعِلْمِ المَوْرُوثِ عَنِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ العِلْمُ النَّافِعُ، فَأَهْلُهُ أَشْرَحُ النَّاسِ صَدْرًا، وَأَوْسَعُهُمْ قُلُوبًا، وَأَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقًا، وَأَطْيَبُهُمْ عَيْشًا.

---

(١) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٢٦)، وقال: «هَذَا مُنْقَطِعٌ»، ولم أجده عند الترمذي.

وَمِنْهَا: الإِنَابَةُ إِلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وَمَحَبَّتُهُ بِكُلِّ القَلْبِ والإِقْبَالُ عَلَيْهِ والتَّنَعُّمُ بِعِبَادَتِهِ، فَلَا شَيْءَ أَشْرَحُ لِصَدْرِ العَبْدِ مِنْ ذَلِكَ. حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيَقُولُ أَحْيَانًا: إِنْ كُنْتُ فِي الجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الحَالَةِ، فَإِنِّي إِذًا فِي عَيْشٍ طَيِّبٍ»(١).

«وبالجملة، فالقلب الصحيح: هو الذي همه كله في الله وحبه كله له وقصده له وبدنه له وأعماله له ونومه له ويقظته له، وحديثه والحديث عنه أشهىٰ إليه من كل حديث، وأفكاره تحوم علىٰ مراضيه ومحابه: الخلوة به آثر عنده من الخلطة إلا حيث تكون الخلطة أحب إليه وأرضىٰ له قرة عينه به وطمأنينته وسكونه إليه، فهو كلما وجد من نفسه التفاتًا إلىٰ غيره تلا عليها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨﴾ [الفجر:٢٧-٢٨]، فهو يردد عليها الخطاب بذلك ليسمعه من ربه يوم لقائه فينصبغ القلب بين يدي إلهه ومعبوده الحق بصبغة العبودية، فتصير العبودية صفة له وذوقًا لا تكلفًا فيأتي بها توددًا وتحببًا وتقربًا، كما يأتي المحب المقيم في محبة محبوبه بخدمته وقضاء أشغاله، فكلما عرض له أمر من ربه أو نهي أحس من قلبه ناطقًا ينطق لبيك وسعديك إني سامع مطيع ممتثل ولك علي المنة في ذلك والحمد فيه عائد إليك.

وإذا أصابه قدر وجد من قلبه ناطقًا يقول: أنا عبدك ومسكينك وفقيرك، وأنا عبدك الفقير العاجز الضعيف المسكين، وأنت ربي العزيز الرحيم لا صبر لي إن لم تصبرني، ولا قوة لي إن لم تحملني وتقوني، لا ملجأ لي منك إلا إليك، ولا مستعان لي إلا بك، ولا انصراف لي عن بابك، ولا مذهب لي عنك،

(١) «زاد المعاد في هدي خير العباد» (٢/ ٢٣).

فينطرح بمجموعه بين يديه ويعتمد بكليته عليه، فإن أصابه بما يكره قال: رحمة أهديت إلي ودواء نافع من طبيب مشفق، وإن صرف عنه ما يحب قال: شرًّا صرف عني»(١).

❁❁❁

الخلاق العليم

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨٦﴾ [الحجر:٨٦].

﴿هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨٦﴾ يشير بالخلاق -وهو للمبالغة- إلىٰ أنه تعالىٰ خالق لصور المخلوقات ومعانيها وحقائقها العليم بمن خلقه؛ لأنه خلق الخلق وعلم ما هم عليه وما هم فاعلون إلىٰ يوم القيامة، فتبارك الله أحسن الخالقين، الذي أحسن كلَّ شيء خلقَه.

وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١﴾ [يس:٨١].

«فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الآيَاتُ عَشَرَةَ أَدِلَّةٍ:

أَحَدُهَا: قَوْلُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [يس:٧٧]، فَذَكَّرَهُ مَبْدَأَ خَلْقِهِ لِيَدُلَّهُ بِهِ عَلَىٰ النَّشْأَةِ الثَّانِيَةِ، ثمَّ أَخْبَرَ أَنَّ هَذَا الجَاحِدَ لَوْ ذَكَرَ خَلْقَهُ لَمَا ضَرَبَ المَثَلَ، بَلْ لَمَّا نَسِيَ خَلْقَهُ ضَرَبَ المَثَلَ؛ فَتَحْتَ قَوْلِهِ: ﴿وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾

(١) «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» - المعرفة (١/ ٧٣).

[يس:٧٨]، أَلْطَفُ جَوَابٍ وَأَبْيَنُ دَلِيلٍ، وهذا كَمَا تَقُولُ لِمَنْ جَحَدَكَ أَنْ تَكُونَ قَدْ أَعْطَيْتَهُ شَيْئًا: فُلَانٌ جَحَدَنِي الإِحْسَانَ إِلَيْهِ وَنَسِيَ الثِّيَابَ الَّتِي عَلَيْهِ والمَالَ الَّذِي مَعَهُ والدَّارَ الَّتِي هُوَ فِيهَا، حَيْثُ لَا يُمْكِنُهُ جَحْدُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنك؛ ثُمَّ أُجِيبَ عَنْ سُؤَالِهِ بِمَا يَتَضَمَّنُ أَبْلَغَ الدَّلِيلِ عَلَىٰ ثُبُوتِ مَا جَحَدَهُ فَقَالَ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩]، فَهَذَا جَوَابٌ وَاسْتِدْلَالٌ قَاطِعٌ، ثم أَكَّدَ هَذَا المَعْنَىٰ بِالإِخْبَارِ بِعُمُومِ عِلْمِهِ لِجَمِيعِ الخَلْقِ، فَإِنْ تَعَذَّرَ الإِعَادَةُ عَلَيْهِ إِنَّمَا يَكُونُ لِقُصُورِ عِلْمِهِ أَوْ قُصُورٍ فِي قُدْرَتِهِ، وَلَا قُصُورَ فِي عِلْمِ مَنْ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ، وَلَا قُدْرَةَ فَوْقَ قُدْرَةِ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ، وَإِذَا أَرَادَ شَيْئًا قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وَبِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، فَكَيْفَ تَعْجِزُ قُدْرَتُهُ وَعِلْمُهُ عَنْ إِحْيَائِكُمْ بَعْدَ مَمَاتِكُمْ وَلَمْ نَعْجِزْ عَنِ النَّشْأَةِ الأُولَىٰ، وَلَا عَنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ؟!

ثُمَّ أَرْشَدَ عِبَادَهُ إِلَىٰ دَلِيلٍ وَاضِحٍ جَلِيٍّ مُتَضَمِّنٍ لِلْجَوَابِ عَنْ شُبَهِ المُنْكَرِينَ بِأَلْطَفِ الوُجُوهِ وَأَبْيَنِهَا وَأَقْرَبِهَا إِلَىٰ العَقْلِ، فَقَالَ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾ [يس:٨٠]، فَإِذَنْ هَذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ تَمَامِ قُدْرَتِهِ وَإِخْرَاجِ الأَمْوَاتِ مِنْ قُبُورِهِمْ كَمَا أَخْرَجَ النَّارَ مِنَ الشَّجَرَةِ الخَضْرَاءِ.

وَفِي ذَلِكَ جَوَابٌ عَنْ شُبْهَةِ مَنْ قَالَ مِنْ مُنْكَرِي المَعَادِ: المَوْتُ بَارِدٌ يَابِسٌ والحَيَاةُ طَبْعُهَا الرُّطُوبَةُ والحَرَارَةُ، فَإِذَا حَلَّ المَوْتُ بِالجِسْمِ لَمْ يُمْكِنْ أَنْ تَحِلَّ فِيهِ الحَيَاةُ بَعْدَ ذَلِكَ لِتَضَادِّ مَا بَيْنَهُمَا، وَهَذِهِ شُبْهَةٌ تَلِيقُ بِعُقُولِ المُكَذِّبِينَ الَّذِينَ لَا سَمْعَ لَهُمْ، وَلَا عَقْلَ؛ فَإِنَّ الحَيَاةَ لَا تُجَامِعُ المَوْتَ فِي المَحَلِّ الوَاحِدِ لِيَلْزَمَ مَا قَالُوا، بَلْ إِذَا أَوْجَدَ اللهُ فِيهِ الحَيَاةَ وَطَبْعَهَا ارْتَفَعَ المَوْتُ وَطَبْعُهُ، وهذا الشَّجَرُ الأَخْضَرُ طَبْعُهُ الرُّطُوبَةُ والبُرُودَةُ تَخْرُجُ مِنْهُ النَّارُ الحَارَّةُ اليَابِسَةُ.

ثمَّ ذَكَرَ مَا هُوَ أَوْضَحُ لِلْعُقُولِ مِنْ كُلِّ دَلِيلٍ، وَهُوَ خَلْقُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ مَعَ عِظَمِهَا وَسُعَتِهَا وَأَنَّهُ لَا نِسْبَةَ لِلْخَلْقِ الضَّعِيفِ إِلَيْهِمَا، وَمَنْ لَمْ تَعْجِزْ قُدْرَتُهُ وَعِلْمُهُ عَنْ هَذَا الخَلْقِ العَظِيمِ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ كَيْفَ تَعْجِزُ عَنْ إِحْيَائِهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ؟!

ثمَّ قَرَّرَ هَذَا المَعْنَىٰ بِذِكْرِ وَصْفَيْنِ مِنْ أَوْصَافِهِ مُسْتَلْزِمَيْنِ لِمَا أَخْبَرَ بِهِ فَقَالَ: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١﴾ [يس:٨١]، فَكَوْنُهُ خَلَّاقًا عَلِيمًا يَقْتَضِي أَنْ يَخْلُقَ مَا يَشَاءُ، وَلَا يُعْجِزُهُ مَا أَرَادَهُ مِنَ الخَلْقِ، ثمَّ قَرَّرَ هَذَا المَعْنَىٰ بِأَنَّ عُمُومَ إِرَادَتِهِ وَكَمَالِهَا لَا يَقْصُرُ عَنْهُ، وَلَا عَنْ شَيْءٍ أَبَدًا، فَقَالَ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس:٨٢]، فَلَا يُمْكِنُهُ الِاسْتِعْصَاءُ عَلَيْهِ، وَلَا يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ، بَلْ يَأْتِي طَائِعًا مُنْقَادًا لِمَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، ثمَّ زَادَهُ تَأْكِيدًا وَإِيضَاحًا بِقَوْلِهِ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس:٨٣]، فَنَزَّهَ نَفْسَهُ عَمَّا نَطَقَ بِهِ أَعْدَاؤُهُ المُنْكِرُونَ لِلْمَعَادِ مُعَظِّمًا لَهَا بِأَنَّ مُلْكَ كُلِّ شَيْءٍ بِيَدِهِ يَتَصَرَّفُ فِيهِ تَصَرُّفَ المَالِكِ الحَقِّ فِي مَمْلُوكِهِ الَّذِي لَا يُمْكِنُهُ الِامْتِنَاعُ عَنْ أَيِّ تَصَرُّفٍ شَاءَهُ فِيهِ.

ثمَّ خَتَمَ السُّورَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾ [يس:٨٣]، كَمَا أَنَّهُمُ ابْتَدَءُوا مِنْهُ هُوَ فَكَذَلِكَ مَرْجِعُهُمْ إِلَيْهِ، فَمِنْهُ المَبْدَأُ وَإِلَيْهِ المَعَادُ، وَهُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ؟ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّك المُنْتَهَىٰ، وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝٦٦ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ۝٦٧﴾ [مريم:٦٦-٦٧]،

فَتَأَمَّلْ تَضَمُّنَ هَذِهِ الكَلِمَاتِ -عَلَىٰ اخْتِصَارِهَا وَإِيجَازِهَا وَبَلَاغَتِهَا- لِلْأَصْلِ والفَرْعِ والعِلَّةِ والحُكْمِ»(١).

❖ ❖ ❖

عزيز ذو انتقام

قال تعالىٰ: ﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ [آل عمران:٤].

وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ [المائدة:٩٥].

وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم:٤٧].

وَأخرج ابْن جرير عَن مُحَمَّد بن جَعْفَر بن الزبير فِي قَوْله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ [آل عمران:٤]، أَي: أَن الله منتقم مِمَّن كفر بآياته بعد علمه بهَا ومعرفته بِمَا جَاءَ مِنْهُ فِيهَا(٢).

---

(١) «إعلام الموقعين عن رب العالمين» (١/ ١٠٩).

(٢) «تفسير الطبري» (٦/ ١٦٥) (٦٥٦٤).

«والله منيعٌ في سلطانه، لا يقهره قاهرٌ، ولا يمنعه من الانتقام ممن انتقم منه، ولا من عقوبة من أراد عقوبته، مانع، لأن الخلق خلقه، والأمر أمره، له العزة المَنَعة»(١).

وَالعَزِيزُ الغَالِبُ الَّذِي لَا يُغْلَبُ، والِانْتِقَامُ العُقُوبَةُ، يُقَالُ: انْتَقَمَ مِنْهُ انْتِقَامًا أَيْ: عَاقَبَهُ، وَقَالَ اللَّيْثُ: يُقَالُ: لَمْ أَرْضَ عَنْهُ حَتَّىٰ نَقَمْتُ مِنْهُ وَانْتَقَمْتُ إِذَا كافأه عقوبة بِمَا صَنَعَ، والعَزِيزُ إِشَارَةٌ إِلَىٰ القُدْرَةِ التَّامَّةِ عَلَىٰ العِقَابِ، وَذُو الِانْتِقَام إِشَارَةٌ إِلَىٰ كَوْنِهِ فَاعِلًا لِلْعِقَابِ، فَالأَوَّلُ: صِفَةُ الذَّاتِ، والثَّانِي: صِفَةُ الفعل، فهو غالب منيع يعز من يعبده ذِي انْتِقام من أعدائه لأوليائه أي: هو عزيز ذو انتقام، لأن الاستفهام إذا دخل علىٰ النفي أفاد تحقيقًا وتقريرًا.

«وَاسْمُ (المُنْتَقِم) لَيْسَ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَىٰ الثَّابِتَةِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِنَّمَا جَاءَ فِي القُرْآنِ مُقَيَّدًا؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة:٢٢]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم:٤٧].

والحَدِيثُ الَّذِي فِي عَدَدِ الأَسْمَاءِ الحُسْنَىٰ الَّذِي يُذْكَرُ فِيهِ (المُنْتَقِمُ) فَذُكِرَ فِي سِيَاقِهِ: (البَرُّ التَّوَّابُ المُنْتَقِمُ العَفُوُّ الرَّءُوفُ) لَيْسَ هُوَ عِنْدَ أَهْلِ المَعْرِفَةِ بِالحَدِيثِ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَلْ هَذَا ذَكَرَهُ الوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ عَنْ سَعِيدِ ابْنِ عَبْدِ العَزِيزِ أَوْ عَنْ بَعْضِ شُيُوخِهِ؛ ولهذا لَمْ يَرْوِهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الكُتُبِ المَشْهُورَةِ إِلَّا التِّرْمِذِيُّ رَوَاهُ عَنْ طَرِيقِ الوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ بِسِيَاق، وَرَوَاهُ غَيْرُهُ بِاخْتِلَاف فِي الأَسْمَاءِ وَفِي تَرْتِيبِهَا: يُبَيِّنُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) «تفسير الطبري» = «جامع البيان» ت: شاكر (١٠/ ٥٧).

وَسَائِرُ مَنْ رَوَىٰ هَذَا الحَدِيثَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، ثمَّ عَنِ الأَعْرَجِ، ثمَّ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ لَمْ يَذْكُرُوا أَعْيَانَ الأَسْمَاءِ؛ بَلْ ذَكَرُوا قَوْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**»(١)، وَهَكَذَا أَخْرَجَهُ أَهْلُ الصَّحِيحِ، كَالبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَغَيْرِهِمَا.

وَلَكِنْ رُوِيَ عَدَدُ الأَسْمَاءِ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَىٰ مِنْ حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجه وَإِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ، يَعْلَمُ أَهْلُ الحَدِيثِ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَيْسَ فِي عَدَدِ الأَسْمَاءِ الحُسْنَىٰ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا هَذَانِ الحَدِيثَانِ كِلَاهُمَا مَرْوِيٌّ مِنْ طَرِيقِ أَبِي هُرَيْرَةَ»(٢).

«وَأَسْمَاؤُهُ تَدُلُّ عَلَىٰ صِفَاتِهِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ خَيْرٌ حَسَنٌ جَمِيلٌ لَيْسَ فِيهِ شَرٌّ، وَإِنَّمَا وَقَعَ الشَّرُّ فِي المَخْلُوقَاتِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩﴾ [الحجر:٤٩]: ﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [الحجر:٥٠]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٩٨﴾ [المائدة:٩٨]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ۝١٦٥﴾ [الأنعام:١٦٥]، فَجَعَلَ المَغْفِرَةَ والرَّحْمَةَ مِنْ مَعَانِي أَسْمَائِهِ الحُسْنَىٰ الَّتِي يُسَمِّي بِهَا نَفْسَهُ فَتَكُونُ المَغْفِرَةُ والرَّحْمَةُ مِنْ صِفَاتِهِ، وَأَمَّا العِقَابُ الَّذِي يَتَّصِلُ بِالعِبَادِ، فَهُوَ مَخْلُوقٌ لَهُ، وَذَلِكَ هُوَ الأَلِيمُ، فَلَمْ يَقُلْ: وَإِنِّي أَنَا المُعَذِّبُ، وَلَا فِي أَسْمَائِهِ الثَّابِتَةِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْمُ المُنْتَقِمِ، وَإِنَّمَا جَاءَ المُنْتَقِمُ فِي القُرْآنِ مُقَيَّدًا؛ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ۝٢٢﴾ [السجدة:٢٢]، وَجَاءَ مَعْنَاهُ مُضَافًا إِلَىٰ اللهِ فِي قَوْلِهِ:

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (٨/ ٩٦).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤٧﴾ [إبراهيم:٤٧]، وَهَذِهِ نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ الإِثْبَاتِ، والنَّكِرَةُ فِي سِيَاقِ الإِثْبَاتِ مُطْلَقَةٌ لَيْسَ فِيهَا عُمُومٌ عَلَىٰ سَبِيلِ الجَمْعِ»(١).

قلت: قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٨٠﴾ [الأعراف:١٨٠].

دَلَّتْ هَذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ أَسْمَاءَ الله علىٰ الحقيقة لَيْسَتْ إِلَّا لله، والصِّفَاتِ الحُسْنَىٰ لَيْسَتْ إِلَّا لله، فَيَجِبُ كَوْنُهَا مَوْصُوفَةً بِالحُسْنِ والكَمَالِ، فَهَذَا يُفِيدُ أَنَّ كُلَّ اسْمٍ لَا يُفِيدُ فِي المُسَمَّىٰ صِفَةَ كَمَالٍ وَجَلَالٍ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ إِطْلَاقُهُ عَلَىٰ الله سُبْحَانَهُ، وهذا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ أَسْمَاءَ الله تَوْقِيفِيَّةٌ لَا اصْطِلَاحِيَّةٌ.

❁ ❁ ❁

خيرٌ حافظًا

جاء مفضَّلًا في قوله: ﴿خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ﴾ [يوسف:٦٤]، وفي قوله: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ ۝٨٢﴾ [الأنبياء:٨٢]، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر:٩].

قال تعالىٰ: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٦٤﴾ [يوسف:٦٤].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر:٩].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ ۝٨٢﴾ [الأنبياء:٨٢].

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (١٧/ ٩٤).

قوله تعالىٰ: ﴿خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤﴾ [يوسف:٦٤]، قَرَأَ حَمْزَةُ والكِسَائِيُّ: (حَافِظًا) بِالأَلِفِ عَلَىٰ التَّمْيِيزِ والتَّفْسِيرِ، عَلَىٰ تَقْدِيرِ: هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ حَافِظًا؛ كَقَوْلِهِمْ: هُوَ خَيْرُهُمْ رَجُلًا، ولله دَرُّهُ فَارِسًا، وَقِيلَ: عَلَىٰ الحَالِ. والبَاقُونَ: (حِفْظًا) بِغَيْرِ أَلِفٍ، عَلَىٰ المَصْدَرِ، يَعْنِي: خَيْرُكُمْ حِفْظًا، يَعْنِي حِفْظُ الله لِبِنْيَامِينَ خَيْرٌ مِنْ حِفْظِكُمْ، وَقَرَأَ الأَعْمَشُ: (فالله خَيرُ حَافِظٍ) وَقَرَأَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: خَيْرُ الحَافِظِينَ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ وَثِقْتُ بِكُمْ فِي حِفْظِ يُوسُفَ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، فَكَانَ مَا كَانَ، فَالآنَ أَتَوَكَّلُ عَلَىٰ الله فِي حِفْظِ بِنْيَامِينَ.

«**السبب الثاني**: تقوىٰ الله وحفظه عند أمره ونهيه، فمن اتقىٰ الله تولىٰ الله حفظه ولم يكله إلىٰ غيره، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾ [آل عمران:١٢٠]، وقال النبي لعبد الله بن عباس: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك**»(١)، فمن حفظ الله حفظه الله ووجده أمامه أينما توجَّه، ومَن كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف ولمن يحذر»(٢).

«**وَحِفْظُ اللهِ لِعَبْدِهِ يَدْخُلُ فِيهِ نَوْعَانِ:**

أَحَدُهُمَا: حِفْظُهُ لَهُ فِي مَصَالِحِ دُنْيَاهُ، كَحِفْظِهِ فِي بَدَنِهِ وَوَلَدِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد:١١]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمُ المَلَائِكَةُ يَحْفَظُونَهُ بِأَمْرِ اللهِ، فَإِذَا جَاءَ القَدَرُ خَلَّوْا عَنْهُ.

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني.

(٢) «بدائع الفوائد» - نزار الباز (٢/ ٤٦٤).

وَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: إِنَّ مَعَ كُلِّ رَجُلٍ مَلَكَيْنِ يَحْفَظَانِهِ مِمَّا لَمْ يُقَدَّرْ، فَإِذَا جَاءَ القَدَرُ خَلَّيَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَإِنَّ الأَجَلَّ جُنَّةٌ حَصِينَةٌ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَا مِنْ عَبْدٍ إِلَّا لَهُ مَلَكٌ يَحْفَظُهُ فِي نَوْمِهِ وَيَقَظَتِهِ مِنَ الجِنِّ والإِنْسِ والهَوَامِّ، فَمَا مِنْ شَيْءٍ يَأْتِيهِ إِلَّا قَالَ: وَرَاءَكَ، إِلَّا شَيْئًا أَذِنَ اللهُ فِيهِ فَيُصِيبُهُ، وَخَرَّجَ الإِمَامُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ، والنَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَدَعُ هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُمْسِي وَحِينَ يُصْبِحُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ العَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ العَفْوَ والعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَتِي، وَآمِنْ رَوْعَتِي، وَاحْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي**»(١).

وَمَنْ حَفِظَهُ اللهُ فِي صِبَاهُ وَقُوَّتِهِ، حَفِظَهُ اللهُ فِي حَالِ كِبَرِهِ وَضَعْفِ قُوَّتِهِ، وَمَتَّعَهُ بِسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ وَعَقْلِهِ، كَانَ بَعْضُ العُلَمَاءِ قَدْ جَاوَزَ المِائَةَ سَنَةً، وَهُوَ مُمَتَّعٌ بِقُوَّتِهِ وَعَقْلِهِ، فَوَثَبَ يَوْمًا وَثْبَةً شَدِيدَةً، فَعُوتِبَ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: هَذِهِ جَوَارِحُ حَفِظْنَاهَا عَنِ المَعَاصِي فِي الصِّغَرِ، فَحَفِظَهَا اللهُ عَلَيْنَا فِي الكِبَرِ.

وَعَكْسُ هَذَا أَنَّ بَعْضَ السَّلَفِ رَأَىٰ شَيْخًا يَسْأَلُ النَّاسَ فَقَالَ: إِنَّ هَذَا ضَعِيفٌ ضَيَّعَ اللهَ فِي صِغَرِهِ، فَضَيَّعَهُ اللهُ فِي كِبَرِهِ.

وَقَدْ يَحْفَظُ اللهُ العَبْدَ بِصَلَاحِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ فِي ذُرِّيَّتِهِ كَمَا قِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف:٨٢]: إِنَّهُمَا حُفِظَا بِصَلَاحِ أَبِيهِمَا. قَالَ سَعِيدُ بْنُ المُسَيَّبِ لِابْنِهِ: لَأَزِيدَنَّ فِي صَلَاتِي مِنْ أَجْلِكَ، رَجَاءَ أَنْ أُحْفَظَ فِيكَ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ

---

(١) أخرجه أحمد (٤٧٨٥)، وأبو داود (٥٠٧٤)، والنسائي (٥٥٢٩)، وصححه الألباني.

الآيَةَ: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف:٨٢]، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ: مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَمُوتُ إِلَّا حَفِظَهُ اللهُ فِي عَقِبِهِ وَعَقِبِ عَقِبِهِ.

وَقَالَ ابْنُ المُنْكَدِرِ: إِنَّ اللهَ لَيَحْفَظُ بِالرَّجُلِ الصَّالِحِ وَلَدَهُ وَوَلَدَ وَلَدِهِ والدُّوَيْرَاتِ الَّتِي حَوْلَهُ، فَمَا يَزَالُونَ فِي حِفْظٍ مِنَ اللهِ وَسِتْرٍ.

وَمَتَىٰ كَانَ العَبْدُ مُشْتَغِلًا بِطَاعَةِ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ يَحْفَظُهُ فِي تِلْكَ الحَالِ، وَفِي «مُسْنَدِ الإِمَامِ أَحْمَدَ» عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «كَانَتِ امْرَأَةٌ فِي بَيْتٍ، فَخَرَجَتْ فِي سَرِيَّةٍ مِنَ المُسْلِمِينَ، وَتَرَكَتْ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ عَنْزَةً وَصِيصِيَتَهَا كَانَتْ تَنْسِجُ بِهَا، قَالَ: فَفَقَدَتْ عَنْزًا لَهَا وَصِيصِيَتَهَا، فَقَالَتْ: يَا رَبِّ، إِنَّكَ قَدْ ضَمِنْتَ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِكَ أَنْ تَحْفَظَ عَلَيْهِ، وَإِنِّي قَدْ فَقَدْتُ عَنْزًا مِنْ غَنَمِي وَصِيصِيَتِي، وَإِنِّي أَنْشُدُكَ عَنْزِي وَصِيصِيَتِي قَالَ: وَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ شِدَّةَ مُنَاشَدَتِهَا رَبَّهَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَأَصْبَحَتْ عَنْزُهَا وَمِثْلُهَا، وَصَيْصِيَتُهَا وَمِثْلُهَا»[(١)]. والصِّيصِيَةُ: هِيَ الصِّنَّارَةُ الَّتِي يُغْزَلُ بِهَا وَيُنْسَجُ.

فَمَنْ حَفِظَ اللهَ حَفِظَهُ اللهُ مِنْ كُلِّ أَذًىٰ، قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَنِ اتَّقَىٰ اللهَ فَقَدْ حَفِظَ نَفْسَهُ، وَمَنْ ضَيَّعَ تَقْوَاهُ، فَقَدْ ضَيَّعَ نَفْسَهُ، واللهُ الغَنِيُّ عَنْهُ.

النَّوْعُ الثَّانِي مِنَ الحِفْظِ، وَهُوَ أَشْرَفُ النَّوْعَيْنِ: حِفْظُ اللهِ لِلْعَبْدِ فِي دِينِهِ وَإِيمَانِهِ، فَيَحْفَظُهُ فِي حَيَاتِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ المُضِلَّةِ، وَمِنَ الشَّهَوَاتِ المُحَرَّمَةِ، وَيَحْفَظُ عَلَيْهِ دِينَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ، فَيَتَوَفَّاهُ عَلَىٰ الإِيمَانِ. قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِذَا حَضَرَ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٦٨٣).

الرَّجُلَ المَوْتُ يُقَالُ لِلْمَلَكِ: شَمَّ رَأْسَهُ، قَالَ: أَجِدُ فِي رَأْسِهِ القُرْآنَ، قَالَ: شَمَّ قَلْبَهُ، قَالَ: أَجِدُ فِي قَلْبِهِ الصِّيَامَ، قَالَ: شَمَّ قَدَمَيْهِ، قَالَ: أَجِدُ فِي قَدَمَيْهِ القِيَامَ، قَالَ: حَفِظَ نَفْسَهُ، فَحَفِظَهُ اللهُ.

وَفِي «الصحيحين» عَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ أَمَرَهُ أَنْ يَقُولَ عِنْدَ مَنَامِهِ: «**إِنْ قَبَضْتَ نَفْسِي، فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا، فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ**»(١).

وَفِي حَدِيثِ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَّمَهُ أَنْ يَقُولَ: «اللَّهُمَّ احْفَظْنِي بِالإِسْلَامِ قَائِمًا، وَاحْفَظْنِي بِالإِسْلَامِ قَاعِدًا، وَاحْفَظْنِي بِالإِسْلَامِ رَاقِدًا، وَلَا تُطِعْ فِيَّ عَدُوًّا، وَلَا حَاسِدًا» خَرَّجَهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ»(٢). وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوَدِّعُ مَنْ أَرَادَ سَفَرًا، فَيَقُولُ: «**أَسْتَوْدِعُ اللهَ دِينَكَ وَأَمَانَتَكَ وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ**»(٣)، وَكَانَ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ إِذَا اسْتُوْدِعَ شَيْئًا حَفِظَهُ**»، خَرَّجَهُ النَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُ(٤).

وَفِي الجُمْلَةِ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَحْفَظُ عَلَى المُؤْمِنِ الحَافِظِ لِحُدُودِ دِينِهِ، وَيَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يُفْسِدُ عَلَيْهِ دِينَهُ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الحِفْظِ، وَقَدْ لَا يَشْعُرُ العَبْدُ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤).

(٢) (٩٣٤) من حديث عمر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود (٢٦٠٠)، والترمذي (٣٤٤٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه النسائي في «الكبرى» (١٠٢٧٣)، وأحمد (٥٦٠٥) وصححه أحمد شاكر.

بِبَعْضِهَا، وَقَدْ يَكُونُ كَارِهًا لَهُ، كَمَا قَالَ فِي حَقِّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف:٢٤]»(١).

❖❖❖

سريع الحساب

قال تعالىٰ: ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ [البقرة:٢٠٢].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَٰمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران:١٩].

(سَرِيعُ) فَاعِلٌ مِنَ السُّرْعَةِ، قَالَ ابْنُ السِّكِّيتِ: سَرُعَ يَسْرُعُ سَرْعًا وَسُرْعَةً، فَهُوَ سَرِيعٌ، و(الحِسابِ) مَصْدَرٌ كَالمُحَاسَبَةِ، وَمَعْنَىٰ الحِسَابِ فِي اللُّغَةِ العَدُّ يُقَالُ: حَسَبَ يَحْسُبُ حِسَابًا وَحِسْبَةً وَحَسَبًا إِذَا عَدَّ، ذَكَرَهُ اللَّيْثُ وَابْنُ السِّكِّيتِ، والحَسْبُ مَا عُدَّ، وَمِنْهُ حَسَبَ الرَّجُلُ، وَهُوَ مَا يُعَدُّ مِنْ مَآثِرِهِ وَمَفَاخِرِهِ، والاِحْتِسَابُ الاِعْتِدَادُ بِالشَّيْءِ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: الحِسَابُ فِي اللُّغَةِ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: حَسْبُكَ كَذَا، أَيْ: كَفَاكَ، فَسُمِّيَ الحِسَابُ فِي المُعَامَلَاتِ حِسَابًا؛ لِأَنَّهُ يُعْلَمُ بِهِ مَا فِيهِ كِفَايَةٌ، وَلَيْسَ فِيهِ زِيَادَةٌ عَلَىٰ المِقْدَارِ، وَلَا نُقْصَانٌ.

---

(١) «جامع العلوم والحكم» ت: الأرنؤوط (١/ ٤٦٥).

وأخرج ابْن أبي حَاتِم عَن مُجَاهِد: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٢٠٢﴾ [البقرة:٢٠٢]، قَالَ: سريع الإِحصاء(١).

والحساب يراد به نفس الجزاء علىٰ الأعمال، فإن الحساب سبب للأخذ والعطاء وإطلاق اسم السبب جائز شائع، أي: يحاسب العباد علىٰ كثرتهم وكثرة أعمالهم في مقدار لمحة، لعدم احتياجه إلىٰ عقد يد، أو وعي صدر، أو نظر وفكر، فهو عالم بما يستحقه كل عامل من الأجر، والمراد بالآية الأولىٰ أن الأجر الموعود سريع الوصول إليهم، فإن سرعة الحساب تستدعي سرعة الجزاء، وفي الآية الثانية أي: ومن يكفر بآياته تعالىٰ، فإنه يجازيه ويعاقبه عن قريب، فإنه سريع الحساب أي: يأتي حسابه عن قريب أو سريع في محاسبة جميع الخلائق، بحيث يظن كل أحد منهم أن الله يحاسبه فقط، وهذا تَهْدِيدٌ، وَفِيهِ وَجْهَانِ:

الأَوَّلُ: المَعْنَىٰ، فَإِنَّهُ سَيَصِيرُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ سَرِيعًا فَيُحَاسِبُهُ، أَيْ: يَجْزِيهِ عَلَىٰ كُفْرِهِ.

والثَّانِي: أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ سَيُعْلِمُهُ بِأَعْمَالِهِ وَمَعَاصِيهِ وَأَنْوَاعِ كفره بإحصاء سريع مع كثرة الأعمال.

وعن عَائِشَةَ، زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَانَتْ لَا تَسْمَعُ شَيْئًا لَا تَعْرِفُهُ، إِلَّا رَاجَعَتْ فِيهِ حَتَّىٰ تَعْرِفَهُ، وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ**» قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: أَوَلَيْسَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (١٨٩٠، ٤٦٨٨).

[الانشقاق:٨]؟ قَالَتْ: فَقَالَ: «إِنَّمَا ذَلِكِ العَرْضُ، وَلَكِنْ: مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ يَهْلِكْ» متفق عليه(١).

❁ ❁ ❁

القريب المجيب

قال تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود:٦١].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة:١٨٦].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الصافات:٧٥].

«وقد روي: أن بعض الصحابة قال: يا رسول الله، ربنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله هذه الآية، فأخبر سبحانه أنه قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ثم أمرهم بالاستجابة له وبالإيمان به، كما قال بعضهم: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى﴾ [البقرة:١٨٦]، إذا دعوتهم، ﴿وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى﴾ [البقرة:١٨٦]، إني أجيب دعوتهم. قالوا: وبهذين السببين تحصل إجابة الدعوة: بكمال الطاعة لألوهيته، وبصحة الإيمان بربوبيته، فمن استجاب لربه بامتثال أمره ونهيه؛ حصل مقصوده من

(١) أخرجه البخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦).

الدعاء، وأجيب دعاؤه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [الشورى:٢٦]، أي: يستجيب لهم، يقال: استجابه واستجاب له، فمن دعاه موقنًا أن يجيب دعوة الداعي إذا دعاه أجابه، وقد يكون مشركًا وفاسقًا، فإنه سبحانه هو القائل: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس:١٢]، وهو القائل سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء:٦٧]، وهو القائل سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام:٤٠-٤١].

ولكن هؤلاء الذين يستجاب لهم لإقرارهم بربوبيته، وأنه يجيب دعاء المضطر، إذا لم يكونوا مخلصين له الدين، في عبادته، ولا مطيعين له ولرسوله، كان ما يعطيهم بدعائهم متاعًا في الحياة الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق.

وقال تعالىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء:١٨-٢٠].

وقد دعا الخليل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالرزق لأهل الإيمان فقال: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة:١٢٦]. قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة:١٢٦]، فليس

كل من متَّعه الله برزق ونصر، إما إجابة لدعائه، وإما بدون ذلك، يكون ممن يحبه الله ويواليه، بل هو سبحانه يرزق المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وقد يجيب دعاءهم ويعطيهم سؤلهم في الدنيا، وما لهم في الآخرة من خلاق، وقد ذكروا أن بعض الكفار من النصارىٰ حاصروا مدينة للمسلمين فنفد ماؤهم العذب، فطلبوا من المسلمين أن يزودوهم بماء عذب ليرجعوا عنهم، فاشْتَوَرَ ولاةُ أمر المسلمين، وقالوا: بل ندعهم حتىٰ يضعفهم العطش فنأخذهم، فقام أولئك فاستسقوا ودعوا الله فسقاهم، فاضطرب بعض العامة، فقال الملك لبعض العارفين: أدرك الناس فأمر بنصب منبر له، وقال: اللهم إنا نعلم أن هؤلاء من الذين تكفلت بأرزاقهم، كما قلت في كتابك: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]، وقد دعوك مضطرين، وأنت تجيب المضطر إذا دعاك، فأسقيتهم؛ لما تكفلت به من رزقهم، ولما دعوك مضطرين لا لأنك تحبهم، ولا تحب دينهم، والآن فنريد أن ترينا آية يثبت بها الإيمان في قلوب عبادك المؤمنين. فأرسل الله عليهم ريحًا فأهلكتهم، أو نحو هذا»(١).

«وفي «الصحيح» أنهم كانوا في سفر وكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير، فقال النبي -صلىٰ الله عليه وآله وسلم-: «**يا أيها الناس، ارْبَعُوا علىٰ أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم، ولا غائبًا، بل تدعون سميعًا قريبًا، إن الذي تدعونه أقرب إلىٰ أحدكم من عنق راحلته**»(٢)، وقد أمر الله تعالىٰ العباد كلهم بالصلاة له ومناجاته وأمر كلا منهم أن يقولوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]، وقد

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم» (٢/ ٣١٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤) واللفظ له.

أخبر عن المشركين أنهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]»(١).

«فَهُوَ سُبْحَانَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ رَحِيمٌ، وَهُوَ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنَ الوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا، وَهُوَ يَعْلَمُ مِنْ أَحْوَالِ العِبَادِ مَا لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ وَيَقْدِرُ عَلَىٰ قَضَاءِ حَوَائِجِهِمُ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا غَيْرُهُ وَيَرْحَمُهُمْ رَحْمَةً لَا يَرْحَمُهُمْ بِهَا غَيْرُهُ»(٢).

«أَنَّهُ يَدْنُو الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَشِيَّةَ يَوْمِ عَرَفَةَ مِنْ أَهْلِ المَوْقِفِ، ثمَّ يُبَاهِي بِهِمُ المَلَائِكَةَ فَيَقُولُ: «مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ، أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ»(٣)، وَتَحْصُلُ مَعَ دُنُوِّهِ مِنْهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سَاعَةُ الإِجَابَةِ الَّتِي لَا يَرُدُّ فِيهَا سَائِلًا يَسْأَلُ خَيْرًا فَيَقْرُبُونَ مِنْهُ بِدُعَائِهِ والتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ، وَيَقْرُبُ مِنْهُمْ تَعَالَىٰ نَوْعَيْنِ مِنَ القُرْبِ: أَحَدُهُمَا: قُرْبُ الإِجَابَةِ المُحَقَّقَةِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ، والثَّانِي: قُرْبُهُ الخَاصُّ مِنْ أَهْلِ عَرَفَةَ، وَمُبَاهَاتُهُ بِهِمْ مَلَائِكَتَهُ، فَتَسْتَشْعِرُ قُلُوبُ أَهْلِ الإِيمَانِ هَذِهِ الأُمُورَ فَتَزْدَادُ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِهَا، وَفَرَحًا وَسُرُورًا وَابْتِهَاجًا، وَرَجَاءً لِفَضْلِ رَبِّهَا وَكَرَمِهِ»(٤).

«وأما القرب المذكور في القرآن والسُّنَّة فقرب خاص من عابديه وسائليه وداعيه، وهو من ثمرة التعبد باسمه الباطن، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، فهذا قربه من داعيه،

(١) «زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور» (ص: ٢١).
(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (١١/ ٤٩٩).
(٣) أخرجه مسلم (١٣٤٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «**مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ، مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو، ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمِ الْمَلَائِكَةَ، فَيَقُولُ: مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ؟**».
(٤) «زاد المعاد في هدي خير العباد» (١/ ٦٤).

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف:٥٦]، فوجد الخبر، وهو قريب عن لفظ الرحمة، وهي مؤنثة؛ إيذانًا بقربه تعالىٰ من المحسنين، فكأنه قال: إن الله برحمته قريب من المحسنين.

وفي «الصحيح» عن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ**»(١)، و«**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنْ عَبْدِهِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ**»(٢)، فهذا قرب خاص غير قرب الإحاطة وقرب البطون. وفي «الصحيح» من حديث أَبي موسىٰ أَنهم كانوا مع النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سفر، فارتفعت أصواتهم بالتكبير فقال: «**أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَىٰ أَنْفُسكُمْ، فإنكم لا تَدْعُونَ أَصمَّ وَلا غائِبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ**»(٣)، فهذا قربه من داعيه وذاكره، يعني فأي حاجة بكم إِلىٰ رفع الأَصوات، وهو لقربه يسمعها وإِن خفضت، كما يسمعها إذا رفعت، فإنه سميع قريب. وهذا القرب هو من لوازم المحبة، فكلما كان الحب أَعظم كان القرب أَكثر»(٤).

وَأخرج ابْن أبي شيبَة وَأحمد والبُخَارِيُّ فِي «الأَدَب المُفْرد» والحَاكِم عَن أبي سعيد أَن النَّبِي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَا من مُسلم يَدْعُو الله بدعوة لَيْسَ فِيهَا إثم، وَلَا قطيعة رَحِمٍ إِلَّا أعطَاهُ الله بهَا إِحْدَىٰ ثَلَاث خِصَال: إِمَّا أَن يُعجِّلَ لَهُ**

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٧٩) من حديث عمرو بن عبسة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص: ٢٢).

دَعوتَه، وَإِمَّا أَن يدَّخِرَها لَهُ فِي الآخِرَة، وَإِمَّا أَن يصرف عَنهُ من السوء مثلهَا، قَالُوا: إِذًا نُكثِر، قَالَ: الله أَكثر»(١).

«وهذا يدل علىٰ إرشادهم للمناجاة في الدعاء لا للنداء الذي هو رفع الصوت، فإنهم عن هذا سألوا فأجيبوا بأن ربهم تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ قريب لا يحتاج في دعائه وسؤاله إلىٰ النداء، وإنما يسأل مسألة القريب المناجي لا مسألة البعيد المنادي، وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص ليس قربًا عامًّا من كل أحد، فهو قريب من داعيه وقريب من عابده، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وهو أخص من قرب الإنابة وقرب الإجابة الذي لم يثبت أكثر المتكلمين سواه، بل هو قرب خاص من الداعي والعابد، كما قال النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ راويًا عن ربه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: «**مَن تقرَّب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا، ومن تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا**»، رواه البخاري ومسلم(٢)، فهذا قربه من عابده، وأما قربه من داعيه وسائله فكما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، وقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف:٥٥]، فيه الإشارة والإعلام بهذا القرب، وأما قربة تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ من محبه فنوع آخر وبناء آخر وشأن آخر»(٣).

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٩١٧٠)، وأحمد (١١١٤٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧١٠)، والحاكم (١٨١٦)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري (٧٥٣٧)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

(٣) «بدائع الفوائد» (٣/ ٧).

العزيز العليم

قال تعالىٰ: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام:٩٦].

وقال تعالىٰ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت:١٢].

وقال تعالىٰ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾ [غافر:٢].

«العزيز»: جاء مقرونًا بالحكيم في أكثر من أربعين موضعًا، وبالعليم في نحو ستة مواضع.

فخَتَمَ تَعَالَىٰ الآيتين بِقَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت:١٢]، والعَزِيزُ إِشَارَةٌ إِلَىٰ كَمَالِ قُدْرَتِهِ، والعَلِيمُ إِشَارَةٌ إِلَىٰ كَمَالِ عِلْمِهِ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ تَقْدِيرَ أَجْرَامِ الأَفْلَاكِ بِصِفَاتِهَا المَخْصُوصَةِ وَهَيْئَاتِهَا المَحْدُودَةِ، وَحَرَكَاتِهَا المُقَدَّرَةِ بِالمَقَادِيرِ المَخْصُوصَةِ فِي البُطْءِ والسُّرْعَةِ لَا يُمْكِنُ تَحْصِيلُهُ إِلَّا بِقُدْرَةٍ كَامِلَةٍ مُتَعَلِّقَةٍ بِجَمِيعِ المُمْكِنَاتِ وَعِلْمٍ نَافِذٍ فِي جَمِيعِ المَعْلُومَاتِ مِنَ الكُلِّيَّاتِ والجُزْئِيَّاتِ.

وقوله تعالىٰ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾ [غافر:٢].

(العَزِيز) لَهُ تَفْسِيرَانِ:

أَحَدُهُمَا: الغَالِبُ فَيَكُونُ مَعْنَاهُ القَادِرُ الَّذِي لَا يُسَاوِيهِ أَحَدٌ فِي القُدْرَةِ.

والثَّانِي: الَّذِي لَا مِثْلَ لَهُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ المُرَادُ بِالعَزِيزِ هُنَا القَادِرَ، لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهِ﴾ يَدُلُّ عَلَىٰ كَوْنِهِ قَادِرًا، فَوَجَبَ حَمْلُ العَزِيزِ عَلَىٰ المَعْنَىٰ الثَّانِي، وَهُوَ الَّذِي لَا يُوجَدُ لَهُ مِثْلٌ.

وَأَمَّا العَلِيم، فَهُوَ مُبَالَغَةٌ فِي العِلْمِ، والمُبَالَغَةُ التَّامَّةُ إِنَّمَا تَتَحَقَّقُ عِنْدَ كَوْنِهِ تَعَالَىٰ عَالِمًا بِكُلِّ المَعْلُومَاتِ، فَقَوْلُهُ: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢﴾ يَرْجِعُ مَعْنَاهُ إِلَىٰ أَنَّ هَذَا الكِتَابَ تَنْزِيلٌ مِنَ القَادِرِ المُطْلَقِ، الغَنِيِّ المُطْلَقِ، العَالِمِ المُطْلَقِ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ كَانَ عَالِمًا بِوُجُوهِ المَصَالِحِ والمَفَاسِدِ.

والفَائِدَةُ فِي اقتران العَزِيز بالعَلِيم أَمْرَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ بِقُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ أَنْزَلَ القُرْآنَ عَلَىٰ هَذَا الحَدِّ الَّذِي يَتَضَمَّنُ المَصَالِحَ والإِعْجَازَ، وَلَوْلَا كَوْنُهُ عَزِيزًا عَلِيمًا لَمَا صَحَّ ذَلِكَ.

والثَّانِي: أَنَّهُ تَكَفَّلَ بِحِفْظِهِ وَبِعُمُومِ التَّكْلِيفِ فِيهِ وَظُهُورِهِ إِلَىٰ حِينِ انْقِطَاعِ التَّكْلِيفِ، وَذَلِكَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِكَوْنِهِ عَزِيزًا لَا يُغْلَبُ وَبِكَوْنِهِ عَلِيمًا لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ.

❁ ❁ ❁

شديد العقاب

قال تعالىٰ: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ

فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾ [البقرة:١٩٦].

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ فِيمَا فُرِضَ عَلَيْكُمْ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾ لِمَنْ تَهَاوَنَ بِحُدُودِهِ. قَالَ أَبُو مُسْلِمٍ: العِقَابُ والمُعَاقَبَةُ سِيَّانِ، وَهُوَ مُجَازَاةُ المُسِيءِ عَلَىٰ إِسَاءَتِهِ، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ العَاقِبَةِ: كَأَنَّهُ يُرَادُ عَاقِبَةُ فِعْلِ المُسِيءِ، كَقَوْلِ القائل: لتذوقن عاقبة فعلك.

وقال تعالىٰ: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾ [البقرة:٢١١].

أي: ومن يبدل نعمة الله عاقبه أشد عقوبة؛ لأنه شديد العقاب، فلا يفلت منه أحد. ويحتمل أن يكون هذه الجملة هي الجواب بتقدير الضمير أي: شديد العقاب له.

والعقاب هو الجزاء عن جناية وجرم، وهو مأخوذ -كما يقول القرطبي- من العقب، كأن المعاقب يمشي بالمجازاة للجاني في آثار عقبه، ومنه عقبة الراكب -أي: الموضع الذي يركب منه-، فالعقاب والعقوبة يكونان بعقب الذنب، وقد عاقبه بذنبه فالآية الكريمة وعيد شديد لكل من يبدل نِعم الله، ويترك شكرها.

وقال تعالىٰ: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾ [آل عمران:١١].

اعلم أن كمال العذاب هو أن يزول عن الإنسان كل ما كان منتفعًا به. ثم يجتمع عليه جميع الأسباب المؤلمة.

أما الأول، فهو المراد بقوله: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [آل عمران:١٠]، وذلك لأن المرء عند الخطوب والنوائب في الدنيا يفزع إلىٰ المال والولد. فبين الله تعالىٰ أن صفة ذلك اليوم مخالفة لصفة الدنيا. ونظير هذه الآية قوله تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

وأما القسم الثاني من أسباب العذاب: فهو أن يجتمع عليه الأسباب المؤلمة، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ١٠﴾ [آل عمران:١٠]، وهذا هو النهاية في العذاب، فإنه لا عذاب أزيد من أن تشتعل النار فيهم كاشتعالها في الحطب اليابس.

«النعيم والثواب من مقتضىٰ رحمته ومغفرته وبره كرمه، ولذلك يضيف ذلك إلىٰ نفسه، وأما العذاب والعقوبة، فإنما هو من مخلوقاته، ولذلك لا يسمىٰ بالمعاقب والمعذب، بل يفرق بينهما فيجعل ذلك من أوصافه، وهذا من مفعولاته حتىٰ في الآية الواحدة، كقوله تعالىٰ: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ٥٠﴾ [الحجر:٤٩-٥٠]، وقال: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٨﴾ [المائدة:٩٨]: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٦٧﴾ [الأعراف:١٦٧]»[(١)].

---

(١) «حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح» (ص: ٣٧٤).

«كثير من الجهال اعتمدوا علىٰ رحمة الله وعفوه وكرمه، وضيعوا أمره ونهيه، ونسوا أنه شديد العقاب، وأنه لا يُردُّ بأسُه عن القوم المجرمين، ومن اعتمد علىٰ العفو مع الإصرار علىٰ الذنب، فهو كالمعاند، وقال معروف: رجاؤك لرحمة مَن لا تطيعه من الخِذلان والحمق. وقال بعض العلماء: من قطع عضوًا منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم لا تأمن أن تكون عقوبته في الآخرة علىٰ نحو هذا. وقيل للحسن: نراك طويل البكاء، فقال: أخاف أن يطرحني في النار ولا يبالي. وسأل رجل الحسن فقال: يا أبا سعيد، كيف نصنع بمجالسة أقوام يخوِّفونا حتىٰ تكاد قلوبنا تنقطع، فقال: والله لأن تصحب أقوامًا يخوفونك حتىٰ تدرك أمْنًا خير لك من أن تصحب أقوامًا يؤمنونك حتىٰ تلحقك المخاوف.

وقد ثبت في «الصحيحين» من حديث أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله يقول: «**يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقىٰ في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور في النار كما يدور الحمار برحاه، فيطوف به أهل النار فيقولون: يا فلان، ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنتُ آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**»(١).

وذكر الإمام أحمد من حديث أبي رافع قال: مر رسول الله بالبقيع فقال: «أف لك، أف لك» فظننتُ أنه يريدني، قال: «لا، ولكن هذا قبر فلان بعثته ساعيًا إلىٰ آل فلان فغلَّ نَمِرة فدرع الآن مثلها من نار»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٢٣٦)، والنسائي (٨٦٢) من حديث أبي رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي «مسنده» -أيضًا- من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله: «**مررتُ ليلة أسري بي علىٰ قوم تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلتُ: من هؤلاء؟ قالوا: خطباء من أمتك من أهل الدنيا كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم أفلا يعقلون**»(١).

وفيه -أيضًا- من حديثه قال: قال رسول الله: «**لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نُحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: مَن هؤلاء يا جبريل؟ فقال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم**»(٢).

وفيه -أيضًا- عنه قال: كان رسول الله يكثر أن يقول: «**يا مقلب القلوب والأبصار ثبِّت قلبي علىٰ دينك**» فقلنا: يا رسول الله، آمَنَّا بك وبما جئتَ به، فهل تخاف علينا؟ قال: «**نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء**»(٣).

وفيه -أيضًا- عنه، أن رسول الله قال لجبريل: «**ما لي لم أرَ ميكائيل ضاحكًا قطُّ؟ قال: ما ضَحِكَ منذ خُلقت النار**»(٤).

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٢٣٢)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٩١).

(٢) أخرجه أحمد (١٣٣٦٤)، وأبو داود (٤٨٧٨) من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥٣٣).

(٣) أخرجه أحمد (١٢١٢٨) من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٤) أخرجه أحمد (١٣٣٦٧) من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وحسنه الألباني بشاهده في «الصحيحة» (٢٥١١).

وفي «صحيح مسلم» عنه قال: قال رسول الله: «**يؤتىٰ بأنعم أهل الدنيا من أهل النار فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال له: يا بن آدم، هل رأيتَ خيرًا قط؟ هل مرَّ بك نعيمٌ قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويُؤتىٰ بأشد الناس بُؤسًا في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ في الجنة صبغة، فيقال له: يا بن آدم، هل رأيتَ بُؤسًا قط؟ هل مرَّ بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب ما مرَّ بي بُؤس قط، ولا رأيتُ شدةً قط**»(١).

وفي «المسند» من حديث البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلىٰ القبر ولمَّا يُلحد، فجلس رسول الله وجلسنا حوله كأن علىٰ رءوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: «**استعيذوا بالله من عذاب القبر**» مرتين أو ثلاثًا، ثم قال: «**إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان أهل الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتىٰ يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتىٰ يجلس عند رأسه فيقول: اخْرُجي أيتها النفس المطمئنة، اخرجي إلىٰ مغفرة من الله ورضوان، فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتىٰ يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وُجدت علىٰ وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها علىٰ ملأ من الملائكة إلَّا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا،**

(١) أخرجه مسلم (٢٨٠٧) من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

حتىٰ ينتهوا بها إلىٰ السماء فيستفتحون له فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقرَّبوها إلىٰ السماء التي تليها حتىٰ ينتهي به إلىٰ السماء السابعة، فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: اكتُبوا كتابَ عبدي في علِّيِّين وأعيدوه إلىٰ الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرىٰ.

قال: فتعاد روحه، فيأتيه ملكان فيُجلسانه، فيقولان له: مَن ربُّك؟ فيقول: ربي الله عَزَّوَجَلَّ، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هو محمدٌ رسولُ الله، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأتُ كتابَ الله عَزَّوَجَلَّ فآمنتُ به وصدَّقتُ. فينادي منادٍ من السماء: أن صدَق عبدي، فافرشوا له من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلىٰ الجنة.

قال: فيأتيه من رَوْحِها وطِيبها ويُفسح له في قبره مدَّ بصره، قال: ويأتيه رجل حسنُ الوجه حسنُ الثياب طيِّبُ الريح فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنتَ توعَد، فيقول له: مَن أنت، فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير؟ فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة حتىٰ أرجع إلىٰ أهلي ومالي.

قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملَك الموت حتىٰ يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلىٰ سخطٍ من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبتل، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتىٰ

يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت علىٰ وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها علىٰ ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمىٰ بها في الدنيا، فيستفتح، فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:٤٠]، فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: اكتبوا كتابه في سجِّين في الأرض السفلىٰ، فتُطرح رُوحه طرحًا، ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج:٣١].

فتعاد رُوحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: مَن ربك؟ فيقول: هاه هاه! لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه! لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه! لا أدري؟ فينادي منادٍ من السماء: أن كذَب عبدي، فافرشوا له من النار، وألبسوه من النار، وافتحوا له بابًا إلىٰ النار، فيأتيه من حرِّها وسَمومها ويضيَّق عليه قبره حتىٰ تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوَجْهِ قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوءك، هذا يومك الذي كنتَ توعَد، فيقول: ومَن أنت، فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تُقم الساعة(١).

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٥٥٧)، وصححه الألباني، انظر: «صحيح الجامع» (١٦٧٦).

وفي لفظ لأحمد -أيضًا-: **ثم يُقيَّض له أعمىٰ أصم أبكم في يده مرزبة لو ضُرب بها جبلٌ كان ترابًا، فيضربه ضربة فيصير ترابًا، ثم يعيده الله عَزَّوَجَلَّ كما كان، فيضربه ضربة أخرىٰ فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين. قال البراء: ثم يُفتح له باب إلىٰ النار، ويمهد له من فرش النار»**(١).

وفي «المسند» -أيضًا- عنه قال: «**بينما نحن مع رسول الله إذ بَصُر بجَماعة، فقال: علىٰ ما اجتمع هؤلاء؟ قيل: علىٰ قبر يحفرونه، ففزع رسولُ الله فبدر بين يدي أصحابه مسرعًا حتىٰ انتهىٰ إلىٰ القبر فجثىٰ علىٰ ركبتيه، فاستقبلته من بين يديه لأنظر ما يصنع، فبكىٰ حتىٰ بل الثرىٰ من دموعه، ثم أقبل علينا فقال: أي إخواني، لمثل هذا اليوم فأعدوا**»(٢).

وفي «المسند» من حديث بريدة قال: خرج إلينا رسولُ الله يومًا فنادىٰ ثلاث مرات: «**يا أيها الناس، أتدرون ما مثلَي ومثلكم؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدوًّا يأتيهم، فبعثوا رجلًا يتراءىٰ لهم، فأبصر العدوَّ فأقبل لينذرهم وخشي أن يدركه العدوُّ قبل أن ينذر قومه، فأهوىٰ بثوبه: أيها الناس، أُتيتم، أيها الناس، أُتيتم، ثلاثَ مرات**»(٣).

---

(١) «مسند أحمد» (٣٠/ ٥٧٨) ط: الرسالة، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣/ ٢١٩).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٦٠١) ط: الرسالة، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٦٥٩).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٨) (٢٢٩٩٨)، قال الهيثمي (٢/ ١٨٨): رجاله رجال الصحيح.

وفي «صحيح مسلم» من حديث جابر قال: قال رسول الله: «**كلُّ ما أسكر حرامٌ، وإن علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ عقد لمن شرب المسكر أن يسقيه من طينة الخَبال. قيل: وما طينة الخبال؟ قال: عَرَق أهل النار، أو عُصارة أهل النار**»(١).

وفي «المسند» -أيضًا- من حديث أبي ذر قال: قال رسول الله: «**أرىٰ ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطَّت السماء وحُقَّ لها أن تئطَّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وعليه ملك يسبِّح الله ساجدًا، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا، وما تلذذتم بالنساء علىٰ الفُرش، ولخرجتم إلىٰ الصُّعُدات تجأرون إلىٰ الله تعالىٰ**». قال أبو ذر: والله لوددتُ أني شجرة تُعضَد(٢).

وفي «المسند» -أيضًا- من حديث حذيفة قال: كنا مع رسول الله في جنازة، فلما انتهينا إلىٰ القبر قعد علىٰ ساقيه فجعل يردد بصره فيه، ثم قال: «**يُضغط المؤمن فيه ضغطة تزول منها حمائله، ويملأ علىٰ الكافر نارًا**». والحمائل عروق الأنثيين.

وفي «المسند» -أيضًا- من حديث جابر قال: خرجنا مع رسول الله إلىٰ سعد بن معاذ حين توفي، فلما صلىٰ عليه رسولُ الله ووُضع في قبره وسُوِّي عليه سبَّح رسول الله، فسبَّحنا طويلًا، ثم كبَّر فكبَّرنا، فقيل: يا رسول الله، لِمَا سبَّحتَ ثم كبَّرتَ؟ فقال: «**لقد تضايق علىٰ هذا العبد الصالح قبره حتىٰ فرَّج الله عنه**»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٠٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٥٥٥)، والترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، وقال الألباني: «حسن دون قوله: (والله لوددت...) فإنه مدرج».

(٣) أخرجه أحمد (١٤٩١٦).

وفي «صحيح البخاري» من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله: «**إذا وُضعت الجنازة واحتملها الرجال علىٰ أعناقهم فإن كانت صالحة قالت: قدِّموني، وإن كانت غير صالحة قالت: يا ويلها! أين تذهبون بها؟ يَسمع صوتها كلُّ شيء إلا الإنسان، ولو سمعها الإنسان لصعق**»(١).

وفي «مسند أحمد» من حديث أبي أُمامة قال: قال رسول الله: «**تدنو الشمس يوم القيامة علىٰ قدر ميل، ويُزاد في حرَّها كذا وكذا، تغلي منها الرءوس كما تغلي القُدور، يَعرقون فيها علىٰ قدر خطاياهم، منهم مَن يبلغ إلىٰ كعبة، ومنهم من يبلغ إلىٰ ساقيه، ومنهم من يبلغ إلىٰ وسطه، ومنهم من يلجمه العرق**»(٢).

وفيه عن ابن عباس عن النبي قال: «**كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنىٰ جبهته يسمع متىٰ يؤمر فينفخ؟!**» فقال أصحابه: كيف نقول؟ قال: «**قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، علىٰ الله توكلنا**»(٣).

وفي «المسند» -أيضًا- عن ابن عمر يرفعه: «**من تعظَّم في نفسه أو اختال في مِشيته لقي الله وهو عليه غضبان**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (١٣١٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٢٤٠).

(٣) أخرجه أحمد (٣٠١٠).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ١١٨) (٥٩٩٥)، قال الهيثمي (١/ ٩٨): رجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥٤٣).

وفي «الصحيحين» عنه قال: قال رسول الله: «**إن المصورين يعذَّبون يوم القيامة، ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم**»[(١)]. وفيهما -أيضًا- عنه عن النبي: «**إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده من الغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتىٰ يبعثك الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة**»[(٢)].

وفيهما -أيضًا- عنه عن النبي: «**إذا صار أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار جيء بالموت حتىٰ يُوقَف بين الجنة والنار، ثم يُذبح، ثم يُنادي منادٍ: يا أهل الجنة، خلود ولا موت، ويا أهل النار، خلود ولا موت، فيزداد أهل الجنة فرحًا إلىٰ فرحهم، ويزداد أهل النار حُزنًا إلىٰ حزنهم**»[(٣)].

وفي «المسند» عنه قال: «مَن اشترىٰ ثَوبًا بعشرة دراهم فيها درهم حرام لم يقبل الله له صلاة ما دام عليه، ثم أدخل أصبعيه في أذنيه»، ثم قال: صُمَّتَا إن لم أكن سمعتُ النبيَّ يقول[(٤)].

وفيه عن عبد الله بن عمرو عن النبي قال: «**مَن ترك الصلاةَ سُكرًا مرة واحدة فكأنما كانت له الدنيا وما عليها فسُلِبها، ومن ترك الصلاة سُكرًا أربع مرات كان حقًّا علىٰ الله أن يسقيه من طينة الخبال. قيل: وما طينة الخبال يا رسول الله؟ قال: عُصارة أهل جهنم**»[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٥١)، ومسلم (٢١٠٨).
(٢) أخرجه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦).
(٣) أخرجه البخاري (٦٥٤٨)، ومسلم (٢٨٥٠).
(٤) أخرجه أحمد (٥٧٣٢).
(٥) أخرجه أحمد (٦٦٥٩)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٣٤١٩).

وفيه -أيضًا- عنه مرفوعًا: «**مَن شرب الخَمرَ شَربةً لم تُقبل له صلاةٌ أربعين صباحًا، فإن تاب تاب الله عليه، فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال: فإن عاد كان حقًّا علىٰ الله أن يسقيه من ردغة الخَبال يوم القيامة**»(١).

وفي «المسند» -أيضًا- من حديث أبي موسىٰ قال: قال رسول الله: «من مات مدمنًا للخمر سقاه الله من نهر الغوطة. قيل: وما نهر الغوطة؟ قال: نهر يجري من فروج المُومِسَاتِ يؤذي أهلَ النار ريحُ فروجهن»(٢).

وفيه -أيضًا- عنه قال: قال رسول الله: «تعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات: فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي، فآخِذ بيمينه وآخذ بشماله»(٣).

وفي «المسند» -أيضًا- من حديث ابن مسعود أن رسول الله قال: «**إياكم ومحقِّرات الذنوب، فإنهن يجتمعن علىٰ الرجل حتىٰ يهلكنه، وضرب لهن رسول الله مثلًا، كمثل قوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل يجيء بالعود حتىٰ جمعوا سوادًا وأجَّجوا نارًا وأنضجوا ما قذفوا فيها**»(٤).

---

(١) أخرجه أحمد (٦٦٤٤)، وابن ماجه (٣٣٧٧)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أحمد (١٩٥٨٧).

(٣) أخرجه أحمد (١٩٧٣٠)، وابن ماجه (٤٢٧٧).

(٤) أخرجه أحمد (٣٨١٨)، وقال الألباني: حسن لغيره، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٤٧٠).

وفي «الصحيح» من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله: «**يُضرب الجسر علىٰ جهنم فأكون أول من يجوز، ودعوىٰ الرسول يومئذ: اللهم سلِّم سلِّم، وَعَلَىٰ حَافَّتَيْهِ كلاليب مثل شوك السعدان، تَخْطَفُ الناس بأعمالهم، فمنهم الموثق بعمله، ومنهم المخدوش، ثم ينجوا، حتىٰ إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يُخرِجِ من النار مَن أراد أن يَرحم ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله، أمر الملائكة أن يُخرِجوه، فيَعرفونه بعلامة أثر السجود، وحرم الله علىٰ النار أن تأكل من ابن آدم أثرَ السجود، فيخرجونهم، وقد امتُحِشوا، فيصب عليهم من ماء يقال له: ماء الحياة، فينبتون نبات الحِبَّة في حَميل السيل**»(١).

وفي «صحيح مسلم» عنه قال: سمعت رسول الله يقول: «**إنَّ أول الناس يُقضىٰ فيه يوم القيامة ثلاثة: رجل استشهد، فأُتِي به فعرَّفه نعمه فعرَفها، فقال: ما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتىٰ قتلتُ، قال: كذبتَ، ولكن قاتلتَ ليقال: هو جريء، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب علىٰ وجهه حتىٰ أُلقي في النار. ورجل تعلم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن، فأُتي به فعرَّفه نعمَه فعرفها، فقال: ما عملتَ فيها؟ قال: تعلمتُ فيكَ العلم وعلَّمتُه، وقرأتُ فيك القرآنَ، فقال: كذبتَ، ولكنك تعلَّمتَ ليقال: هو عالِم، فقد قيل، وقرأتَ القرآنَ ليُقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسُحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار. ورجل وسَّع الله عليه رزقَه وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتي به فعرَّفه نِعمَه فعرفها، فقال: ما عملتَ فيها؟ فقال ما تركتُ مِن سبيل تحبُّ أن ينفق فيها إلا أنفقتُ فيها لك، قال: كذبتَ، ولكنك**

---

(١) أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢).

فعلتَ ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار»[(١)].

وفي لفظ: «**فهؤلاء أول خلق الله تسعَّر بهم النار يوم القيامة**»[(٢)].

وسمعت شيخ الاسلام يقول: كما أن خير الناس الأنبياء، فشر الناس من تشبَّه بهم من الكذَّابين وادَّعىٰ أنه منهم وليس منهم، فخير الناس بعدهم العلماء والشهداء والصديقون والمخلصون، فشر الناس مَن تشبه بهم يوهم أنه منهم وليس منهم.

وفي «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة عن النبي: «**من كانت عنده لأخيه مَظلِمة في مالٍ أو عِرض فليأته فليستحلَّها منه قبل أن يؤخذ وليس عنده دينار، ولا درهم، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته فأعطيها هذا، وإلا أُخذ من سيئات هذا فطُرحت عليه ثم طرح في النار**»[(٣)].

وفي «الصحيح» من حديث أبي هريرة، عنه: «**مَن أخذ شِبْرًا من الأرض بغير حقِّه خُسف به يوم القيامة إلىٰ سبع أرضين**»[(٤)].

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٨٢)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٣٤).

(٤) أخرجه مسلم (١٦١١) بنحوه.

وفي «الصحيحين» عنه قال: قال رسول الله: «**ناركم هذه التي تُوقِد بنو آدم جزء واحد من سبعين جزءًا من نار جهنم. قالوا: والله إن كانت لكافية، قال: فإنها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا كلهن مثل حرها**»(١).

وفي «المسند» عن معاذ قال: أوصاني رسول الله فقال: «**لا تشرك بالله شيئًا وإن قتلت أو حرقت، ولا تعُقَّنَّ والديك وإن أمراك أن تخرج من مالك وأهلك، ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمدًا، فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمدًا فقد برئت منه ذمَّةُ الله، ولا تشرب خمرًا، فإنه رأس كل فاحشة، وإياك والمعصية، فإن المعصية تحل سخط الله**»(٢).

والأحاديث في هذا الباب أضعاف أضعاف ما ذكرنا، فلا ينبغي لمن نصح نفسه أن يتعامىٰ عنها ويرسل نفسه في المعاصي ويتعلق بحسن الرجاء وحسن الظن. قال أبو الوفاء بن عقيل: احذر، ولا تغتر، فإنه قطَع اليد في ثلاثة دراهم، وجلد الحدَّ في مثل رأس الإبرة من الخمر، وقد دخلت المرأة النار في هرَّة، واشتعل الشملة نارًا علىٰ من غلَّها، وقد قُتل شهيدًا.

وقال الإمام أحمدُ: ثنا معاوية، ثنا الأعمش عن سليمان بن ميسرة عن طارق بن شهاب يرفعه قال: «دخل رجل الجنة في ذباب، ودخل رجل النار في ذباب. قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: مرَّ رجلان علىٰ قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتىٰ يقرِّب له شيئًا، فقال لأحدهما: قرِّب، فقال: ليس عندي شيء،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢٢١٢٨)، والطبراني (١٥٦).

قالوا: قرِّب ولو ذُبابًا، فقرَّب ذُبابًا، فخلَّو سبيله، فدخل النار. وقالوا للآخر: قرِّب، فقال: ما كنتُ أقرِّب شيئًا دون الله عَزَّوَجَلَّ، فضربوا عنقه، فدخل الجنة»(١).

وهذه الكلمة الواحدة يتكلم بها العبد يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب، وربما اتَّكل بعض المغترين علىٰ ما يرىٰ من نعم الله عليه في الدنيا وأنه يغتر به، ويظن أن ذلك من محبة الله له، وأنه يعطيه في الآخرة أفضل من ذلك، فهذا من الغرور.

قال الإمام أحمد: ثنا يحيىٰ بن غيلان، ثنا رشدين بن سعد عن حرملة بن عمران التُّجِيبِيِّ، عن عقبة بن مسلم، عن عقبة بن عامر عن النبي قال: «إذا رأيتَ الله عَزَّوَجَلَّ يعطي العبدَ من الدنيا علىٰ معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج، ثم تلا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام:٤٤]»(٢).

وقال بعض السلف: إذا رأيت الله عَزَّوَجَلَّ يتابع عليك نعمَه وأنت مقيم علىٰ معاصيه فاحذره، فإنما هو استدراج منه يستدرجك به. وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف:٣٣-

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٥ - ١٦).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٣٤٩).

٣٥]، وقد رد سبحانه علىٰ مَن يظن هذا الظنَّ بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّاۖ﴾ [الفجر:١٥-١٧]، أي: ليس كل من أنعمته ووسعت عليه رزقه أكون قد أكرمته، وليس كل من ابتليتُه وضيَّقتُ عليه رزقه أكون قد أهنته، بل أبتلي هذا بالنِّعم، وأكرم هذا بالابتلاء.

وفي «جامع الترمذي» عنه: «**إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا مَن يحب**»(١)، وقال بعض السلف: ربُّ مُستدرَجٍ بنِعمِ الله عليه وهو لا يعلم، ورُبَّ مفتونٍ بثناء الناس عليه وهو لا يعلم، ورُبَّ مغرورٍ بستر الله عليه وهو لا يعلم».

«وقد جاء في بعض الآثار: إن العبد إذا دعا لمبتلًىٰ قد اشتد بلاؤه، وقال: اللهم ارحمه، يقول الرب تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: كيف أرحمه من شيء به أرحمه؟!»(٢)، فالابتلاء رحمة منه لعباده، وفي أثر إلهي يقول الله تعالىٰ: «أهل ذكري أهل مجالستي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم

---

(١) أخرجه الحاكم (٧٣٠١) وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٥٢٤)، وأحمد (٣٦٧٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٥) من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وقال الألباني: «صحيح موقوف في حكم المرفوع»، وانظر: «الصحيحة» (٢٧١٤). ولم أقف عليه عند الترمذي.

(٢) سبق تخريجه.

بالمصايب لأُطَهِّرهم من المعايب»[١]، فالبلاء والعقوبة قدرته لإزالة أدواء لا تزول إلا بها، والنار هي الدواء الأكبر، فمَن تداوىٰ في الدنيا أغناه ذلك عن الدواء في الآخرة، وإلا فلا بد له من الدواء بحسب دائه، ومن عرف الرب تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بصفات جلاله ونعوت كماله من حكمته ورحمته وبره وإحسانه وغناه وجوده وتحببه إلىٰ عباده وإرادة الأنعام عليهم وسبق رحمته لهم لم يبادر إلىٰ إنكار ذلك إن لم يبادر إلىٰ قبوله»[٢].

❁ ❁ ❁

أهل التقوى وأهل المغفرة

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝٥٦﴾ [المدثر:٥٦].

أَيْ: هُوَ حَقِيقٌ بِأَنْ يَتَّقِيَهُ عِبَادُهُ وَيَخَافُوا عِقَابَهُ فَيُؤْمِنُوا وَيُطِيعُوا، وَحَقِيقٌ بِأَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ مَا سَلَفَ مِنْ كُفْرِهِمْ إِذَا آمَنُوا وَأَطَاعُوا.

«ذو المغفرة»: جاء في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ [النجم:٣٢]، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٦﴾ [الرعد:٦]، وقوله: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝٥٦﴾ [المدثر:٥٦].

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) «حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح» (ص: ٣٧٦).

«﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝٥٦﴾ [المدثر:٥٦]، فَهُوَ سُبْحَانَهُ أَهْلُ التَّقْوَىٰ، وَلَمْ يَقُلْ سُبْحَانَهُ: أَهْلٌ لِلتَّقْوَىٰ. بَلْ قَالَ: ﴿أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، فَهُوَ وَحْدَهُ أَهْلٌ أَنْ يُتَّقَىٰ فَيُعْبَدُ دُونَ مَا سِوَاهُ، وَلَا يَسْتَحِقُّ غَيْرُهُ أَنْ يُتَّقَىٰ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝٥٢﴾ [النحل:٥٢]، وَقَالَ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾ [النور:٥٢]، وَهُوَ أَهْلُ المَغْفِرَةِ، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:١٣٥]، وَفِي غَيْرِ حَدِيثٍ يَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**»[(١)]، فَهُوَ سُبْحَانَهُ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ المَغْفِرَةِ.

وَقَدْ جَمَعَ اللهُ بَيْنَ التَّوْحِيدِ والاسْتِغْفَارِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ؛ كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩]، فَالمُؤْمِنُونَ يَسْتَغْفِرُونَ مِمَّا كَانُوا تَارِكِيهِ قَبْلَ الإِسْلَامِ مِنْ تَوْحِيدِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ يَأْتِهِمْ بِهِ رَسُولٌ بَعْدُ كَمَا تَقَدَّمَ، والرَّسُولُ يَسْتَغْفِرُ مِنْ تَرْكِ مَا كَانَ تَارِكَهُ، كَمَا قَالَ فِيهِ: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورىٰ:٥٢]، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ عِقَابٌ، والمُؤْمِنُ إِذَا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ ضَيَّعَ حَقَّ قَرَابَتِهِ أَوْ غَيْرِهِ اسْتَغْفَرَ اللهَ مِنْ ذَلِكَ وَتَابَ، وَكَذَلِكَ إِذَا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ بَعْضَ مَا يَفْعَلُهُ هُوَ مَذْمُومٌ»[(٢)].

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٣٠٦) من حديث شداد بن أوس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ومسلم (٧٧١) من حديث علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (١١/ ٦٩٠).

«ويدخل في ذلك أن لا نخاف إلا إياه، ولا نتقي إلا إياه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾ [النور:٥٢].

فجعل الطاعة لله وللرسول، وجعل الخشية والتقوىٰ لله وحده»(١).

❁ ❁ ❁

عالم الغيب والشهادة

قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٧٣﴾ [الأنعام:٧٣].

فِي الأَسْمَاءِ الحَاصِلَةِ بِسَبَبِ العِلْمِ، وَفِيهِ أَلْفَاظٌ:

الأَوَّلُ: العِلْمُ وَمَا يُشْتَقُّ مِنْهُ، وَفِيهِ وُجُوهٌ:

الأَوَّلُ: إِثْبَاتُ العِلْمِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وَقَالَ تعالىٰ: ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فصلت:٤٧]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ۝١٢﴾ [الطلاق:١٢]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان:٣٤].

الِاسْمُ الثَّانِي: العَالِمُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الزمر:٤٦].

الثَّالِثُ: العَلِيمُ، وَهُوَ كَثِيرٌ فِي القُرْآنِ.

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم» (٢/ ٣٦٥).

الرَّابِعُ: العَلَّامُ، قَالَ تَعَالَىٰ حِكَايَةً عَنْ عِيسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة:١١٦].

الخَامِسُ: الأَعْلَمُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

والغيب ما غاب عن العباد والشهادة ما علم العباد به، ويقال: السر والعلانية. ويقال: عالِمُ بما يكون وبما قد كان، ويقال: عالِمُ بأمر الآخرة وبأمر الدنيا.

«في مراتب القضاء والقدر التي مَن لم يؤمن بها لم يؤمن بالقضاء والقدر، وهي أربع مراتب:

المرتبة الأولىٰ: علم الرب سبحانه بالأشياء قبل كونها.

المرتبة الثانية: كتابتُه لها قبل كونها.

المرتبة الثالثة: مشيئته لها.

الرابعة: خَلقُه لها.

فأما المرتبة الأولىٰ: وهي العلم السابق، فقد اتفق عليه الرسل من أولهم إلىٰ خاتمهم، واتفق عليه جميع الصحابة، ومن تبعهم من الأمة، وخالفهم مجوس الأمة. وكتابته السابقة تدل علىٰ علمه بها قبل كونها، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة:٣٠]، قال مجاهد: علِم من إبليس المعصية وخلقه لها، وقال قتادة: كان في

علمه أنه سيكون من تلك الخليقة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة، وقال ابن مسعود: «أعلم ما لا تعلمون من إبليس»، وقال مجاهد أيضًا: «علم من إبليس أنه لا يسجد لآدم».

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾ [لقمان:٣٤].

وفي «المسند» من حديث لَقيط بن عامر عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: يا رسول الله، ما عندك من علم الغيب؟ فقال: «ضَنَّ ربُّك بمفاتيح خمس من الغيب لا يعلمها إلا الله، وأشار بيده، فقلت: ما هن؟ قال: علم المَنية، قد علم متىٰ منية أحدكم، ولا تعلمونه، وعلم المَني حين يكون في الرحم قد علمه، ولا تعلمونه، وعلم ما في غدٍ، قد علم ما أنت طاعم، ولا تعلمه، وعلم يوم الغيث يشرق عليكم مشفقين فيظل يضحك قد علم أن غوثكم إلىٰ قريب. قال لقيط: لن نعدم من رب يضحك خيرًا، وعلم يوم الساعة»(١).

وقد تقدم حديث علي المتفق علىٰ صحته: «**ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة إلا وقد علم مكانها من الجنة أو النار**»(٢).

وقال البزار: حدثنا محمد بن عمر بن هياج الكوفي، ثنا عبيد الله بن موسىٰ، ثنا فضيل بن مرزوق عن عطية عن أبي سعيد عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحسبه

(١) أخرجه أحمد (١٦٢٥١).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧) من حديث علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال: «يؤتىٰ بالهالك في الفترة، والمعتوه، والمولود، فيقول الهالك في الفترة: لم يأتني كتاب، ولا رسول، ويقول المعتوه: أيْ ربِّ، لَمْ تجعلْ لي عقلًا أعقِل به خيرًا، ولا شرًّا، ويقول المولود: أي رب، لم أدرك العملَ. قال: فيُرفع لهم نار، فيقال لهم: رِدُوها، أو قال: ادخُلوها، فيَرِدُها مَن كان في علم الله سعيدًا أن لو أدرك العمل. قال: ويمسك عنها مَن كان في علم الله شقيًّا أن لو أدرك العمل. فيقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: إياي عصيتم فكيف رسلي بالغيب؟!»(١).

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ما من مولود يولد إلا علىٰ الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء، حتىٰ تكونوا أنتم تجدعونها؟ قالوا: يا رسول الله، أفرأيت من يموت منهم وهو صغير؟ قال: الله أعلم بما كانوا عاملين**»(٢)، ومعنىٰ الحديث: الله أعلم بما كانوا عاملين لو عاشوا»(٣).

❁ ❁ ❁

العفو القدير

قال تعالىٰ: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء:١٤٩].

---

(١) أخرجه البزار (٢١٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٩٩)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٣) «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» (ص: ٣٠).

القدير معلَّقًا عامًّا، كما في قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠﴾ [البقرة:٢٠]، في قريب من ثلاثين موضعًا، ومعلَّقًا خاصًّا في قوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ۝١٣٣﴾ [النساء:١٣٣]، ومفردًا في قوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝٥٤﴾ [الفرقان:٥٤]، ومقرونًا بالعلم في نحو من أربعة مواضع، ومقرونًا في قوله: ﴿عَفُوًّا قَدِيرًا ۝١٤٩﴾ [النساء:١٤٩].

«﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ۝١٤٩﴾ [النساء:١٤٩]، وَفِيهِ وُجُوهٌ:

الأَوَّلُ: أَنَّهُ تَعَالَىٰ يَعْفُو عَنِ الجَانِينِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَىٰ الِانْتِقَامِ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَقْتَدُوا بِسُنَّةِ الله تَعَالَىٰ، وَهُوَ قَوْلُ الحَسَنِ.

الثَّانِي: إِنَّ الله كَانَ عَفُوًّا لِمَنْ عَفَا، قَدِيرًا عَلَىٰ إِيصَالِ الثَّوَابِ إِلَيْهِ.

الثَّالِثُ: قَالَ الكَلْبِيُّ: إِنَّ الله تَعَالَىٰ أَقْدَرُ عَلَىٰ عَفْوِ ذنوبك منك علىٰ عفو صاحبك»(١).

وإيراده في معرض جواب الشرط يدل علىٰ أن العمدة هو العفو مع القدرة، أي: كان مبالغًا في العفو عن العصاة مع كمال قدرته علىٰ المؤاخذة والانتقام، فعليكم أن تقتدوا بسنة الله، وهو حث المظلوم علىٰ العفو بعد ما رخص له في الانتصار والانتقام حملًا علىٰ مكارم الأخلاق.

(١) «التفسير الكبير» (١١/ ٢٥٤).

«وَاقْتِرَانُ العِلْمِ بِالحِكْمَةِ كَمَالٌ أَيْضًا، وَقُدْرَتُهُ كَمَالٌ وَمَغْفِرَتُهُ كَمَالٌ، وَاقْتِرَانُ القُدْرَةِ بِالمَغْفِرَةِ كَمَالٌ، وَكَذَلِكَ العَفْوُ بَعْدَ القُدْرَةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ۝٤٣﴾ [النساء:٤٣]، وَاقْتِرَانُ العِلْمِ بِالحِلْمِ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝١٢﴾ [النساء:١٢]»(١).

«قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۝٣٩﴾ [الشورىٰ:٣٩]. فمدحهم بقوتهم علىٰ الانتصار لنفوسهم وتقاضيهم منها ذلك حتىٰ إذا قدروا علىٰ من بغىٰ عليهم وتمكنوا من استيفاء ما لهم عليه ندبهم إلىٰ الخُلق الشريف من العفو والصفح، فقال: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾ [الشورىٰ:٤٠]، فذكر المقامات الثلاثة: العدل وأباحه، والفضل وندب إليه، والظلم وحرَّمه.

فإن قيل: فكيف مدحهم علىٰ الانتصار والعفو وهما متنافيان؟

قيل: لم يمدحهم علىٰ الاستيفاء والانتقام، وإنما مدحهم علىٰ الانتصار، وهو القدرة والقوة علىٰ استيفاء حقهم، فلما قدروا ندبهم إلىٰ العفو، قال بعض السلف في هذه الآية: كانوا يكرهون أن يستذلوا، فإذا قدروا عفَوْا، فمدحهم علىٰ عفو بعد قدرة، لا علىٰ عفوِ ذلٍّ وعجز ومهانة، وهذا هو الكمال الذي مدح سبحانه به نفسه في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ۝١٤٩﴾ [النساء:١٤٩]، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢١٨﴾ [البقرة:٢١٨].

(١) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (١/ ٥٩).

وفي أثر معروف: حملة العرش أربعة: اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد علىٰ حلمك بعد علمك. واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد علىٰ عفوك بعد قدرتك.

ولهذا قال المسيح -صلوات الله وسلامه عليه-: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة:١١٨]، أي: إن غفرتَ لهم غفرتَ عن عزة وهي كمال القدرة، وحكمةٍ وهي كمال العلم، فغفرت بعد أن علمتَ ما عملوا وأحاطت بهم قدرتك؛ إذ المخلوق قد يغفر بعجزه عن الانتقام وجهله بحقيقة ما صدر من المسيء، والعفو من المخلوق ظاهره ضيم وذل وباطنه عز ومهانة وانتقام ظاهره عز وباطنه ذل، فما زاد الله بعفو إلا عزًّا، ولا انتقم أحد لنفسه إلا ذلَّ، ولو لم يكن إلا بفوات عز العفو، ولهذا ما انتقم رسول الله لنفسه قط.

وتأمل قوله سبحانه: ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الشورىٰ:٣٩]، كيف يفهم منه أن فيهم من القوة ما يكونون هم بها المنتصرين لأنفسهم، لا أن غيرهم هو الذي ينصرهم، ولمَّا كان الانتصار لا تقف النفوس فيه علىٰ حدِّ العدل غالبًا، بل لا بد من المجاوزة شرع فيه سبحانه المماثلة والمساواة، وحرَّم الزيادة، وندب إلىٰ العفو. والمقصود أن العفو من أخلاق النفس المطمئنة، والذل من أخلاق الإمارة.

ونكتة المسألة: أن الانتقام شيء والانتصار شيء، فالانتصار أن ينتصر لحق الله، ومن أجله، ولا يقوىٰ علىٰ ذلك إلا مَن تخلَّص مِن ذلِّ حظِّه ورقِّ هواه، فإنه حينئذ ينال حظًّا من العز الذي قسم الله المؤمنين، فإذا بغىٰ عليه انتصر من الباغي من أجل عز الله الذي أعزه به غيرةً علىٰ ذلك العز أن يستضام ويقهر،

وحمية للعبد المنسوب إلىٰ العزيز الحميد أن يستذل، فهو يقال للباغي عليه: أنا مملوك من لا يذل مملوكه، ولا يحب أن يذله أحد، وإذا كانت نفسه الأمارة قائمة علىٰ أصولها لم تحب بعد طلبه إلا الانتقام والانتصار لحظها وظفرها بالباغي تشفِّيًا فيه وإذلالًا له، وأما النفس التي خرجت من ذل حظِّها ورق هواها إلىٰ عز توحيدها وإنابتها إلىٰ ربها، فإذا نالها البغي قامت بالانتصار حمية ونصرة للعز الذي أعزها الله به ونالته منه، وهو في الحقيقة حمية لربها ومولاها» (١).

«أن التلبية متضمنة للإخبار عن اجتماع المُلك والنعمة والحمد لله عَزَّوَجَلَّ، وهذا نوع آخر من الثناء عليه غير الثناء بمفردات تلك الأوصاف العلية، فله سبحانه من أوصافه العلي نوعَا ثناء؛ نوع متعلق بكل صفة علىٰ انفرادها، ونوع متعلق باجتماعها، وهو كمال مع كمال، وهو عامة الكمال، والله سبحانه يفرق في صفاته بين المُلك والحمد، وسوَّغ هذا المعنىٰ أن اقتران أحدهما بالآخر من أعظم الكمال، والملك وحده كمال، والحمد كمال، واقتران أحدهما بالآخر كمال، فإذا اجتمع المُلك المتضمن للقدرة مع النعمة المتضمنة لغاية النفع والإحسان والرحمة مع الحمد المتضمن لعامة الجلال والإكرام الداعي إلىٰ محبته كان في ذلك من العظمة والكمال والجلال ما هو أولىٰ به، وهو أهله، وكان في ذكر الحمد له ومعرفته به من انجذاب قلبه إلىٰ الله وإقباله عليه والتوجه بدواعي المحبة كلها إليه ما هو مقصود العبودية ولبُّها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

---

(١) «الروح» (ص: ٢٤٢).

ونظير هذا اقتران الغِنىٰ بالكرم، كقوله: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل:٤٠]، فله كمال من غناه وكرمه، ومن اقتران أحدهما بالآخر.

ونظيره اقتران العزة بالرحمة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الشعراء:٩].

ونظيره اقتران العفْوِ بالقدرة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء:١٤٩].

ونظيره اقتران العلم بالحلم: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [النساء:١٢].

ونظيره اقتران الرحمة بالقدرة: ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [الممتحنة:٧].

وهذا يُطْلِع ذا اللُّبِّ علىٰ رياض من العلم أنيقات ويفتح له باب محبة الله ومعرفته، والله المستعان وعليه التكلان»(١).

❖ ❖ ❖

---

(١) «حاشية ابن القيم علىٰ سنن أبي داود» (٥/ ١٧٩) بتصرف يسير.

فصل

اعلم -رحمك الله- أن الصلاة أعظم العبادات بعد التوحيد، وهي أعظم الدلالات علىٰ إيمان العبد بأسماء الله الحسنىٰ وصفاته العليا، وكمالها دليل علىٰ كمال إيمان العبد، فهي تترجم كمال إيمان المصلي بأسماء الله الحسنىٰ، وفيها تظهر أعلىٰ المراتب؛ مرتبة الإحسان، ومن أجل ذلك رأيتُ ختمَ هذه الرسالة ببيان أسرار الصلاة، لتتم الاستفادة نظريًّا وعمليًّا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وها هنا عجيبة من عجائب الأسماء والصفات تحصل لمن تفقَّه قلبُه في معاني القرآن، وخالط بشاشة الإيمان بها قلبه، بحيث يرىٰ لكل اسم وصفة موضعًا من صلاته ومحلًّا منها، فإنه إذا انتصب قائمًا بين يدي الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ شاهد بقلبه قيوميته، وإذا قال: الله أكبر، شاهد كبرياءه، وإذا قال: سبحانك اللهم وبحمدك، تبارك اسمك وتعالىٰ جدك، ولا إله غيرك، شاهد بقلبه ربًّا منزَّهًا عن كل عيب سالمًا من كل نقص، محمودًا بكل حمد، فحمده يتضمن وصفه بكل كمال، وذلك يستلزم براءته من كل نقص تبارك اسمه، فلا يُذكر علىٰ قليل إلا كثَّره، وعلىٰ خير إلا أنماه وبارك فيه، ولا علىٰ آفة إلا أذهبها، ولا علىٰ شيطان إلا ردَّه خاسئًا داحرًا، وكمال الاسم من كمال مسماه، فإذا كان شأن اسمه الذي لا يضر معه شيء في الأرض ولا في السماء فشأن المسمىٰ أعلىٰ وأجل.

وتعالىٰ جده: أي ارتفعت عظمته وجلت فوق كل عظمة، وعلا شأنه علىٰ كل شأن، وقهر سلطانه علىٰ كل سلطان، فتعالىٰ جده أن يكون معه شريك في ملكه وربوبيته أو في الهيته أو في أفعاله أو في صفاته، كما قال مؤمن الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾ [الجن:٣]، فكم من هذه الكلمات من تجلٍّ لحقائق الأسماء والصفات علىٰ قلب العارف بها غير المعطِّل لحقائقها.

وإذا قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فقد آوىٰ إلىٰ ركنه الشديد، واعتصم بحوله وقوته من عدوه الذي يريد أن يقطعه عن ربه ويبعده عن قربه، ليكون أسوأ حالًا، فإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢]، وقف هُنَيهَةً يسيرة ينتظر جواب ربِّه له بقوله: «**حَمِدني عبدي**»، فإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة:٣]، انتظر الجواب بقوله: «**أثنىٰ عليَّ عبدي**»، فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة:٤]، انتظر جوابه بـ: «**مجدني عبدي**».

فيا لذة قلبه وقرَّة عينه وسرور نفسه بقول ربه: «**عبدي**» ثلاث مرات! فوالله لولا ما علىٰ القلوب من دخان الشهوات وغيم النفوس لاستُطيرت فرحًا وسرورًا بقول ربها وفاطرها ومعبودها: حمدني عبدني، وأثنىٰ علي عبدي، ومجدني عبدي. ثم يكون لقلبه مجال من شهود هذه الأسماء الثلاثة التي هي أصول الأسماء الحسنىٰ، وهي: الله والرب الرحمن، فشاهد قلبه من ذكر اسم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إلهًا معبودًا موجودًا مَخوفًا لا يستحق العبادة غيره، ولا تنبغي إلا له، قد عنت له الوجوه، وخضعت له الموجودات، وخشعت له الأصوات: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤]، ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ۝٢٦﴾ [الروم:٢٦]،

وكذلك خلق السموات والأرض وما بينهما، وخلق الجن والإنس والطير والوحش والجَنَّة والنار، وكذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب وشرع الشرائع وألزم العباد الأمر والنهي.

وشاهد مِن ذكر اسمه (رب العالمين) قيومًا قام بنفسه وقام به كل شيء، فهو قائم علىٰ كل نفس بخيرها وشرها، قد استوىٰ علىٰ عرشه، وتفرد بتدبير ملكه، فالتدبير كله بيديه، ومصير الأمور كلها إليه، فمراسيم التدبيرات نازلة من عنده علىٰ أيدي ملائكته بالعطاء والمنع، والخفض والرفع، والإحياء والإماتة، والتوبة والعزل، والقبض والبسط، وكشف الكروب، وإغاثة الملهوفين، وإجابة المضطرين، ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن:٢٩]، لا مانع لما أعطىٰ، ولا معطي لما منع، ولا معقب لحكمه، ولا رادَّ لأمره، ولا مبدل لكلماته، تعرج الملائكة والروح إليه، وتعرض الأعمال أولَ النهار وآخره عليه، فيقدر المقادير ويوقِّت المواقيت، ثم يسوق المقادير إلىٰ مواقيتها، قائمًا بتدبير ذلك كله وحفظه ومصالحه.

يشهد عند ذكر اسم الرحمن جَلَّجَلَالُهُ ربًّا محسنًا إلىٰ خلقه بأنواع الإحسان، متحبِّبًا إليهم بصنوف النِّعم، وسع كل شيء رحمة وعلمًا، وأوسع كل مخلوق نعمةً وفضلًا، فوسعت رحمته كل شيء، ووسعت نعمته كلَّ حي، فبلغت رحمته حيث بلغ علمه، فاستوىٰ علىٰ عرشه برحمته، وخلق خلقه برحمته، وأنزل كتبه برحمته، وأرسل رسله برحمته، وشرع شرائعه برحمته، وخلق الجنة برحمته، والنار -أيضًا- برحمته، فإنها سَوطه الذي يسوق به عباده المؤمنين إلىٰ

جنته، ويطهر بها أدران الموحدين من أهل معصيته، وسجنه الذي يسجن فيه أعداءه من خليقته.

فتأمل ما في أمره ونهيه ووصاياه ومواعيظه من الرحمة البالغة والنعمة السابغة، وما في حشوها من الرحمة والنعمة، فالرحمة هي السبب المتصل منه بعبادة، كما أن العبودية هي السبب المتصل منهم به، فمنهم إليه العبودية، ومنه إليهم الرحمة، ومن أخص مشاهد هذا الاسم شهود المصلي نصيبه من الرحمة الذي أقامه بها بين يدي ربه وأهلَّه لعبوديته ومناجاته، وأعطاه ومنع غيرَه، وأقبل بقلبه وأعرض بقلب غيره، وذلك من رحمته به.

فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ [الفاتحة:٤]، فهنا شهد المجد الذي لا يليق بسوىٰ الملك الحق المبين، فيشهد مِلكًا قاهرًا قد دانت له الخليفة وعنت له الوجوه وذلت لعظمته الجبابرة وخضع لعزته كل عزيز، فيشهد بقلبه ملكًا علىٰ عرش السماء مهيمنًا، لعزته تعنو الوجوه وتسجد، وإذا لم تعطل حقيقة صفة المُلك أطلعته علىٰ شهود حقائق الأسماء والصفات التي تعطيلها تعطيل لمُلكه وجحد له، فإن المَلِك الحق التام المُلك لا يكون إلا حيًّا قيومًا سميعًا بصيرًا مدبرًا قادرًا متكلمًا آمرًا ناهيًا مستويًا علىٰ سرير مملكته، يرسل إلىٰ أقاصي مملكته بأوامره فيرضىٰ علىٰ من يستحق الرضا ويثيبه ويكرمه ويدنيه، ويغضب علىٰ من يستحق الغضب ويعاقبه ويهينه ويقصيه، فيعذب من يشاء ويرحم من يشاء ويعطي من يشاء ويقرِّب من يشاء ويُقصي من يشاء، له دار عذاب وهي النار، وله دار سعادة عظيمة وهي الجنة.

فمن أبطل شيئًا من ذلك أو جحده وأنكر حقيقته فقد قدح في ملكه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ونفىٰ عنه كماله وتمامه، وكذلك من أنكر عموم قضائه وقدره فقد أنكر عموم ملكه وكماله، فيشهد المصلي مجدَ الربِّ تعالىٰ في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ [الفاتحة:٤]، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ [الفاتحة:٥]، ففيها سرُّ الخلق والأمر والدنيا والآخرة، وهي متضمنة لأجلِّ الغايات وأفضل الوسائل، فأجلُّ الغايات عبوديته، وأفضلُ الوسائل إعانته، فلا معبود يستحق العبادة إلا هو، ولا معين علىٰ عبادته غيره، فعبادته أعلىٰ الغايات، وإعانته أجل الوسائل، وقد أنزل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مئة كتاب وأربعة كتب، جمع معانيها في أربعة: وهي التوراة والإنجيل والقرآن والزبور، وجمع معانيها في القرآن، وجمع معانيه في المفصل، وجمع معانيه في الفاتحة، وجمع معانيها في ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ [الفاتحة:٥].

وقد اشتملت هذه الكلمة علىٰ نوعي التوحيد: وهما توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية. وتضمنت التعبد باسم الرب واسم الله، فهو يُعبد بألوهيته ويُستعان بربوبيته، ويهدي إلىٰ الصراط المستقيم برحمته، فكان أول السورة ذكر اسمه الله والرب والرحمن تطابقًا لأجلِ الطالب من عبادته وإعانته وهدايته، وهو المنفرد بإعطاء ذلك كله لا يعين علىٰ عبادته سواه، ولا يهدي سواه.

ثم يَشهد الداعي بقوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة:٦] شدَّةَ فاقته وضرورته إلىٰ هذه المسألة التي ليس هو إلىٰ شيء أشد فاقة وحاجة منه إليها البتة، فإنه محتاج إليه في كل نفَس وطرفة عين، وهذا المطلوب من هذا الدعاء لا يتم إلا بالهداية إلىٰ الطريق الموصل إليه سبحانه، والهداية فيه وهي

هداية التفصيل، وخلق القدرة علىٰ الفعل وإرادته وتكوينه وتوقيعه لإيقاعه له علىٰ الوجه الرمضي المحبوب للرب سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وحفظه عليه من مفسداته حال فعله وبعد فعله.

ولما كان العبد مفتقرًا في كل حال إلىٰ هذه الهداية في جميع ما يأتيه ويذره من أمور قد أتاها علىٰ غير الهداية، فهو يحتاج إلىٰ التوبة منها، وأمور هُدي إلىٰ أصلها دون تفصيلها، أو هُدي إليها من وجه دون وجه، فهو يحتاج إلىٰ إتمام الهداية فيها ليزداد هدىٰ، وأمور هو يحتاج إلىٰ أن يحصل له من الهداية فيها بالمستقبل مثل ما حصل له في الماضي، وأمور هو خالٍ عن اعتقادٍ فيها، فهو يحتاج إلىٰ الهداية فيها، وأمور لم يفعلها، فهو يحتاج إلىٰ فعلها علىٰ وجه الهداية، وأمور قد هُدي إلىٰ الاعتقاد الحق والعمل الصواب فيها، فهو محتاج إلىٰ الثبات عليها، إلىٰ غير ذلك من أنواع الهدايات - فرض الله سبحانه عليه أن يسأله هذه الهداية في أفضل أحواله مراتٍ متعددةً في اليوم والليلة.

ثم بيَّن أن أهل هذه الهداية هم المختصون بنعمته دون المغضوب عليهم وهم الذين عرفوا الحق ولم يتبعوه، ودون الضالين وهم الذين عبدوا الله بغير علم، فالطائفتان اشتركتا في القول في خلقه وأمره وأسمائه وصفاته بغير علم، فسبيل المُنعَم عليه مغايِرَةٌ لسبيل أهل الباطل كلها علمًا وعملًا.

فلما فرغ من هذا الثناء والدعاء والتوحيد شرع له أن يطبع علىٰ ذلك بطابع من التأمين يكون كالخاتم له وافق فيه ملائكة السماء، وهذا التأمين من زينة الصلاة، كرفع اليدين الذي هو زينة الصلاة، واتباع للسنة، وتعظيم أمر الله،

وعبودية اليدين، وشعار الانتقال من ركن إلىٰ ركن. ثم يأخذ في مناجاة ربه بكلامه واستماعه من الإمام بالإنصات وحضور القلب وشهوده.

وأفضل أذكار الصلاة ذِكرُ القيام، وأحسن هيئة المصلي هيئة القيام، فخصت بالحمد والثناء والمجد وتلاوة كلام الرب جَلَّجَلَالُهُ، ولهذا نهىٰ عن قراءة القرآن في الركوع والسجود؛ لأنهما حالتا ذل وخضوع وتطامن وانخفاض، ولهذا شرع فيهما من الذِّكر ما يناسب هيئتهما، فشرع للراكع أن يذكر عظمة ربه في حال انخفاضه هو وتطامنه وخضوعه، وأنه سبحانه يوصف بوصف عظمته عما يضاد كبرياءه وجلاله وعظمته، فأفضل ما يقول الراكع علىٰ الإطلاق: سبحان ربي العظيم، فإن الله سبحانه أمر العباد بذلك، وعَيَّن المبلِّغُ عنه السفيرُ بينه وبين عباده هذا المحلَّ لهذا الذِّكر لمَّا نزلت: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤﴾ [الواقعة:٧٤]، قال: «اجعلوها في ركوعكم»(١)، وأبطل كثير من أهل العلم صلاة من تركها عمدًا، وأوجب سجود السهو علىٰ من سها عنها، وهذا مذهب الإمام أحمد، ومَن وافقه من أئمة الحديث والسنة. والأمر بذلك لا يقصر عن الأمر بالصلاة عليه في التشهد الأخير، ووجوبه لا يقصر عن وجوب مباشرة المصلي بالجبهة واليدين.

وبالجملة: فسِرُّ الركوع تعظيمُ الربِّ جَلَّجَلَالُهُ بالقلب والقالب والقول، ولهذا قال النبي: «**أما الركوعُ فعظِّموا فيه الربَّ**»(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧) من حديث عقبة بن عامر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٤٧٩) من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا.

فصل في الرفع من الركوع

يرفع رأسه عائدًا إلىٰ أكمل حديثه، وجعل شعار هذا الركن حمدَ الله الثناء عليه وتحميده، فافتتح هذا الشعار بقول المصلي: سمع الله لمن حمده، أي: سَمِعَ سَمْعَ قبولٍ وإجابة، ثم شفع بقوله: ربنا ولك الحمد، ملء السموات والأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء. ولا يهمل أمر هذه الواو في قوله: ربنا ولك الحمد، فإنه قد ندب الأمر بها في «الصحيحين»، وهي تجعل الكلام في تقدير جملتين قائمتين بأنفسهما، فإن قوله: (ربنا) متضمن في المعنىٰ أنت الرب والملك القيوم الذي بيديه أزِمَّة الأمور وإليه مرجعها، فعطف علىٰ هذا المعنىٰ المفهوم من قوله: (ربنا) قوله: (ولك الحمد) فتضمن ذلك معنىٰ قول الموحِّد: له الملك وله الحمد.

ثم أخبر عن شأن هذا الحمد وعظمته قدرًا وصفةً فقال: ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء، أي: قَدْرَ مِلءِ العالم العلوي والسفلي والفضاء الذي بينهما، فهذا الحمد قد ملأ الخلق الموجود، وهو يملأ ما يخلقه الرب تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بعد ذلك ما يشاؤه، فحمده قد ملأ كل موجود وملأ ما سيوجد، فهذا أحسن التقديرين، وقيل: ما شئتَ مِن شيء وراء العالم، فيكون قوله: (بعد) للزمان علىٰ الأول والمكان علىٰ الثاني.

ثم أتبع ذلك بقوله: أهل الثناء والمجد، فعاد الأمر بعد الركعة إلىٰ ما افتتح به الصلاة قبل الركعة من الحمد والثناء والمجد، ثم أتبع ذلك بقوله: أحق ما قال العبد، تقريرًا لحمده وتمجيده والثناء عليه، وأن ذلك أحق ما نطق به العبد،

ثم أتبع ذلك بالاعتراف بالعبودية، وأن ذلك حكم عام لجميع العبيد، ثم عقب ذلك بقوله: لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد. وكان يقول ذلك بعد انقضاء الصلاة -أيضًا- فيقوله في هذين الموضعين اعترافًا بتوحيده، وأن النِّعم كلها منه، وهذا يتضمن أمورًا:

أحدها: أنه المنفرد بالعطاء والمنع.

الثاني: أنه إذا أعطىٰ لم يطق أحد منع من أعطاه، وإذا منع لم يطق أحد إعطاء من منعه.

الثالث: أنه لا ينفع عنده، ولا يخلص من عذابه، ولا يدني من كرامته جدودُ بني آدم وحظوظهم من الملك والرئاسة والغنىٰ وطيب العيش وغير ذلك، إنما ينفعهم عنده التقريب إليه بطاعته وإيثار مرضاته.

ثم ختم ذلك بقوله: اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبَرَد، كما افتتح به الركعة في أول الاستفتاح، كما كان يختم الصلاة بالاستغفار، وكان الاستغفار في أول الصلاة ووسطها وآخرها، فاشتمل هذا الركن علىٰ أفضل الأذكار وأنفع الدعاء مِن حَمْده وتمجيده والثناء عليه والاعتراف له بالعبودية والتوحيد، والتنصل إليه من الذنوب والخطايا، فهو ذِكر مقصود في ركن مقصود ليس بدون الركوع والسجود.

❁ ❁ ❁

فصل في السجود

ثم يكبِّر ويَخرُّ لله ساجدًا غير رافع يديه؛ لأن اليدين تنحطان للسجود، كما ينحط الوجه، فهما ينحطان لعبوديتهما، فأغنىٰ ذلك عن رفعهما، ولذلك لم يشرع رفعهما عند رفع الرأس من السجود؛ لأنهما يرفعان معه، كما يوضعان معه، وشرع السجود علىٰ أكمل الهيئة وأبلغها في العبودية، وأعمها لسائر الأعضاء، بحيث يأخذ كل جزء من البدن بحظه من العبودية.

والسجود سر الصلاة وركنها الأعظم، وخاتمة الركعة وما قبله من الأركان كالمقدمات له، فهو شِبه طواف الزيارة في الحج، فإنه مقصود الحج ومحل الدخول علىٰ الله وزيارته وما قبله كالمقدمات له، ولهذا أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وأفضل الأحوال له حال يكون فيها أقرب إلىٰ الله، ولهذا كان الدعاء في هذا المحل أقرب إلىٰ الإجابة.

ولما خلق الله سبحانه العبد من الأرض كان جديرًا بأن لا يخرج عن أصله، بل يرجع إليه إذا تقاضاه الطبع والنفس بالخروج عنه، فإن العبد لو تُرك لطبعه ودواعي نفسه لتكبر وأشر وخرج عن أصله الذي خلق منه، ولوثب علىٰ حق ربه من الكبرياء والعظمة فنازعه إياهما، وأُمر بالسجود خضوعًا لعظمة ربه وفاطره وخشوعًا له وتذلُّلًا بين يديه وانكسارًا له، فيكون هذا الخشوع والخضوع والتذلل ردًّا له إلىٰ حكم العبودية، ويتدارك ما حصل له من الهفوة والغفلة والإعراض الذي خرج به عن أصله، فتمثل له حقيقة التراب الذي خُلق

منه وهو يضع أشرف شيء منه وأعلاه، وهو الوجه، وقد صار أعلاه أسفله خضوعًا بين يدي ربه الأعلىٰ وخشوعًا له وتذللًا لعظمته واستكانة لعزته، وهذا غاية خشوع الظاهر، فإن الله سبحانه خلقه من الأرض التي هي مذلَّلة للوطء بالأقدم، واستعمله فيها وردَّه إليها ووعده بالإخراج منها، فهي أمُّه وأبوه وأصله وفصله، فضمَّته حيًّا علىٰ ظهرها، وميتًا في بطنها، وجُعلت له طهرًا ومسجدًا، فأمر بالسجود؛ إذ هو غاية خشوع الظاهر وأجمع العبودية لسائر الأعضاء، فيعفر وجهه في التراب استكانة وتواضعًا وخضوعًا وإلقاء باليدين.

وقال مسروق لسعيد بن جبير: «ما بقي شيء يرغب فيه إلا أن نعفِّر وجوهنا في التراب له». وكان النبي لا يتقي الأرضَ بوجهه قصدًا، بل إذا اتفق له ذلك فعَلَه، ولذلك سجد في الماء والطين، ولهذا كان من كمال السجود الواجب أنه يسجد علىٰ الأعضاء السبعة: الوجه واليدين والركبتين وأطراف القدمين. فهذا فرضٌ أمَرَ الله به رسولَه وبلغه الرسول لأمته.

ومِن كماله الواجب أو المستحب مباشرة مصلَّاه بأديم وجهه، واعتماده علىٰ الأرض بحيث ينالها ثقل رأسه وارتفاع أسافله علىٰ أعاليه، فهذا من تمام السجود، ومِن كماله أن يكون علىٰ هيئة يأخذ فيها كل عضو من البدن بحظه من الخضوع، فيقِلُّ بطنه عن فخذيه، وفخديه عن ساقيه، ويجافي عضديه عن جنبيه، ولا يفرشهما علىٰ الأرض ليستقل كل عضو منه بالعبودية، ولذلك إذا رأىٰ الشيطانُ ابنَ آدم ساجدًا لله اعتزل ناحية يبكي ويقول: يا ويله! أُمر ابنُ آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرتُ بالسجود فعصيتُ فلي النار.

ولذلك أثنىٰ الله سبحانه علىٰ الذين يخرون سجَّدًا عند سماع كلامه، وذم من لا يقع ساجدًا عنده، ولذلك كان قول من أوجبه قويًّا في الدليل.

ولما علمت السحرة صدق موسىٰ وكذب فرعون خرُّوا سجَّدًا لربهم، فكانت تلك السجدة أول سعادتهم وغفران ما أفنَوا فيه أعمارهم من السِّحر، ولذلك أخبر سبحانه عن سجود جميع المخلوقات له، فقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل:٤٩-٥٠]، فأخبر عن إيمانهم بعلوه وفوقيته وخضوعهم له بالسجود تعظيمًا وإجلالًا، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج:١٨]، فالذي حق عليه العذاب هو الذي لا يسجد به سبحانه، وهو الذي أهانه بترك السجود له وأخبر أنه لا مُكرِمَ له، وقد هان علىٰ ربه حيث لم يسجد له، وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد:١٥].

ولما كانت العبودية غايةَ كمال الإنسان، وقُربُه من الله بحسب نصيبه من عبوديته، وكانت الصلاة جامعة لمتفرِّق العبودية متضمِّنة لأقسامها - كانت أفضل أعمال العبد ومنزلتها من الإسلام بمنزلة عمود الفسطاط منه، وكان السجود أفضل أركانها الفعلية، وسرَّها الذي شُرعت لأجله، وكان تكرُّره في الصلاة أكثر من تكرر سائر الأركان، وجعله خاتمة الركعة وغايتها، وشرع فعله بعد الركوع، فإن الركوع توطئة له ومقدمة بين يديه، وشرع فيه من الثناء علىٰ الله

ما يناسبه، وهو قول العبد: سبحان ربي الأعلىٰ. فهذا أفضل ما يقال فيه، ولم يرد عن النبي أمره في السجود بغيره حيث قال: «اجعلوها في سجودكم»(١)، ومن تركه عمدًا فصلاته باطلة عند كثير من العلماء منهم الإمام احمد وغيره؛ لأنه لم يفعل ما أُمر به، وكان وصف الربِّ بالعلوِّ في هذه الحال في غاية المناسبة لحال الساجد الذي قد انحطَّ إلىٰ السُّفل علىٰ وجهه فذكر علو ربه في حال سقوطه، وهو كما ذكر عظمته في حال خضوعه في ركوعه ونزَّه ربه عما لا يليق به مما يضاد عظمته وعلوه.

ثم لما شرع السجود بوصف التكرار لم يكن بد من الفصل بين السجدتين، ففصل بينهما بركن مقصود شرع فيه من الدعاء ما يليق به ويناسبه، وهو سؤال العبد المغفرة والرحمة والهداية والعافية والرزق، فإن هذه تتضمن جلب خير الدنيا والآخرة، ودفع شر الدنيا والآخرة. فالرحمة تحصِّل الخير، والمغفرة تقِي الشرَّ، والهداية توصل إلىٰ هذا وهذا، والرزق إعطاء ما به قِوام البدن من الطعام والشراب، وما به قِوامُ الرُّوح والقلب من العلم والإيمان، وجعل جلوس الفصل محلًّا لهذا الدعاء لما تقدمه من رحمة الله والثناء عليه والخضوع له، فكان هذا وسيلة للداعي ومقدمة بين يدي حاجته.

فهذا الركن مقصود الدعاء فيه، فهو ركن وضع للرغبة وطلب العفو والمغفرة والرحمة، فإن العبد لما أتىٰ بالقيام والحمد والثناء والمجد، ثم أتىٰ بالخضوع وتنزيه الرب وتعظيمه، ثم عاد إلىٰ الحمد والثناء، ثم كمل ذلك بغاية

---

(١) أخرجه أبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧) من حديث عقبة بن عامر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

التذلل والخضوع والاستكانة بقي سؤال حاجته واعتذاره وتنصُّله، فشرع له أن يتمثل في الخدمة، فيقعد فعلَ العبد الذليل جاثيًا علىٰ ركبتيه كهيئة الملقي نفسه بين يدي سيده راغبًا راهبًا معتذرًا إليه مستعدِيًا إليه علىٰ نفسه الأمَّارة بالسوء.

ثم شرع له تكرير هذه العبودية مرة بعد مرة إلىٰ إتمام الأربع، كما شرع له تكرير الذكر مرة بعد مرة لأنه أبلغ في حصول المقصود، وأدعىٰ إلىٰ الاستكانة والخضوع، فلما أكمل ركوع الصلاة وسجودها وقراءتها وتسبيحها وتكبيرها شرع له أن يجلس في آخر صلاته جلسة المتخشع المتذلل المستكين جاثيًا علىٰ ركبتيه، ويأتي في هذه الجلسة بأكمل التحيات وأفضلها عِوضًا عن تحية المخلوق للمخلوق إذا واجهه أو دخل عليه، فإن الناس يحيُّون ملوكهم وأكابرهم بأنواع التحيات التي يحيُّون بها قلوبهم، فبعضهم يقول: أنعم صباحًا، وبعضهم يقول: لك البقاء والنعمة، وبعضهم يقول: أطال الله بقاءك، وبعضهم يقول: تعيش ألف عام، وبعضهم يسجد للملوك، وبعضهم يسلِّم، فتحياتهم بينهم تتضمن ما يحبه المحيي من الأقوال والأفعال، والمشركون يحيون أصنامهم.

قال الحسن: كان أهل الجاهلية يتمسحون بأصنامهم ويقولون: لك الحياة الدائمة، فلما جاء الإسلام أمروا أن يجعلوا أطيب تلك التحيات وأزكاها وأفضلها لله. فالتحية هي تحية من العبد للحي الذي لا يموت، وهو سبحانه أولىٰ بتلك التحيات من كل ما سواه؛ فإنها تتضمن الحياة والبقاء والدوام، ولا يستحق أحد هذه التحيات إلا الحي الباقي الذي لا يموت ولا يزول ملكه.

وكذلك قوله: (والصلوات) فإنه لا يستحق أحد الصلاة إلا الله عَزَّوَجَلَّ، والصلاة لغيره من أعظم الكفر والشرك به، وكذلك قوله: (والطيبات) هي صفة الموصوف المحذوف، أي: الطيبات من الكلمات والأفعال والصفات والأسماء لله وحده، فهو طيب، وأفعاله طيبة، وصفاته أطيب شيء، وأسماؤه أطيب الأسماء، واسمه الطيب، ولا يصدر عنه إلا طيب، ولا يصعد إليه إلا طيب، ولا يقرب منه إلا طيب، وإليه يصعد الكلم الطيب، وفعله طيب، والعمل الطيب يعرج إليه، فالطيبات كلها له ومضافة إليه، وصادرة عنه ومنتهية إليه.

قال النبي: «**إن الله طيِّب لا يقبل إلا طيِّبًا**»[(١)]، وفي حديث رقية المريض الذي رواه أبو داود وغيره: «أنت رب الطيبين»[(٢)]، ولا يجاوره من عبادة إلا الطيبون، كما يقال لأهل الجنة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾ [الزمر:٧٣]، وقد حكم سبحانه في شرعه وقدره أن الطيبات للطيبين، فإذا كان هو سبحانه الطيب علىٰ الإطلاق فالكلمات الطيبات والأفعال الطيبات والصفات الطيبات والأسماء الطيبات كلها له سبحانه لا يستحقها أحد سواه، بل ما طاب شيء قط إلا بطِيبته سبحانه، فطيب كل ما سواه من آثار طيبته، ولا تصلح هذه التحية الطيبة إلا له.

ولمَّا كان السلام من أنواع التحية وكان المسلِّم داعيًا لمن يحييه، وكان الله سبحانه هو الذي يطلَب منه السلام لعباده الذين اختصهم بعبوديته وارتضاهم

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٨٩٢) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لنفسه، وشرع أن يبدأ بأكرمهم عليه وأحبهم إليه، وأقربهم منه منزلة في هذه التحية بالشهادتين اللتين هما مفتاح الإسلام، فشرع أن يكون خاتمة الصلاة، فدخل فيها بالتكبير والحمد والثناء والتمجيد وتوحيد الربوبية والإلهية، وختمها بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وشرعت هذه التحية في وسط الصلاة إذا زادت علىٰ ركعتين تشبيهًا لها بجلسة الفصل بين السجدتين، وفيها مع الفصل راحة للمصلي لاستقباله الركعتين الآخرتين بنشاط وقوة، بخلاف ما إذا والىٰ بين الركعات، ولهذا كان الأفضل في النفل مثنىٰ مثنىٰ، وإن تطوع بأربع جلس في وسطهن.

❁ ❁ ❁

فصل في الصلاة على النبي وآله

وجعلت كلمات التحيات في آخر الصلاة بمنزلة خطبة الحاجة أمامها، فإن المصلي إذا فرغ من صلاته جلس جلسة الراغب الراهب يستعطي من ربه ما لا غنىٰ به عنه، فشرع له أمام استعطائه كلمات التحيات مقدمة بين يدي سؤاله، ثم يتبعها بالصلاة علىٰ مَن نالت أمته هذه النعمة علىٰ يده وسعادته، فكأن المصلي توسل إلىٰ الله سبحانه بعبودتيه، ثم بالثناء عليه والشهادة له بالوحدانية ولرسوله بالرسالة، ثم الصلاة علىٰ رسوله، ثم قيل له: تخير من الدعاء أحبَّه إليك، فذاك الحق الذي عليك، وهذا الحق الذي لك.

وشرعت الصلاة علىٰ آله مع الصلاة عليه تكميلًا لقرَّة عينه بإكرام آله والصلاة عليهم، وأن يصلي عليه وعلىٰ آله، كما صلىٰ علىٰ أبيه إبراهيم وآله، والأنبياءُ كلهم بعد إبراهيم من آله، ولذلك كان المطلوب لرسول الله صلاة مثل الصلاة علىٰ إبراهيم، وعلىٰ جميع الأنبياء بعده وآله المؤمنين، فلهذا كانت هذه الصلاة أكمل ما يصلي علىٰ رسول الله بها وأفضل.

فإذا أتىٰ بها المصلي أمر أن يستعيذ بالله من مجامع الشر كله، فإن الشر إما عذاب الآخرة وإما سببه، فليس الشر إلا العذاب وأسبابه.

والعذاب نوعان: عذاب في البرزخ، وعذاب في الآخرة، وأسبابه الفتنة، وهي نوعان: كبرىٰ، وصغرىٰ.

فالكبرىٰ: فتنة الدجال وفتنة الممات، والصغرىٰ: فتنة الحياة التي يمكن تداركها بالتوبة، بخلاف فتنة الممات وفتنة الدجال، فإن المفتون فيهما لا يتداركها.

ثم شرع له من الدعاء ما يختاره من مصالح دنياه وآخرته، والدعاء في هذا المحل قبل السلام أفضل من الدعاء بعد السلام وأنفع للداعي، وهكذا كانت عامة أدعية النبي كلها كانت في الصلاة من أولها إلىٰ آخرها، فكان يدعو في الاستفتاح أنواعًا من الدعاء، وفي الركوع، وبعد رفع رأسه منه، وفي السجود، وبين السجدتين، وفي التشهد قبل التسليم. وعلَّم الصدِّيق دعاءً يدعو به في صلاته، وعلَّم الحسنَ بن علي دعاء يدعو به في قنوت الوتر، وكان إذا دعا لقوم أو علىٰ قوم جعله في الصلاة بعد الركوع.

ومِن ذلك أن المصلي قبل سلامه في محل المناجاة والقربة بين يدي ربه، فسؤاله في هذا الحال أقرب إلىٰ الإجابة من سؤاله بعد انصرافه من بين يديه، وقد سئل النبي: أيُّ الدعاء أسمع؟ فقال: «**جوف الليل، وأدبار الصلوات المكتوبة**»(١)، ودُبُر الصلاة جزؤها الأخير كدُبر الحيوان ودبر الحائط، وقد يراد بدبرها ما بعد انقضائها بقرينة تدل عليه، كقوله: «**تسبِّحون اللهَ وتحمَدُونه وتكبِّرونه دُبَرَ كلِّ صلاة ثلاثًا وثلاثين**»(٢)، فهنا دُبُرُها بعد الفراغ منها، وهذا نظير انقضاء الأجل، فإنه يراد به آخر المدة ولما يفرغ، ويراد به فراغها وانتهاؤها.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٩٩) من حديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم (٥٩٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

فصل في ختام الصلاة بالتسليم

ثم خُتِمَتْ بالتسليم وجُعل تحليلًا لها يخرج به المصلي منها، كما يخرج بتحليل الحج منه، وجعل هذا التحليل دعاء الأمام لمن وراءه بالسلامة التي هي أصل الخير وأساسه، فشرع لمن وراءه أن يتحلل بمثل ما تحلل به الإمام، وفي ذلك دعاء له وللمصلين معه بالسلام، ثم شرع ذلك لكل مُصلٍّ وإن كان منفردًا، فلا أحسنَ من هذا التحليل للصلاة، وكما أنه لا أحسنَ مِن كون التكبير تحريمًا لها، فتحريمها تكبير الرب تعالىٰ، والجامع لإثبات كل كمال له، وتنزيه عن كل نقص وعيب، وإفراده وتخصيصه بذلك، وتعظيمه وإجلاله، فالتكبير يتضمن تفاصيل أفعال الصلاة وأقوالها وهيئاتها، فالصلاة من أولها إلىٰ آخرها تفصيل لمضمون (الله أكبر) وأي تحريم أحسن من هذا التحريم المتضمن للإخلاص والتوحيد، وهذا التحليل المتضمن الإحسان إلىٰ إخوانه المؤمنين! فافتتحت بالإخلاص وخُتمت بالإحسان»(١).

❁ ❁ ❁

---

(١) «الصلاة وأحكام تاركها» ت: الجابي (ص: ٢١٨).

الفهرس

الفهرس

المقدمة ٥
هو الأول والآخر والظاهر والباطن ١٠
الحي القيوم ١٦
رب العرش العظيم ٢٢
وسع كل شيء علمًا ٣١
مدبر الأمر رب العالمين ٣٧
ذو الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة ٤٨
سبوح قدوس ٥٥
الرحمن الرحيم ٦١
الخالق البارئ المصور ٧٤
المليك المقتدر ٩١
الواحد القهار ١٠١
العزيز الحكيم ١٠٤
الرزاق ذو القوة المتين ١١٣
نِعم المولىٰ ونعم النصير ١٢١
نعم الوكيل ١٢٩
لا حول ولا قوة إلا بالله ١٤٠
ذو الجلال والإكرام ١٤٧
الأحد الصمد ١٥٤

الحميد المجيد.. ١٦٤
الغفور الرحيم.. ١٧٥
التواب الرحيم.. ١٩٦
الملك القدوس.. ٢٠٤
العلي الكبير ٢٠٩
الفتاح العليم.. ٢١٤
البر الرحيم ٢٢٠
اللطيف الخبير.. ٢٢٣
الحليم الغفور ٢٣٠
شكور حليم ٢٣٥
الغني الحميد.. ٢٣٨
الولي الحميد.. ٢٤٧
الرءوف الرحيم.. ٢٥٥
الخبير البصير.. ٢٥٨
العفو الغفور.. ٢٦٣
السلام المؤمن المهيمن ٢٧٠
رب العزة.. ٢٧٧
الرحيم الودود.. ٢٨١
القابض الباسط.. ٢٨٩
السميع العليم.. ٢٩٦

العليم الحكيم ٣٠٢
المبدئ المعيد ٣١٩
الكبير المتعال ٣٢٦
الحكيم الحميد ٣٢٨
الغني الكريم ٣٣١
خير الرازقين ٣٣٥
العزيز الغفار ٣٣٧
رفيع الدرجات ذو العرش ٣٣٩
ذو المعارج ٣٤٣
ذو الطول ٣٤٩
الخافض الرافع ٣٥٥
ذو الفضل العظيم ٣٦٠
الأعز الأكرم ٣٦٦
المعطي المانع ٣٧٠
المعز المذل ٣٧٢
المحيي المميت ٣٧٥
نور السموات والأرض ٣٨٠
الخلاق العليم ٣٨٨
عزيز ذو انتقام ٣٩١
خيرٌ حافظًا ٣٩٤

سريع الحساب ٣٩٩
القريب المجيب.. ٤٠١
العزيز العليم.. ٤٠٧
شديد العقاب.. ٤٠٨
أهل التقوىٰ وأهل المغفرة............................... ٤٢٦
عالم الغيب والشهادة................................... ٤٢٨
العفو القدير... ٤٣١
فصل ٤٣٧
فصل في الرفع من الركوع............................... ٤٤٤
فصل في السجود....................................... ٤٤٦
فصل في الصلاة علىٰ النبي وآله ٤٥٣
فصل في ختام الصلاة بالتسليم ٤٥٥
الفهرس ٤٥٧